إنجي أرال

لوْن الزعفَران

ترجمة:
د. محمد درويش



دار الآداب

أنجي أرآل

لون الزعفران

ترجمة د. محمّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

لون الزعفران

لون الزعفران

أنجي أرآل / كاتبة تركيّة

الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-472-0

Subvention Project For The Publication of
Turkish Cultural, Artistic And Literary Works. TEDA

تمّت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض
الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

توطئة

أوضحتُ في كتاب أزمنة كاذبة جديدة، الصادر عام ١٩٩٤، عن اهتمامي الأدبي ورؤيتي بخصوص مغامرة شعبنا وحيرته وتفكّكه بسبب ضياع القيم؛ وقد طوّرت هذا الاهتمام وهذه الرؤية في كتاب البنفسج الصادر عام ٢٠٠٣، ليصبح كتاب أصفر زعفراني الرواية الثالثة المكمّلة للروايتين الأوليين وجزءًا من الثلاثيّة. وعندما بادرت بتأليف رواية أصفر زعفراني، أدركت، بوصفي كاتبة تهدف إلى أن تكون شاهدة على عصرها، أنّ الانطباعات والمشاعر ذات الصلة بالماضي، تشكّل عندي وحدة جوهريّة من عديد الأوجه. لهذا السبب، وضعت عنوانًا جديدًا للكتاب الأوّل، وهو الأخضر؛ ووضعت عنوانًا للثلاثيّة هو أزمنة كاذبة جديدة.

انجي أرآل

ملاحظة: الشخصيّات والأحداث في هذه الرواية متخيّلة ولا صلة لها بأيّ شخصيّات أو أحداث في الحياة الحقيقيّة.

«كان البخار يتعالى أحيانًا بعد خروجه من الفم مباشرة، كثيفًا وثقيلاً، فيصنع مشهدًا جديدًا، مشهد الدخان والروائح المتراكمة من فوق السطوح في العواصم، مشهد الدخان المعتم الذي لا يتبدّد، الهواء السامّ المخيّم على الشوارع الإسفلتيّة. وكانت البقايا المتفحّمة لأجساد محترقة وليس ضباب الذاكرة أو شفافيّتها الذابلة هي التي تغطّي المدينة مثل جرب، إسفنجة مشبعة بمادّة حيويّة لم تعد فيّاضة، اختلاط الماضي بالحاضر والمستقبل الذي جعل الوجود متجمّدًا، تصلّب في وهم الحركة».

إيتالو كالفينو

مقدّمة المترجم

يذكر الأديب والفنّان الإنكليزي فرانك بادجن (١٨٨٢ ـ ١٩٧١)، وهو صديق الأديب والروائي الإيرلندي جيمس جويس (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) منذ سنوات منفاه في زيوريخ وحتى أواخر عمره، أنّه كان يتنزّه ذات مرّة رفقة جويس في شوارع مدينة تريستا الإيطاليّة، وعندما وصلا أروقة جامعتها المطلّة على المدينة، التفت إليه جويس وقال: «إنّني أريد أن أصوّر دبلن تصويرًا دقيقًا، غاية في الكمال، حتى إذا ما زالت المدينة على حين بغتة من على سطح الأرض، فإنّ في الإمكان إعادة بنائها استنادًا إلى كتابي». وكان جويس يقصد بكتابه رواية يولسيس(*).

هذا إذًا كان هو السبب الأوّل والأخير، كما يتّضح من كلام

(*) انظر تفاصيل هذه القصّة في مقالة الناقد الأدبي جي. دبليو. ستونير بعنوان لوياثان Leviathan في مجلّة نيو ستيتسمان آند نيشن، العدد ٢٩٤، في ١٠ تشرين الأوّل ١٩٣٦ (المترجم).

جويس، لكتابته رواية القرن العشرين على حدّ إجماع نقّاد الأدب، فما السبب الذي يدفع غيره من الأدباء إلى الكتابة والتأليف في شتّى حقول الأدب والمعرفة؟ ثم ما السبب الذي أدّى بالروائيّة التركيّة أنجي أرآل إلى تأليف رواية لون الزعفران؟ وهل هو سبب واحد أم أكثر من سبب دفعها إلى تأليف هذه الرواية المتميّزة التي تؤكّد بها مكانتها وسط غيرها من أدباء العالم؟

تقول أنجي أرآل إنّ ولدها آثار اهتمامها قبل بضع سنوات عندما سألها مستوضحًا: إنّك تكتبين عن جيلك، فلماذا لا تروين قصّتنا مرّة واحدة؟

هذا التساؤل الذي قد يبدو بسيطًا أوّل وهلة عزّز من رؤية الكاتبة لما يدور في عالم اليوم من أحداث على الصعد كافّة: سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة وغيرها. وقد أجابت الكاتبة عن تساؤل ولدها بتأليف رواية لون الزعفران، التي دفعتها كما تقول إلى القراءة على نحو متواصل في موضوعات ذات صلة بالاقتصاد والعولمة وشركات الاستثمار في رأس المال، وأنّها كلّمت أولادها وعديد الشبّان الذين شقّوا طريقهم في الحياة والذين فشلوا في اللحاق بأصدقائهم وزملائهم وبناء مستقبلهم، وتؤكّد أنّها استمعت إلى متاعب هؤلاء الناس، وتنبّهت إلى ما يدور في أذهانهم من قلق بشأن الحبّ والعمل والأسرة والحياة اليوميّة والخوف من مستقبلهم المجهول، كما أنّها، على حدّ قولها، طالعت الصحف والمجلّات وشاهدت برامج التلفاز وتابعت أخباره وبخاصّة تلك التي تعكس شريحة محدّدة من أبناء المجتمع المعاصر.

لهذا كلّه، جاءت هذه الرواية، كما سابق رواياتها، وأعمالها القصصيّة القصيرة، غير تقليديّة في منحاها الأدبي وفي أسلوبها

السردي. وإذا كان من الإنصاف القول إنّها روائيّة تكتب وفق المنهج الحداثوي، فإنّها تكشف في بعض الأحيان عن خصائص أدب ما بعد الحداثة في كتاباتها، بل إنّ بعض نقّاد الأدب يرى أنّ قسمًا من رواياتها يمثّل أفضل نماذج أدب ما بعد الحداثة، في أسلوبها الذي تعالج فيه مختلف الظروف الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والأدبيّة. كما لا يمكن فصل شخصيّاتها عن العلاقات التي تربط إحداها بالأخرى. رجالها ونساؤها في قلب الحدث الروائي. وما المظهر الأساس للعلاقة سوى الافتقار إلى العلاقة نفسها وإلى التواصل.

وفي هذه الرواية، كما في رواياتها الأخرى، تركّز المؤلّفة على العواطف الفرديّة التي تتشكّل بفعل الظواهر الثقافيّة والاجتماعيّة والتفكّك الاجتماعي والمشكلات بين الجنسين وانعدام التواصل والطبيعة المستحيلة التي طبع عليها الحبّ، وغيرها من الموضوعات ذات الصلة بالوجود. كما تسلّط الروائيّة، في هذه الرواية، الضوء على الطبقات العليا بإحساس واقعي: عالم الثروة والجيل الذي يكافح ما هو مغلّف بالزيف. وفي هذا الصدد، تشير الروائيّة إلى أنّها أرادت أن تصف بلون الزعفران الأصفر حقبة زمانيّة «فقدنا فيها هدفنا وحلّت السطحيّة والأنانيّة محلّه». وتضيف إنّنا حاولنا إبعاد أولادنا عن كلّ ما هو سياسي، نظرًا للنفاق السائد في مجتمعنا، أن نجنّبهم التدخّل في هذا الشأن أو ذاك، وأن نبعدهم عن المطالبة بحقوقهم أو المعارضة، وجعلناهم مدمنين على النجاح.. وإذا بالعولمة تحاصرنا.

ويأتي اهتمام الكاتبة بالرواية، لأنّها تؤمن بأنّ الرواية تمثّل فنّ اكتشاف الحياة الإنسانيّة، بل هي تعكس الطبيعة البشريّة وروح

الجماعات وروح الحياة نفسها. وأشارت، في كلمة لها في مؤتمر أدباء العالم المنعقد في أدنبرة، إلى أنّ الروائيين العظام لم يخلقوا أعمالاً ذات صلة ببلدانهم بل أعمالاً ذات أهمّيّة كونيّة، وذلك بتجاوزهم لغة التاريخ أحاديّة الجانب وتوظيفهم إحساسهم العالي بالمبدأ لكتابة خطابات ملحميّة عن حقب تاريخيّة مضطربة من تاريخ العالم. وتؤكّد المؤلّفة أنّ ثمّة خوفًا متواصلاً في عالم الأدب على مستقبل الرواية التي ترى مولدها بولادة رواية دون كيخوته. وإذا كان القلق على مستقبل الرواية قد بدأ في نهاية عهد جين أوستن وفلوبير وستندال، وكان ثمّة من يؤمن بتشييعها، فإنّ الرواية بوصفها فنًّا لم تمت، بل هي ليست أصلاً في حال احتضار الآن، بل على العكس، ما تزال على قيد الحياة وفي حالة جيّدة وتزداد أعدادها صدورًا.

وترى أنجي أرآل أنّ أيّ روائي يحبّ الكتب لا يتصوّر موت الرواية.. وهو تصوّر أصعبُ ممّا لو تَصَوَّر موت نفسه شخصيًّا. لكن ثمّة حديثًا لا ينقطع يدور عن مستقبل الرواية أكثر ممّا يدور عن الرواية نفسها. الواضح أنّ الرواية اليوم تتمتّع بحرّيّة أوسع من السابق. فهي تواصل البحث عن التجديد في كلّ شيء: الشكل والمضمون، السرد والمحتوى.. وأنّ المهمّة الصعبة لها تكمن في إيجاد مجالات جديدة للبقاء في وسط إلكتروني وعلى شاشة الحاسوب، إضافة إلى شكلها المكتوب.

الشيء الذي يؤكّد إيمان الكاتبة بدور الرواية وديمومتها هو أنّ تركيا، على سبيل المثال، تطبع خمسمائة رواية سنويًّا، معظمها روايات تصدر أوّل مرّة. وفي العام ٢٠١٢ ازداد العدد إلى ٧٨٠ رواية. كما أنّ المكتبات في تركيا تحتشد بالكتب الجميلة والقرّاء

الشباب المتطلّعين إلى القراءة. وعلى شبكة الإنترنت عدد هائل من الكتب العظيمة والمجلّات الأدبيّة والمواقع الأدبيّة، لذا فإنّ الاهتمام بالرواية ما يزال قائمًا.

بيد أنّ المشكلة التي تهدّد مستقبل الرواية، كما ترى المؤلّفة، هي أنّ ظروف النشر تشجّع في مختلف دول العالم النمطيّة في الإنتاج الروائي. فالناشرون يشجّعون الروائيين الشباب على تأليف نمط معيّن ورخيص من الروايات التافهة لتحقيق الأرباح السريعة، وهذه الكتب تُباع بملايين النسخ مثل الوجبات السريعة، في حين تظلّ الروايات الجادّة على رفوف المكتبات ليتجمّع عليها الغبار.

وُلدت الكاتبة في مدينة دنزلي الواقعة في جنوب غربي تركيا سنة ١٩٤٤، وتخرّجت من معهد المعلّمات والتحقت بمعهد غازي التقني لدراسة الرسم. لم تبدأ الكتابة الأدبيّة إلّا في العام ١٩٧٦ ولكنّها لم تنشرها إلّا في سنة ١٩٧٩، وانتقلت بعدها لكتابة الرواية التي رسّخت مكانتها فيها، وراحت كتبها تُطبع في بلغاريا وفرنسا ومقدونيا وألمانيا واليونان وهولّندا والولايات المتّحدة.

يذكر أنّ للكاتبة تسع روايات وعددًا من القصص القصيرة إضافة إلى مجلّدين من المقالات الأدبيّة. كما حازت بعض أعمالها الروائيّة على جوائز أدبيّة مهمّة، ومنها جائزة أورهان كمال للرواية سنة ٢٠٠٣. أمّا آخر رواياتها فهي بعنوان: «عندما غنّيت أغنيتك الأخيرة»، ٢٠١١؛ في حين صدرت رواية «لون الزعفران» في العام ٢٠٠٧.

د. محمّد درويش

بغداد ٢٠١٤

الخــريـف

١

كان قد قفل راجعًا من مدينة لندن في ذلك المساء. وفي ساعة متأخّرة من الليل، فتح حقيبة ثيابه التي عاد بها إلى المنزل معتقدًا أنّها حقيبته، فاكتشف أنّ صاحبها شخص آخر. وعلى الرّغم من أنّه قلّب محتوياتها بهوس محموم، إلّا أنّه لم يتمكّن من العثور على أيّ علامة أو دليل يشير إلى هويّة صاحبها.

اتّضح من محتويات الحقيبة أنّها ملك فتاة شابّة، وكانت الثياب البسيطة غير المزركشة العالية الجودة تتناقض تناقضًا صارخًا وجذّابًا مع الملابس الداخليّة المغرية: بنطال قطني بلون بنّي غامق وبمقاس ٣٨، وقميصان اثنان أحدهما أبيض والثاني ورديّ، طقم مؤلّف من صديريّة نهدين ولباس داخلي مثير باللون الزنبقي، وطقمان آخران متشابهان أحدهما أسود والآخر أبيض، ومجموعة من الجوارب الطويلة فضلاً عن وشاح حريري باللّونين الرمادي والورديّ، وحزام وتنّورة سوداء صغيرة، وحذاء أسود ممتاز بكعب واطئ ـ مقياس

٣٨، محفوظ في حقيبة أحذية بلاستيكيّة مقلّمة. وكان طول البنطال يشير إلى أنّ صاحبة الحقيبة تبلغ ١٧٠ سم، وكانت مستحضرات التجميل داخل علبة صغيرة من النوع الغالي الثمن والعالي الجودة. أمّا المجوهرات الفضّيّة المحفوظة في علبة مخمليّة، فكانت جميلة. وكان ثمّة خاتمان ذهبيّان سميكان متقنا الصنع، أحدهما يحتوي على ياقوتة والآخر على زمرّدة.

عندما رتّب قطع المجوهرات فوق سريره، تنبّه إلى رنين قطع أخرى داخل العلبة. وعندما أفرغ المحتويات على غطاء السرير وجد أنّها مجموعة من قطع النقد القديمة: ستّ عشرة قطعة فضّيّة.

هل ثمّة ما يثير الدهشة؟ لم يكن فولكان متأكّدًا، ولكن في وسعه أن يخمّن بأنّ الخاتمين وقطع النقود ثمينة! وليس في إمكان المرء مشاهدة مثل هذه الأشياء إلّا في المتاحف ومن بين الصناعات اليدويّة القديمة. المؤكّد أنّ حقيبة ملابس غير مناسبة تمامًا لوضع هذه الأشياء فيها والتنقّل بها في كلّ مكان.

ومع هذا، فمن الجائز أن تكون مزيّفة. ولكن إذا كانت لها أيّ قيمة تاريخيّة، فإنّها، وعلى الأخصّ النقود، تشير إلى رحلة بحريّة معاكسة للطريق المألوف. ربّما كانت قد نُقلت إلى خارج البلاد بهدف بيعها، ولكنّها أُعيدت لسبب من الأسباب. ومن الجائز أن تكون قد أُخرجت منها كمّيّات أكبر ولم يعد منها إلّا هذا النزر اليسير. لكن بصرف النظر عن السبب، فإنّ الاحتفاظ بها في حقيبة سفر ينطوي على مغامرة وجرأة. من جهة أخرى، فإنّ حقيبة الثياب أقلّ إثارة للشبهات فضلاً عن أنّها ملائمة أكثر من حقيبة اليد. على أيّ حال، ليس لفولكان خبرة في مثل هذه الأمور.

فكّر في هذه المرأة الشاردة الذهن التي لم تستطع متابعة كنزها الدفين. كيف هي؟

كان دومًا يضع بطاقة هويّة، وفيها شعار الشركة في الثنية الخارجيّة من حقيبته تلافيًا لحدوث مثل هذا الخلل. وفكّر أنّ الأفضل الانتظار بضعة أيّام حتى تتّصل به المرأة قبل أن يتّصل بشركة الخطوط الجوّيّة والإعلان عن فقدانه حاجياته. كان محتارًا لا يقوى على اتّخاذ قرار. فالحقيبة يمكن أن تكون مصدر خطر، وهو غير مضطرّ إلى البحث عن المتاعب ووضع نفسه في مأزق.

شعر كأنّه يقف منتظرًا على أعتاب قصّة من قصص التحرّي يوشك أن يؤلّفها. كان وحيدًا في غرفته في الدائرة. وكان عصر ذلك اليوم هادئًا بخلاف الفوضى المألوفة. وكانت الغرفة المؤثّثة تأثيثًا ينمّ عن حسن ذوق وتشبه غرفة جلوس مترامية الأطراف، في الطبقة الخامسة وفي مأمن من العالم الخارجي. وإذا ما وقف إلى جوار النافذة، فإنّ في مستطاعه مشاهدة الحافلات والناس ومواقف الحافلات وتقاطع الطرقات وإشارات المرور بعيدًا إلى أسفل، فتصيبه بالصداع. ثمّة أوقات شعر فيها بالهلع فأراد الهبوط إلى الشارع بأسرع ما يستطيع كي يختلط بالناس. غير أنّ الإحساس الذي راوده في غرفته هذه، إنّما هو إحساس بالتميّز والسلطة، سلطة فعليّة من فوق جيوش الناس الشبيهين بالنمل في الأسفل! تهالك من فوق مقعده وحدّق إلى الشاشة أمامه حيث تظهر مواقع نشاط الشركة القابضة.. صفقات ماليّة، استشارات لسوق الأسهم والسندات وأموال الشركة متعدّدة الجنسيّات وبيع وشراء وإدارة الأصول الماليّة والعقارات على أوسع نطاق. توسّط في تسويق العقارات الحكوميّة

والخاصّة المراد خصخصتها. أرباح طائلة دومًا ومؤكّدًا. حقائق بشعة ومواقف دنيئة...

ثمّة عمليّة بيع كبرى ينبغي الانتهاء منها في الغد، ولا بدّ من مراجعة التفاصيل مرّة أخرى. ويتعيّن إقناع عدد من السادة بعينهم وتنتهي العمليّة من بعد ذلك، ويناقش موضوع الجهة التي يمكن دفع الرشا لها ومقدار هذه الرشا.. وعندئذٍ توقّع العقود معًا. هذه هي وظيفة فولكان. فهو يؤدّي العمل نفسه بالإنابة عن غيره، موسّعًا بذلك من نطاق عمل الشركة أثناء السنوات الخمس المنصرمة. ولم يفكّر قطّ بما كان يفعله، فهو منصرف التفكير في العمل الذي يتعيّن عليه إنجازه، فاكتسب بذلك جرأة وشجاعة!

عندما كان حديث العهد بالشركة، فإنّه كان يرى في نفسه بارعًا في الرياضيّات بعد كلّ صفقة ناجحة، إذْ كان متفوّقًا في المفاوضات الخاصّة بالتقارير والبيانات، فيبتكر فوائد لم يسبق للشركة أن عرفتها ويجد حلولاً لتقارير اللجان. غير أنّ نجاحه الأعظم إنّما كان يكمن في تعامله الدمث والمقنع مع الناس. وكان أهمّ شيء يحقّق النجاح السريع في هذه الأعمال هو أن يبدو المرء متعاطفًا ومدعاة للثقة، فضلاً على امتلاكه التجربة والذكاء الحادّ. وعلى الرّغم من انعدام الثقة بين موظّفي الشركة، إلّا أنّ الشعور كان يساورهم في ضرورة العمل على وقف هذه السياقات، وبات من نافلة القول أن يكون المرء متعاطفًا وذا خبرة..

آمن فولكان بأنّه وُلد موهوبًا، ولم تكن لديه أيّ مشكلة في الإصغاء للناس ببالغ الاهتمام والكياسة، محتفظًا برباطة جأشه وعدم نفاد صبره. ثمّة مضخّة هوائيّة ترسل أزيزها في مكان قريب، متوقّفة

تارة ومبتدئة تارة أخرى. نهض من مكانه وسار نحو النافذة ورنا إلى أسفل.. الطقس متقلّب، والمطر خفيف: إنّه مطر الخريف. وفي الجانب الآخر من الشارع، التمعت من تحت المطر قمم الأشجار في الحديقة. رمق حديقة المبنى الأماميّة بنظره وهي المزدانة بالشجيرات والصخور الطبيعيّة الشبيهة بالتماثيل، فأصيب بالدوار. حاول ألّا يشغل ذهنه بشيء سوى المطر والشجر والرياح، غير أنّ أزيز المضخّة الهوائيّة استمرّ. إنّهم يحفرون الشارع من جديد. كان قد نام نومًا قلقًا في الليلة الفائتة، وما كان ليقدر على النوم مدّة أطول إلّا بمساعدة الحبوب المنوّمة أو المشروبات الكحوليّة. وكان أحيانًا، وهو في غمرة الاستسلام للنوم، يثب من مكانه وقد انتابه شعور بأنّه قد تعثّر في سيره وكاد أن يسقط في هوّة سحيقة، أو أنّه مقدّر له ألّا يذوق طعم النوم ثانية. وكانت تستحوذ على ذهنه كلمة أو موضوع أو حادثة سبق له أن صادفها أثناء النهار فتبدو له شبحًا مهمًّا من أشباح منتصف الليل، فتستبدّ به. كانت كلّ التفاصيل والتفاهات تبدو عظيمة الأهمّيّة: الغضب والكراهية والعواطف تزداد حدّتها كلّها.

كان الشيء نفسه قد عاود الحدوث من جديد، فبدا وكأنّه يريد انتهاز فرصة البقاء يقظًا، فأمضى الليل بطوله مفكّرًا في نمط المرأة صاحبة السروال الداخلي المثير وذلك العطر الذي عبق الثياب في الحقيبة. ولمّا عجز عن النوم، فقد غشي ذهنه تقلّبه في السرير في الغرفة المظلمة وخدّر أحاسيسه تمامًا.

كانت الأحلام قد إمتنعت عن مراودته منذ زمن بعيد. وكان أثناء نعاسه تتراءى له مفاوضات شاقّة وعبارات فخمة رنّانة وأطياف

ولوحات سوق تبادل الأسهم والسندات معقّدة ومفلسة، وغرف فنادق من دون حمّامات، ويجد نفسه حافي القدمين أو عاريًا في خضمّ شوارع مكتظّة بالبشر وشظايا ملوّثة تغور في جلده... ثمّة جهد وعجالة وقلق على الدوام... وفي يوم من الأيّام راوده حلم مفاده أنّ عضوه التناسلي اهتاج هيجانًا شديدًا، كأنّه شُحن بطاقة كهربائيّة، في وقت كان يوشك على ممارسة الجنس مع امرأة لم يكن يعرفها، وأنّه أطلق شررًا وصنع دارات كهربائيّة قصيرة. أمر متوقّع. فهو لم يعاشر امرأة منذ وقت طويل.

رنّ الهاتف. ثمّة امرأة تتّصل به بخصوص «حقيبة الملابس المستبدلة». حسنًا، تظاهر باستغفالها!

ـ فولكان بك؟ إنّني ملكة إيدا، ولديَّ حقيبة ثيابك. أرجو أن تكون حقيبة ثيابي في حوزتك.

ـ لديّ حقيبة ثياب حقًّا، ولكنّها لا تحمل ما يشير إلى هويّة صاحبها، ولهذا كنت أنتظر اتّصالك الهاتفي.

ـ هل أذكر لك الحاجيات الموجودة في داخلها كي تتأكّد من هويّتي؟

ضحكة مغناج.

ـ هل تظنّين أنّ ثمّة قطعة ثالثة؟ ألن يكون ذلك سببًا في زيادة الارتباك؟

ـ أنت على حقّ. هذا أكثر ممّا ينبغي، ولكنّني أودّ أن أخبرك بأنّ لديّ بعض المجوهرات في علبة مخمليّة.

ـ صحيح. لقد اضطررت إلى فتحها لمعرفة صاحبها.

ـ كيف تريد أن يتمّ التبادل؟ هل تريدني أن أرسل لك حقيبتك أوّلاً أم تفضّل أن نلتقي؟

كان الصوت يتناهى عبر الهاتف مفعمًا بالحيويّة، مشرقًا، ونابضًا بالحياة ومرتجًّا مثل صدًى، فيه من الإغراء الشيء الكثير. نلتقي؟ نعم، ولِمَ لا؟ كان في وسع السائق أن ينهي القضيّة، ولكن ثمّة دعوة سرّيّة في النبرة المرحة التي كان يتّصف بها ذلك الصوت العذب. حاول أن يتخيّل المرأة ولكنّه لم يستطع!

ـ كما تشائين. صحيح أنّنا إذا التقينا فسوف نحلّ المشكلة مباشرة. ماذا سنفعل؟

ـ أخبرني أنت يا فولكان بك.

ـ أين تقيمين؟

ـ في الأناضول، غير أنّني أجهّز نفسي لزيارة الجانب الأوروبي، وسوف أزورك وأعطيك حقيبة الثياب. العنوان هو كوزموس بلازا، صحيح؟ هل ستكون في مكتبك عصرًا؟

ـ سأكون في انتظارك.

وضع سمّاعة الهاتف في مكانها وشعر بارتعاش شديد. كان صوت المرأة يشبه تيّارًا قويًّا، غمره ودوّمه وقذف به. لم يكن ليليق به أن يدعو امرأة لزيارته، غير أنّ الحديث سلك ذلك المسلك، أو لعلّ المرأة هي التي اتّجهت بالحديث تلك الوجهة. كانت على صواب. فحقيبتها محفوفة بالأسرار وتحتوي على حاجيات لها من القيمة ما يجعلها قلقة بشأنها. كانت تسعى للحصول على كنزها الصغير الذي لم تستطع الحيلولة دون ذكره. لهذا السبب كان صوتها مفعمًا بالإثارة والاسترضاء.

وفكّر: أتمنّى لو أنّها جميلة مثل صوتها، فأنا في حاجة إلى ملاك من الجنّة يهبط بين أحضاني.

كان نابغة في الرياضيّات، ولكن عالم أحلامه كان يحتشد بأشكال وصور متغيّرة. ومثلما كان لإشارة واحدة أو لشكل منفرد ما يكفي لإشعال ذهنه، فإنّ صورة صغيرة كانت كافية له كي ينسج أحلامه حولها. وكلّما شعر أنّه يوشك أن يبدأ بداية جديدة، تراه يشعر بفرح غامر يمتزج بقدر من الهلع. إنّها متعة طفوليّة أو متعة سببها أنّه يوشك أن يبحر في مياه مجهولة. من جهة أخرى، كان يثق بحدسه، والمؤكّد أنّ المرأة التي كلّمته هاتفيًّا كانت جميلة وجذّابة. ممّا لا ريب فيه أنّ ثمّة احتمالاً جائزًا بخيبة أمل، ولكن فرص النجاح والفشل متساوية. فهو يمتلك ما يكفي من المقوّمات المهمّة مثل طول القامة والإحصائيّات المهمّة، بل حتى السروال الداخلي. وهنا انفجر ضاحكًا.

كانت حقيبة المرأة في منزله، فأرسل سائقه إلى حيّ بيبك ليأتي بها. رنا إلى نفسه في المرآة القريبة من الباب ومرّر أصابع يده في شعره. كانت عيناه بلون الكهرمان، واسعتين وغائرتين وناعستين وكأنّه استفاق توًّا من قيلولة! كان مثل هذا المظهر يثير النساء على الدوام. صحيح أنّه يميل قليلاً إلى البدانة، ولكنّه على الأقلّ ليس أصلع الرأس. كان أشعث الشعر، متموّجه، ذا لون بنّي فاتح.

أمسك بسمّاعة الهاتف الذي كان يرنّ، فعرف فيه صوت نيلهان.

* * *

ـ أين أنت؟ اشتقت إليك.

ـ يبدو أنّنا لا نستطيع أن نلتقي. فالحياة تمضي سريعًا. كيف كان فصل الصيف؟

ـ رحلة بحريّة إلى جزر اليونان ثم إلى بودرم... نيويورك في شهر أيلول... في تلك الأثناء، أُغرمت بشخص ما، واكتشفت شيئًا مهمًّا جدًّا عن نفسي. وسوف تعتريك الدهشة، لكنّني أريد أن أطرح عليك الآن سؤالاً عن موضوع مختلف.

كانت نيلهان مديرًا عامًّا لفرع تركي من فروع أحد المصارف الأميركيّة الكبرى. كانت سيّدة ذات سطوة حقيقيّة، رائعة في الأمور المصرفيّة. أمّا بوصفها امرأة، فكانت عمياء، لا تستطيع امتلاك رؤية واضحة ونهائيّة عن الرجال. وعلى الرّغم من أنّها في الخمسين من عمرها تقريبًا، إلّا أنّها غالبًا ما كانت تُغرم في حبّ ينهكها سرعان ما يثير ضجرها. وتحدّثت عن مشكلة ظهرت في صفقة ماليّة بالعملة الأجنبيّة. قال فولكان:

ـ ليس الأمر بذي أهمّيّة، وسوف أكلّم هارون، وإنّني واثق بإمكانيّة تسوية المشكلة.

ـ هل لديك أيّ التزامات مساء يوم غد؟ هل ترغب في القيام بأمر ما؟

ـ سوف أكون في النروج يا نيل، وسوف نتحدّث في الأسبوع القادم.

آه يا نيل! لقد راحتِ أيّامكِ. أيّام معاشة من دون أن يكون لها مسمّى، من دون أن تكون واضحة المعالم. وكان فولكان يتذكّر

بداية علاقته بها كلّما تناهى صوتها إلى مسامعه، ولكنّه لم يشعر بالشوق إلى جسدها إلّا عندما يكون مستوحدًا، حقًّا وعندما لا يشعر بعار اللذّة التي لا تناسب وضعهما الراهن.

كان في سنّ الرابعة والعشرين لما التقى نيلهان، وكان قد غادر إلى الولايات المتّحدة في بعثة دراسيّة والتحق بالجامعة للحصول على شهادة الماجستير من نيويورك، بعد أن كان قد تخرّج من قسم الرياضيّات في جامعة الشرق الأوسط التقنيّة في أنقرة. وكان آنئذٍ قد أقام في القسم الداخلي التابع للجامعة، وشعر أنّ العالم كلّه مرميٌّ تحت قدميه. وتقدّم في السنّ وبلغ رشده من خلالها. وعلى الرّغم من أنّهما شعرا أنّ الحبّ يجمع بينهما، إلّا أنَّ الذي جمع بينهما كان أشبه بالصداقة. استغرقت تلك الصداقة ثلاثة أعوام، ولم تكن مشبوبة العواطف وإنّما كانت حسِّيّة وحالة مرضيّة. ولعلّ عدم نزوع أيّ منهما إلى تملّك الآخر هو الذي جعل علاقتهما مميّزة وخاصّة.

كانت ممارسة الحبّ مع نيلهان حالة جسديّة شفّافة، وكان الوصول إلى اللذّة يمثّل النقطة التي ينتهي عندها حبّ التملّك. وتذكّر أيّام الآحاد التي كانا ينفقانها في غرفة نوم المنزل في هونولولو. وكان الجماع الطائش والمتهوّر الذي يمارسانه يشبه قاربًا يبحر في بحار شاسعة بلا جبال، ملؤه الرغبة الجارفة وكأنّهما يمارسان الحبّ أوّل مرّة، كأنّهما لم يلتقيا من قبل...

مضى زمن طويل على نسيانه تلك الليالي التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي تزيد الأعشاب من عتمتها، إذْ كانا ينفقان الوقت معًا. غرف نوم كانا يرقدان فيها، ويستيقظان ليهمس أحدهما في أذن الآخر، وليقذفا بالكلمات البذيئة في الهواء الرطب. لقد نسي،

ولكن لا بأس، فقد لبثت هذه الذكريات في الأماكن التي جرت فيها. وما من شيء انقضى من دون أن يتحوّل إلى عادة. لقد مرّ زمن طويل ولم يعد بينهما من شيء سوى الإحساس بالإلفة. وفي المدّة الزمنيّة التي انقضت، كان ثمّة عشّاق وعشيقات، ومتاعب أخرى وحياة متغيّرة. لقد تغيّر كلاهما تغيّرًا كبيرًا. وكان التغيّر الذي طرأ على نيلهان استثنائيًّا. فقبل إرسالها إلى اسطنبول لتكون ممثّلة المصرف التركيّة، عمدوا إلى خلقها من جديد من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها في الولايات المتّحدة. وتحوّلت المرأة الممتلئة الجسم قليلاً والواسعة الردفين إلى امرأة غاية في الجمال، بعد أن أُزيلت الشحوم الزائدة وأُعيد تجميل أنفها وذقنها ليبدوَا طبيعيين إلى أبعد الحدود، وذلك بأيدٍ ماهرة وخبيرة وطبقًا لمقاييس مثاليّة. وبات فولكان الآن قادرًا على الاستدلال عليها من خلال عينيها، لا أكثر. كانت ما تزال جذّابة على الرّغم من تقدّمها في السنّ، أنيقة ورائعة، وإن لاح من وراء الإمارات غير الصحيحة الظاهرة على وجهها ما يشير إلى عدم نضوجها العاطفي عندما كانت تتحدّث عن عشّاقها. وكانت الثقة البالغة بنفسها التي وفّرها لها موقعها الممتاز ومكانتها المرمومة قد جعلتاها مترفّعة وهادئة وصعبة الإرضاء. ولكن لم يكن في المستطاع الإنكار بأنّ عملها المهمّ أدّى دورًا كبيرًا في إبقاء الشبّان من الرجال إلى جوارها حتى وإن كان ذلك لمدّة قصيرة.

وبعد وقت قصير من بدء حياتها في اسطنبول، أضحت واحدة من علّيّة القوم، ولم يكن هذا التطوّر خيارًا بل كان نتيجة تركها الأمور تسير على هواها. فشوهدت في حفلات خاصّة وسكنت في منزل على شاطئ البحر في يانيكوي، يسهر على راحتها خدم

وحرّاس، وتتنقّل بسيّارات من طراز كاديلاك، كما طافت أرجاء العالم في بواخر من أفخر الصنّاع وأشهرهم. لكن على الرّغم من هذا كلّه، كانت حياتها فاترة الهمّة ومنعزلة، حيث الوحشة تنتظرها لتهاجمها في غرف ذلك المنزل الكبير المؤثّثة تأثيثًا فخمًا، حتى غدا المنزل سجنًا ربّما كان من صنع يديها.

ذكاء حادّ، وثراء فاحش، ووحدة قاتلة! يا له من عزاء جميل! يا له من يأس مهيب! وعلى حين بغتة، شمّ فولكان رائحة عفونة وانتابه إحساس مماثل بالألم، وأصبح مفعمًا بحنين إلى التطهّر.

بدأ الإحساس بالحنين في شهور الربيع عندما أدرك أنّه بات غريبًا ينظر إلى حياته، وكأنّه ينظر إلى حياة شخص آخر، غريبًا ينظر إلى عمله وإلى محيطه وإلى كلّ شيء يخصّه بمنظار النقد، فاكتشف أنّ كلّ شيء مبعث ضجر وسأم. وبدا له أنّ هذا الحال سوف يستمرّ إلى أن يتمكّن من توضيح سبب وجوده وتوقّعاته من المستقبل. يا لها من عمليّة مرهقة، إذْ كان يدرك مغزى سقوطه في هاوية بعد أن يطرح أسئلة مستحيلة، حتى خيّم الظلام عليه ليزداد حلكة وينفجر على حين غرّة فيغطّي كلّ شيء. ورنا إلى هيئته في المرآة القريبة من الباب، إنّه الملاكم وليم هيرت المرتدي بدلة فضفاضة ذات لون فاتح... الابتسامة الطفوليّة المغرية نفسها، الشعر الأشقر نفسه وإن كان أشدّ خشونة وأكثر غرورًا.

كيف يبدو في نظر الآخرين؟

أهو شخص نسيَ أصله؟ شخص قصّته معقدة ومستقبله غامض؟ أم هو شابّ جذّاب حياته ملؤها القناعة والرضا، ومفعمة بالنجاح الثابت، وإن كانت تشوب صورته ملامح غامضة لهاً وقع كبير؟

القناعة؟ يا له من تعريف فضفاض وافتراض بعيد... النجاح؟ فكرة مجرّدة لا يمكنك أن تكون متأكّدًا منها. على أيّ حال، عندما كان يستيقظ في أوقات الصباح، كان يجد صعوبة أكبر فأكبر في تذكّر شخصيّته. فمن وراء صورة ما يسمّى السعادة، ثمّة سخط حادّ يتأجّج في داخله. إنّه شعور غير مفهوم بالفشل، لم يستطع أن يطرده. وساوره إحساس باكتئاب قذر، ووحدة لا سبيل له للسيطرة عليها، تنمو في أعماقه وتزداد حدّة يومًا إثر يوم.

وفُتح الباب بغتة ودخل هارون. كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان والمشاكستان المستقرّتان في وجهه العريض توحيان بضحكة. مدّ يده لمصافحة فولكان وحيّاه قبل أن يتهالك من فوق أحد الكرسيَّين أمام المكتب. شعر فولكان أنّه عضو في منظمة سرّيّة كبيرة، وهو شعور مألوف ومفيد، حتى وإن كان لا يستطيع إبعاده عن فوضى العالم وجنونه وقذارته.

قال هارون:

- عظيم. لقد أنجزت عملاً رائعًا مرّة أخرى. لقد اتّصل فرانكل وهو في أحسن حال. عمليّة البيع أصبحت مؤكّدة.

كان هارون مؤسّس شركة كوزموس القابضة للاستثمار وعقلها وأكبر الشركاء فيها ومديرها. كان ضخمًا وأقلّ تناسقًا من فولكان، غير أنّه لم يهتمّ لذلك. وكلّما سنحت له الفرصة، كان يردّد أنّه وُلد ضخمًا وأنّه كان كبيرًا منذ شبابه.

- ما أخبار الآخرين. ماذا حدث في لندن؟

- كما قلت لك أثناء اتّصالي بك هاتفيًا. إنّهم عازمون على

التفكير في الموضوع. مناورة هدفها المساومة... الحقّ أنّهم سينفجرون من شدّة فرحهم. فالمادّة رخيصة الثمن وذات قيمة. وهم يدركون إدراكًا جيّدًا أنّهم لولانا لذهبت إلى شخص آخر بسعر يفوق السعر الحالي بثلاثة أضعاف.

ـ ينبغي لنا أن نكون على حذر، إذ لو دسَّ الصحفيّون أو أيّ شخص آخر أنفهم في الموضوع، فقد يحدث ما لا يُحمد عقباه. هؤلاء الناس أذكياء ويفكّرون في الشراكة وإيّانا بسبب الامتيازات على المدى البعيد.

ـ من شأن شريك محلّي أن يضمن لهم الصفقة. وهذا أمر مفيد لنا أيضًا.. فالمخاطرة التي سنقوم بها ليست كبيرة، وفرصتنا في الفوز كبيرة جدًّا. زد على ذلك، فنحن الذين سوف نقرّر التفاصيل الخاصّة بالشراكة فضلاً عن تفاصيل البيع.

ـ إذًا؟ هل ثمّة ما يثير حفيظتك؟

ـ ثمّة فوضى عارمة ستحدث بعد إكمال الصفقة.

ـ لا بأس. سوف ينتهي كلّ شيء. لنفكّر على هذا النحو: نحن رجال أعمال، وعلى الذين يبيعون الوطن أن يفكّروا بالفائدة التي ستتحقّق من ذلك.

رمق فولكان بنظرة موضوعيّة هادئة، وهي نظرة ساخرة لشخص اعتقد أنّ لامبالاته التي لا تشوبها شائبة وذكاءه إنّما يحميانه من كلّ سوء. كانت ابتسامته المتعاطفة رسالة مفادها: لا يمكن لأحد أن يخفّف من سرعتي! وهي رسالة أُرسلت إلى عدد كبير من الناس ممّن يكرهونه وممّن يحبّونه.

كان بعض الديناصورات اليساريّة وما يُسمّى بالوطنيين القدامى، يرون في هارون رجلاً محتالاً، مجرّدًا من المبادئ الخلقيّة، متآمرًا ومصّاص دماء جديرًا بالازدراء نظرًا لفرط حبّه للمال. غير أنّ سوق الأموال الليبرالي، وأولئك الذين يجنون المال من المال كانوا يعرفون قيمة أيّ لفظة يتلفّظ بها.

فالنجاح وكذلك الذكاء الذي أظهره هارون في أوّل أزمة ماليّة واجهها حوّلاه إلى واحد من أهمّ الشخصيّات في قطاع المال، وكان ما يزال يومئذٍ رجلاً شابًّا. وفي السنوات الأخيرة، اكتسبت شركة كوزموس للاستثمارات أهمِّيّة عالميّة وراحت تشدّ الانتباه إليها نظرًا للمفاوضات الناجحة التي حقّقتها خاصّة لعملاء مهمّين في الشرق الأوسط. فالذين أظهروا اهتمامًا أكثر من غيرهم في خدمات الوساطة التي تقدّمها الشركة، كانوا انتهازيّين ولاعبين في مجال المال، لهم تعاملاتهم مع الحكومة ومع المستثمرين الأجانب الذين كانوا ينشدون التوصّل إلى صفقات فيراقبون عمليّات الخصخصة بعيون جشعة. وكانت ذراعا هارون طويلتين، وأساليبه في جمع المعلومات السرِّيّة وإنهاء الصفقات مثمرة مثل نشاطاته على المستويات العليا.

قال وهو ينظر إلى ساعة معصمه:

ـ سوف أذهب إلى اجتماع في سوق تبادل الأسهم والسندات، لأنّ التبادلات الأجنبيّة في مأزق صعب. أمّا بعد الظهر، فلديّ موعد خاصّ ورائع.

وكان هذا يعني: شقّة عزوبيّتي.

كانت النساء أشدّ نقاط الضعف عنده. ولكنّه على الرّغم من ذلك، كان قادرًا أيضًا على وضعهنّ في إصبعه مثل خاتم، ليرميهنّ من بعد ذلك كلّما دعت الضرورة كي يريح فكره. لم يكن ليترك فسحة للهزيمة!

كان قد ورث عن أمّه عينين تتألّقان بفطنة واسعة لا ترحم، وملامح وجه غير مألوفة. لقد أضحت هذه المرأة المكتنزة الجسم والمتورّدة البشرة والزوجة الخجول لرجل ضئيل الجسم يقرض النقود في تعاملات ماليّة غير قانونيّة بالعملة الأجنبيّة في تهتكالي، إلى أمّ وسلطانة تذرع ممرّات الشركة جيئة وذهابًا بكبرياء ليس من بعدها أيّ كبرياء، مرتدية الفراء التي تزيد من ضخامة جسدها. لكن لسوء الحظّ، كانت الملامح الشقراء الجميلة التي تتميّز بها والتي انتقلت إلى ولدها ذات صبغة أنثويّة أكبر ممّا ينبغي. ولعلّ هارون تعلّم بعد أن أصبح رجل أعمال كيف يخفي نعومته ـ التي من شأنها أن تثير سوء فهم الآخرين ـ وذلك بتعمّده إظهار الصراحة القويّة والبرود المثير للهلع.

على الرّغم من ضخامته، كانت حياته ذات إيقاع سريع، لاهثة إلى حدٍّ كبير. وكان فولكان يعدو وإيّاه على مدى خمسة أعوام نحو هدف مجهول. كانت نيلهان قد عرّفته إلى هارون بعد أن استرسلت في مديحه والثناء عليه إثر عودته من الولايات المتّحدة. والمؤكّد أنّه لن يخذل عشيقته السابقة.

في تلك الأيّام، كانت مفاهيم القانون والعدل قد فقدت مصداقيّتها، وحلّت محلّ الألفاظ الجوف كلمات أخرى جديدة أكثر جوفًا، وتلاشت الألوان وغدا كلّ شيء لامرئيًا في خضمّ سحابة

كثيفة من غبار متصاعد. كانت الريح تهبّ من خلف هارون. ولم يكن فولكان مضطرًّا إلى أن يقفز، فقد حلّق الاثنان معًا.

* * *

في اللحظة التي خرج فيها، طرق سمعه هارون وهو يصرخ في وجه شخص ما في الممرّ. كان يتقن إبقاء موظّفيه على مسافة بعيدة منه بأن يرسم على وجهه ملامح امتعاض تثير الاضطراب والارتباك. وعلى الرّغم من أنّ دراسته الجامعيّة لم تكن دراسة مميّزة، إلّا أنّه فُسد بسبب صعوده إلى أماكن عالية في دنيا المال، وبسبب نجاحه الذي حقّقه وهو شابّ. كان يعرف جيّدًا كيف يتصرّف مثل تصرّف الباعة الحقيقيين في الشوارع إذا ما اقتضت الضرورة، ويعرف جيّدًا أيضًا كيف يُخضع الناس عندما ينفجر على نحو غير متوقّع، ويتصرّف تصرّفًا فظًّا ومقيتًا إذا ما شعر أنّهم تجاوزوا حدودهم الوظيفيّة أكثر ممّا ينبغي في علاقاتهم.

كان فولكان يؤيّده في كلّ شيء على الدوام. ولم يُظهر أيّ غضب أو تردّد في مناسبات على الضدّ من شخصيّته ومعتقداته. كما لم يوجّه إليه النقد مباشرة، وتجنّب دومًا إظهار رأيه في هارون.

وبغتة تصلّب وكأنّه شخص أثار فيه الألم الخوفَ والهلع. لماذا؟ هل كان السبب متمثّلاً في أنّه أراد أن يكون ناجحًا مهما كان الثمن؟ وأن يكون مفضّلاً عند الآخرين؟ وأن يملك المال وأن يعتقد حقًّا أنّه محظوظ؟ الساعة الثالثة. كان هذا الوقت لا يعجبه في المكتب إن لم يكن لديه عمل مهمّ مثل موعد ما أو اجتماع ما. لهذا السبب، رشق البريد المتراكم أمامه والذي أحضرته سكرتيرته بنظرة مفادها أنّه ينبغي قضاء الوقت في سرعة أكبر. وهكذا ظلّ يعمل

حتى الساعة الخامسة والنصف وأذنه متنبّهة ومنتظرة النداء الهاتفي المتوقّع من الدور الأرضي. لم يكن لديه أيّ موعد، كما أنّه غير مضطر للإسراع في أيّ شيء، فهو سوف ينصرف عائدًا إلى المنزل، غير أنّه كان متبرِّمًا لسبب من الأسباب. وفجأة تذكّر أنّه لم يكلّم هارون بشأن مشكلة نيلهان التي كانت قضيّة معقّدة وشائكة. على أيّ حال، أرسل إليها رسالة بالبريد الإلكتروني وأخبرها فيها أنّ كلّ شيء سيصبح على ما يرام في اليوم المقبل.

بدأ الظلام يرخي سدوله. وبينما هو يراقب لفائف دخان سيكارته تتصاعد إلى أعلى، تذكّر ساحلاً من سواحل المحيط في منطقة بعيدة جدًّا. وكاد أن يرى السحب المتراكمة على المياه تفقد لونها وتتحوّل إلى لون ذهبي. وتناهى إلى سمعه صوت هدير الموج الذي لم تكبحه أصوات البشر، وشعر بجسد نيلهان العاري وهي من فوق جسده.

* * *

عندما توقّفت ملكة إيدا أمام باب فولكان ورنت إليه مبتسمة، وجدها جذّابة أكثر ممّا تخيّل، وأكثر ممّا كان يأمل. وبينما هو ينهض واقفًا في عجالة، حدّق إلى المرأة الشابّة وهي تدخل وتخطو خطوات واثبة وتعرف كيف تتمايل في سيرها، والابتسامة مشرقة على وجهها. كانت فارعة الطول ورشيقة وفاتنة، ترتدي بنطالاً كابيًّا من الجينز وكنزة بنّيّة اللون وقلادة جميلة مصنوعة من خرز ملوّن. وكانت غير متكلّفة، بل مباشرة وطبيعيّة، تقدّمت منه وصافحته.

قالت المرأة الشابّة:

ـ يستحسن بي ألّا أجلس، فقد تأخّرت كثيرًا، ولا أريد أن أؤخّرك أكثر من ذلك.

ـ آه، كلّا. اجلسي من فضلك!

أشار إليها أن تجلس على أحد الكراسي. وعندما اتّخذ الاثنان مكانيهما فوق كرسيين قرب النافذة، مدّت يدها إلى الزهور المرصوصة من فوق منضدة الشاي الصغيرة، وراحت تمسّد زهور الأقحوان الزاهية. راقته حركتها التي جاءت لتقرّب المسافة بينهما، وكان ذلك أسلوبًا ذكيًّا ومهذّبًا لاستيعاب الوقت.

قالت ملكة في عذوبة:

ـ كم هي جميلة! إنّني أحبّ هذه الزهور.

ثم أشاحت بنظرها بعيدًا عن الزهور ورنت إلى فولكان كأنّها تحاول أن تفهم نمط هذا الرجل، وحدّقت إليه طويلاً حتى اضطرّ إلى أن يشيح ببصره بعد أن تبادلا النظرات مدّة طويلة. وشعر أنّ تلك النظرة كانت تعانقه وتحبّه، فاضطرب لها وارتبك.

قالت ملكة:

ـ ظننتك أكبر سنًّا، وقد تملّكتني الدهشة عندما شاهدتك. فأنت في مقتبل العمر.

كان بريق الصدق والصداقة يشعّ من عينيها، ممّا دفع فولكان إلى أن يفكّر بأنّ أيّ مظهر من مظاهر العواطف سوف يؤثّر فيه تأثيرًا سهلاً. وبينما هو يتلقّى ابتسامة المرأة المغرية، شعر بالارتباك لأنّه لم يحر جوابًا.

ـ أمّا أنتِ فكما توقّعتُ تمامًا.

ـ صحيح؟ لا بدّ أنّك رجل يتمتع ببصيرة ثاقبة.

ـ صوتك رائع، يلهب الخيال.

ـ شكرًا لك. أعتذر عن هذا الذي حدث، وأنا لا أريد أن أعطّلك، فأنت مشغول.

ثم أضافت بنبرة جادّة:

ـ هل حقيبة ثيابي هنا؟

كان شعرها طويلاً ومتموّجًا وبنّيًا غامقًا، نهاياته الحمر تنسدل على كتفيها. أمّا عيناها الواسعتان السوداوان والحالمتان فتعكسان خجلاً وتوجّسًا حاولت أن تخفيهما، في حين أضفى أنفها الإغريقي مسحة ملوكيّة على وجهها.

قال فولكان:

ـ يروقني أن أتأخّر في المكتب إذا ما كنت منشغلاً بأمور خارج نطاق العمل. لا تقلقي بشأن حقيبة ثيابك التي كانت في بيتي وهي الآن هنا.

ثم أشار برأسه إلى ركن من أركان الغرفة. وكانت الحقيبة التي أحضرتها ملكة بجانب المكتب، وبدت الحقيبتان متماثلتين لعينيْ الناظر.

أنفق الإثنان برهة وجيزة يتناقشان نقاشًا حماسيًا عن مسؤوليّة كلّ واحد منهما في ما حدث، ومن هو الشخص الأوّل الذي التقط الحقيبة عن طريق الخطأ.

قالت المرأة الشابّة:

ـ كنت شاردة الذهن تمامًا يوم أمس. وبما أنّني أهاب الطيران، فقد تناولت حبّة، ورحت في سبات تقريبًا. صدّقني. هل غضبت بسببي؟

ـ لا، لا. إنّها غلطتي، فقد كنت مرهقًا، مشوّش الذهن. لا عليكِ، كما أنّ هذا الخطأ أصبح سببًا لتعارفنا. فقد اخترنا الحقيبة ذاتها. أتؤمنين بالمصادفة؟

ـ نعم، أحيانًا. وأنت؟

ـ أنا أيضًا.

كان النظر إليها متعة ولذّة رائعة. إنّها ليست امرأة هيّابة، والمؤكّد أنّها ليست غبيّة أو خرقاء، بل هي صادقة وصريحة، ولا يمكن تجاهلها بأيّ حال من الأحوال.

استرسل فولكان في أفكاره عنها: وجهها بيضوي لا تشوبه شائبة، ثقتها القويّة بنفسها وتصرّفها الطبيعي يمكن الإحساس بهما من خلال ابتسامتها. كانت قد وضعت طبقة خفيفة من أحمر الشفاه الفاتح. فمها غاية في الدقّة والرقّة، واحد من تلك الأفواه التي تحسّ بطعم الماء عند تقبيله! وفي أثناء تفوّهها بالكلمات تفوّهًا ينمّ عن عناية، ذكّره الحماس المنبعث من صوتها بفتاة صغيرة لم تفقد بعد مرحها.

أمّا نظرتها المحدّجة فكانت تشعّ ببريق خصلات شعرها الأحمر المنسدل على جبينها، في حين كانت تحاول أن تبعد عن وجهها خصلة عنيدةً وصغيرةً من تلك الخصلات، وذلك بتعمّدها دفع رأس إلى الوراء بين حين وآخر وإمالة رقبتها الرشيقة.

قال فولكان:

ـ أنت تعرفين من أنا وما هو عملي، ولكنّني لا أعرف شيئًا عنك سوى اسمك!

قالت ملكة:

ـ لديّ متجر في كاديكوي، أبيع فيه وأشتري التذكاريات القديمة وأصمّم المجوهرات.

ثم رمقته بنظرة خاطفة، وأضافت:

ـ إنّني أبيع وأشتري الحاجيّات القديمة وأصمّم المجوهرات استنادًا إلى هذه التذكاريّات العتيقة. هل يثير هذا الموضوع اهتمامك؟

ـ نعم، إلى حدٍّ ما. إنّني لا أستطيع الادّعاء بأنّني أفهم قدرًا كبيرًا عن هذه الأشياء، لكنّني أهوى حقًّا فنّ الرسم.

ـ في وقت ما من حياتي كنت معتادة الرسم، فأنا متخرّجة من أكاديميّة الفنون الجميلة.. ولكن عندما بدأت عملي في المجوهرات، لم يعد في وسعي الاستمرار في الرسم.

وطّد فولكان عزمه على ألّا يتكلّم عن القطع التي عثر عليها في علبتها، لأنّه عرف أنّه ليس من سبب يدفعه إلى إثارة الموضوع ما لم تطرحه هي بنفسها. من جهة أخرى، ينبغي له أن يجد وسيلة ليطمئنها إلى أنّ كنزها في مكانه. وهنا سألها عمّا تحبّ أن تشتري، وقال كأنّه يحاول تهدئتها:

ـ ينبغي لي أن أعترف بأنّني قلّبت حاجياتك في محاولة للعثور على ما يدلّ على شخصيّتك، ثم أعدت كلّ شيء إلى موضعه.

انتظر قليلاً، وأضاف:

ـ صراحةً، لديك بعض المجوهرات الغريبة، وأظنّ أنّ معظمها موغلة في القِدَم. وأنت محظوظة، إذْ لم تقع حقيبتك في أيادٍ أخرى.

ـ كلّ المجوهرات التي شاهدتها غير حقيقيّة، ولكنّك على حقّ في كلّ الأحوال.

قدّمت السكرتيرة الشاي وانصرفت.

خمّن فولكان أنّها كانت تكذب، فابتسم، وكان يعرف جيّدًا كيف يبدو عندما يبتسم: صبر ملحوظ وقدر من الحزن وذكاء جدير بالثقة! الجنس اللطيف يفضّل أن يكون الرجل بسيطًا وذكيًّا وجديرًا بالثقة على الرجل البالغ الوسامة. والتقت أعينهما من جديد، فشعر بشيء ما يسري في جسده كأنّه تيّار خفيف سريع الزوال! مالت ملكة من فوق كوب الشاي.

لا بدّ أنّها في مطلع الثلاثينيّات، وكان ثمّة حكمة خفيّة دنيويّة تنعكس في ظلمة عينيها السوداوين، بينما كانت تظهر بعض التجاعيد الصغيرة على جانبيْ فمها عندما تضحك. كان جسدها كلّه ينبض بأنوثة ناضجة وعذوبة رائعة في الوقت نفسه.

قالت وهي تحدّجه بنظرة جذّابة ومغرية:

ـ أودّ أن أطلعك على بعض القطع المثيرة للاهتمام إذا ما أتيت إلى محترفي.

ـ أنتِ كريمة جدًّا، وسأكون مسرورًا لذلك.

ـ أمّا الآن، فأرجو المعذرة لأنّني مضطرة للذهاب إلى الجانب

الآخر من المدينة، ويستحسن بي الانصراف قبل أن يشتدّ ازدحام السير.

ـ ألديكِ سيّارة؟

ـ نعم، ليس لديّ مشكلة.

نهضت واقفة وسارت نحو حقيبتها.

قال فولكان:

ـ أرجو ألّا يحدث أيّ تشوّش مستقبلاً، وإلّا سوف نضطر إلى اللقاء من جديد.

ـ تسرّني رؤيتك ثانية.. ولكنّني لا أريد إقلاق راحتك.

بادر بالكلام في هذه اللحظة ليكتشف بعد تلفّظه بالكلمات أنّها كانت كلمات غير ملائمة، ولكنّها كانت قد خرجت من فمه. وضحكت ملكة، وقالت:

ـ لا ضرورة للخلط بين حقائبنا لذلك السبب يا فولكان بك.

ـ أنتِ على حقّ، فالصداقات يمكن أن تنشأ عن مثل هذه المناسبات. دعينا نلتقِ متى ما كان ذلك يناسبك.

فكّرت ملكة برهة وجيزة، وقالت:

ـ على وجه التوكيد. ولِمَ لا؟

ثم رشقته بنظرة كأنّها موجّهة إلى طفل مشاكس وضحكت من جديد.

أدرك فولكان أنّه كان جسورًا أكثر ممّا كان يتوقّع من تصرّفه، فشعر بالارتباك والحرج وتورّدت وجنتاه. غير أنّ المرأة التقته في

وقت غير مألوف ممّا دفعه إلى الإحساس بالهلع من التفكير بفقدانها. كان يوشك أن يسقط في شبكة هائلة قوامها الإرهاق والاكتئاب. وكان قبل ذلك قد تحرّر من النظر إلى العاطفة نظرة جادّة أكثر ممّا ينبغي، ولكنّه اشتاق إلى الحماس الذي كان يتملّكه في بواكير شبابه، وإلى تلك الباحة الخلفيّة من ماضٍ يتوارى بين حطام الذاكرة. ثمّة إحساس يلحّ عليه في داخله.

قالت ملكة:

ـ آه، كيف يمكنني أن أكون قد نسيت؟ إنّني سوف أُقيم معرضًا لمقتنياتي من المجوهرات الخاصّة بي بعد عشرة أيّام. وسأكون مسرورة لو أتيت.

ثم أخرجت بطاقة زيارة وبطاقة دعوة من حقيبتها وقدّمتهما له. ثمّة إحساس مترفّع في صوتها، ونبرة كبرياء.

قال فولكان:

ـ سوف أحاول المجيء إذا صادف وجودي في المدينة.

ـ حسنًا، لقد تسبّبت في متاعب كثيرة لك. وداعًا.

ـ بل على العكس، ذلك من دواعي سروري. وإذا كان في وسعي أن أقدّم لك أيّ شيء، فأرجو منك أن تتّصلي بي في أيّ وقت. . .

دوّن رقم هاتفه الخلوي على بطاقة وأعطاها لملكة؛ وشعر أنّه لمس بشرتها الناعمة، وأنّه لاطف خطّ لفحة الشمس الذي كان في وسعه رؤيته من خلال فتحة الرقبة، وأنّه يقبّل التجويف الصغير على تلك الرقبة.

لم تكن عاطفته فجّة، بل كانت أشبه بذكرى وانتعاش نتيجة جرعة كبيرة من المودّة. كان يوشك أن يعبّر لها عن عظيم شكره وامتنانه لها إذْ أخذت حقيبته. قرع الجرس وطلب من الحاجب أن يحمل الحقيبة ويرافق الشابّة إلى سيّارتها.

نظر خلفها وهي تسير إلى نهاية الممرّ. كان جسدها ريّانًا وممتلئًا، وردفاها عاليين ومستديرين على نحو يكفيه لأن يحلم بهما.

لكن هذه الأمور ليست سوى أمور اعتياديّة في رأيه. فقد تعلّم ألّا يثق بعينيه إذا ما تعلّق الأمر بالنساء. وكان الشيء الأعظم الذي أثاره هو الارتباك الذي اعتراه على الرّغم من أنّه صاحب تجربة. فبعد التجارب التي عاشها مع نساء من الطبقة الراقية، وهي تجارب كانت تؤدّي به إلى كلّ شيء باستثناء إظهار نقاط ضعف متبادلة، فإنّ امرأة كهذه... طبيعيّة بكلّ ما في الكلمة من معنًى، تبدو للناظر على النحو الذي بدت فيه حقًّا... إنّما هي مفاجأة.

عاد أدراجه إلى الوراء واتّخذ مجلسه من وراء مكتبه ونظر إلى بطاقة ملكة:

كولبانتيك ـ ملكة إيدا سيزر ـ هاتف... موقع الشبكة العنكبوتيّة... البريد الإلكتروني... العنوان... تاجر موادّ مستعملة.

وفكّر: تاجر موادّ مستعملة. مناسب لي تمامًا، ذلك مناسب لي تمامًا.

* * *

٢

نظرت ملكة قبل خروجها من المنزل إلى المرآة الكبيرة ذات الإطار الذهبي عند مدخل غرفة الجلوس، ووضعت أحمر الشفاه على شفتيها، فبدت جميلة على الرّغم من شحوب وجهها والوجوم الذي لاح وكأنّه أثر من آثار حلمها. وإذا كان شعرها أشعث من دون عناية واهتمام، فإنّ نظرتها المحدّقة كانت رقيقة وليّنة. الحقّ أنّها كانت منذ زمن قد أهملت نفسها بعد أن ارتاحت لمرحلة النضوج، غير أنّ الكتابة المدوّنة على قميصها القطني الأزرق الفاتح الذي يمكن رؤيته من داخل سترتها المخمليّة السوداء تشير إلى: حسبك أن تتخيّل، وهي كتابة متناقضة تقريبًا. رنّ الهاتف بينما كانت تتّجه نحو الباب، فتردّدت في الردّ لحظة من الزمان، ثم عادت والتقطت سمّاعة الهاتف. كان المتحدّث هو شاهان، وكان يتكلّم في انفعال شديد وكأنّه يخبرها بحادث مؤسف:

ـ علينا أن نتحدّث يا إيدا.

ـ إنّني أوشك على الخروج. ماذا حدث؟ ما الأمر؟

ـ ينبغي لي أن أحدّثك بأمر ما. هل لديك فسحة من الوقت لا تزيد عن الخمس دقائق؟

مرّة أخرى، شعرت ملكة بالغضب الممزوج بالشفقة. فعندما التقيا قبل ثلاثة أشهر كانت في مسيس الحاجة إلى نسيان نفسها، إلى شخص تتعلّق به، فرمت بنفسها في أحضان هذا الرجل من دون تفكير عميق. كان شاهان معقّدًا وفي الوقت نفسه اعتياديًّا لم يجد من تحبّه قطّ. في البدء، كانت محاولاته لإخفاء عجزه قد أثارت غضب ملكة، ولكن بعد وقت قصير تحوّل الغضب إلى شفقة. وكان مثيرًا للسأم على نحو يدفعها أحيانًا إلى الإحساس بالضجر عند النظر إلى وجهه. وفي غضون آخر شجار بينهما، خرجت من بيت الرجل المتواضع المهمل وصفقت الباب من ورائها، ولم يكلّم أحدهما الآخر منذ أسبوعين.

ـ اسمعي يا حبيبتي، إنّني حقًّا أريد أن أكون وإيّاكِ. لقد كنت مغفّلاً. إنّني في حالة سيّئة. هل في وسعنا أن نتقابل الليلة.

قالت ملكة:

ـ لا، انتهى كلّ شيء بيننا.

ـ نحن لم نتّخذ مثل هذا القرار، من جهتك...

ـ أرجوك يا شاهان، إنّني في عجالة.

ـ حسنًا.. اسمعي. ينبغي لنا أن نلتقي من جديد، لأنّ لديّ كلامًا لا أستطيع قوله هاتفيًّا.

وفكّرت ملكة في وهن: إنّها الحكاية نفسها دائمًا، والأغنية نفسها دائمًا!

ـ إنّني أستمع إليك، قل لي في سرعة عمّا تريد قوله لي.

ـ لقد عاشرت امرأة؛ امرأة تعرف كيف تحتال عليَّ.

جلست ملكة على أقرب كرسي، وكان فنجان القهوة الذي لم تكمل شربه في الصباح ما يزال على المنضدة الجانبيّة. فأمسكت به ورشفت منه رشفة باردة من دون تفكير.

ـ حسنًا. إنّني سعيدة من أجلك.

ـ أحبّك يا إيدا. إنّني لا أعتقد أنّ علاقتي بهذه المرأة سوف تستمرّ، فهي فتاة ساذجة، تلميذة. أنت تعرفين كيف تسير الأمور.

ران صمت، لحظة جرح. حاولت ملكة أن تتخيّل الفتاة، وفكّرت أنّها لا بدّ أن تكون واحدة من العاهرات الغبيّات الصغيرات.

واحدة من أولئك الفتيات النحيفات، ذات شعر أسود طويل ولها قرطان كبيران معدنيّان يتدلّيان من أذنيها، وترتدي بنطالاً ضيّقًا، يكشف عن بطنها. وفكّرت أنّ الفتاة ليست سوى غبيّة وبلهاء. فازدادت وجومًا لا نهاية له. منذ متى كانت النزاهة مرادفة للوقاحة وللغباء؟ أيّ فكرة مرّت في ذهنها جعلتها تعتقد أنّه إنسان؟

ـ هل تحاول أن تجعلني غيورة؟ إنّني لا أهتمّ أبدًا. لا تقلق بشأني. فهمت؟

ـ أأنتِ واثقة؟ يمكنني أن أنهي علاقتي بها الآن.

ـ ما شأني بهذا كلّه؟ إنّني أتمنّى لك حياة غراميّة بهيجة. فاستمتع بها.

ـ انتظري من فضلك. هذه حادثة. أتوقّع منك أن تفهمي. ربّما كنت أبحث عن مكان أفرغ فيه كلّ طاقتي السلبيّة المدفونة في أعماقي بعد اتّصالنا الهاتفي في الأسبوع الفائت. إنّني لا أعرف حقًّا، بمعنى.. إن كانت علاقتنا ستتطوّر من جديد... وهذا يعتمد عليك...

قالت ملكة من دون أن تنتظره كي يكمل كلامه:

ـ بداية، لا أحب كلمة «علاقة»، فهي كلمة جوفاء، بلا معنى. ثانيًا، لقد ألغيت كلّ الرحلات بسبب حادث. ثالثًا، إنّني لا أحبّك لأنّك...

ثم تفوّهت بكلمة «حمار» بينها وبين نفسها، ووضعت سمّاعة الهاتف في مكانها بقوّة. كانت منزعجة أكثر ممّا هي آسفة. فذلك الرجل يعمل مديرًا في قسم من أقسام إحدى الشركات. وأثار انتباه ملكة أوّل مرّة بوصفه رجلاً حفظ درس الرجولة عن ظهر قلب، ولكنّه أخفق في أوّل اختبار أجرته له، ففي الليلة الأولى التي مارست الحبّ وإيّاه أدركت أنّه لا يفيد إلّا في كونه عشيقًا موقّتًا وسرعان ما فقدت الرغبة في ممارسة الحبّ وإيّاه. كان مهووسًا بكبرياء الذكر والثقة بالنفس، ولكنّه سرعان ما كان يستثار جنسيًّا فيقذف بعد دقيقة واحدة. كان يرى أنّ ملكة لا يروقها الجنس، ولم تنظر إلى الممارسة الجنسيّة بوصفها جزءًا مكمّلاً للحبّ. يضاف إلى ذلك، لم تكن مسترخية طوال الوقت ولم تعرف كيف تستمتع! وهي لم تبذل أيّ محاولة لتغيير آراء الرجل السطحيّة، لهذا لم يكن هناك ما يستحقّ القتال من أجله.

ذهبا في إجازة لمدّة أسبوع واحد في بداية شهر أيلول،

وأدركت أنّه بخيل وغبيٌّ من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، إذْ كان ينزعج عند دفع الحساب، ويحمرّ وجهه وهو يكتشف أنّ المبلغ الذي لا بدّ له من دفعه أكبر ممّا ينبغي، ولم يرغب في مدّ يده إلى جيبه. وفكّرت أنّه لا ضرورة للحساب، فهذه الأمور تصبح أشدّ قباحة عندما تغدو محدّدة. في وسع أيّ امرأة أن ترى كلّ هذه العيوب وتبقى عاشقة للرجل. في وسعها أن تحبّه حبًّا جنونيًّا، لامنطقيًّا، بكلّ ما فيه من قذارة وشخير وأسنان اصطناعيّة وسذاجة، ولكنّها تستطيع أن تحبّه على سجيّته، وحقيقته وجوهره لأنّه هكذا خُلق. يضاف إلى ذلك، لم يكن الجوهر شيئًا يضطرّ الجانب الآخر على القبول به. إنّه شيء يهمّنا.

وعلى حين غرّة، شعرت بوحدة طاغية ويأس لعدم قدرتها على إيجاد الكلمات التي يمكن بها أن توضح ما في نفسها توضيحًا دقيقًا. هذه نهاية اعتياديّة ومناسبة للاقتراب من الناس تنتهي هذه النهاية القصيرة.

كانت قد عاشت حياتها منذ سنّ العاشرة حياة متقلّبة، فيها القليل من السعد والكثير من النحس، وفهمت في وقت لاحق أنّ السقوط يشبه الاختفاء، وأنّه يعني الابتعاد عن أحكام الآخرين الضحلة ونظراتهم المحدقة، وأنّه خلاص وتحرّر. هذه فكرة مهدّئة تبعث السلوى في النفس على الأقلّ!

في أثناء سيرها نحو موقف السيّارات، ندمت لأنّها لم تأخذ معها معطفها المطري. كانت السماء معتمة وبدأت تمطر مطرًا خفيفًا. وبدت أوراق العنب في وسط الحشائش ناضرة، ولم يبدُ عليها أنّها تأثّرت بالعاصفة التي هبّت الليلة الفائتة.

ولدى وصولها التونيزاد، انعطفت نحو بيليربي، ورمشت عيناها بضع مرّات ثم فتحتها على سعتهما واتّجهت إلى الشارع الرئيس. وبسبب غضبها، شعرت أنّ حدّة بصرها قد وهنت. ولحسن الحظّ كانت حركة مرور السيّارات على ما يرام. وفي حين كانت ماسحتا الزجاج الأماميّتان تصدران صوتًا ضعيفًا وهما تتحرّكان من جهة إلى أخرى، كانت أفكارها تنتقل من مكان إلى آخر. في وسع المرء أن يفكّر في أمور متعدّدة في وقت واحد، ولكنّه لا يدرك ذلك عندما يكون منهمكًا في ترتيب تلك الأمور وتنظيمها في كلمات. الحقّ أنّه لم يكن ثمّة شيء متين يربط أيّ رجل بأيّ امرأة.

شهدت في حياتها عديد المغامرات والعلاقات الغراميّة السطحيّة والضحلة، تمامًا مثلما عاشت أيّامًا ملؤها النشوة والرفض والطيش واللامبالاة. . . كانت قد غطّت عينيها بيديها، وفي لحظة من اللحظات أصبحت بين جبال لا سبيل إلى اجتيازها، وباتت قريبة من السقوط من فوق جرف. عاشت تجارب انفصال كبيرة وصعبة ومؤلمة. وبات العالم متحقّقًا أكثر من ذي قبل إلى حدٍّ ما عند كلّ حالة انفصال، وأضحى الألم مفهومًا. كان تمسّكها بوضعها الجريح هو الذي حفظها من الجنون، وجعلها متوازنة إلى حدٍّ ما.

وكان انتحار الرجل الوحيد الذي أحبّته قبل ستّ سنوات نقطة تحوّل في حياتها. فبعد هذه المأساة، راحت تفكّر مليًّا في نفسها وتوصّلت إلى نتيجة مفادها أنّها لا حول لها ولا قوّة في تلك السنوات رفقة نديم، وأنّها كانت تحيا حياة غير صحيحة تمامًا. وما زالت لم تتحرّر من الشكّ الذي راودها في أنّها هي التي جعلت مرض نديم يتدهور نحو الأسوأ. لو كان في وسع نديم أن يمتلك

قدرًا من الأمل في العالم، ولو كان في وسعه أن يفتح الباب قليلاً لكان في مستطاعه أن يمكث وإيّاها، ولكنّه أخفق، فقد حُكم على حبّهما أن يظلّ بعيدًا عن التوازن والقناعة.

غير أنّ هذا الرجل الشابّ احتفظ بحلم حبّ فوضوي، ضائع، وليس حبًّا ينطوي على الانسجام، الانسجام الاضطراري. فقد كان يبتكر لحظات إثارة من مرور سحابة، من نافذة تُركت مفتوحة، من أجنحة طيور السنونو، من مفتاح صدئ. كان يرسم الصحارى على القمر، وكان يبحث عن كوكب جديد حيث يمكنه أن يعيش من دون أن يشارك في أيّ شيء، لأنّه لم يؤمن في مستقبل حبّه لملكة، ولا في نفسه، ولا في العالم.

شعرت ملكة بذلك الألم الخفيف من جديد، بقايا ألم لم يعالجه الزمان. كان نديم على صواب، فقد كان خاسرًا وكان واقعيًّا عندما قال إنّ عدد الخاسرين سوف يتضاعف على نحو لا يصدّق، وتحوّل عدد كبير من الناس إلى أشياء مسطّحة تستخدم يوميًا، وأصبحوا صامتين وضعفاء وجبناء وخارج التداول. وشعرت ملكة أنّها صحيفة بيضاء من الورق مذيّلة بتوقيع هو غير توقيعها. وتذكّرت تلك المرحلة بإحساس يائس من الضياع، إذْ كان نديم بذكائه الحادّ والساخر خصمًا عنيدًا أشعل ذهن ملكة، وكان المشرف الدقيق على حزنها. لعلّ ارتباطهما تحوّل إلى عشق، لأنّهما لم يتمكّنا من التوفيق بينهما إلّا في محطّات معيّنة أو عند ومضات سريعة من الضياء.

* * *

ذهبت أوّل الأمر إلى كاديكوي حيث توجد مؤسّسة سبك

المعادن، فلم تجد شيئًا قد تعطّل إنجازه، وأنّ الرجل أبلى بلاءً حسنًا. ما تزال قطعة أو قطعتان بحاجة إلى السبك، ولكنّه سوف يتمكّن من إنجازهما للمشاركة في المعرض.

في البدء، كانت ملكة تهيّئ النماذج، وكانت نماذج متقنة الصنع لا يمكن للمرء أن يميّزها عن القطع الأصليّة، ولكنّها راحت تشعر بالملل، لأنّ إعداد النماذج كان عملاً مثيرًا للسأم وثابتًا ومفصّلاً أكثر ممّا ينبغي. وكان ضروريًّا أن تجعل الموروث نقطة البداية بوصفه أساسًا قويًّا يمكن تحويله إلى مختلف الأشكال والتفسيرات. وكانت تلك العمليّة هي نقاط تحميل وملء، بل محدّدات تقدح شرارة ذاكرتها؛ غير أنّ عمليّة الخلق نفسها هي التي كانت تجذبها، وهنا بداية الفنّ، بداية عمليّة الخلق الداخليّة والطفوليّة والمثيرة...

كان بعث الحياة في الأشكال الدفينة في رأسها وتحويلها إلى أشياء وجعلها مستقلّة وحيّة، قد تحوّل إلى هوس وهاجس منذ بعض الوقت. فقد رأت عالم الأشياء وعالم الأحياء على أنّهما شكلان متداخلان ومجرّدان ومتمازجان. فكانت الأشكال المجرّدة للحضارات الأناضوليّة التي كانت تمثّل الأساس، ونقوش السجّاد المفعمة بشتّى المضامين، وبساطة العمارة العثمانيّة التي عزّزت من وجودها، معطيات لا يمكن الاستغناء عنها للانتقال من الملموس إلى المجرّد، لكنّ المزج بين الأشكال القديمة والحديثة هو الذي كان يخلق ما هو فاتن وساحر.

* * *

لم تستطع العثور على فسحة كي تركن السيّارة أمام صالون

الحلاقة، فعمدت إلى تركها في أحد الشوارع الفرعيّة وسارت على قدميها. كانت ذاهبة لتصفيف شعرها لا غير، وكانت أظافر يديها في حالة يرثى لها، ولكنّها كانت مضطرّة للانهماك في العمل حتى يحين موعد افتتاح المعرض، وسوف تهتمّ بها في اليوم الأخير.

غادرت صالون الحلاقة في عجالة عندما انتهى تصفيف شعرها، وسوف تذهب أوّلاً للتبضّع وبعدها تتناول الشاي في منزل عمّها الساحلي. صحيح أنّه ليس بالوقت الملائم للاسترخاء وتناول الشاي، ولكنّها سوف تزوّد عمّها ببعض المعلومات عن رحلتها الأخيرة، وأرادت كذلك مشورته بخصوص تنظيم المعرض.

كان نيازي بك خبيرًا مشهورًا في التذكاريات القديمة وكان هو نفسه يتاجر بها، وهو الذي جذبها إلى هذه التجارة وعلّمها دقّة هذا الفنّ، وذهب به الأمر إلى أنّه أرشدها إلى كيفيّة صنع المجوهرات. وفي حين كانت ملكة تعيش المرحلة الأخيرة من تاريخ فشلها الشخصي، عمد هو إلى مساعدتها وإيقافها على قدميها، ومنحها فرصة لنسيان الماضي، فكانت بذلك مدينة له بحياتها.

* * *

فرغت ملكة إيدا من إنجاز تسوّقها من مركز التسوّق في سرعة بعد أن اشترت مقدارًا من الحليب قليل الدسم واللبن والفاكهة. وشعرت بصداع خفيف يستبدّ بها جرّاء قلّة نومها.

كانت قد استيقظت في وقت مبكر من الصباح على أثر إحساسها بالخفقان. كانت الأشجار المزروعة في الحديقة الخاصّة بمجمّع المبنى تصدر حفيفها وسط الريح. وكانت ضربات خفيفة

رتيبة على النافذة تعطي الانطباع بأنّ شخصًا ما خارج المنزل. وعندما نهضت من فراشها لتلقي نظرة، شاهدت غصنًا من أغصان شجرة الزيزفون خارج غرفة نومها قد كُسر ومال إلى النافذة، وراح يضربها ضربًا خفيفًا عند كلّ هبّة ريح. كان القمر بدرًا.. وحوّل بريقه المشعّ إلى لون مخملي حشيشَ الحديقة والليل الذي كانت مصابيح الحديقة تنيره. جذبت الستارة جانبًا كي تسمح لنور القمر بالتسلّل داخل الغرفة، وعادت أدراجها إلى السرير وهي تتذكّر الحلم الذي راودها.

كانت في المتجر. وعوضًا عن بيع التذكاريّات والمجوهرات للناس الذين كانوا يدخلون ويخرجون، فإنّها كانت تحاول أن تبيع الأحلام التي تبنّتها تلك الأشياء. وبقدر ما استطاعت أن تستوعب حقيقة حلمها، فإنّ المجوهرات لم تكن هي الغالية الثمن بل الأحلام السرّيّة التي تمثّلها. أحلام عريضة وأخرى مزعجة، إيجابيّة وسلبيّة... لا ريب أنّ محتواها الذي يتعذّر رؤيته من الخارج زاد من صعوبة اختيارها. وكان يصعب عليها أن تحزر نوع السرّ الذي كانت كلّ قطعة من المجوهرات تحتوي عليه. لهذا السبب كان التسوّق صعبًا واستغرق وقتًا طويلاً. وكان أحيانًا حجرٌ أو لونٌ أو شكلٌ أو تصميم يثير شعورًا غير محتمل، ولكنّه لم يفصح عن نفسه إفصاحًا كاملاً لأنّ الشيء المهمّ هو ألّا تعرف، ألّا تعرف بل تؤمل وحسب...

شتمت سائق سيّارة أجرة كادت أن ترتطم بها بعد أن نفخت في بوقها. وسرعان ما عادت إلى حلمها. وفكّرت أنّها لم تكن متأكّدة إن كانت هي نفسها البائعة أم المشترية، لأنّ الزبائن كانوا يصرّون

على بيعها بعض الموادّ غير المرئيّة أيضًا. حلم طويل، مرهق، وكأنّه مهمّة صعبة، استغرقت وقتًا طويلاً؛ تستند إلى معرفة بلا معرفة بدلاً من أن يكون ملموسًا... ومع اقتراب الحلم من نهايته، غادرت المتجر وامتطت جوادًا غريبًا كان واقفًا في الخارج، غريبًا لأنّه كان جوادًا خشبيًّا وحيًّا في الوقت نفسه. بل كان له اسم أيضًا: عبوديّة! وكان طيّب القلب وطيّب النفس، التعابير المرسومة على وجهه يمتزج فيها الضحك بالبكاء. مال إلى أمام وسمح لملكة أن تمتطيه. ثم طافت في الجوار وكأنّهما في مدينة غريبة، بعيدًا عن المنزل، تبحث عن مكان يؤويها ويؤوي فرسها، تلوذ بنزْل وردهاتٍ تزدحم بالنساء. وكانت كلّها شديدة الضوضاء أو القذارة تصعب الإقامة فيها، أو كانت أماكن بلا زرائب ماشية.

غالبًا ما كانت تراودها مثل هذه الأحلام، ربّما كانت هذه الأحلام رسائل غير مرسلة وتمارين لاواعية في البحث عن الذات، لأنّ ذاكرتها كانت مؤلّفة من رسائل ملغّزة. وكان من مألوف عادتها ألّا تحاول فكّ الشفرة. فهي لم تقدر على أن ترى نفسها مثل من يغير على قبر من القبور. لقد ضاع منها ماضيها البعيد منذ زمن بعيد ومجهول، وآثرت أن تصدّق بأنّ ما تعرفه عن ماضيها ليس أكثر ممّا هو معروف لغريب من الغرباء. ومع هذا، ففي حلمها، كانت ذاكرتها الغائمة تتحرّك ويرجع إليها كلّ شيء سوى تلك الأشياء التي يمكن أن توصف بالعذوبة ـ وبخاصّة الندم والهوان.

سلالم البيت التي تصدر صريرًا في بلدة صغيرة، الأيّام الكئيبة ووجه غريب غاضب ومجنون. سماء لا ترحم تعود أدراجها... تقريبًا... تقريبًا... مرّ وقت طويل على تلك الليالي وتلك الغرف

وتلك الصرخات وتلك المخاوف والأسرّة والأجساد. . حتى ليخال للمرء أنّه غير واثق من وجودها. لم يعد أيّ شيء مؤكّدًا، لا الشعور ولا الرغبة ولا الخطأ ولا القسوة ولا الكراهية ولا الرحمة.

الإحساس بالرأفة أسهل من الإحساس بالكراهية! هذا ما كتبه نديم؛ غير أنّ هذا قرار متسرّع، لأنّ من الصعب تسمية بعض المشاعر المحدّدة، بسبب وجودها دفينة في أعماق التراب، وأنّ أفضل شيء هو تركها حيث هي ونسيان أمرها. ومع هذا، فإنّ عين الأحلام يمكنها أن ترى في الظلمة أيضًا، وأنّ الحقيقة تومض لحظةً قبل أن تتوارى في العتمة الخلفيّة.

وكما حدث في طفولتها، فإنّها رأت نفسها أحيانًا رفقة هياكل عظميّة تصيح وتبكي وتحترق في طائرات تتحطّم فوق جبال، لأنّ النار والخطيئة والحداد كانت كلّها تقضم في أعمق أعماق جسدها. لقد ناءت بحمل تلك الطفولة الرهيبة المفترضة وفي الوقت عينه رفضتها. ولم تلهم تلك الطفولة أفراحها ولا أحزانها. . . لهذا السبب، انقطع خيط استمراريّتها الداخلي وتحوّل كلّ شيء إلى زمن حاضر يثير الضجر.

لعلّ هذا هو أكثر السبل المؤكّدة للبقاء في قيد الحياة: قتل كلّ الأوهام الخاصّة بالماضي والمستقبل.

هبطت إلى بيليربي من أسفل الجسر. كان نيازي بك يقطن رفقة خليله في منزل ساحلي كبير مزوّد بحراسة قوامها بضعة رجال مسلّحين. وكان خليله حيالي رجلاً في الخامسة والثلاثين أو الأربعين، وبقدر ما تعرف، كان قد درس الطبّ، وهو خبير في الآثار التاريخيّة، وهو ذائع الصيت واستشاري في السوق.

غير أنّ اسمه الحقيقي كان حيالي، وكان يجمع أشكالاً قديمة من مسرحيّات الظلّ المعروفة بالقره قوز، وقدّمها بوصفها هواية من هواياته. وكان لديه مشغل في الدور الأرضي من المنزل يستخدمه مكتبًا له. ومنذ اللحظة الأولى، شعرت ملكة بكراهية شديدة تجاهه. الحقّ، أنّه لم يكن خوفًا بل خشية أو رهبة، وكان حيالي ينظر إليها نظرة ملؤها البذاءة وكأنّه يحتقرها لأنّها امرأة، مقلّلاً من شأنها. قد يدور في ذهنك أنّه كان يرغب فيها، ولكنّه وجد رغبته مثيرة للقرف منذ البداية. وقد أقلقت هذه النظرة ملكة ووجودها حتى توصّلت في نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها أنّه كان يحتقر كلّ من يصادفه، حتى نيازي، بحافز دفاعيّ عنيد.

وعلى الرّغم من أنّها لم ترغب في لقاء حيالي، فإنّها لسبب من الأسباب، كان يتملّكها شعور عبثيّ مثير في كلّ مرّة كانت تشاهده. ولعلّ هذا مردّه ذلك الصراع الدائر بينهما. فكانت ملكة تنظر إلى حيالي بالكراهيّة نفسها والعنف نفسه والرفض الدفين نفسه الذي كان ينظر به إليها، وكأنّ كلّ واحد منهما كان يرى وجه الآخر غير المرئي، فينتابه الخوف نفسه، فيريد تدميره!

غير أنّ حيالي كان أفضل من ملكة في إخفاء مشاعره، وكان يمتلك قدرة طبيعيّة وأنثويّة على التصرّف، فيؤدّي دور الخليل الجميل والعذب والحبيب والكريم والمجامل ومحبّ الفنون والذكيّ والبارز والمتوازن أمام نيازي، وكأنّه يبذل كلّ ما في وسعه لتسكين روح الرجل العجوز الوثّابة، الكثيرة المتطلّبات، وإخفاء فارق السنّ بينهما الممتدّ إلى خمس وعشرين سنة فضلاً عن المكانة، وإذابة قوّة إرادته وتدميرها.

قبل وقت قصير، أحضر إلى المنزل ما أسماه قريبته لتعمل سكرتيرة. وكانت هذه الفتاة الرقيقة واسمها أسيل تبدو مثل صبيّ مراهق. فجسدها يخلو تمامًا من أيّ منحنيات، بلا ردفين بارزين، صغيرة النهدين، طويلة الرقبة، صافية الوجه، شامخة، وقصيرة الشعر جدًّا وشقراؤه.

وبسبب جنسها الذي كان يبدو غامضًا إلى حدّ كبير، كانت أحيانًا تثير في نفس ملكة مشاعر غريبة تتراوح بين الشفقة والتوجّس.

كانت نوعًا ما تخشى من أن يُلحق الأذى بنيازي على يد أحد هذين الشخصين. ولم تصدر شكوى عن أيّ واحد منهما. وفي إمكانك أن تخمّن، من دون أن تضطرّ إلى إرغام نفسك على التخيّل، أنّ ثمّة صلة جنسيّة عميقة وتوازنًا ما بين هؤلاء الثلاثة الذين يعيشون معًا. ولم تشاهد ملكة أيّ إشارة صريحة تدلّ على ذلك، ولكنّه تخمين ليس إلّا.. وشعور يراودها. وكان أحد أسباب كرهها حيالي يتمثّل في احتمال أن يفهم الرجل الشابّ ما يدور في ذهنها من أفكار: المضامين الجنسيّة المرهقة وثراء الصور ذات الصلة بهذا الثلاثي. أحيانًا كانت تفكّر تفكيرًا عميقًا في نظرته التي كانت تنطوي على تلميح يكشف عن إدراكه عمدًا أو في ابتسامته الساخرة المغرية.

* * *

انعطفت إلى الزقاق الضيّق الذي يتفرّع عن أحد الطرق الرئيسة واتّجهت إلى المنزل. وأشار إليها أحد الحرّاس إلى مكان تركن فيه السيّارة بعد أن فتح لها البوّابة. ترجّلت من السيّارة تاركة مفتاح التشغيل في مكانه، وعندما رأت سيّارة حيالي ذات الدفع الرباعي

في مكانها، أدركت أنّه لا بدّ أن يكون في المنزل، فارتعدت فرائصها وشعرت بالاشمئزاز.

كانت الحديقة ما تزال نديّة بورود الخريف المبلّلة بالمطر، وكانت أشجار اللبلاب المنتشرة على الجدار الجانبي من المنزل والزهور البنفسجيّة التي كانت تغطّي السقيفة تستمتع بآخر أيّام مجدها. أمّا السماء التي بدت بلون الخزامى وموجات البحر الرماديّة المزرقّة، فقد خلقت شعورًا بوحشة تثير القنوط.

اتّجهت ملكة إيدا إلى الجهة الخلفيّة من المنزل وسط نباح الكلب، فشاهدت شدن خانم منتظرة إيّاها قرب الباب المفتوح، فحيّت إحداهما الأخرى.

ـ إنّه حظّك سيّئ يا إيدا خانم، فالطقس ليس حسنًا. لهذا ينبغي لك شرب الشاي داخل المنزل. عمّك ينتظرك في غرفته في الدور العلوي.

كان الجزء المنفتح على مدخل مستطيل رحيب خاليًا والأبواب مقفلة، وكانت الأرضيّة مغطّاة بألواح خشبيّة بعد أن كانت مفروشة بالبلاط. لقد جرى ترميم المنزل ترميمًا شاملاً تحت إشراف حيالي في العام الماضي. كما رُمِّمت الواجهة الخارجيّة وطُليت بطلاء أخضر زيتوني، إضافة إلى إجراء بعض التغييرات الضروريّة في الداخل. كان الباب المؤدّي إلى غرفة حيالي مغلقًا، وكانت الأصوات الرنّانة تنبعث من داخل الرفوف، بينما كان عبق الجلد والطلاء والشمع ينبعث من داخل الغرفة. كانت ملكة تهوى المحترف، ولهذا السبب أرادت أن تدخل لمشاهدة ما الذي يفعله في الداخل، وأن تتنفّس ذلك الهواء الحارّ لحظة واحدة من الزمان،

بيد أنّها سرعان ما غيّرت من رأيها وكبتت رغبتها.

سارت في اتّجاه السلالم، ورأت الرفوف المتراصّة حول القاعة وقد احتشدت من فوقها أنواع غالية الثمن من الخزف والأطباق والأباريق. كانت الجدران قد طُلِيت باللون البنِّي الفاتح، وثمّة أريكتان من الجلد متقابلتان أمام الباب الزجاجي الذي يفصل غرفة الجلوس عن البهو. ورأت الكراسي المصنوعة من خشب الساج والكراسي القابلة للطيّ التي تستخدم في فصل الصيف ما تزال في موضعها.

سارت نحو الدور العلوي، وشاهدت في أحد الأجنحة المؤدّية إلى القاعة في الطبقة العليا، والمؤدّية بدورها إلى سطح مكشوف، منضدة طعام قديمة تتّسع لثمانية أشخاص. أمّا الجناح الآخر، فكان يحتوي على بيانو كبير أسود اللون. وأضفت الثريّا الكريستاليّة الرائعة المتدلّية من فوق البيانو ومضات ذهبيّة وورديّة على انعكاسات البحر على كلّ من الجدران والسقف، فتسلّطها مرّة أخرى على المرايا والسجّادة الشيرازيّة المفروشة على الأرض.

طرقت ملكة على الباب ودخلت مبتسمة، فنهض نيازي بك من وراء مكتبه بفرح مبالغ فيه وطوّقها بذراعيه، ثم جلسا. أمّا القطّ الأسود آريز، فنهض من فوق الوسادة التي كان مستلقيًا عليها، وداعب ساقيْ ملكة محيِّيًا إيّاها تحيّة مجاملة.

قال نيازي بك ضاحك العينين:

ـ مرَّ وقت ليس بالقصير منذ أن التقينا آخر مرّة، صحيح؟

ـ خمسة عشر يومًا أيّها العمّ العزيز.

ـ آه. . . مدّة طويلة تكفي لأن يشيخ المرء فيها. إنّ التقدّم في السنّ يلحق الضرر بثقة المرء بنفسه يا ملكة. وإنّها لمفارقة مؤلمة للعقل المجرّد إذْ يفكرّ تفكيرًا مستمرًّا بما ينطوي عليه الماضي من ألق نبيل.

ـ لست عجوزًا يا عمّي، زد على هذا، إنّ الأمر أسوأ وأصعب على المرأة. انظر إليَّ: لقد أصبحت في الرابعة والثلاثين في لمح البصر.

على الرّغم من أنّ ملكة عاشت حياة كأنّ شبابها بلا بداية وبلا نهاية، إلّا أنّها راحت تقلق بعد أن مرّت السنون بها مرورًا سريعًا. وأدركت أنّها لن تنفعها كلّ مساحيق التجميل والدهون والعصارات بعد مدّة من الزمن. قد يكون هذا الأمر خوفًا لا ضرورة له إذا كانت المرأة غير مهووسة بجمالها. ولكن على الرّغم من ذلك، يصعب تجاهل الأمر كلّه والتصرّف على أساس أنّها غير مهتمّة بأيّ شيء. المؤكّد أنّها كانت تريد البقاء شابّة مثل أيّ امرأة شابّة أخرى، ولكنّ الشيء الذي كانت تخشاه هو أن تفقد مرحها وتمرّدها وآمال شبابها. يا له من خوف لا طائل من ورائه عند امرأة لا تتّصف بهذه الصفات!

قال نيازي بك في شوق:

ـ الرابعة والثلاثون عمر جيّد، عمر يدفع المرء للانطلاق محمّلاً بعواطف رائعة.

ـ يُقال أيضًا إنّه سنّ الاستقرار.

ـ هكذا قيل في الماضي. إنّني أريدك أن تكوني سعيدة يا

عزيزتي، وإنّني لأحزن عندما أراك وحيدة.

ـ كنت أودّ أن أستفيد من تجربتك استفادة جيّدة.

ـ لا أدري يا عزيزتي. إنّني لا أستطيع سوى تخمين ما ينقصك في حياتك، وأعتقد أنّها مشكلة تنشأ عن الصراع بين عدم الارتياح الجسدي الذي تسبّب فيه ماضيك وخيالك.

ـ إنّني محاطة بقدر كبير من الأنانيّة والكسل والبذاءة والتطرّف. وعندما يكون الذكر قد انحطّ إلى هذه الدرجة من الانحطاط، فإنّني لا أعرف طريقي.

ـ أنتِ كثيرة التوقّعات، ولكن لا أحد يحبّ على هذا النحو يا ملكة.

ـ حبّ؟ صعب جدًّا. ففي حين ينضج المرء...

ـ فإنّه يحبّ عن وعي شديد. المؤكّد أنّكِ بعد سنّ معيّنة سوف تشعرين بحزن أكبر ويأس أشدّ. وسوف تزداد شكوكك وكآبتك، ولكن...

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تكلّمت فيها وإيّاه عن مثل هذه الأمور. وفكّرت ملكة أنّها لم تشاهده من قبل بهذه الدرجة من التشاؤم. لا بدّ أنّه كان يشير إلى حيالي! ولمّا كان هو الذي بدأ مثل هذا الحديث، فالمؤكّد أنّه سوف يضيف كلامًا جديدًا.

استرسل نيازي بك.

ـ لا يمكنك الاستثمار في الحبّ لأنّه يأتي ويذهب من تلقاء نفسه. أنتِ لا ترغبين في أن ينتهي، ولكنّه ينتهي.

ـ مدخل هادئ. هل ترانا نتكلّم على حيالي؟

ـ إنّني أحاول أن أكون منطقيًّا. أمّا بخصوص حيالي، فهو رجل شابّ، وعاجلاً أم آجلاً سوف يرغب في أن يحيا حياته الخاصّة به. لقد ساعدني كثيرًا، وحقّق بعض المنجزات العظيمة مؤخّرًا، ولكنّني أحترم مشاعره.

كان نيازي يفرغ ما في جعبته من كلام.. ولهذا لا بدّ أنّ في قلبه شرخًا ما. وشعرت ملكة بسعادة غامضة، وتمنّت لو أنّ هذه القصّة انتهت قبل مضيّ وقت طويل. لا، لا يبدو أنّها سوف تنتهي. اسمعي! اسمعي!.. لقد حقّق حيالي منجزات عظيمة! المحتمل أنّ نيازي بك كان يتحدّث عن ستار باب الكعبة السرّي.

على أيّ حال، زعم أحد الخبراء في لندن أنّ الستارة التي بيعت بمئات الآلاف من الدولارات كانت مزيّفة. على الأرجح أنّها كانت مزوّرة، وسرعان ما سوف تواجههم مشكلة.

ـ المشكلة هي أنّ نصف هذا المنزل ملك حيالي، وإذا ما كان ثمّة انفصال، فإنّنا سوف نصبح في وضع صعب.

صُعقت ملكة وفكّرت: ألم يستثمر نيازي كلّ شيء يملكه في هذا المنزل قبل ثمانية أعوام؟

استرسل نيازي بك في توضيحه.

ـ لقد حوّلت له حصّة من البيت في العام الماضي، إذْ واجهتني بعض الظروف الشخصيّة والاقتصاديّة اقتضتها شراكتنا.

اشتعل الغضب في أعماق ملكة وتصاعد إلى حنجرتها. ولمّا كانت هي وريثة المستقبل، فإنّ المنزل لم يكن يعني الشيء الكثير

لها. ولكنّها غضبت بسبب هذا الوضع اللاإنساني. فقد وضع نيازي بك خليله حيالي في وضع متميّز وساعده وأظهر له العطف والمودّة. وبات واضحًا الآن الهدف الذي كان يسعى إليه حيالي منذ زمن طويل. فلم يكن ممكنًا أن ينخدع مثل هذا الرجل، الذي احتال على الناس الذين لم يروقوا له، بمثل هذا الدجّال الجاحد!

قالت ملكة:

ـ أعلم جيّدًا أنّك حذر تجاه الناس الذين يحاولون الاستفادة من كرمك، لكن يبدو أنّك تخلّيت هذه المرّة عن كلّ الحذر الذي عُرفت به.

ـ علاقتنا ليست اعتياديّة، فأنا أثق بحيالي ولكن لا ينبغي للمرء أن يخلط بين الحبّ والعمل. إنّني قلق، لأنّني مرتبط بهذا المكان، ولسوف أحزن حزنًا شديدًا إذا ما فقدته.

رنت ملكة إلى الباب. ما سبب تواريه؟ لماذا لا يدخل هذا الرجل المدعو حيالي؟ هل يريد أن يخطّط كلّ مؤامراته في سرّيّة تامّة. هل ثمّة ما هو أسهل على منافق مثله أن يخدع رجلاً عجوزًا ضعيفًا.

كانت نظرة عمّه(١) وتقوّس شفتيه ينطويان على ضيق مبهم، على نوع من الشرّ الذي بدا وكأنّه فضيلة وحزن أنانيّ. وشعرت ملكة بغتة تغيّرًا في علاقتهما. فبعد أن كان عمّها يعاملها على أنّها ابنته الوحيدة وشريكته الطبيعيّة والشخص الوحيد الذي يأتمنه، فإذا

(١) هكذا وردت في النصّ الإنكليزي، لكنّ السياق يقتضي أن تكون الكلمة عمّها بدلاً من عمّه، لذا اقتضى التنويه (المترجم).

بحيالي يبرز فجأة ويقف بينهما، لوطيًّا مغرورًا وجشعًا ووقحًا.

وسألت:

ـ هل كلّمته؟

ـ ليس ثمّة ما يستدعي الكلام. كلّ ما هنالك هو أنّني أشعر أنّنا نوشك أن نفترق.

كانت الغرفة التي يجلسان فيها تشبه مكتبًا أو وكرًا. ويراود المرء الإحساس بأنّ المكان لم يحظ بأيّ تغيير، بل امتلأ على نحو عشوائي بقطع أثاث ضروريّة ومختلف الحاجيات. وثمّة جهاز فونوغراف على مقربة في أحد أركان الغرفة، ومجموعة من الأسطوانات الموسيقيّة والمجلّات على الأرض. أمّا الخزانة القريبة من الباب المملوءة بالقناني الجيّدة، فقد أضفت على الغرفة مسحة المكتب. لكن سرعان ما تبخّر هذا الإحساس بسبب النماذج المتميّزة من الزجاجيّات العثمانيّة التي ملأت رفوف الخزانة. وكان أحد جدران الغرفة تغطّيه مكتبة ذات أبواب زجاجيّة، احتشدت داخلها على نحو فوضوي كتب نادرة رائعة التجليد. وراود الإحساس ملكة لحظة أنّها سجينة في صندوق قديم في دكّان تاجر موادّ مستعملة.

في وقت ما من عقد التسعينيّات، تاجر نيازي بك متاجرة كبيرة في تهريب موادّ ذات قيمة تاريخيّة كبيرة، فجنى بذلك ثروة كبيرة.. واليوم يزجي وقته بأعمال أقلّ شأنًا أصبحت هوايته. ربّما كان ذلك ما يستطيع عمله. من جهة أخرى، كان حيالي يعقد صفقات تجاريّة مع زبائن قدامى مستخدمًا بذلك اسم نيازي بك، وممّا لا ريب فيه أنّه جمع ثروة هائلة بتلك الوسيلة. وظلّت ملكة ساكتة متظاهرة بأنّها

لا تعرف شيئًا لأنّها شعرت أنّ القضيّة كلّها تخصّ حياة عمّها الخاصّة، ولأنّها أيضًا شعرت أنّها مستبعدة. والآن ها هي يساورها القلق للمرّة الأولى.

كانت سنوات صعود عمّها تمثّل سنوات ضياع ملكة. فقد طُلّقت من زوجها الذي تزوّجته قبل أن تبلغ سنّ العشرين ـ وكانت ما تزال طالبة يومئذٍ ـ وعاشت حياة طيش. وكانت أحيانًا تفتح عينيها لتجد نفسها مستلقية في أسرّة غريبة رفقة أجلاف لا تعرف عنهم شيئًا. ولم تستطع التفكير في الوجهة التي كانت تتّجه إليها.

في تلك الأيّام، جعلها عمّها تُنهي مدرستها، واستعاد بيته القديم المؤلّف من طبقتين في مهردار وفيه مخزن يحتوي على أثاث قديم ومتجر في الطبقة الأرضيّة، فما كان منه إلّا أن حوَّل هذا الأخير إلى مكان تستطيع ملكة أن تسكن وتعمل فيه، ثم سلّمه لها، وأصبحا شريكين. وفي غضون سنة واحدة تعلّمت ملكة كيف تدير المتجر بنفسها وأصبحت مساعدة عمّها التي يمكن الوثوق بها. ومنذ ذلك الوقت، ظلّا يعملان معًا على مدى عشرة أعوام تقريبًا. كان أحدهما يعرف الآخر معرفة وثيقة وكان في إمكانهما التفاهم والتواصل بالشفرات والإشارات. في البدء، التزمت التزامًا صارمًا بتعليمات نيازي وأسلوبه في العمل وترتيباته. وبينما كانت تُقيم علاقة غراميّة مع المصوّر ماتين الذي كان يشتغل مع عمّها، وجدت نفسها متورّطة في تجارة التهريب. وكانت مهمّتها هي مهمّة مهرّب السلع فتنقل بعض القطع من مكان إلى آخر. المؤكّد أنّها كانت قلقة إلى حدٍّ ما من جهة قانونيّة العمل، وكانت لا تستطيع مقاومة ماتين، فرضخت للأمر الواقع.

أصبحت ملكة، على نحو ما، الدرع الواقي الذي يحمي نيازي، وصورته البرّاقة. وفكّرت في أنّ كلّ ما فعلته هو أن تعترف بالنظام، وأن تتخلّى عن كلّ ما طُلب منها أن تؤمن به. وكان نيازي يناقشها في ضرورة عدم الالتزام بالقواعد والقوانين إلّا في الحالات التي تنطبق فيها على كلّ فرد من دون استثناء. أمّا القوانين الراهنة التي لا تطبّق إلّا على الضعفاء والمساكين فإنّها تخلق من يتخلّص منها، وأنّ خرق القانون أمر محتوم لجيش الضحايا والمضطهدين الذين يشكّلون أغلبيّة السكّان. وكان نيازي بك يردّد على الدوام أنّ على المرء أن يكون متوحّشًا إلى حدٍّ ما كي يتمكّن من البقاء على قيد الحياة في هذا البلد الذي يدين باستقلاله للتهريب في شتّى المجالات.

وكان هذا معروفًا في جميع الأوساط، لأنّ هذه هي الوسيلة التي كان النظام يتغذّى عليها ويقف على قدميه، ويستحيل اتّخاذ أبسط إجراء إذا لم تسمح به الدولة. هكذا كان يردّد. ولأجل الحفاظ على المظهر، سمح نيازي بك لنفسه أن يمتثل أمام المحاكم بضع مرّات، بل زُجَّ به في السجن لمدّة تصل إلى عدّة أشهر. وقبل عامين اثنين، هاجمته مافيا محلّيّة تسطو على الكنوز وأصابته في قدمه. لهذا، فإنّ الخطر الحقيقي لا يتمثّل بالقانون، بل بمعارك المشاركة، وبدا التخلّص من رجل عجوز سهلاً لدى بعض الناس. وعند هذه النقطة يبرز دور حيالي، الذي جاء وأصبح حاميًا له.

هل هذه هي الحقيقة حقًّا. ظنّت أنّ عمّها تعرّض إلى الخديعة، فالسوق تعمل استنادًا إلى أنظمة محدّدة ضمن شبكة واسعة من العلاقات، نُظّمت لتشمل الكلّ، بدءًا بمن يجمع هذه التذكارات،

وانتهاءً بالسعاة الذين ينقلونها. وكلّ من يتجاوز هذه الأنظمة ويقطع السلسلة، يُعاقب بحسب كمّيّة المادّة المسروقة. لم تكن هذه المنظّمة قائمة في السنوات التي بدأ فيها نيازي بك عمله، والتي كان يومها يعمل لحسابه. لكن ممّا لا ريب فيه أنّ بعض التبعات كانت قائمة، فجاء حيالي ورتّب كلّ شيء ترتيبًا عاجلاً، ولكنّه ينطوي على دقّة.

وعلى حين بغتة، شعرت ملكة بضآلتها وسذاجتها وغبائها.

فقد دخلت عالم تجارة المجوهرات للهروب من محيطها إلى حدٍّ ما، كانت تحنّ إلى البقاء بعيدًا عن المخاطر وأن تبقى مستقلّة. في تلك الأيّام، شعرت بالارتياح لدى ظهور حيالي فجأة على مسرح الأحداث وأصبحت التجارة تحت سيطرته. شعرت بالارتياح لأنّ الرجل العجوز تركها وحدها عمدًا أو عن غير عمد.

وفكّرت في أنّه في حاجة إليها، وأنه لا بدّ قد اكتشف الخدعة التي تُحاك من ورائه. صحيح أنّ الرجل القابع في الدور الأرضي والذي صرف الانتباه عنه بشخصيّة قره قوز أثناء إصغائه لموسيقى تركيّة كلاسيّة، وأثار أعجاب نيازي بسحره وفتنته وكبريائه، ملأ حياته على مدى عامين اثنين. أمّا الآن، فقد بدا كلّ شيء وقد انتهى. وشعرت ملكة أنّها سوف تكون ضروريّة ولا يمكن الاستغناء عنها، في حين يمكن الاستغناء عن حيالي بشخص آخر. نعم، لكن ما الذي يمكنها أن تفعله؟ فبعد أن استوعبت كلّ هذه الأشياء، لم يعد في وسعها أن تقلّل من شأنها وتذهب إلى حيالي لتطلب منه الرحمة، حتى ولو كان ذلك بالإنابة عن شخص آخر.

نيازي... لم يبدُ من قبل بهذه الدرجة من اليأس وبمثل هذا الانكسار. لقد بلغ سنّ الخامسة والستّين اليوم، وتضاعف عدد

التجاعيد البارزة على جبينه. كانت عيناه ما تزالان تشعّان ولكنّ الغضون علت أجفانه، فترهّلت. لكن على الرّغم من ذلك، كان جسده النحيل واستقامة بدنه وساقاه الطويلتان وتأنّقه الأنثوي ودقّته تميّزه عن غيره طوال الوقت. بدأ الظلام يرخي سدوله، في حين راح الضوء المائل إلى الزرقة المتسلّل من النافذة إلى البوسفور ينقلب إلى لون أسود سريعًا. جال نيازي بك ببصره إلى الضفّة الأخرى والأنوار المتصاعدة في ذلك المساء الآخذ بالانحسار. ورأى الباخرة الروسيّة التي راحت تمخر عباب البحر على مسافة قريبة من أمام المنزل. ثم قرع الجرس وطلب إحضار الشاي.

سألت ملكة:

ـ أين حيالي؟ لماذا يتوارى عن أنظاري؟ فأنا لم أشاهده عندما دخلت المنزل.

قال نيازي بك مجيبًا:

ـ لا أظنّ أحدكما يروق الآخر كثيرًا.

ـ إنّه يولّد الانطباع في نفسي على أنّه رجل خبيث وغير مخلص.

ـ لا، إنّه على ما يرام. كلّ ما هنالك أنّ له نقاط ضعفه. يضاف إلى ذلك، أنّه نرجسي، ولكن على أيّ حال، إنّه ليس من النمط الذي تصعب السيطرة عليه.

لزمت ملكة الصمت. سرح نيازي بك ببصره خارج الغرفة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة وكأنّه مستغرق في تفكير عميق.

قال:

ـ لكنّ الكره نفسه ينطوي على عاطفة مغرقة.

جفلت ملكة لذلك الكلام وفكّرت: ما معنى هذه العبارة؟ ما الذي يحاول أن يقوله عمّها؟

ـ أنتِ لم تجرّبي الحبّ يا عزيزتي، أو ربّما كان إظهار الحبّ يتنافى وطبيعتك.

ـ ربّما لم أكن قادرة على إظهاره، ولكنّني أحببت شخصًا ما يا عمّاه.

ـ لم يكن ذلك حبًّا لأنّك كنتِ ما زلتِ طفلة، كما كان الرجل مجنونًا على أيّ حال. آه، حسنًا. هذه أمور حدثت في الماضي... باختصار، كان نديم رجلاً شريفًا ومستقيمًا، لكن كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، فإنّ الحياة تلاحق الفقير وترغمه على دفع الثمن.

وفكّرت ملكة: يا لها من فكرة تجاريّة!

دخلت شدن خانم حاملة حلوى الزنجبيل المنزليّة الصنع والمعجّنات بالزيتون مع الشاي، وقدّمت الشاي وانصرفت.

ـ أرجو ألّا تكون ثمّة مشكلة بخصوص النقود المعدنيّة.

قالت ملكة:

ـ بل ثمّة مشكلة، فالمشتري لم يأخذ سوى ثلاثين قطعة، وأُعيدت إلينا ثماني عشرة قطعة بذريعة أنّها مزوّرة.

لزم نيازي بك الصمت برهة وجيزة، ثم قال:

ـ هذا أمر محتمل، ربّما كنت مخطئًا، ولكنّني لا أعتقد أنّها مزيّفة.

ثم أضاف بعد هنيهة:

ـ المشكلة هي أنّ الشكّ اكتسب مكانة القرين الصالح في أيّامنا هذه.

أخبرته ملكة بمسحة من كبرياء جريحة أنّها تُركت في وضع لا تحسد عليه، وأنّ الرجل استشاط غضبًا ولم ينظر إلى الخواتم. ولهذا، فإنّها قرّرت أن تكون هذه هي مهمّتها الأخيرة، وأنّها لا تريد الاستمرار في هذا العمل! أصغى نيازي باهتمام إلى كلامها وفكّر مليًّا. حسنًا، إنّها على حقّ. على أيّ حال، لقد أثبتت النقود أنّها غير مزيّفة لأنّ المزيّفين يشتغلون بمهارة عالية.

فكّرت ملكة أنّها لن تعرف مدى صدق نيازي بك. فهذه المواقف مألوفة، وهي متأكّدة من أنّه كان يعرف كلّ شيء منذ البدء. على أيّ حال، هذه هي المرّة الأخيرة. لقد سدّدت ديني. ثم أخرجت كيسًا صغيرًا من حقيبتها ووضعته فوق الطاولة، ولم تشعر أنّها مضطرة إلى أن تخبره بشأن حقيبة ثيابها المفقودة.

* * *

فكّرت أثناء عودتها إلى المنزل بالحديث الذي دار بينها وبين نيازي بك عن الحبّ والعاطفة.

عندما رتّبت أمور حياتها، كانت قد نجحت في خلق توازن بين آمالها الجنسيّة وطيشها الذي لم يكن يهدف إلى شيء. ولكن على الرّغم من ذلك، فهي ما تزال غير بعيدة عن لغز الحياة والموت

المتوهّج. ولم تستطع أن تفهم قطّ السبب الذي يطلق فيه الناس صفة الحبّ على مختلف مظاهر العمليّة الجنسيّة. لقد كانت تؤمن بالحبّ الجنسي، ولكنّها من ناحية ثانية فكّرت أيضًا بأنّ الجنس نشاط بسيط ومسلٍّ واعتيادي. فما معنى أن نستهجن مثل هذه الحقيقة الطبيعيّة، ذلك العمى اللطيف الذي تتسبّبه العواطف المفرطة التي تبعث على البكاء وتلك الروابط الوقتيّة المؤلّفة!

كانت على الضدّ من المقترب التقليدي لهذه المنطقة ذات الأصالة الخاصّة والمغلقة. هذا فهم منافق وغير عادل وماكر مثقل بالأحكام والعقوبات العامّة التي تطبّق على وجه الخصوص على جنس المرأة.

ربّما يصبح الجنس بعد مائة سنة من اليوم أكثر أمانًا، وبعد أن يتحوّل إلى شيء ما قوامه التكنولوجيا، فإنّه سوف يغدو حالة صحّيّة، غير مثمرة وواقعيّة ومتّسقة، بل أقلّ مدعاة للمزاج على وجه التوكيد. وعلى هذا الأساس يمكن أن يعيش المرء في تجارب وعلاقات أكثر استقلاليّة من أيّ وقت مضى. إنّ أحلام الناس عن الحبّ والجنس راحت منذ الآن تتحلّل وتنهار.

لكن هل هذا صحيح؟ فكّرت في فولكان. فعلى الرّغم من بدانته إلى حدٍّ ما، إلّا أنّه رجل جذّاب، وثمّة مسحة طفوليّة يتّصف بها على الرّغم من المركز المهمّ الذي يتبوّأه. فمن يحتلّ موقع معاون مدير في شركة قابضة كبرى إنّما هو مؤشّر على منجز هائل لرجل في مثل سنّه. ومع هذا، فهو غير وقح، وأظهر لها بوضوح أنّه معجب بها، وعلى الرّغم من أنّه حاول أن يخفي مشاعره، إلّا أنّ انجذابه إليها كان على درجة من الوضوح تكفي لأن تجعل ملكة

منفعلة ومتأثّرة في الوقت عينه. كان اهتمامه الرفيع المستوى بها، والرغبة السرّيّة المشتعلة في أعماقه وهو الرجل المتميّز في عمله، مبعث سرورها، وإن كان هذان الأمران قليليْ الحدوث مؤخّرًا. الحقّ أنّ هذا كان أوّل شرط من شروطها كي تفتح ذراعيها لأيّ رجل. وسواء أكان الرجل قبيح الشكل أم وسيمًا، بدينًا أم نحيلاً، شابًّا أم عجوزًا، فإنّ هذه الصفات لم تكن لها أيّ أهمّيَّة في هذا الأمر.

وراودها في لحظة من الزمان شعور غامر بتوقّع شيء ما، يبعث السرور والسعادة، ولكن فؤادها غار مرّة أخرى في هوّة اليأس التي أعقبت ذلك الشعور، فهي لم تلتق الرجل إلّا في يوم أمس، وسبق لها أن عاشت مغامرات قصيرة الأمد بدأت على النحو نفسه. أمّا الآن، ففي إمكانها أن تحسّ كيف يمكن ـ أو لا يمكن ـ أن تكون علاقتها برجل ما. وعلى الرّغم من أنّ هذا الرجل مخلص وصريح، فإنّها كانت تعرف، من وجهة نظرها، أنّ كلّ شيء سيتحوّل إلى مهزلة وإلى لعبة مثيرة للسأم من ألاعيب الجهل المزيّف.

صحيح حقًّا؟ لماذا هي على هذه الدرجة من التحامل؟ ما يزال ثمّة متّسع من الوقت حتى موعد افتتاح معرضها، لكن إذا جاء الرجل في يوم الافتتاح، فإنّ قدرًا من التقارب يمكن أن يتحقّق بينهما. كانت ترغب في حضوره لأنّه يبدو شخصًا يستحقّ أن تبقى على صلة به.

عادت ملكة إلى التونيزاد، حيث كانت تقطن في شقّة مترامية الأطراف في مجمّع سكني يحظى بحماية جيّدة. لقد مرّت ثلاثة أعوام منذ أن حوّلت البيت القديم في مهردار إلى مخزن ومتجر

وانتقلت للعيش في هذا المكان. وقد نشأت متاجر متنوّعة في ذلك الشارع حتى بات يصعب استخدام المنزل مكانًا للسكن. كانت ما تزال مضطرّة إلى دفع المال لقاء الشقّة الجديدة، ولكن سرعان ما سوف تنتهي من ذلك. كانت جغرافيّة حياتها الاقتصاديّة أشدّ ثراءً وأكثر زهوًا من جغرافيّة حياتها الداخليّة الموحشة.

خلعت ثيابها واستبدلتها بأخرى على أثر وصولها المنزل، وأرسلت نظرة إلى وجهها من دون مساحيق تجميل تحت نور ضياء الحمّام فتصلّبت ملامحها. وفكّرت في لحظة من الزمان أنّها كانت تنظر إلى وجه العمّ ـ الأب ـ زوج الأمّ، وهو أوّل رجل يضع بصمة على حياتها، وإلى عينيه اللتين كانتا تريدان أكثر ممّا تستطيع منحه. الفتاة الصغيرة المستلقية في الغرفة العلّيّة الصغيرة والتفاتتها إلى الوراء عندما شعرت بصلابة المنطقة الكائنة بين ردفيها، ونكوصها إلى الخلف عندما شاهدت زرقة عيني الرجل المثيرتين وهو يحدّق إليها.

نعم! ولكن لماذا، لماذا تتذكّر كلّ هذه الأشياء الآن؟ كلّما انجذبت إلى شخص ما، إلى رجل، كان يساورها إحساس بالخديعة. وشعرت بدافع قويّ لمعاقبة جسدها، فتصبّ بذلك السمّ في أعماقها. كانت راغبة في محو الماضي، ولكن كلّما سعت إلى ذلك ازدادت تلك الرغبة عنفوانًا وقوّة. بحثت عن براءة الطفولة في عينيها، ولكن كلّ ما كان في وسعها مشاهدته هو القبول الصريح بخطيئتها.

وفكّرت: إنّه لم يعد هناك. ولكنّها لم تعرف تمامًا على من تتكلّم ومن المقصود! إنّه ميت. ففي ذاكرتي انقلب إلى شكل

اللّاوجود وراء الألم.

لم يكن زوجُ والدتها، الذي لم يرزق بطفل، والدَها.. ولكن يكون كذلك، بل سوف يظلّ موضع حزنها المثير للخوف ويأسها ومحاولاتها البائسة من أجل الخلاص. وسوف يذكّرها على الدوام بفناء جسد الإنسان والصفة الزائلة والوقحة التي تتّصف بها العاطفة.

عمدت إلى تسخين فخذيْ دجاجة، التهمتهما مع السَلَطة. لقد أنفقت جزءًا كبيرًا من يومها في المحترف وفي المتجر، وكانت ترتاد مركز الرشاقة ثلاث مرّات في الأسبوع. أمّا وقت الغداء، فكانت تكتفي بقطعة من اللحم والخضراوات. ليس ثمّة ضمان في أنّ العيش رفقة رجل واحد مدى الحياة ـ فضلاً على التبعات التي سوف تنشأ عن تلك الرفقة ـ سوف يكون أكثر مدعاة للسرور والبهجة. لا، إنّها لا تستطيع تحمّل مثل تلك الحياة، بل لا تطيقها. لا بدّ أن يبدأ عالم جديد أكثر إثارة في نفسي. لكن كيف؟

شغلت فكرها في شاهان، فأمسكت بهاتفها الخلوي، وكما توقّعت، لاحظت أنّ ذلك الغبيّ كان قد أرسل لها ثلاث رسائل، أخبرها في رسالته الأولى أنّه يعشقها وفي الرسالتين الأخريين كان يتكلّم كلامًا لا معنى له، متّهمًا إيّاها بأنّها ليست سوى غانية باردة جنسيًّا. حسنًا، إنّه لأمر اعتيادي أن يكون ثمن الحرّيّة له مثل كلّ هذا الأثر الجانبي. لكنّها فكّرت أنّ القضيّة لا تهمّ حقًّا.

وضعت مرفقيها فوق الطاولة وسرحت ببصرها إلى الأطباق الفارغة. كانت دومًا تحسد طاولات الأسر المزدحمة بالمأكولات، والوجبات الغذائيّة التي يلتهمها كلّ أفراد الأسرة والأطفال وغيرهم. وعلى حين بغتة، ترقرقت الدموع في عينيها. ماذا ستفعل عندما تبلغ

سنّ الأربعين أو الخمسين أو الستّين؟ وفكّرت في ضرورة أن يكون لها طفل، لا بدّ أن يكون لها طفل. لا بدّ أن يكون لي طفل من رجل قد لا يكون مأمون الجانب مثل مرفأ، ولكنّه سيكون على الأقلّ سفينة! كان في وسعها أن تتصوّر شكل تلك السعادة الغامضة المؤلمة. وراحت تبكي في صمت وكأنّها تسعى إلى تحرير نفسها من ذكرياتها ومن غرورها الكاذب، من الخوف من كونها مستوحدة، ومن الوحدة التي كانت تشعر بها عندما كانت تمارس الحبّ مع عدد لا يُحصى من الرجال.

قاومت النوم حتى سقط الكتاب الذي كانت تحاول قراءته من يدها. ربتت على قطّتها باتي التي وثبت إلى الفراش. وقرّرت أن تتّصل بفولكان في مطلع الأسبوع المقبل لتذكّره بالمعرض مرّة أخرى. إنّها مضطرّة لأن تجرّب حظّها، وإنّه لبصيص أمل من شأنه أن ينقلها إلى أرض الواقع... في الوقت الراهن.

* * *

٣

سار فولكان على إيقاع الموسيقى على امتداد الممرّ قبل أن يدلف إلى أعماق النادي خافت الأضواء والذي يتعالى الضجيج بين جنباته. وأثناء مروره، انعكس الضوء المتسلّل من الألواح الزجاجيّة الملوّنة المثبتة على الجانبين، ورسم بقعًا تشبه الأزهار الملوّنة.

كان المكان قد أُعدَّ مسبقًا ليواجه طقسًا باردًا غير متوقّع وأمطارًا ورياحًا عاتية. وأُعيد وضع النوافذ والألواح القابلة للنقل التي رفعت من أماكنها في فصل الصيف لتنفتح الأجواء كلّها أمام الساحل.

كان الطقس فاترًا في تلك الليلة وكأنّ الصيف لن ينتهي أبدًا، وكانت النوافذ مفتوحة على سعتها كي تسمح بتنشّق عبير الأوراق العفنة ورائحة البحر. وكانت الروائح المنبعثة من المشروبات الكحوليّة والأطعمة والعطور تختلط بنسيم الهواء العليل الصافي.

سار فولكان من وراء النادل على امتداد حافّة حلبة الرقص،

وجلس إلى طاولة قريبة من المشرب وحلبة الرقص وتطلّ عليهما في الوقت عينه. وعلى الرّغم من أنّ اليوم كان يومًا اعتياديًّا من أيّام الأسبوع، إلّا أنّ معظم الطاولات كانت مملوءة. كان الطعام والخدمات والإدارة في هذا النادي الذي ترتاده النخبة تناسب تمامًا نوعيّة الزبائن وأذواقهم وتوقّعاتهم. فابتداءً بالأقداح ومرورًا بالكراسي والأضواء وانتهاءً بالمرايا، كان كلّ شيء قد صُمِّم تصميمًا ذكيًّا ليؤكِّد التميُّز النفيس. إنّ هذا النادي جزيرة صغيرة تتوارى بعيدًا عن العار والإثم اللذين يملآن عالم البشر الأجلاف وعيون المتطفّلين الفضوليّة. إنّه نمط من أنماط الملاذ، مكان يلتقي فيه الناس، فيرى أحدهم الآخر ويتذكّره، مكان للبهجة والانطلاق. ولاح كلّ شيء وكأنّه يتنفّس قدرًا من عدم الارتياح تحت الأضواء متقنة التصميم.

تمطّى في كرسيّه إلى الخلف. كان الليل خارج النوافذ رائعًا، وكان القمر النحاسي يرتفع من بين ناطحات السحاب ممتدًّا فوق التلّ، والانعكاسات الملوّنة المسرفة في تفاصيلها للساحل المقابل والساقطة على ألق البحر الهادئ ذي اللون الأزرق الغامق، فتضفي شعورًا نقيًّا بالأبديّة وبالتفاهة. كان الإنسان كيانًا زائلاً، ابن اللحظة، قياسًا بالطبيعة. وكانت الأرض حكيمة عظيمة قبلت بتغيّر الحياة بوصفها نقيضًا سليمًا له ما يبرّره، والتزامًا موقّتًا، في حين ظلّ الجنس البشري المسكين يصارعها من دون طائل.

مال إلى أمام محاولاً إلقاء نظرة إلى المشرب من بين حشد الناس، فاستطاع أن يستدلّ على وجود هارون من حجمه، إذْ كان متربّعًا على كرسيّ عال عند نهاية المشرب التي تشبه القوس في

تقوّسها. وكان مرفقاه يستندان إلى نضد المشرب وهو يتجاذب أطراف الحديث رفقة ابن رجل أعمال ذائع الصيت يعمل مصرفيًّا. وكان يبدو من ذلك المكان البعيد وكأنّه مخروط مملوء بالمرطّبات.

كان قد مضى زمن طويل لم يأت فيه فولكان إلى النادي. ففي الليلة التي رأى مغنّيًا عربيًّا شابًّا ومشهورًا أصبح بغتة مركز جذب واهتمام المجتمع، ويغنّي بأعلى صوته من فوق خشبة المسرح، انتصب شعر رأسه فجأة وخرج. وكان هارون قد قال له: إنّ هذه الأشياء تحدث في عالم ما بعد الحداثة يا بنيْ، وأنّ هذا الفتى ابن عصره في هذه الأيّام. وأنا على ثقة بأنّه أفضل من مغنّي الجاز الأميركي الذي زار هذا المكان قبل مدّة من الزمان. هيّا، استرخ قليلاً.

غير أنّ هارون كان يحتاط للأمر، فيأخذ أسوأ ما فيه نقطة بداية.

حيّا بعض الناس، إذْ كان يتمتّع بحلقة كبيرة من الأصدقاء. لكنّه عندما يكون في صحبة أناس يعرفهم أو يظنّهم أصدقاءه، فإنّه بدأ يرتاب أكثر من أيّ وقت آخر في أن يكون لتلك الصداقات أساس صلب أو معنًى حقيقيّ. فقد كان يمقت الأسلوب الذي يعرض فيه هؤلاء الناس أفكارهم وآراءهم والأشياء التي يؤيّدونها. كان يتعيّن عليه أن يبذل جهدًا كي لا يظهر ازدراءه، ناهيك عن عدم إثارته جدالاً لا ضرورة من ورائه.

* * *

راوده شعور يشبه المغص في معدته وإلحاح يبعث على الضيق

كأنّه الجوع. لا، إنّه ليس جائعًا، فقد تناول وجبة خفيفة قبل مغادرته المنزل. وربّما فعل هارون الشيء نفسه. لقد لحق الضرر بهذين الرجلين بسبب الشراهة المزدوجة تجاه الطعام ووجبات غداء العمل، التي لا تنتهي في أرقى مطاعم العالم من طوكيو إلى تورنتو. الحقّ، ليس صعبًا عليه أن يفقد عشرة كيلوغرامات من وزنه ليعود جذّابًا كسابق عهده أيّام الشباب، وكلّ ما هو بحاجة إليه هو قدر يسير من قوّة الإرادة.

جال ببصره في حشد الناس الدائب على الحركة. قسم من هؤلاء يقفون هنا وهناك حاملين كؤوس شرابهم بأيديهم، وقسم آخر يجلسون من حول طاولات في القسم المخصّص لتناول الطعام وينفجرون في ضحك صاخب كاشفين بذلك عن أسنانهم البيض. وثمّة رهط ثالث من النمط سهل الانقياد الذين ما زالوا يضعون نظّارات سود بالرّغم من الضوء الباهت. المؤكّد أنّ الناس وضعوا أقنعتهم على وجوههم قُبيل مغادرتهم منازلهم، وتزيّنوا واستعدّوا لكي يظهروا بمظهر بهيّ وصحّيّ ونشيط، ولينفّسوا عن طاقتهم الإيجابيّة وليمارسوا ألعابًا ذات قواعد صارمة. لعلّهم حلموا أحيانًا بتغيّر الألعاب من دون القواعد، أم العكس يا ترى؟

الشيء الطاغي في هذه اللحظة هو الرضا بالحظّ السعيد والجمال والغنى والتحرّر من كلّ أنواع الهيمنة والضغط. ومع تقدّم الليل، ستظهر أضعف وأسخف مظاهر بعض هؤلاء الناس. ونظرًا لإفراطهم في الكبرياء والثقة بطبقتهم، فإنّهم سوف يتجاوزون كلّ الحدود في تناول المشروبات الكحوليّة وتعاطي المخدّرات والكشف عن السأم الذي يشعرون به.

ـ أين كنت يا حبيبي؟ هل سحرتني؟ أفكّر فيك على الدوام. .

التفت إلى الوراء، نحو الذراعين الرشيقتين الناعمتين الملتفتين من حول رقبته من الخلف، ونحو عطر ذلك القرنفل المألوف له والزكيّ الرائحة. فاندي!

كانت ترتدي تنّورة قصيرة بلون الكاكاو، مصنوعة من قماش الأطلس اللمّاع، ضيّقة عند الردفين الجميلين، وكاشفة عن نصف فخذيها. وكانت قد مشطت شعرها وعقصته إلى الوراء وعلى قمّة رأسها. وعيناها الخضراوان تحتلّان نصف مساحة وجهها. ويبدو الحزن أحيانًا قد غلّف النظرة المنبعثة من تينك العينين، غير أنّ ابتسامتها كانت لا تقاوم على الدوام. كانت هذه الرسّامة الصغيرة قطّة وحشيّة بكلّ ما في الكلمة من معنى!

ـ إنّني صائم عن الحبّ يا فاندي. تعلمين أنّني أرثي لحالي!

ـ لم يكن الصوم مفيدًا لك، فقد ازداد وزنك منذ أن توقّفت عن ممارسة تمارين غرفة نومك!

ـ إنّه النموّ الاقتصادي المستمرّ يا قطّتي. ما الذي في وسع المرء أن يفعله؟

كانت فاندي مشهورة بتنظيم المعارض في قاعات عرضها في اسطنبول وبودروم، تنتهي بحفلات صاخبة، وكانت لوحاتها تروق فولكان مثلما كانت تروقه أحاديثها، وقبل كلّ شيء، ردفاها. وكان الاثنان قد مارسا الحبّ بضع مرّات في أيّام طيشهما، واشترى منها فولكان عددًا من لوحاتها على سبيل المجاملة. وكانت في نظره أكثر النساء اللواتي عرفهنّ متعة وإبداعًا في السرير.

عضّت على شحمة أذن فولكان في غنج ورقّة وقالت هامسة:

ـ أخبرني متى ينتهي صيامك كي نفرك الصدأ عنك، وأثناء ذلك، حاول أن تخفّف من وزنك يا حبيبي!

وبخفّة القطّة ونعومتها، راحت تمرّر بطنها على وجه فولكان قبل أن تتراجع إلى الخلف. كانت تعرف جيّدًا كيف تتصرّف مثل قطّة. وبينما هي تبتعد، تفرّس فولكان في ردفيها اللذين كانا يتحرّكان حركات منسجمة من تحت التنّورة اللمّاعة. وشعر بسرور بالغ وهو يتخيّل نفسه وقد ملأ كلتا يديه بهاتين الكرتين ويضغط بنفسه من فوق بطنها الناعمة. كانت فاندي أفضل السيّئات، فهي شجاعة ومحبوبة عند الضرورة، ماجنة ولكنّها صريحة. وفي وسع المرء أن يفتح قلبه لها ـ إلى حدٍّ ما ـ وأن يرافقها في نزهة قصيرة الأمد، وهو أمر كافٍ.

كان الحاضرون هنا يعرف أحدهم الآخر إلى حدٍّ كبير، وكان هو قد التقى معظم النساء. بعضهنّ مثيرات للاهتمام، عميقات التفكير من أوّل وهلة. وإذا كانت الغالبيّة منهنّ يفضّلن العيش بهويّات مستعارة، فقد تحوّلن إلى نساء سطحيّات قبل أن يمرّ وقت طويل. ليس سهلاً على المرء أن يحدّد ملامح شخصيّته أو يصبّها في قالب لصنع الشخصيّات بسرعة كي يتجنّب التهميش. من جهة أخرى، لمّا كان مظهرهنّ قد خضع للتزويق والتجميل بالوسائل نفسها، فقد ظهرن كلّهنّ متشابهات تشابهًا يبعث على الدهشة. شعرهنّ الأشقر وسحنتهنّ السمراء وطريقتهنّ في تحريك رؤوسهنّ من جهة إلى أخرى وثيابهنّ التي لا تستر من أجسادهنّ إلّا الشيء القليل كانت متشابهة تشابهًا كبيرًا، حتى يكاد يصبح مستحيلاً أن تفرّق بين

أولئك النسوة، وأن تعثر على واحدة منهنّ وأن تغرم بها لما تملكه من خصائص متميّزة.

كان الرجال على الحال نفسه، إذْ ضاع حقّهم في أن يحتفظوا بشخصيّاتهم، وها هم الآن يحاولون أن يرفّهوا عن أنفسهم ويعوّضوا عن خسارتهم بأحدث الملابس والموادّ الشهيّة التي يقتنونها كالساعات والنظّارات والهواتف الخلويّة. الواضح من أوّل وهلة أنّهم كانوا ينفقون من الوقت والمال أكثر ما تنفقه النساء في محاولة منهم كي يصبحوا هادئين مثل الروبوتات، ويحلقوا شعر رؤوسهم في عناية وطبقًا لآخر الصيحات في عالم الموضة، ويغرقوه بالدهون والعطور، ويتزيّنون بالوشوم وغيرها من وسائل العناية بالمظهر.

كانت المرأة المارّة من أمامه تحتذي حذاءً أبيض طويل العنق يصل إلى فخذيها. وبدت الساقان القصيرتان اللتان كانت تخفيهما داخل الحذاء معوجّتين في رأي فولكان. من جهة أخرى، فإنّ المدهش في تلك المرأة هما النهدان الكبيران المكتنزان اللذان صقلتهما ولطّفت من مظهرهما. لكنّ هذين النهدين الصناعيين البارزين من تحت ثوبها لم يكونا مناسبين لجسدها القصير والنحيل. وعندما رنا فولكان إلى المرأة ذات الثوب الأحمر الجالسة فوق كرسيّ على مقربةٍ من المصباح، أدرك المظهر الفارغ والتافه لامرأة أنفق وإيّاها ليلة واحدة في تلك الأيّام التي كان ما يزال فيها مبتدئًا في غراميّاته. التقت عيونهما لحظة واحدة من الزمان، غير أنّ المرأة كانت تنظر إليه بعينين لا تبصران شيئًا. وسرت في نفس فولكان نسمة باردة، وراوده شعور غير مريح هو الندم والقرف. فتحرّك في مقعده وتمايل كأنّه يوشك أن يسقط إلى الخلف.

ومرَّ بذاكرته منتصف ليل ماطر: صور مسطّحة جامدة... وصدر أجوف بلا حيويّة ونهدان ضامران بحلمتين سوداوين... وفم شبق ونهم يقترب في شهوة من قضيبه الذي كانت تمسك به في يدها...

واشتعلت في أعماقه موجة غير متوقّعة من رغبات حادّة وقويّة. انتفاخ تعوزه الحماسة سرعان ما انكمش، مشاهد بعينها مرّ بها في حياته، مشاهد من الماضي، تجده يهتزّ بعد أن يساوره إحساس وكأنّه تعرّض لإهانة لا سبيل إلى محوها. إنّه ردّ فعل نفسي أكثر ممّا هو ردّ فعل جسدي. إنّها صفة سلبيّة تعقد الحاضر بالهروب الذي لا طائل من ورائه بسبب التنكّر لماضٍ أو محاولة للنسيان!

* * *

سأل هارون بعد أن اتّخذ مجلسه من فوق الكرسي المقابل:

ـ مرحبًا بك يا فولكان. أرجو ألّا تكون قد انتظرتني طويلاً!

ـ وصلت قبل قليل.

ـ أشعر كأنّني ضربت ذلك المصرفي ضربًا موجعًا. إنّه يتوقّع مساعدة منّي. ماذا في وسعي أن أفعل له يا صديقي؟

ـ ألم يعرف ما الذي سيحلّ به عندما كان يسرق من مصرفه؟

ـ لم يتوقّع ذلك. حسنًا، عليك أن تتحمّل النتائج...

لعلّه كان يعني العدالة. أيّ عدالة؟ لقد أصبح تسعون من المائة من العدالة اليوم مالاً. تذكّر فولكان الحادثة التي شهدها في الدور الأرضي في الشركة قبل شهر مضى. فقد كان المستشار القانوني في الشركة يرغم القاضي على الكلام أمام الكاميرا. وكان قد تسلّم مئتي

ألف دولار رشوة من هارون لإكمال صفقة مربحة، ولكنّه لم يستطع ذلك. ودُمّر تمامًا. كان يقول: سامحني، إنّني لا أستطيع ذلك. فالجانب الآخر على حقّ ولهم نفوذ قويّ، وسوف أحاول أن أسدّد لك بأسلوب آخر. أفعل ما تشاء. لقد انتهيت. كان رجلاً متوسّط العمر، أشيب الشعر، يوشك أن ينفجر باكيًا، محدودب الظهر، ساكنًا. ولم تأخذ فولكان الشفقة بالرجل ولا بالحالة التي وصل إليها. غير أنّه كان منزعجًا ومتضايقًا، لا يعرف كيف يتصرّف، وراوده إحساس بيأس عظيم وعميق ومؤلم باسم أولئك الذين ما زالوا يؤمنون بمفهوم العدالة.

على الرّغم من أنّ هارون أبدى ردود فعل قويّة إزاء مثل هذه العقبات غير المتوقّعة، إلّا أنّه أفلح في تحويل صورة «رجله الشرّير» إلى حدٍّ كبير بعد أن أصبحت له مكانة أكبر في عالم التجارة. وبمرور السنين، اكتسب موقعًا متميّزًا واحترامًا تحقّقا له مع المال. وعرف أنّه مهما فعل، فإنّه ينبغي له أن ينظّم أموره التجاريّة بأن يبدو ملتزمًا بالقوانين، وأن يتجنّب إظهار ردود أفعال، وينأى بنفسه بعيدًا عن أن يكون في موقع من يريد أن يحظى بسلطة غير منصفة، وهو موقع تسهل إزاحته منه.

وسرعان ما وثق بفولكان ومعرفته وتجربته وقدرته على الاحتفاظ بالإسرار وإنهاء الصفقات، وأحبّه بأكبر قدر مستطاع. من جهة أخرى، كانت مشاعر فولكان تجاه رئيسه ما تزال غير واضحة تمام الوضوح على الرّغم من أنّه كان يعرفه معرفة جيّدة. كان هارون يقود فولكان إلى الاعتقاد بأنّ الجوهرة التي ما تزال بحاجة إلى صقل، فإنّ المحتّم عدم اللجوء إلى الخداع وتجاوز القوانين من

أجل البقاء والنجاح في عالم التجّار في بلده. وكان أمثال هارون مواهب نادرة، وحتى لو كانوا مذنبين، فإنّ قدرتهم على الاحتمال الهادئة والواثقة كانت تثير مزيجًا من الاحترام والدهشة في قلوب الآخرين.

طلب الإثنان وجبتيّ الطعام والشراب، وكانا قد دنا أحدهما من الآخر دنوًّا حذرًا منذ البداية. ولمّا كانا في سنّ متقاربة، فإنّ السفر معًا معظم الوقت، واهتمامهما بالطعام والشراب عملا على تقوية أواصر الصداقة بينهما. لقد بات فولكان اليوم في موقع مهمّ ومسؤول في الشركة وكانت ثمرة نجاحه مكافأة متمثّلة بالأسهم والسندات، غير أنّه لم يهب نفسه لهارون على نحو أعمى لهذه الأسباب، فقد كان كثير الحذر والاحتراز على الدوام، لأنّه كان يعلم جيّدًا أنّ رجله الطموح والموهوب لديه مظاهر أخرى خطيرة ومظلمة.

ـ اسمعي يا حبيبتي، إنّني حاضر في اجتماع الآن. توقّفي عن إيلامي وتعذيبي. حسنًا؟ هنا، اهتمّي بشؤونك، واخلدي للنوم! حسنًا، حسنًا! هل عاد الصبي؟ حسنًا. سوف أرجع إلى البيت عن قريب..

كان هارون قد استدار قليلاً وهو يتكلّم عن طريق الهاتف الخلوي بنبرة مطمئنة مع زوجته. وبدت صورة سيلدا الجميلة والأنيقة تظهر أمام عينيْ فولكان. إنّ الفتاة المسكينة توشك أن يجنّ جنونها، إذْ كانت مؤخّرًا تسير شبه ذاهلة، وفي حالة هي بين النوم واليقظة. كانت في حالة قنوط، ربّما لأنّ زواجها لم يجعلها تتقدّم إلى أمام على الطريق الذي يرسمه الذكاء والريبة وحالات السعد

والنحس العاطفيّة. كانت تنظر إلى العالم المخادع من وراء نظّارة سوداء لم تخلعها قطّ. وكان عندها صبيٌّ في الثالثة عشرة من عمره، متورّد الوجنتين لم يستطع التفاهم أو التواصل مع أمّه أو أبيه. وفي الوقت الذي كاد أن يرمي جهاز هاتفه الخلوي على رأس معلّمه، تدخّل هارون وانتهت المشكلة قبل أسبوع نهاية طبيعيّة بأن تمّ الاستغناء عن المعلّم!

قال بعد أن التفت إلى فولكان:

ـ لا ينبغي لك أن تنسى أنّنا ينبغي أن نبلّغ هؤلاء الناس سلفًا أنّ المناقصة ليست مؤكّدة مائة بالمائة. أنت لا تدري، فقد يتقدّم آخر ويطعم الناس أكثر ممّا نطعمهم.

ـ ليس هذا ممكنًا أيّها الرجل!

ـ أعرف أنّه ليس ممكنًا، ولكن تصرّف وكأنّه ممكن!

* * *

أدرك فولكان أنّ اهتمامه قد تشتّت بسبب الإرهاق، وأنّه لم يعد يصغي إلى نصيحة رئيسه التي كان يقدّمها له بخصوص الاجتماعات التي سوف يعقدها في جنيف في يوم غد. كان النادي شديد الصخب والضوضاء، وكان هارون يتكلّم على أشياء غير مهمّة في حين كان يمارس الحبّ بعينيه مع مغنّية شابّة كانت تعمل سابقًا في عالم الأزياء، وكانت تجلس خلف إحدى الطاولات القريبة.

قال بغتة وهو ينظر إلى فولكان:

ـ أنت مرهق.

ـ نعم، الأسوأ من هذا أنّني لا أكاد أسمعك.

ـ الليل والمزاح لم يبدأ بعد يا صديقي.

كانت الموسيقى ضاجّة في تلك الساعة ومثيرة. وكانت هذه الموسيقى وقوامها مؤثّرات صوتيّة تنطوي على ممارسة الجنس تصمّ الآذان، ترغم أكثر الناس رزانة على الانصياع للغواية والشهوة. والمغنّية التي يبدو عليها وكأنّها تمارس الحبّ أمام لاقطة الصوت في مكان منعزل، كانت تتأوّه تأوّهًا جنونيًّا، وتتعالى صرخاتها في الأجواء على نحو يفقد المرء صوابه.

راح الناس يرقصون من جديد، رقصة غريبة، غريبة حقًّا! كانت النساء يتحرّكن حركات تنسجم وإيقاع الموسيقى، وذلك بأن يدفعن أردافهنّ إلى الوراء، في حين كان الرجال الواقفين من ورائهنّ يدفعون الجزء الأسفل من أبدانهنّ إلى أمام. كانت هذه الحركات التي بدت مرتجلة وموازية لإيقاع الموسيقى، رتيبة وطفوليّة ولاجسديّة إلى حدٍّ كبير. وحتى لو أنّ الراقصين والراقصات كانوا يصطدمون أحدهم بالآخر في غالب الأحيان وسط جموع الروّاد، فإنّ أحدًا منهم لم يستطع مواجهة الثاني وجهًا لوجه، ولم ينظر أحد منهم إلى عيون الآخرين، أو يحاول أحد الاتّصال بالآخر وهو أسير الموسيقى الصادحة التي تصمّ الآذان.

قال فولكان:

ـ انظر إليهم. هذه هي رقصة الوحدة وحالة التفرّد الشديد، وكلاهما يدعو إلى الرثاء والضحك... إنّهم يبدون كقطيع من أغنام خائفة وذاهلة محشورة في زريبة مظلمة!

قال هارون:

ـ لهذه اللحظة الراهنة لا أكثر، إذْ سرعان ما سوف يتعلّق أحدهم بالآخر. هل ترى الفتاة المغنّية، تلك الطفلة المرتدية ثيابًا سودًا؟ إنّها لا تملك أيّ صوت، ولكنّها جميلة. سأذهب لتجاذب أطراف الحديث معها قليلاً.

سار نحوها وجذبها من ذراعها، فراحت ترقص أمام هارون مبتسمة، تهزّ ردفيها. كانت شقراء، فارعة القدّ، وعلى قدر كبير من الحسن والجمال. ما شعور أولئك الفتيات اللواتي لا يملكن أيّ شيء، ويراودهنّ الحلم بالحصول على كلّ شيء عندما يرافقن مغفّلين من أمثال هارون؟ هل كنّ يفكّرن بقوائم الهاتف أو قوائم المشتريات أو الإيجار أو أقساط السيّارة؟

وعلى حين بغتة، لمع في ذهنه خاطر بالنهوض من مكانه والانصراف. قبل أيّام، كان من شأنه أن ينفق ليالي طويلة في هذا المكان، يأكل ويشرب ويستمتع حتى الصباح. أمّا الآن، فإنّ صوتًا كأنّه صوت شبح يناديه من الأعماق قائلاً: هذا مشهد مسرحي، لا هدف له.

قرَّب هارون الفتاة منه وهمس بشيء ما في أذنها، وقرص خدّها وتركها تمضي في سبيلها، ثم رجع يتفصّد عرقًا وجلس ملوّحًا للنادل. كان في حاجة إلى مشروب.

قال فولكان:

ـ ضاق صدري ذرعًا. إنّني مسافر يوم غد.

ـ في هذه الحالة لن أتناول أيّ شيء. لقد ازداد وزني في هذا الأسبوع مقدار كيلوغرامين. ثمّة حديث يدور عن طبيب جديد

لتخفيض الوزن، ويبدو أنّه قادر على جعلك تفقد وزنك باستخدام طريقة قضم الطعام قضمًا مستمرًّا. ما رأيك؟

ـ لا تنفعني مثل هذه الطرق.

ـ أظنّها طريقة تستحقّ أن تجرّبها. تخيّل نفسك وأنت تأكل الطعام في كلّ لحظة.

ـ فتزداد شهيّتك أكثر فأكثر.

غشيهما الصمت. ليلة أخرى محتشدة بكلام قسري، أسئلة تُطرح وأجوبة تُعطى لإثارة حديث قصير. هكذا فكّر فولكان. لكن ما الذي كان يتوقّعه؟ من يبغي ما هو أكثر من هذا في هذا المكان؟

ـ ما الذي يقلقك يا فولكان؟ كنت أريد أن أطرح عليك السؤال، لكنّني لم أستطع تفاديه. ما خطبك؟

ـ لا شيء تحديدًا. صفقات مهمّة واحدة تلو الأخرى. أفكّر في أنّني أعاني بسبب الوحدة.

ثم ابتسم ابتسامة متكلّفة.

ـ ما سبب وحدتك؟ أنت شابّ، بهيّ الطلعة وأعزب... في وسعك امتلاك أيّ امرأة تعجبك وحيثما تذهب ومتى شئت!

قال فولكان مغمغمًا بنبرة هازئة:

ـ ليست لديّ القوّة...

ـ بالله عليك! أنت متوقّد الذهن منذ اليوم الذي عرفتك فيه، أم تراك فقدت حاسّة اللمس؟ هه؟ طرق سمعي أنّ نوبات من الشلل العاطفي الموقّت تستبدّ بك نتيجة إدمانك التوقّف في بلدان مدّة ليلة

واحدة. الناس يلجأون إلى البحث في الإنترنت لهذا السبب. أظنّ أنّ ثمّة الكثير من التسلية في ذلك، وهو علاج للتوحّد...

ـ كلمات فارغة بلا معنًى، وأكاذيب ومزاعم.. هذا كلّ ما هنالك.

ثم لوّح بيده وكأنّه يريد أن يقول: إنسَ الموضوع!

قال هارون:

ـ هه، هل شاهدت المواقع الإباحيّة الجنونيّة؟ إنّك أنت الذي يدير كلّ شيء.

ـ إنّها مثبِّطة للهمّة.

ـ إلى حدّ ما، ولكن مثل هذه الفانتازيات تفيد الناس من أوجه متعدّدة. إنّ الجنس أكثر الطاقات المنطوية على إبداع، والطريق إلى النجاح والسلطة يمرّ به. وما أقوله ينطبق على السياسة أيضًا. انظر إلى حال البلد! إنّ كلّ الناس الذين يحكموننا وضيعو الشأن.. صدّقني هذا هو السبب في خراب كلّ شيء.

ـ على الرّغم من عدم وضوح من الحاكم ومن المحكوم، فإنّ تلك مسألة لا يجب صرف النظر عنها وتجاهلها.

ـ اسمعني أيّها الصديق! لا تكن مصابًا بفصام الشخصيّة وتنهار. ثم لا تنسَ أنّنا سنعيش أيّامًا أفضل، فلا تضيّع نفسك الآن.

قال فولكان ضاحكًا:

ـ لا تقلق. إنّني مهتمّ بنفسي الاهتمام كلّه. كلّ ما هناك هو أنّني مرهق من الخيالات العابرة والعلاقات الخانقة. هذا هو السبب.

الحقّ أنّه تجاهل ـ بخوف غريزي ـ أن يطّلع هارون على حياته الخاصّة، لأنّ هذا الرجل مهذار، لا يحتفظ بسرّ، لا سيّما في مثل هذه الموضوعات.

قال هارون:

ـ ينبغي لك أن تذهب إلى مكان ما كي تروّح عن نفسك، وليس لكي تقيم علاقات. ثمّة تطوّرات جديدة في هذا المجال.

ثم مال باتّجاه فولكان كي يسمعه صوته، وأضاف:

ـ هذا آخر ما لديّ من أخبار. لقد دخلت واحدة من هؤلاء النسوة السوق وهي تعرف الكثيرين، وهي عميل سرّي أو شرطيّة أو شيء من هذا القبيل. وتوظّف المتخرّجات من الجامعة والفتيات المثقّفات. وثمّة ضمان بأنّ أعمارهنّ تقلّ عن العشرين سنة.

ـ نعم. أليس غريبًا أنّ هذه الأنثى الضامنة، المعروفة جيّدًا بإقامة الحفلات في منزلها، تتسكّع على هواها وتستخدم متجرها الممتاز مكتبًا؟ ثم ما الذي تضمنه؟

ـ آه، أرى أنّك مطّلع على كلّ شيء. ضمانها هو سعادة زبائنها ورضاهم يا صديقي. النظام يعمل على ما يرام، والفريق ممتاز! وليس ثمّة ما يصيبك بالصداع، مثل الشرطة والمداهمات والفضيحة. ثمّة إسناد أمني لا حدود له. يضاف إلى هذا أنّ الفتيات يعملن ضمن دائرة معيّنة من أجل المشاهير والمميّزين. تجارتهنّ مثل تجارتنا: خدمات وساطة عالية المستوى.

قال فولكان وهو يغصّ كأنّ شيئًا انحشر في بلعومه:

ـ بالله عليك...

ـ هذا صحيح. ثمّة ربح في كلّ نمط من أنماط الوساطة التجاريّة، لهذا ثمّة ما هو غير أخلاقي بهذا القدر أو ذاك. صحيح؟ على أيّ حال، أنت تهيّئ المكان، مكان لطيف كالبيت، وهو الشيء المفضّل، فتجلس وتتحدّث عن الموسيقى والشعر والسينما. وتتحدّث إليك فتاة عن فيلم كازابلانكا أو عن رامبو أو عن الخيميائي أو عن شفرة دافنشي... وتصغي أنت إلى موسيقى موزارت أو إلى ليونارد كوهن. وبينما يلامس أحدكما الآخر لمسًا خفيفًا وترشفان من شراب الشمبانيا، ينشأ بينكما جوّ رومانسي ثقافي، فتزداد الإثارة...

ـ لقد زيّن البائع القصّة القديمة وزوّقها تزويقًا لطيفًا، وسرعان ما سوف يصوّرون الإعلانات التجاريّة أيضًا.

ـ الكلّ يتحدّث عن جمال الفتيات ونوعيّتهنّ. ليس ثمّة مزاج سيّئ أو عبوس أو مشاحنات، ولا غيرة ولا حمل ولا حديث عن الزواج أو عن الطلاق.

ـ الجنّة بعينها تقريبًا...

ـ إنّني جادّ في كلامي... إنّهنّ يتلقّين الأوامر بحسب الطلب. ويبدو أنّ ثمّة فتيات مدرّبات على إقامة حفلات مفاجئة وعلى ممارسة الجنس الجماعي، ويوفّرن خدمات المرافقة، بل حتى الرجال.

ـ حسنًا، ليس في هذا أيّ شيء جديد.

ـ الشيء الجديد هو الفتيات! فكّر وحسب. فتيات مثقّفات كالدمى، نفقات ضئيلة، فتيات صغيرات يرضعن الحليب من أُسر

طيّبة، وغلمان متأنّقون! كلّ ما هو مطلوب منك الاتّصال بهم، فتجدهم يأتون بهنّ حيثما شئت.

الواضح أنّ هارون كان يستفيد من هذه الخدمة. لهذا ألحّ قائلاً:

ـ ألا يهمّك الأمر؟

ـ إنّ ما يثير اهتمامي أكثر من أيّ شيء آخر في هذه الأيّام هو الذهاب في رحلة سفاري إلى أفريقيا. لعلّني لست راضيًا كثيرًا عن صورتي.

ـ هه! أنت رجل رائع ووسيم جدًّا، أم هل تراك قرّرت التوقّف بسبب زيادة وزنك؟ يُضاف إلى هذا: أنت تعلم أنّ الفتاة التي ستدفع لها المال ليست مضطرّة إلى أن تهواك.

تلك هي تمامًا مشكلة فولكان، فالمرء الذي يدفع الثمن، هو الذي يتمتّع بموقع أكبر. غير أنّ المشكلة تتمثّل في أنّه لم يعد متأكّدًا إن كانت ممارسة الجنس مع امرأة تتحمّله على مضض من أجل المال، أفضل من ممارسة العادة السرّيّة، فممّا يفقده شجاعته ويثبّط همّته هو أنّه يستثار بفعل الثراء الصوري والبصري للجنس المدفوع ثمنه، ومن بعد ذلك يتحمّل التفاهة التي تعقبه. عند هذه النقطة بالذات، كان فولكان يشعر بالتعاسة والإحباط والعجز، ثم بالوحدة القاتلة، الحقّ أنّه لم يعد قادرًا على مضاجعة البغايا.

قال هارون:

ـ الليل طويل، وسأذهب إلى مكان ما رفقة تلك الفتاة. إنّني لا أريد العودة إلى المنزل، فأنا لست على ما يرام مع سيلدا، وهي

تصرّ على الطلاق. هذا أمر صعب، بل غير معقول! أحيانًا أشعر وكأنّني أخنقها.

ثم رنا إلى فولكان وكأنّه يطلب الرحمة.

قال فولكان مختصرًا الحديث:

ـ سوف تتحسّن الأحوال، وسوف تكون بخير.

كان الموضوع حسّاسًا.. ولم يكن مضطرًّا إلى طرح وجهة نظره، وكانت سيلدا مريضة ـ وأضاف فولكان:

ـ لقد صادفتك مثل هذه الظروف من قبل، كما أنّ هذه الأشياء تحدث دومًا. ألم تعد تذهب إلى الطبيب النفسي؟

ـ إنّها تذهب، كما أنّ لديها علاجًا! اسمعني! إنّني لا أضمر لها إلّا الخير وأنا أحبّها حبًّا جمًّا. المشكلة أنّ النساء يتوقّفن عن الحبّ، ولهذا لم يعد الهوى منقذًا. لا بدّ من التغيير بسرعة. كما أنّ الإحساس بالقرب يتحوّل إلى سأم وضجر بمرور الوقت.

قال فولكان مندهشًا من حماقته:

ـ لا تخيفني، فأنا عاطفي جدًّا في هذه الأيّام. إنّ المرء يبحث عن شخص ما حقيقي، ودائم، بعد أن يصل عمرًا معيّنًا.

ـ يا لها من فكرة جميلة، حلم...

ـ ينبغي للمرء أن يعثر له على المرأة المناسبة، وربّما يدوم الحبّ بعد ذلك.

ـ لا تؤمن بالحبّ. يمكن للمبتدئين والأولاد أن يدبّروا أمرهم، أمّا الناس الذين مرّوا بتجارب كثيرة مثلنا، فإنّ الأمر صعب عليهم.

قال فولكان وكأنّه يشكو أمره:

ـ إذا ما ضيّع المرء الحبّ، فإنّه ينقلب إلى حيوان مريض وُلد معاقًا.

ـ لا، لن يضيع أيّ شيء، بل سوف يتمالك نفسه ويصبح مستقلًّا أكثر من ذي قبل ويكتشف نفسه.

* * *

في فضاء النادي الكبير المحسَّن، ثمّة أماكن مقسّمة تفصل بينها ألواح منخفضة، تُفيد بوصفها زوايا هادئة تسمح بممارسات أكثر حميميّة في الساعات الأخيرة من الليل، وهي تجاويف مظلمة تشبه المقصورات في المسرح. ويمكن للناظر أن يشاهد الناس وقد جلسوا متقاربين جدًّا أو يتبادلون القبلات. وبعد ساعة معلومة، يوفّر الضوء فوق البنفسجي، الذي كان يرمش في الوقت المحدّد على إيقاع أنغام موسيقى المرقص، جوًّا رخيصًا ومثيرًا للهروب. لكن كيف يمكن لكلّ هؤلاء الناس أن يبقوا من دون حبّ؟ هل تحوّل الحبّ الآن إلى لعبة من لعب الأطفال في عالم الأنانيّة والأكاذيب؟

هكذا بدت الأمور. سرح فولكان ببصره نحو الحشد في شفقة. كلّ ما كان يحدث في العالم، وكلّ ديناميّات التحوّلات المهمّة وأنّ المدنيّة تسير مسرعة نحو إحباط، كان مثار اهتمامهم من وجهة نظرهم فحسب. كان رأيهم عمومًا يتلخّص بالبقاء بعيدين عن كلّ مصائب الآخرين. فهم لا يرون ولا يسمعون ولا يعرفون. أمّا طموحاتهم ووحدتهم وقلقهم فهي كلّها خاصّة بهم. هذا هو عالم

المال. كان يعرف جيّدًا أنّ معظم هؤلاء الناس كانوا لا يعبدون إلّا المال، ويؤمنون بأنّ كلّ أنواع الرضا يمكن شراؤها بالمال. المال هو الأداة الوحيدة للحبّ والسلام والصحّة والسعادة، والحرّيّة بطبيعة الحال...

كان فولكان قد توقّف منذ مدّة عن الإحساس بالفضول لمعرفة ما يؤمن به هؤلاء الناس، أو أين ينفقون أموالهم، وكم هو عدد العشيقات اللواتي يبدّلوهنّ في الأسبوع الواحد، وما الأماكن التي يسافرون إليها من مختلف أرجاء العالم، وما الوسائل التي يلجأون إليها للتعبير عن أنفسهم، وأيّ أطبّاء ومتخصّصين بمعالجة الأمراض يرتادون عياداتهم؟ ليس ثمّة شيء لا يعرفه عنهم.

لكنّ ثمّة شيئًا واحدًا لم يستطع فهمه. كيف يمكن لهؤلاء الناس، الذين عاشروا من النساء ومارسوا الجنس وإيّاهنّ مرّات ومرّات من قبل، واللواتي لجأ هؤلاء الناس إلى استبدالهنّ بغيرهنّ وفقدوا اهتمامهم بهنّ تمامًا، أن ينظروا إلى أولئك النساء بوصفهنّ نساء أخريات في هذا المحيط وتحت هذه الأضواء؟ ما التوقّعات التي تدور في أذهانهم عندما يغادرون النادي معًا عند آخر الليل؟ على أيّ حال، لا شيء يدعو إلى العجب، فقد كانت تلك العلاقات علاقات متكرّرة ويائسة، علاقات سِفاح متواصلة لأسرة كبيرة.

* * *

عندما طلب هارون الإذن بدعوة الفتاة التي كان يراقصها إلى طاولتهما، نهض فولكان من على مقعده وقال إنّه ليس على ما يرام وإنّه سيغادر إلى المنزل كي ينام. لم يكن مزاجه رائقًا كي يسمح له

بتحمّل الاثنين معًا، فضلاً عن أنّ انصرافه كان على ما يبدو أمرًا متوقّعًا من هارون.

وبينما هو يجتاز الممرّ والنوافذ ملوّنة الزجاج، فكّر أنّه لا بدّ أن يُجري تحوّلاً في حياته. ولسبب ما، لم يعد أيّ شيء في تلك اللحظة كما كان عليه قبل ثلاثة أعوام أو ثلاثة أشهر أو حتى ثلاثة أيّام. كانت وحدته أشبه بانزعاج يحلّ بشخص ضجر من الوسائل المألوفة للرضا الذاتي، وراح يفكّر بالخيارات المتوافرة أمامه. وتمنّى لو أنّ تحوّله يمكن أن يكون تحوّلاً كبيرًا يوسّع من مدياته وحدوده وليس العكس.

كان يسكن في شقّة في ببيك، ولدى وصوله إليها، ترجّل قرب بوّابة الحديقة وطلب من سائقه الانصراف، كان الليل هادئًا وباردًا، والبحر في الجهة الأخرى من الشارع مظلمًا ومضيئًا. وشعر بدفء الخمرة وطعم السيكار الذي أطفأه قبل قليل يسري في أوصاله. استقلّ المصعد إلى الطبقة العليا وهو يشعر بالإنهاك وتبلّد الإحساس والشيخوخة، إذْ كان مؤخّرًا يرتقي السلالم للتمرّن قليلاً.

كانت الأعوام تمضي سريعًا وبدأت الشروخ بالظهور. ما الذي جرى لذلك الرجل الشابّ السعيد؟ كان في السابعة والثلاثين، وربّما سوف توافيه المنيّة بنوبة قلبيّة قبل أن يتجاوز سنّ الأربعين. وفي تلك الحالة، لا معنى للنجاح وجني المال وممارسة الحبّ أو عدم ممارسته.

كان منزله جميلاً ودافئًا، وكلّ شيء فيه مرتّب ترتيبًا حسنًا. فالمنظّفة أدّت واجبها في تنظيف كلّ شيء. وفي وقت مبكر من فصل الصيف، وهو الوقت الذي راح فيه يستسلم لنوْبات القنوط

والإحباط، عمد إلى تغيير منزله وإن لم يكن التغيير واردًا في ذهنه قطّ، لكنّه على الأقلّ ظلّ منشغلاً بعض الوقت بهذه الشقّة الجديدة التي اشتراها، وأجرى عليها تحويرات وإضافات بحسب ذوقه.

وفي شهر آب سافر إلى البندقيّة وروما والدانمرك في رحلات كانت من أجل العمل من جهة والتسلية من جهة أخرى، وأنهى إجازته بجولة في الجنوب استغرقت خمسة أيّام، بيد أنّه لم يستمتع بكلّ هذا السفر. كان الصيف يتعبه ويضنيه، وروحه تخلو من الحبّ أو الكره أو الطعم.

جال ببصره في أرجاء بيته. ثمّة أريكة مصنوعة من جلد الظبي الأبيض وكرسيّان أسودان في غرفة الجلوس الفسيحة. أمّا أجهزة الصوت ومعدّات المسرح المنزلي فقد كانت خفيّة على نحو ذكي. ما من شيء مزوّق من غير ذوق، وما من قطعة موضوعة بإهمال. كلّ شيء بسيط وكاف. وكانت الأرضيّة مغطّاة بمادّة اللينوليم المتينة الصنع وذات اللون الأبيض البرّاق، ومن فوقها سجّادتان صغيرتان بيضاوان وطويلتا الشعر. وكانت الأشياء الملوّنة الوحيدة في الغرفة متمثّلة باللوحتين المجرّدتين لفاندي.. الأولى فوق رفّ المدفأة، والثانية على الجدار خلف الأريكة.

* * *

ذهب إلى سريره، ولكنّه لم يكن نعسان. ولم يعلّق الطبيب الذي يتردّد عليه بشيء على أرقه وإرهاقه، بل كان يلتزم الصمت معظم الوقت ولم يصف له سوى دواء جعله مثل خرقة مسح بالية. الواضح أنّ التحوّلات التي تحدث في كيمياء الدماغ ينبغي أن تستبدّ بغيرها. هل هذا أمر بسيط؟ ولهذا كان قد رمى الأدوية في القمامة

وتوقّف عن الذهاب من أجل العلاج قبل شهر واحد. كان يذهب إلى ذلك الطبيب ينشد العون كي يرسم له ممرًّا ضيّقًا يمرّ به وسط الصحراء التي سقط فيها، متوقّعًا أن يجد من ينقذه من العذاب الذي استبدّ به نتيجة لفقدانه أشياء معيّنة... مؤملاً أنّ ذلك شيء، بغضّ النظر عن ماهيّته، يمكن أن يعود أو يرجع إليه إذا ما بذل جهدًا حقًّا...

أطفأ النور، وبعد أن استلقى في الظلمة مكوّرًا على نفسه، اشتاق إلى من تضع ذراعيها من حوله وتشدّه بقوّة إليها، اشتاق إلى الهدوء الذي كان يشعر به بين ذراعي نيلهان قبل زمن طويل، حتى في الليالي التي لم يمارسا الحبّ!

كانت نيلهان ابنة أحد أقارب والدتها الأبعدين، رحلت أسرتها مهاجرة إلى الولايات المتّحدة وهي في سنّ الرابعة. وبدأ الأب حياته خادمًا في أحد الفنادق ثم راح يعمل في مختلف الأعمال مثل بيع الفواكه وسياقة سيّارات الأجرة وتمكّن من تربية طفليه الاثنين. وتلقّت نيلهان تعليمًا جيّدًا في مادّة الرياضيّات وعلوم الحاسبات، وسرعان ما تبوّأت مكانة جيّدة بصفة مهندسة موهوبة، وراحت تشتغل في إحدى الشركات في هاواي، متخصّصة في إجراء أبحاث في تقنيّات البرمجة الاستكشافيّة، وكانت هي التي سعت إلى تمديد بعثة فولكان ورتّبت أموره كي يسافر إلى هاواي بعد نيويورك، وعثرت له على وظيفة في أحد المصارف.

لم يلتقيا من قبل، ولمّا أصبح سفره إلى الولايات المتّحدة مؤكّدًا، جرى ذكر اسمها في منزل فولكان. وكان أوّل لقاء بينهما في مشرب في الشارع الخامس بمدينة نيويورك في إحدى أمسيات

شهر نيسان. كانت امرأة عاديّة، مكتنزة قليلاً، ذات ردفين واسعين وشعر بنّي، وكانت عيناها الخضراوان المائلتان إلى الزرقة أجمل شيء فيها، إذْ كانتا مدهشتين مثل بحر عميق.

كانت أكبر سنًّا من فولكان بزهاء العشر سنوات، في نحو الخامسة والثلاثين يومئذٍ. وكانت تبدو جميلة وجذّابة من تحت أضواء الحانة المتقطّعة. وكان نهداها الأبيضان الممتلئان اللذان يمكن رؤيتهما من خلال قميصها المفتوح جزئيًّا، يعلوان ويهبطان في حركات عفويّة وعذوبة مدهشة عند كلّ حركة تقوم بها ممّا لفت انتباهه. وكان فولكان يعبّ الشرب على نحو جادّ أوّل مرّة في حياته، وبينما هو يحتسي الشراب كان يراوده إحساس بالخفّة كأنّ ذهنه صاف. تحدّثا عن الأسرة والجامعة والولايات المتّحدة وتركيا.. وضحكا كثيرًا. كانت نيلهان تنظر إليه على النحو الذي تنظر فيه امرأة واثقة من نفسها إلى رجل يروقها، محاولة أن تفكّر إن كانت ثمّة علاقة ستنشأ بينهما. ماذا لو نشأت؟ ما دام أنّها هي التي أرادتها، فإنّ فولكان لن يمانع، غير أنّ مثل هذه الأمور ينبغي أن تتحقّق وفق خطّة، وبرنامج، وليس في عجالة أو على نحو مكشوف وبمثل هذا الاندفاع.

في تلك الليلة، صحبته نيلهان إلى فندقها الذي تقيم فيه قائلة إنّها لا تريد أن تكون وحيدة. وتحوّل خوف فولكان من الإقدام على ارتكاب عمل خاطئ إلى قلق من ألّا يكون ندًّا لها. إذًا هكذا تسير الأمور في الولايات المتّحدة، ويسرع الناس في ممارسة الجنس. لم تكن لديه تجربة واسعة، بل لم يكن على استعداد لأن يجد أمامه امرأة لا يعرفها وترغب في لمس جسده. على أيّ حال، أدرك أنّ

المرأة كانت في حاجة إلى اتّصال جسدين عاريين، فرضخ لها.

استمرّ الاثنان على اللقاء بين وقت وآخر كلّما جاءت نيلهان إلى نيويورك. ولمّا فرغ من دراسته الجامعيّة، قرّر السفر إلى هاواي ليكون في معيّتها بدلاً من الرجوع إلى تركيا.

كانت حياته الجديدة تبدو أحيانًا مفاجأة جميلة. أنثى مشبوبة العاطفة ومناظر طبيعيّة خلّابة وطقس رائع وحدائق غنّاء ومتاجر جميلة وحياة رغد، وثروة.. ووظيفة لا تبعث السأم في النفس. كان لنيلهان ذوق بسيط، ولم تكن متعبة فضلاً عن امتلاكها مروحة واسعة من المعارف. وهذا أمر له فائدته وتأثيره الخطير في تقدّمها.

عاشا في منزل جميل ذي حديقة، لكن لم يمنح أحدهما نفسه للآخر تمامًا. كانت نيلهان تعمل على تلطيف جسده وتقلّل من صرامته، وتفتح قبضتيه وتساعده على النوم فوق نهديها وكأنّه طفل صغير. كانت تعلّم الغطرسة والحياة والمرح لشابّ خجول يعامل النساء باحترام. أمّا فولكان، فكان يخشى أن يتحوّل الامتنان الذي يشعر به نحوها إلى جوع متواصل وحرمان، بل حتى تضحية بالنفس.

بعد ثلاثة أعوام، رُقّي إلى موقع معيَّن في المصرف الذي يشتغل فيه. وكان أثناء ذلك قد اكتسب قدرًا كبيرًا من ثقته بنفسه، وبقدراته، وكان متأكّدًا من أنّه سرعان ما سيصبح رجلاً يجذب الانتباه إليه، غير أنّه أظهر النجاح نفسه في اكتساب «شخصيّة» مستقلّة؛ وبمرور الوقت، راح يشعر بالقلق وعدم الارتياح، بعائق وكأنّه مثبّت بوتد إلى الأرض. وبدأت بعض الخلافات البسيطة والتناقضات المؤجّلة أو المرفوضة تطفو على السطح بينه وبين

نيلهان. ولم تعد كلّ العواطف الإيجابيّة المألوفة بقادرة على تهدئة روحه كالسابق. وبدلاً من أن يقبل بما كانت المرأة توفّره وتضعه أمامه، فإنّ رغبته المتأجّجة كانت متمثّلة في المعاناة إذا ما اقتضت الضرورة، وأن يبذل جهدًا في الاحتفاظ بما كان يمثّل خياره الشخصي.

وانتهت المشكلة عندما عُيِّنت نيلهان في نيويورك بصفة مدير المصرف المالي، فأنهيا علاقتهما من دون عذاب يُذكر وكأنّهما كانا يتوقّعان هذا الشيء. وبعد مرور سنوات، اكتشف فولكان أنّ زياراتها المتكرّرة إلى الدائرة المركزيّة لها صلة بمسؤول رفيع المستوى كانت تربطه بها علاقة غراميّة.

* * *

عندما فكّر في كلّ النساء اللواتي كنّ جزءًا من حياته، تذكّر أسماءهنّ، ولكنّهنّ لم يؤجّجن ناره. تذكّر البعض منهنّ بشوق وحنين دافئين، والبعض الآخر بألم صامت مرهق. ثمّة اسم واحد في فؤاده ظلّ يحميه وكأنّه جوهرة ثمينة، وهو اسم كارول. كان فولكان قد جعلها تعتقد أنّه يحبّها، ولكنّه قضى على أحلامها بإهمال بشع متأصّل فيه. المؤكّد أنّ كارول فعلت الشيء نفسه له بشكوكها ولسانها السليط الغاضب.

وعلى حين بغتة، فاجأه إحساس بأنّ اللحظة الراهنة والماضي كانا يسيران معًا بوصفهما عمليّتين تؤثر إحداهما في الأخرى وتعدّ العدّة لها. كان الحاضر ينقله إلى ماضٍ متراكم، وكان الماضي ينقله على الدوام إلى نماذج جديدة من مواقف سابقة يُعتقد أنّها باتت في طيّ النسيان منذ زمن بعيد.

والمستقبل؟ كان الإحساس بكونه يخلو من الأسرار يحول بينه وبين النظر إلى المستقبل، الذي كان فضاءً بعيدًا وخاويًا ومنطقة حالمة ملؤها الأحلام والأوهام.

كان فولكان يتقدّم تقدّمًا سريعًا في العمر مثل فراشة لا تعيش سوى يوم واحد.

* * *

٤

نزلت إيلام عند مدخل الشارع، وسارت فيه منعطفة إلى جهة اليمين أوّلاً ثم إلى جهة الشمال مرّتين. كانت العمارات السكنيّة مصطفّة جنبًا إلى جنب على نحوٍ جعل الشوارع تبدو أشبه بجدران إسمنتيّة، بل إنّ هذه الشوارع ازدادت ضيقًا بسبب السيّارات المركونة على كِلَا الجانبين. وكانت صيحات لاعبي كرة القدم والأغاني العربيّة والأصوات الصخّابة المنبعثة من الأشرطة السينمائيّة المحلّيّة القديمة التي تصدح بها أجهزة التلفاز تتدفّق عالية من النوافذ المفتوحة التي لم تحظ بأشعّة الشمس. ولم تفلح حتى أصوات الطبول الصادرة عن محلّ الموسيقى الكائن على مقربة منها، في تخفيف حدّة الضجيج الذي كان يشوّش العقل ويربكه في هذه الساعة من المساء.

كانت قد انصرفت من عملها في الساعة السادسة، وها هو الوقت يقترب من الساعة الثامنة. المؤكّد أنّ الوصول إلى شقّتها

ليس بالأمر السهل، غير أنّها كانت قد اضطرّت إلى استئجارها لأنّ إيجارها رخيص أوّلاً، ولأنّها قريبة من أختها، لكنّ الذهاب إلى العمل والعودة إلى الشقّة كان يستغرق منها مدّة ساعتين يوميًّا بسبب الازدحام في الطرقات، ممّا كان ينهك قواها ويستنزف طاقتها.

كان الشارع غارقًا في انعكاسات لون المصابيح الأزرق الخافت المنبعثة من محلّ بيع المياه ومحلّ المعجّنات ومحلّ البقالة، وشاهدت موزّع الماء الأسمر والوسيم يتقدّم إلى جهة الباب. وشعرت أنّ عينيه حدّقتا إليها أثناء مرورها من أمامه. وكانت قد انتقلت للسكن في العمارة الكائنة على الجانب الآخر من الطريق قبل أسبوعين، وكانت تخرج في صباح كلّ يوم وتعود مساءً. لعلّه يفكّر في هويّة هذه المرأة الغريبة، أو لعلّه يكتفي بالنظر إلى ساقيها، لأنّها كانت قد قصّرت كلّ تنّوراتها قبل أسبوع.

عبرت الشارع، وشعرت بازدياد ضجيج الغبار الذي عرفته في مساء الصيف الهندي البارد في أذنيها. كانت ما تزال تحيا بوصفها متفرّجة وليست مشاركة في هذه المحلّة. وتراقب كلّ شيء من حولها مراقبة عاطفيّة وليست عميقة أو عن فهم، بل راودها الإحساس أنّها امرأة غريبة تمامًا ولازمها إحساس مثير للانزعاج بأنّ ثمّة من يقتفي أثرها. الأطفال أنفسهم لاحوا لها مقزّزين وبغيضين ووقحين ومنفّرين أحيانًا. وظنّت أنّ النظرة التي كانت ترشقهم بها في مثل هذه الأحيان ربّما كانت تنطوي على قدر معيّن من العنف، فشعرت بالخجل.

المؤكّد أنّها ليست عمياء. فهؤلاء الناس يعيشون في ظلّ ظروف قاسية، وهم يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة،

وكانوا منشغلين تمامًا في محاولة التغلّب على مخاوفهم من الوحدة وذلك بإثارة الجلبة والضوضاء، لكي يكونوا منسجمين وقواعد المدينة ويستحقّوا طعامهم في وقت حاولوا فيه شحذ هممهم كي يزدادوا قدرة على التحمّل. ولم يُبدوا أيّ قدر من الاهتمام إن كانت «طبيعة البشر أو النسيج الثقافي في المدينة قد تدهور شأنهما، فقد سادت ثقافة بدويّة غريبة للأحياء القذرة والفقيرة». صحيح أنّ الثروة والثقافة جعلتا كلّ شيء جميلاً، في حين شوّه الفقر والجهل الأشياء إلى أبعد حدّ ممكن. تحسّست في فمها طعم مرارة الشاي الذي شربته من دون سكّر في الاستراحة بعد ظهر ذلك اليوم. أفكارها لا تناسب واقع حياتها الخاصّة التي تعيشها. هذه هي منغّصات الأثرياء. وكان أشدّ ما يثير قلقها في الوقت الراهن هو صعوبة تأقلمها في هذا الحيّ الذي يحتشد بمتخلّفين ومخبولين ومتشدّدين، وحيث يجلس رجال بثيابهم الداخليّة ونساء يغطّين رؤوسهنّ بأوشحة قرب النوافذ والشرفات الضيّقة، وحيث تتسلّل من بين أعمدة الضياء أصوات تنظيف الأنوف والحناجر وزعيق الأطفال. ينبغي لها أن تكيّف نفسها في هذا الجوّ كلّه شاءت أم أبت. إنّ الاضطرار إلى الانتماء إلى هذا المكان سيهيمن عليها، وعليها أن تقبل بالمكان الذي تسكن فيه. ففي الوقت الراهن، لا تملك ما يفيدها للسكن في أيّ مكان آخر. الوقت الراهن؟ من يدري إن كان ثمّة وقت غير الوقت الراهن؟!

بينما كانت تفتح الباب، تساءلت عمّا يخبّئ لها القدر أو تخبّئه لها حياتها الجديدة. هل يفيدها أن تعرف؟ إنّها غير متأكّدة. قبل وقت طويل من بلوغ سنّ الرشد، يفكّر الإنسان بأنّ المستقبل يتكوّن

من ربيع دائم ومفاجآت سارّة وهدوء واستنارة عقليّة وروحيّة. ولم يفكّر المرء، أو لعلّه لا يريد أن يفكّر أنّ ذلك المستقبل ينطوي أيضًا على آلام وأحزان وفقدان ومصائب كبيرة.

وكما هو مألوف، كان بئر السلم تنبعث منه روائح الفلفل الأخضر المقلي والبصل المحروق والمجاري. دلفت إلى شقّتها واجتازت الردهة حيث كانت صناديق الكتب ما تزال مكدّسة.. دخلت إلى حجرة الجلوس وأضاءت النور، وأسدلت الستائر. كان أسوأ ما في هذه الشقّة الكائنة في الدور تحت الأرضي هو سهولة مراقبتها، أو، على الأقلّ، ذلكم هو الانطباع الذي كانت تعطيها إيّاه. لحسن الحظّ، كانت حجرة الجلوس هي الوحيدة المطلّة على الشارع. أمّا حجرة النوم عند نهاية الممرّ، فكانت تطلّ على حديقة المبنى الخلفيّة، والحديقة التي كانت غير مشذّبة، تحتشد فيها الأعشاب الضارّة. وعلى الرّغم من أنّ الباب ذا القضبان الحديد لم يمنحها ما يكفي من الثقة، فقد فكّرت في قطع الأعشاب ووضع منضدة متنقّلة هناك حالما يحلّ وقت الربيع. ولو لم تمانع في الشرفات الخلفيّة العليا التي تحتشد بحاجيات قديمة يعلوها الصدأ، وتتعالى من بينها أصوات نباح الكلاب باستمرار، لحظيت ببقعة صغيرة تستطيع أن تتنفّس فيها، وأن تحتسي شاي الصباح أو شاي المساء في أغلب الأحيان.

كان الخوف الذي يتلبّسها من أن تكون موضع مراقبة يلازمها منذ طفولتها. وكان الله يمثّل قوّة جبّارة لها منذ زمن بعيد، فتزداد هلعًا. فهو يراقب الناس من فوق ويعرف كلّ شيء بلمحة بصر ومن دون أن ينظر، ولهذا كانت تخشى كثيرًا ارتكاب خطأ ما. يضاف

إلى هذا، أنّ العالم مملوء بالخطايا في كلّ زاوية من زواياه. عندما كانت صغيرة السنّ، كانت تقترف أخطاء لا تُحصى عن جهل فظيع، فيتملّكها الحزن العميق والإحساس بالذنب من بعد ذلك. وكانت في كلّ ليلة تتضرّع إلى الله أن يسمع توسّلاتها ودعواتها كي يغفر لها، وكانت تدعو الملائكة إلى مسح خطاياها من صحيفة الآثام. وأدركت في وقت متأخّر أنّ العار الذي كانت تشعر به لم يكن ناجمًا عن فعلها الذي ارتكبته بل عن صفة جنس الأنوثة الذي هو جنسها.

هذا هو السبب الذي جعلها تتحمّل عذاب كلّ ما حدث وكلّ ما لم يحدث لها منذ زمن بعيد ولكنّه كان محتمل الحدوث في أيّ لحظة. وأخيرًا، وعندما بلغت سنّ العشرين، قرّرت أن تدفن في الماضي كلّ آثامها ومعتقداتها مع اسمها، وكانت تتذكّر أحيانًا اسمها القديم موتينا بإحساس لا يبعث على الراحة بسبب حميميّة الاسم، ولكن عندما آمنت بأنّ الاسم يعني «مميّز»، وهو عكس قدرها، وأنّه لن يكون سوى يأس لا نهاية له، لم تتردّد لحظة في التخلّي عنه.

ولم تتخلَّ عن اسمها على نحو قانوني، بل بترك ذلك الاسم في هويّتها القديمة والبدء بتعريف نفسها بالاسم الجديد.

واستغرق الطريق المؤدّي من موتينا إلى إيلام زهاء خمس سنوات. المؤكّد أنّ ابتكار إيلام لم يكن في بادئ الأمر سهلاً. فالاسم الذي كانت تستخدمه في التحويلات الماليّة والأماكن التي كانت تشتغل فيها كان ما يزال هو نفسه الاسم الذي خلعته عن نفسها كما تخلع الحيّة جلدها. وكانت في حاجة إلى وقت أطول

حتى تنساه وتمحوه محوًا نهائيًّا، بيد أنّ الشيء المهمّ هو ماذا تسمّي نفسها.

انتعلت خفّها وخلعت سترتها ووضعتها على ظهر أحد الكراسي. لقد مضت خمسة أسابيع الآن على وصولها من مدينة أنقرة. ولسبب من الأسباب، ظلّت السنوات التي أمضتها هناك بعيدة جدًّا على ما يبدو. وقد عثرت لها أختها على هذه الشقّة وقامت بطلائها من دون اهتمام. وكان المطبخ والحمّام في جانب الممرّ الصغير، يستمدّان ضوءهما من ممرّ تنبعث منه رائحة العفن والبول، وكان الاثنان مظلمين على نحو يضطرّها إلى إشعال النور ليلاً ونهارًا.

ولمّا كانت قد بدأت عملها من فورها، فقد اضطرّت إلى أن تقطن رفقة أختها مدّة أسبوعين واشترت بعض الأثاث أثناء ذلك. وضعت الثلّاجة والأريكة السريريّة في حجرة الجلوس. كما اشترت جهاز تلفاز قديمًا من أحد تجّار الموادّ المستعملة. أمّا السرير وخزانة الكتب المتنقّلة والطاولة الصغيرة المقلقلة والكراسي المخلّعة الأوصال، فكانت ممّا تخلّى عنه أصحاب المنزل الذي كانت أختها تذهب إليه لتؤدّي مهامّ التنظيف فيه. وكان أوّل شيء تفعله بعد انتقالها إلى هذه الشقّة هو تقوية منضدة الكتابة بشريط لاصق تركه ساكن الشقّة القديم، ووضعت عليها جهاز حاسوبها. كانت تلك هي صلتها الوحيدة بالعالم في ذلك الوقت.

كانت قد أحضرت معها من أنقرة ثيابها وكتبها. كانت تملك الكثير من الكتب. على أيّ حال، سوف تهتمّ بترتيبها في عطلة نهاية الأسبوع، إذْ كانت وظيفتها الجديدة تتطلّب العناية والاهتمام، وكان

الانتقال من الشقّة إلى العمل وبالعكس صعبًا بسبب شدّة ازدحام المواصلات، وعند رجوعها إلى الشقّة تكون مرهقة إلى أبعد الحدود، تتناول وجبة سريعة من الطعام، سرعان ما تستلقي بعدها على السرير. ولمّا كانت تتناول وجبة الغداء الرئيسة في محلّ عملها، فإنّها لم تكن لتشغل نفسها كثيرًا بتناول الطعام أو إعداده. أمّا في المساء، فكانت تكتفي بشرب الشاي المركّز.

وعندما استدعيت لإجراء المقابلة، فكّرت أنّ الحظّ راح يبتسم لها أخيرًا، غير أنّ المشقّة والجهد اللذين رزحت تحتهما في الشهر الماضي جعلاها تشتاق إلى أنقرة وإلى غرفتها القديمة في الطبقة الثالثة من مبنًى قديم يضمّ مكاتب في منطقة سيهيا، والملفّات المتراكمة الخاصّة بالمراسلات ورسائل الفاكس، وكرات اللحم بالخبز والبيتزا التركيّة في أوقات الغداء، والعطر الفوّاح والنبتة الموضوعة على حافّة النافذة، بل حتى الصداقات السطحيّة القائمة على مصالح صغيرة.

كان محيط عملها الجديد بين الطبقتين الثامنة والحادية عشرة من ناطحة سحاب في بويوكدري جديدًا ومنعزلاً عن كلّ شيء، وباردًا ومثيرًا للهلع وكأنّه وكر عبيد، وإن كان الشيء الوحيد الذي ينقصه هو حرّاس يحملون السياط في أيديهم ويحدّقون إليهم. ولكن نظرًا لوجود الكاميرات المنتشرة في كلّ مكان، التي تعمل عمل الحرّاس، فإنّ النتيجة واحدة.

إنّه لأمر مرعب أن يعرف المرء أنّه مراقب. فتصلّب وجهها وبدنها مثل تمثال في اللحظة التي دخلت فيها المكتب. وعندما تقدّمت وجلست من وراء منضدة الكتابة في أقصى الغرفة، راودها

الإحساس باليأس والسلبيّة، وكأنّها في قارب نجاة برفقة ضحايا حادث مأساوي لا تعرف عنهم شيئًا، والقارب مندفع إلى وجهة مجهولة! كانت ما تزال غير قادرة على التواصل مع زملائها في العمل. وكانت تفهم من نظراتهم الخاطفة ومواقفهم أنّهم يحاولون أن يقولوا لها إنّهم ليسوا بحاجة إليها في هذا المكان. وكانت أحيانًا تشعر بأسًى حقيقي لاضطرارها إلى بذل جهد إضافيّ كي لا تهرع إلى الشارع مهرولة وصارخة بأعلى صوتها.

كانت المشكلة الأساسيّة متمثّلة في إمكانيّة العيش على المورد المالي الذي كانت تتلقّاه. ففي بداية الأمر، كان مرتّبها لا يكفي لكي تعيش في اسطنبول عيشة مستقلّة بنفسها. هذا ما أدركته من فورها. لكنّها كانت قد قبلت بهذا المرتّب بسبب الحاجة إليه أوّلاً، ولأنّها شعرت أنّ هذه القفزة إلى شركة أميركيّة كبرى من شأنها أن تكون مفيدة لحياتها الوظيفيّة. بيد أنّها كانت قلقة. فالعيش وحدها يتطلّب منها دفع الإيجار وقوائم المصروفات من مرتّبها. وبعمليّة حسابيّة بسيطة وعامّة كانت تجد أنّ ما يتبقّى لها من مرتّبها بعد دفع كلّ النفقات لا يتجاوز الثلث. شاءت أم أبت، لا بدّ لها من أن تقتصد في الإنفاق حتى تعثر لها على وظيفة ذات مرتّب أفضل، لكنّ المشكلة تكمن في صعوبة، بل استحالة العثور على وظيفة.

كانت الأشهر الأربعة الأخيرة التي أنفقتها في أنقرة كابوسًا حقيقيًّا، فقد كانت الشركة في مأزق؛ وعندما انتهت مدّة العقد معها في مطلع فصل الصيف، عمدت الشركة إلى الاستغناء عن خدماتها وعن خدمات أربعة موظّفين آخرين. وقد اضطرّت هي إلى الانتظار حتى يصلها الردّ على تقديم طلبها من أجل الحصول على وظيفة

أشهرًا طويلة، كانت خلالها تنزلق إلى اكتئاب يصعب تحمّله من دون أمل في صيف أنقرة الثقيل والبغيض.

وفي الوقت نفسه، كانت علاقتها بسيد قد وصلت نقطة الفراق، فقد كانت مشكلاتها شديدة الخصوصيّة بها ممّا جعلها تفكّر أنّ الحديث إليه عنها يمثّل عبثًا لا طائل من ورائه. وكان يصمّ أذنيه عن سماعها، فلا تلقى منه تشجيعًا. يضاف إلى هذا أنّه كان لا يزورها إلّا نادرًا، مرّة واحدة كلّ بضعة أيّام، وكأنّه يريد أن يتأكّد إن كانت ما تزال على قيد الحياة! كانت تريد أن تنفصل عنه، وأن تطوي هذه الصفحة من حياتها إلى الأبد. هذا هو السبب الذي جعلها تأتي إلى اسطنبول من دون التفكير كثيرًا بالمحاسن والمساوئ.

* * *

راحت تعدّ بعض الشاي، واتّجهت نحو الحمّام وأشعلت جهاز تسخين الماء، ولبثت واقفة تحت الماء الحارّ إلى أن شعرت أنّ بدنها راح في استرخاء تامّ. خرجت من الحمّام دافئة ولطيفة تفوح منها رائحة الصابون، وارتدت بذلة التدريب، وجلست أمام التلفاز لتأكل وجبة سريعة وتحاول أن تفكّ العقدة التي انعقدت في بلعومها. وفكّرت أنّها غير مضطرّة إلى النهوض في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وأنّ في إمكانها أن تظلّ راقدة في فراشها. غالبت النعاس نصف ساعة تقريبًا وهي تحاول أن تشاهد مسلسلاً تلفازيًّا، وعندما استفاقت من إغفاءتها شعرت بالارتياح، فجلست أمام الحاسوب وتفحّصت الرسائل المرسلة إليها، فوجدت رسالة مرسلة من سيد إليها، وفيها:

فكّرت كثيرًا بعد رحيلك. إنّ ما ذكرته من كلام عن شخصيّتي

إهانة شديدة، فأنا لا أستحق كلّ هذه الفظاظة، لكنّك على حقّ، فنحن شخصان مختلفان. لقد سلّمت المفتاح للبوّاب عندما رحلت. ألم يدر بخلدك قطّ أن تتّصلي بي لتقولي شكرًا؟ لو كنت متوحّشًا، فإنّك عاهرة جامدة. صحيح؟ سوف أحيا حياة كريمة رفقة أسرتي من الآن فصاعدًا. لقد تركت أسرتي تتعذّب كثيرًا بسببك. أتمنّى أن تصادفي الفتى الذي سوف يضاجعك أفضل منّي، كما أتمنّى أن تحقّقي أهدافك الكبرى. أتمنّى لك التوفيق ووداعًا!

تسمّرت إيلام في مكانها وهي تقرأ هذه الأسطر. في البدء، راودها شعور بغضب عارم وغمغمت: أيّها الجلف البائس! لقد أحسنت صنعًا عندما طردتك! وشعرت بالارتياح.. وكأنّ عبئًا ثقيلاً أزيح عن ظهرها. لقد ظهر على حقيقته. صحيح أنّه وفّر لها الملجأ والمأكل في وقت كانت فيه مفلسة ويائسة، ولكنّه لم يفعل هذا عن إحسان أو شفقة.

نعم، لقد تفوّهتْ بكلمات فظيعة، ولكنّها غير نادمة.

ممّا لا ريب فيه أنّ تلك الكلمات لم يكن يتوجّب عليها قولها لرجل طالما تبجّح بفحولته، ولا حتى لأيّ رجل، غير أنّ المرء لا يستطيع أن يسيطر على نفسه وعلى كلماته التي تخرج من فمه أثناء شجار.

ما الذي كان يجمع بيننا سوى ممارسة الجنس كالحيوانات؟ إنّني طالما خدعت نفسي بالاعتقاد بأنّ مضاجعتك شيء مدهش، يروي الذات، وأنّ ذلك ما كنت بحاجة إليه. هكذا كان حالنا! شعر سيد وهو يقرأ لذراعين:

ـ أيّتها الكاذبة! هذا هو الحال إذًا الآن؟

ـ إنّني لا أحبّك. ولم أحبّك! هل تفهمني؟

ـ من ذا الذي يتوقّع الحبّ منك. أنا لم أطلب ذلك! كلّا، كلّا.

كان سيد يريد كلّ شيء مثل طفل نهم، فرغبته الجنسيّة لا تحدّها حدود. وكانت رغبته تشبه الشراهة وليس الجوع. فكان يستلقي من فوقها حتى ينهكها الإنهاك كلّه، محطّمًا كلّ الدفاعات في وعيها، مذكّرًا إيّاها بأوجاع مرفوضة ظلّت في طيّ النسيان.

وكان بعد إشباع رغبته الجنسيّة يعاملها وكأنّها أخت يكنّ لها الحبّ والمودّة من دون أيّ غيرة. كان الشعور الذي يتركه هذا الغريب فيها هو نوع من الاضطراب الداخلي أكثر ممّا هو إحساس بالازدراء والقرف. وكانت أحيانًا تراه ساذجًا أو معتوهًا، وفي أحيان أخرى يبدو لها رجلاً يفتقر إلى السعادة وبلا حبّ، وفي أحيان ثالثة، عشيقًا يمكنها أن تثق به. هذا هو السبب الذي جعلها تعجز عن التخلّي عنه طيلة عامين. عندما كانت تستيقظ بجانبه، تشعر بحمايته لها، مثل طفيليّ يحتمي تحت جنح طائر عملاق، وتتنبّه إلى أنّ العزلة التي كانت تحسّ بها في أعماق روحها قد تلاشت، ولكنّها تعود ثانية لتشمّ رائحة الجماع الثقيلة الوطأة والقذرة المنتشرة منذ الليلة الفائتة بين طيّات الملاءات المجعّدة، فتتكوّر وكأنّها بعيدة جدًّا عن واقعها.

كانت الغرفة التي يستلقيان فيها شديدة الضيق، وكان الطلاء الأصفر الذي طُليت به الجدران التي ازدادت عتمة بسبب الرطوبة قد

زال في المنطقة القريبة من الأرض. كان كلّ شيء فيها صغير الحجم: السرير وخزانة الثياب والنافذة، والأهمّ من هذا كلّه، حياتها. في مثل تلك الصباحات، كانت تتمنّى لو أنّها تستطيع الطيران خارج الغرفة، وتحلّق فوق الحقول عاليًا، وتتنفّس هواءً نقيًّا ولا ترجع ثانية. وكان هذا الإحساس بالضيق، هذا البعد وهذا الرجل الفظّ تحول كلّها بينها وبين بناء حياة جديدة لنفسها. وتمنعها من أن تعشق من جديد ومن أن تكون شاعرة، ومن كلّ شيء!

يمكنك أن تذهب إلى جهنّم يا سيد، فأنا لست شيئًا عندما أكون في رفقتك. أمّا الآن، فأنا أحيا حياتي. وفكّرت أنّ في وسعها مواجهة شتّى أنواع الصعوبات والفرص والشعر والحياة والموت من أجل جمال لا يرحم يتمتّع به العالم ومن أجل نفسها.

* * *

عندما كانت في سنّ الرابعة عشرة، راودها حلم بأنّها أصبحت شاعرة. كان لديها تطلّعات حزينة ولكنّها سامية: كانت تريد أن تدهش الآخرين إذا ما أصبحت شاعرة. ولما اكتشفت والدتها القصائد القليلة الأولى التي نظمتها، أصيبت بالهلع والذعر. ولما أخبرتها إيلام أنّها سوف تصبح شاعرة، صفعتها والدتها على وجهها صفعة قويّة، وقالت لها: لا تدعي والدك يسمعك وأنت تتفوّهين بهذا الكلام، لأنّه على وجه التأكيد سيقتلك!

لم تكن ثمّة فائدة في الحلم في تلك الأسرة. أمّا أن تصبح شاعرة، فتلك ليست سوى رغبة مستحيلة وعمياء تمامًا. ولما أصبحت أسيرة الجمود وعدم التغيير، فقد اضطرّت إلى أن تصبح فتاة بالغة وهي ما تزال في سنّ الثانية عشرة. ولم تحاول أسرتها أن

تفهمها أو أن تفهم ما يدور في ذهنها أو ما هي مشاعرها، بل نظروا إليها على أنّها عديمة الشأن، حمقاء ومخلوقة لا يمكن الاعتماد عليها. وجعلوها تدفع ثمن كونها فتاة بأن حبسوها في البيت وراقبوا في وجل انتقالها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ.

لكن كونها فتاة بالغة لم يمنعها لسوء الحظّ من الإحساس بالألم والعذاب والغضب، بل على العكس.

ففي وحدتها وصمتها، راحت تلجأ إلى الماضي، غير أنّ الألم الذي رافق هذه السقطات الفجائيّة لم يستمرّ طويلاً، فقد ذهب بالسرعة نفسها التي جاء بها. كان إحساسها بالماضي محدودًا لأنّها اضطرّت إلى تقليص، بل إيقاف عمل ذلك الجزء من ذاكرتها الذي يختزن الذكريات الأليمة. وكانت أسوأ ذكرياتها أيضًا تحت غطاء الممكن الآن. وكان واقعها الراهن يتمثّل في أنّها غير محتاجة إلى أحد، وقبلت في سهولة بأنّ ما مرَّ بها من أحداث في الماضي ليس سوى جزء من الأشياء الجيّدة والأشياء القبيحة في الحياة.

لم يكن سبب ذلك هو الأفكار أو اللامبالاة، ففي نقطة ما، على امتداد الطريق بين ماضيها وحاضرها، تعلّمت ألّا تشعر بالشفقة على نفسها. طبيعيّ أنّ هذا التعلّم تطلّب منها قدرًا من المران، ولكنّها أفلحت، لأنّها لم تكن ترغب في أن يشعر أحد ما بشعور الرأفة تجاهها. وكانت حتى وصولها إلى تلك النقطة، تتصرّف تصرّف الفتاة المتغطرسة، المزهوّة بنفسها والخبيثة، كما أنّها أزعجت الناس الذين كانوا ميّالين إلى الشفقة عليها، ولكنّها آثرت أن تصبح هدفًا للغضب بدلاً من الإحساس بعار المذلّة والهوان من خلال الشفقة.

كانت ما تزال تقرض الشعر ولم تتركه. الشعر ليس وظيفة أو مهنة، بل مجهود داخليّ يشبه مَيَلان المرء من فوق شيء ما للنظر إلى الهوّة أمامه. كانت تعرف ذلك. هذا هو السبب الذي جعل الشعراء يعيشون في الظلّ، وأن يكونوا في حَرَج إلى حدٍّ ما وخجولين وحذرين. ولعلّها عشقت الشعر لأنّها عاشت هكذا في مرحلة طفولتها.

وفكّرت أنّ تلك قضيّة أخرى.

أحيانًا، كانت حياتها بسنينها الخمس والعشرين تبدو مغامرة طويلة وصعبة.

وعندما كانت طالبة، بمعنى قبل بضع سنوات، اعتقدت أنّ في وسع المرء التحضير لمستقبله ورسمه. كانت ذكيّة وجادّة في العمل. وعلى الرّغم من كلّ الصعوبات والعوائق، اجتازت مراحلها الدراسيّة بانتظام والتحقت بالجامعة من دون مواجهة أيّ صعوبة، ولكن بسبب عدم وضع الحجاب على رأسها وما يُثار من حولها من تساؤلات بسبب ذلك، فقد استغرقت وقتًا طويلاً لإنهاء دراستها الجامعيّة: خمسة أعوام. وقد اضطرّت إلى إعادة سنتها الدراسيّة الثانية عندما لم تتمكّن من دخول الحرم الجامعي بسبب الحجاب. وبعد أن أصبحت تفتقر إلى دعم أسرتها في السنة الثالثة، فقد اضطرّت إلى العمل في شركة لتسويق الموادّ الغذائيّة وتوزيعها. فتشتّت انتباهها وأخفقت في بعض الموادّ. كان التخلّي عن أسرتها قد كلّفها ثمنًا باهظًا في حياتها العمليّة.

* * *

كانت أسرتها تتحدّر من بلدة صغيرة على مقربة من يوزغات، وتنتمي إلى طائفة معروفة منذ عديد الأجيال. وكان أفراد الأسرة متشدّدين في ديانتهم، ومتعصّبين.. جدّها لأمّها إمام مسجد حتى وفاته، ووالدتها اعتادت أن تحدّث ابنتها إيلام عن مرحلة طفولتها التي أمضتها في محلّ إقامة الإمام المجاور للمسجد وبين القبور في الأرض التابعة للمسجد. وأخبرت ابنتها بأنّ الأسرة لبثت حزينة، كعهدها دومًا، لأنّ أفرادها نشأوا وهم يأكلون فاكهة من أشجار كانت تتغذّى على أجساد الموتى.

كان بيت الأسرة بيتًا يكتنفه الحزن، مكان الحياة فيه كفّارة، وحداد لا نهاية له. العبوديّة العمياء التي كانوا يسمّونها حبّ الله، تحسّ بها في كلّ نفس. كانت إيلام أصغر الأطفال الأربعة، .وكانت مولعة بالقراءة، فقد ختمت قراءة القرآن عندما كانت في سنّ العاشرة، واستغرقت في قراءة القصص والكتب والقصائد الدينيّة وتفاسير الدين الإسلامي إلى أن أصبحت طالبة في المدرسة الثانويّة. وكانت رغبتها العارمة في القراءة نابعة من الروح الاستقلاليّة التي اتّصفت بها منذ ولادتها، فضلاً عن الخوف من أن تصبح مثل والدتها وأختها وعدد كبير من النساء اللواتي عرفتهنّ. لم تكن تملك صورة واضحة في ذهنها أو نموذجًا عن نمط الفتاة التي ستكون عليها مستقبلاً، بيد أنّها كانت تعرف بعض الشيء النمط الذي لن تكون عليه.

كان والده[(١)] ضدّ رغبتها في الالتحاق بالثانويّة، في حين كانت والدتها توافق وتقبل من دون أيّ سؤال كلّ فكرة يطرحها زوجها.

---

(١) ثمّة خطأ نحوي في النصّ الإنكليزي وقد نقلناه إلى العربيّة كما هو، والصحيح هو والدها وليس والده، استنادًا إلى سياق العبارة، لذا اقتضى التنويه (المترجم).

وكان الوالدان لا يتبادلان من الحديث إلّا أقلّه، ممّا جعل إيلام تتساءل باستمرار عن كيفيّة إنجابهما أربعة أطفال، وهما مبتعدان عن بعضهما بعضًا. ربّما تزوّجا في عجالة من دون حبّ وكأنّهما شخصان تاها في الطريق، ثم انفصلا من بعد ذلك انفصالاً سريعًا. يستحيل تصوّر ما هو خلاف ذلك، لأنّ الشعور الوحيد الذي كان يجمع بينهما هو شعور اللاوجود في هذا العالم.

* * *

قرّر الأب والأمّ أن يزوّجا إيلام لأبن أحد الأقرباء الأبعدين بعد إنهائها الثانويّة مباشرة، ولكنّها تمرّدت ورفضت إرغامها على الزواج، فتلقّت معاملة سيّئة ومهينة، وأقسمت أن تموت على أن تتزوّج. وبعد حيل ومحاولات انتحار، أرسلها الأبوان إلى جدّها في أنقرة، فبدأت دراستها في المدرسة الثانويّة.

كان الجدّ يقطن في بيت ذي حديقة في كيشروان رفقة زوجته الماكرة، مدبّرة المكائد، التي كانت تصغره بثلاثين عامًا. وكان هو رجلاً ضخمًا مفعمًا بالحيويّة في نحو السبعين من عمره. وكانت زوجته البدينة ذات العينين الفضوليّتين تنفق أكثر من نصف يومها في الصلاة، وكانت تراقب كلّ حركة من حركات إيلام، وتبلغ زوجها بكلّ شيء عنها بقدر كبير من المبالغة، مكرًا ورغبة في إرضائه. لكن على الرّغم من ذلك، كانت إيلام تبذل جهدًا جبّارًا كي تتأقلم في وسط عالمهم. فذهبت إلى المدرسة مرتدية الحجاب، مسمّرة العينين على الأرض، وترجع إلى لبس الحجاب من جديد عند خروجها من مبنى المدرسة. وساعدت في شغل البيت، وكانت تصلّي خمس مرّات في اليوم وتتضرّع إلى الله أن يمدّها بالقوّة، غير أنّها كانت تتلقّى

التأنيب والتوبيخ لهفوات لا يمكن تصوّرها، وكان جدّها يضربها بعصا المكنسة أحيانًا. وبالمقارنة مع يوزغات، فإنّ حياتها لم تشهد سوى القدر الصغير من التغيير. فالقهر ما زال مستمرًّا وعلى النحو الذي عرفته من قبل.

اجتازت امتحان القبول في الجامعة وإن لم يتوقّع أحد ذلك. ولمّا كانت لديها التزامات بالعيش برفقة جدّها، فقد اختارت فرعًا لم ترغب فيه وهو فرع الاقتصاد، لكنّها لم تهتمّ للأمر. وعندما بدأت الدراسة في الجامعة، اصطفّت مع الفتيات اللواتي كنّ يرتدين الحجاب وكانت مضطرّة إلى الانضمام إليهنّ. كانت الفتيات يحاولن اتّخاذ إجراءات متعذّرة، ولم يكن ثمّة ما يجمع بينهنّ. ولمّا أدركت إيلام أنّ ثمّة تشكيلات أخرى لنشر ما يؤمن به، ارتأت أن تبتعد عنهنّ وأن تبقى منعزلة. وبحسب رأيها، ثمّة مجموعات أخرى كانت تستخدم الفتيات مثل قوّات إضافيّة. وآثرت هي أن تكون وحيدة على أن تكون شيئًا بسيطًا، أو إطارًا لمفهوم يهدف إلى إيجاد تكامل بين الإيمان والإدارة السياسيّة. يضاف إلى ذلك أنّها كانت تخشى جدّها إلى حدٍّ ما.

كانت فتاة خجولاً، لم تستطع النظر إلى عيون الرجال أثناء حديثها معهم. كانت تشعر بوجودهم شعورًا غريزيًا من دون أن تبصرهم حقًّا. وإذا جذب أحدهم انتباهها أو أظهر اهتمامًا بها، وهو أمر نادر الحدوث، فإنّها تسمع صوتًا مدوّيًا في أذنيها يصيح بها: لا، لا يمكنك أن تفعلي هذا، ولا تفكّري به أبدًا! أنت تعرفين أنّهم مصدر العار والألم!

لم تكن طويلة القامة، لكنّها كانت رشيقة ومتناسقة الجسد،

ذات ساقين طويلتين وردفين رائعين، وجمال وجه يتراوح بين صفتي الجمال والمألوف. كانت ساحرة الابتسامة، ذات عينين واسعتين ورائعتين، لونهما مزيج من الأخضر والبنّي ممّا يضفي على وجهها مسحة من الغموض. وإذا ما نظرنا إلى ملامح وجهها كلّا على انفراد، فإنّه لا يمكن القول إنّها بلا شائبة تشوبها، لكن على الرّغم من ذلك، ثمّة تجانس ومعنى في وحدة الأجزاء التي تشكّل المجموع. وكانت جذّابة ومتميّزة بما تملكه من بشرة بيضاء وشعر أسود متموّج ووجنتين بارزتين وفم عريض لا يُخفي ذكاءها، لكن ما من أحد حظي بمشاهدة جمالها الذي كان مدفونًا ومخفيًا إلى أبعد الحدود تقريبًا.

كانت تؤمن أنّ العالم المرئي كلّه من خلق الله، ولكنّها على الرّغم من ذلك راحت تفكّر أكثر وأكثر بشكلانيّة ثيابها التي تدفنها، وأنّها ليست تفاصيل ذات صلة بالجوهر. سبق لها أن التقت عددًا كبيرًا من الفتيات المحتشمات اللواتي كنّ على درجة كبيرة من الالتزام الديني، ولكنّهنّ بالرّغم من ذلك لا يرتدين الحجاب. كانت كلمة «احتشام» تعني في رأيها شخصًا مقبولاً ومحبوبًا من الجميع. ولم تكن تلك النساء اللواتي يعشن حياة عصريّة عبدات الله، ولم يكن أحد قد حكم عليهنّ بالذهاب إلى جهنّم أو أنّ مكانهنّ فيها، بل على العكس من ذلك، كنّ مرحات، متفتّحات على الحبّ، وعلى أن يكنّ محبوبات ومفعمات بالحياة.

وبينما كانت مستغرقة في تفكير عميق بخصوص غطاء رأسها، أدركت أنّ الدين يجري تفسيره بمختلف الأساليب وعلى نحو متشدّد وبخاصّة ضدّ النساء، ولا سيّما أثناء مراحل تشكيل السياسة

وتطبيقها. وكانت الأديان تنظر كلّها إلى المرأة على أنّها قذرة وخطيرة وآثمة، مرهِقة ومستغلّة. ويسهل أن نفهم أنّ نقصها هو الذي تركها من دون سلاح.

توفّيت والدتها وكانت هي في السنة الثانية من دراستها، فما كان من أبيها إلّا أن نقلها إلى يوزغات حتى تترك دراستها في الجامعة ـ التي لم تكن موضع ترحيب فيها بسبب حجابها ـ وتدير البيت ومساعدته في دكّانه. كان الصمت القاتل يخيّم على المنزل. وما إن رأت ظلّ أبيها في الردهة عند عودته في الأمسيات، حتى اندفع الدم إلى رأسها وراحت تنتفض وشعرت بالإغماء، على الرّغم من أنّ أباها كان في حالة يرثى لها أكثر من السابق. لقد شاخ قبل أوانه، وبات طفوليَّ السلوك، وكان وحيدًا تمامًا. رمق ابنته بنظرة عينين يلوح منهما التوسّل. كانت نظرة تتوقّع قدرًا كبيرًا من الإخلاص والوفاء والحبّ والتضحية بالنفس، ولكنّ الاستثمار في الحبّ الذي كان ضروريًّا للوفاء من وجهة نظر إيلام لم يحدث في الماضي.

كانت متعتها الوحيدة وعزاؤها الوحيد وميدان حرّيّتها يتمثّل في القراءة. وكانت قد صادفت مدير مكتبة البلدة، فراحت أوّل الأمر تقرأ في كتب الصوفيّة، وانتقلت بعدها إلى التهام كلّ أنواع الكتب بنهم شديد: أدب وتاريخ وميثولوجيا... كانت تبحث عن نفسها في كلّ صفحة، وتكتشف عالمها الداخلي المملوء بالخوف والأكاذيب. كانت تؤمن بأنّ الله عظيم برحمته الواسعة ومغفرته وقدرته على هداية خلقه إلى الخير والجمال. ولو أنّه خلق البشر وصوّرهم في جنسين، فما السبب الذي يجعله يميّز بينهم على أساس «رجل ـ امرأة» و«أعلى ـ أسفل» وهو الذي يعتبرهم على قدم المساواة؟

المدهش هو أن تدرك أنّ شعورها كان موضع تغيير، وأنّها كانت تنتقل من العدم إلى هويّتها الذاتيّة. واستغرقت في الاطّلاع على كلّ ما يمكن أن تجده من كتب في تاريخ الأديان، كما قرأت الكتب المقدّسة. وانتقلت قراءاتها من فلسفة الدين إلى الفلسفة الغربيّة. وفي تلك السنة، تقلّبت في عالم الفكر اللانهائي الذي لا حدود له.

وكانت كتب الأدب العالمي، وليس النصوص الدينيّة، هي التي أغرقتها بالعواطف والاستنارة وشجّعتها على الكتابة والتأليف. كان أسلوبها النثري لا تشوبه شائبة مثل اهتمامها بالشعر. وكانت الكتابة تمثّل رغبتها في أن تكون صريحة، ولم تكن رثاء أو بحثًا عن السعادة. ووحّد جهدها الذي وهبته للقراءة والكتابة كلّ أجزائها الحيويّة، وعلّمها أنّها مكوّنة من لحم وعظم وخيال ورغبات. كان تفكيرها يعني تحرّرها وخلاصها من المخاوف والعواطف. غير أنّ هذا العالم لم يكن ليعني أنّ حياتها أضحت خفيفة وبهيجة. فقد كانت تواجهها أسوار عالية حيثما التفتت، ولم يكن في وسعها التقدّم في خطّ مستقيم.

ولأجل ملاحقة الألم الذي سبّبته لها الصراعات المحتدمة في داخلها، فقد راحت تكتب إلى «لا أحد» وإلى «لا عنوان»، رسائل معنونة إلى العدم... قصائد، أحلام، يوميّات وانطباعات... صفحات طفوليّة صريحة تعكس حبّها لله وألق رغباتها الغامض، تتساءل عن تحوّل البشر الذي لم ينته بعد... وساورها إحساس أنّها باتت الآن مزوّدة بذخيرة من المعرفة، وراحت تنظر إلى العالم من فوق، ولكن...

كانت ما تزال لا تعرف كيف تتبادل القبلات!

* * *

في مطلع العام الثالث، أخبرت والدها أنّها سوف تواصل الدراسة في الجامعة، وأنّها ستعود إلى حياتها الخاصّة بها، وأنّ على الرجل العجوز أن يعرف كيف يعيش بمفرده، وإذا لم يكن قادرًا على ذلك، فينبغي له أن يتزوّج بامرأة مناسبة له. المؤكّد أنّ أصابع الاتّهام وُجِّهت إليها بوصفها ابنة جاحدة، ولذلك فسوف تُقطع عنها معونتها الماليّة، غير أنّها لم تلتفت لذلك، إذْ كانت قد وطّدت العزم على أنّ جرأتها على الكلام، وفي الوقت نفسه أنانيّتها وسوء تصرّفها، إنّما هي صفات تناسبها أكثر ممّا لو كانت مطيعة وهادئة. الحقّ أنّها لم تكن متأكّدة من امتلاكها تلك الفرصة لتظهر هذه الصفات، غير أنّها مضطرّة إلى بذل ما في وسعها لتحقيق ذلك. هذا ما وعدت نفسها به.

استقلّت القطار لتعود إلى أنقرة. وعندما اجتاز القطار يركوي، خلعت حجابها وتركته في مهبّ الريح خارج الشبّاك، وراحت تراقب تلك القطعة الملوّنة من القماش وهي تبتعد أكثر وأكثر، تخفق من فوق الحقول الصفر والأراضي التي حُصدت محاصيلها والحدائق. راقبته وكأنّها تراقب الحياة التي تركتها من ورائها إلى الأبد.

حصلت على منحة دراسيّة وعلى مكان في مقرّ سكن الطالبات. وبدأت تعمل جزئيًا في شركة سيد، حيث أُنيطت بها مهمّة المراسلات التجاريّة والحسابات والهواتف. وتمكّنت من إقامة علاقة صادقة، وإن كانت متحفّظة، مع مديرها. في تلك الأيّام، أحبّت سيد وكأنّه شقيقها الأكبر سنًّا منها. وكان سيد رجلاً ضخمًا،

أسمر البشرة، مفعمًا بالصحّة والعافية، ولم يكن مزاجيًا، بل كان ودودًا ومرحًا... وفي بعض الأمسيات، كانا يبقيان حتى ساعة متأخّرة من الليل في الشركة، يتبادلان الحديث. وفي بعض الأحيان، اصطحبها سيد معه لتناول وجبة طعام.

* * *

عندما بدأت بأطروحة تخرّجها، انتابها شعور بعدم الارتياح في مسكن الطالبات. فلم تستطع مواصلة الدراسة ولا النوم، وفي أغلب الأحيان حدثت مشاحنات بينها وبين غيرها من الطالبات. وازدادت الأمور سوءًا عندما انتهت منحتها التعليميّة، ولكنّها لبثت مدّة وجيزة تسكن في مبنى سكن الطالبات من دون إذن. وشعرت أنّ العالم كلّه متّحد ضدّها. كانت في حمى اليأس وهي في خضمّ تلك المدينة الكبيرة والباردة، فلم تستطع مقاومة المساعدة والصداقة اللتين عرضهما عليها بأسلوب غاية في الإقناع رجل متزوّج أكبر منها بخمس عشرة سنة، كانت قد عرفته منذ عامين. كان الرجل ينتظر على مقربة منها منذ بعض الوقت، فاغرًا فاه، منتظرًا قطعة الكمثري كي تنضج وتسقط في فمه.

أعطاها سيد الغرفة المشيّدة في شقّة الدور الأرضي الصغيرة في كوجو كسيت، وكانت الغرفة تستخدم سابقًا مخزنًا للموادّ الغذائيّة، كي تتمكّن من الدراسة وكتابة أطروحتها في هدوء وراحة بال. كانت غرفة معتمة، تبلغ مساحتها أربعة أمتار طولاً وثلاثة أمتار عرضًا، وتطلّ على حديقة صغيرة، توجد في الجانب الخلفي منها بعض الأشجار اليابسة. ولم يكن ثمّة من يدخل إليها سوى السائق العجوز والصبيّ الذي يحمل السلع. انتقلت إيلام إلى هذا المكان،

واستمتعت بالحرِّيّة والهدوء اللذين كانا يكتنفانه. وكانت تنام على ديوان، وإذا ما نهضت من نومها، فإنّها تبادر إلى طيّ الأغطية وحفظها. وكانت تحتفظ بثيابها في حقيبة ملابس، في حين تكدّست كتبها من فوق الأرض. وكان ثمّة موقد في المطبخ كما كان الماء الحارّ متوافرًا في المبنى مرّتين أسبوعيًّا. شعرت أنّها باتت متحرّرة في ذلك المكان المعتم الذي تنبعث منه رائحة الجبن والنقانق والبسكويت والرطوبة.

وفي غضون شهر أو شهرين، أُفرغ المكان على نحو بطيء، واختفت الصناديق من غرفة الجلوس والغرف الأخرى، وحلّ محلّها بعض قطع الأثاث الرخيص الثمن، وأصبح للمطبخ ولغرفة الجلوس بعض المستلزمات، وباتت الشقّة الآن شقّة إيلام، وأزهرت أشجار الخوخ وأينعت، وكانت تقطع المسافة من المنزل إلى الشركة سيرًا على الأقدام في عشرين دقيقة. كانت تحيا أفضل أيّام ربيع عمرها. وعرضت على سيد أن تمنحه إيجارًا بسيطًا من مرتّبها، لكنّه قال لها:

ـ سنفكّر في الأمر، ولا داعي للقلق بهذا الشأن.

وفي مساء يوم من أيّام مطلع فصل الصيف، جاء سيد لزيارتها. كانت زيارة ودّيّة أراد أن يتأكّد بها من أنّها في مأمن وأنّها مرتاحة. رأته إيلام واقفًا عند عتبة الباب وقد كست وجهه تعابير غريبة، ولم يكن بينهما سوى ممسحة الأرجل التي لا يحتاج فيها إلّا لخطوة واحدة كي يعبرها... فعبر من فوقها ودخل، لكي يطلق العنان لنفسه مع مرور الزمان، وباتّجاه الريح...

* * *

كانت إيلام قد كتبت قصّة قصيرة عندما كانت في سنّ الخامسة عشرة، تدور عن فتاة صغيرة فقدت جسدها، وراح ظلّها يطوف من فوق التلال والوديان بحثًا عن الجسد الذي اختطف إلى مكان ما. كانت الفتاة الظلّ تسير وحدها من فوق بلدات وقرى غافية، وتحلّق في دجى الليل، تختلط بالرياح وتعبر البحار. وكانت في حركة دائبة نظرًا لمواصلتها البحث. واضطرت إلى الطيران مثل الطيور، وحيدة، رقيقة، وفي تنقّل مستمرّ. وفي نهاية المطاف، جاءت اللحظة وتحوّلت إلى ما كانت تبحث عنه. ولمّا كانت قد نسيت الشيء الذي تبحث عنه، لم تشعر بأيّ ألم وهي تطارد ظلّها من دون هدف أو ذاكرة في بلاد العدم التي لا حدود لها.

تذكّرت إيلام هذه القصّة، ولكن سيد تناول قدح شاي ومضى في سبيله، وعليه مسحة الأخ الحنون، ومن دون أن يبذل أيّ محاولات.

وفي الزيارة الثانية، راح يمزح مستخدمًا يديه، على سبيل الإحماء، وتبادلا الضحكات، واصطدام أحدهما بالآخر عفويًّا وهو يقول وداعًا ويطوّقها في عجالة.

وفي الزيارة الثالثة. . . وافقت إيلام على ما ردّده من أنّه وجدها غاية في الجاذبيّة والإثارة الجنسيّة ممّا يشعل رغبته في امتلاكها على نحو جنوني! وافقت بالهدوء نفسه الذي أظهرته عندما أصغت إلى عرض سيد السابق بمدّ يد العون والصداقة لها. كانت على استعداد. فكان سيد يجلس على الأريكة منفرج الساقين كاشفًا بذلك عن رغبته فيها، فما كان منها إلّا أن جلست في حضنه وسمحت له أن ينزع عنها ثيابها.

كانت قد تعلّمت شيئًا مهمًّا عن جسدها وهو أنّها ليست باردة جنسيًّا، وكانت تعرف غريزيًّا أيضًا كيف تتبادل القبلات. وعندما بدأ يباشرها بلطف وعناية، شعرت أنّها عادت إلى جسدها، فوضعت ذراعيها من حول ظهر الرجل وضغطت عليه في قوّة وانفجرت باكية كأنّها كانت تريد أن تدفن ألمها.

على هذا النحو، امتلك الرجل ـ في ذلك الزمان وفي ذلك المكان وبسهولة لا تصدّق ـ هذه الفتاة الظلّ، الهشّة الجالسة في حضنه، وصمتها العذب الذي كان يحكي سرًّا حكايات الأطفال، ونظرة الخوف الغامضة المنبعثة من عينيها الواسعتين البريئتين، وطراوتها والطعم العذب لبشرتها ونهديها وفمها.

أدّى دور المشتري، فلاحت على وجهه تكشيرة غبيّة، ووعدها بحمايتها وأن يجعلها ملكته. أمّا البائعة، ففكّرت أنّ ما انطوت عليه هذه الصفقة من خداع وغشّ إنّما هي محاولة للتعادل، وأنّها سدّدت ديْنها لسيد بكلّ سخاء بعد أن أشفق عليها. كانت قد تعلّمت منذ وقت مبكر من حياتها أنّ الشفقة ليست سوى شعور قذر وخبيث.

مسحت إيلام رسالة سيد المقزّزة مع مجموعة من الرسائل الإلكترونيّة التافهة التي تراكمت في بريدها.

على أيّ حال، يتعثّر المرء قليلاً أثناء سيره في مواجهة الريح.

* * *

طالعت بعض مواقع الشبكة العنكبوتيّة بحثًا عن بعض النقاط التي توقّفت عندها في الشركة، فاشتغلت قليلاً من الوقت. كانت في الليلة الفائتة قد كتبت مقالة بعنوان «المستقبل» صبّت فيها عصارة قلبها إلى

حدٍّ ما. وقرّرت أن ترسلها إلى أحد المواقع. ولكنّها راحت قبل ذلك تنظر إلى ما دوّنته. كانت تريد أن تكون قويّة التأثير من الناحيتين الشعريّة والثقافيّة. ولم تجد صعوبة في دعوة الشبّان الذين يعيشون حياة تشبه حياتها، إلى مخاطبة عقول أولئك الناس وعواطفهم وكأنّها تحدّث نفسها، لأنّ تلك الكلمات كانت مولودة من رحمها ورحم عزلتها. على أيّ حال، راحت تعمل حتى الساعة الثالثة فجرًا، منقّحة النصّ ثم أودعته الموقع الذي يروقها. وتساءلت عن نمط ردود الفعل التي ستنجم عن رسالتها. لعلّها سوف تثير من غضب بعض الناس، ولكنّها كانت متأكّدة من أنّ ثمّة من يشاطرها مشاعرها.

لاحظت مؤخّرًا أنّ هناك عددًا كبيرًا من الشبّان الذين فقدوا منظورهم عن المستقبل، وأنّهم يعيشون حياة ملؤها اليأس والعذاب وأنّهم مستبعدون، وأنّهم لا شيء. كانت الأبواب موصدة من وراء الغالبيّة العظمى، وينبغي عليك إدراك هذه الحقيقة كي تفتحها. ولم يكن مصدر جهودها من الإحساس بالمسؤوليّة تجاه جيلها. على أيّ حال، كلّما قلّ ما يملكه الشخص، ازدادت قوّة الرغبة في المشاركة.

سألت نفسها إن كانت رغبتها في التواصل مع الآخرين مرجعها حقيقة أنّها كانت منذ زمن بعيد تحتفظ بكلّ شيء لنفسها، أو في رغبتها لأن تحبّ وأن تكون محبوبة. وردّت على التساؤل بأنّ الإجابتين صحيحتان. فقد كانت تأمل من خلال المشاركة أن تصبح أكثر هدوءًا، وأن تشعر بأنّها في أحسن حال، وأن تهزم الوحدة. لقد ابتعدت كثيرًا عن الأسلوب الذي تربّت عليه، وتحوّلت إلى غصين طيّع لا يمكن كسره. وتذكّرت جملة كانت قد دوّنتها وهي:

أحيانًا أفكّر في أن أضيّع نفسي في مسالك سيّئة، سيّئة جدًّا!

وعند تلك المرحلة، لم تستطع أن تخمّن ماهيّة هذه المسالك، لأنّ صفة السوء مفهوم نسبي، ويمكن أحيانًا تعريفها على أنّها إطاعة عمياء، وفي أحيان أخرى على أنّها تمرّد. الشيء المهمّ هو أنّ على المرء أن يعثر على نفسه من جديد خشية ضياعها في دروب مجهولة.

وفكّرت: أريد أيضًا أن يراني الآخرون. هذا أمر طبيعي ومهمّ. وأرادت أن يتنبّه لها بعض الناس على نحو لم يتنبّه إليها أيّ شخص آخر. المؤكّد أنّها على حقّ في ذلك.

ولم تستطع مقاومة الدخول إلى ملفّ قصائدها وقراءة آخر قصيدة. وكانت قد وطّنت عزمها على عدم إلقاء نظرة عليها بعض الوقت، تاركةً إيّاها كي تستريح. ثم أضافت بيتًا آخر، وراحت تقرأ القصيدة من بدايتها:

ظلّي يمرق من خلال
زرقة الليل الضبابيّة
مثل نجوم خابية
وأحلامي تزوغ منّي
وتثب على ظهر الريح
أنا لا أريد اللحاق بها
ربّما سأبتكر أحلامًا جديدة
من غبار النجم المتساقط

ليس للإنسان أن يفقد إيمانه بالعالم

لأنّ الأجنحة ما تزال تخفق

في الفضاء المنعش

حيث تنظر الطيور إلى أسفل..

وقرّرت أن تنقّح هذه الأبيات في وقت لاحق.

فأغلقت جهاز الحاسوب وذهبت إلى سريرها. مرّة أخرى، يصكّ سمعها صوت جلبة قادمة من الشقّة في الدور العلويّ. وعلى حدّ ما استطاعت أن تتبيّن، فإنّ الزوجين الساكنين فيها لم يكونا في حال انسجام. وكانت حتى الآن لا تعرف أحدًا في العمارة، ولم تكن لديها أيّ رغبة في معرفة أحد. كانت تريد أن تحمي حميميّة حياتها الخاصّة من جهة، ولأنّها لم يكن لديها وقت تمضيه صحبة الجيران. وكان عدم التقرّب إلى أحد يعني ألّا تأخذ في الحسبان أيّ شيء أو أيّ أحد! على أيّ حال، لم يكن ثمّة من يهتمّ بعزلتها سوى القيّم على المبنى والمرأة الشابّة التي تقطن في الجهة المقابلة رفقة أطفالها الثلاثة. في الأماكن التي يعيش الناس حياة اختلاط مع الآخرين، فإنّ المرأة الشابّة التي تحيا حياة وحيدة بمفردها تثير فضول الناس العاديين. وعندما ردّت إيلام على أسئلة جارتها المتكرّرة قائلة إنّها بلا أقارب، تمنّت لها المرأة أن تستجمع شجاعتها والصحّة والنجاح. أمّا بخصوص القيِّم، فقد كان موقفه حذرًا ومتعاليًا وكأنّه يعتقد أنّ هذه المرأة المستوحدة سوف تظهر يومًا ما بطلة فضيحة محتملة في العمارة. وفي الأيّام الأولى غمغم بكلمات مثل: أليس لك أخ؟ غير أنّ إيلام لم تردّ عليه.

كانت قادرة على التقرّب من أناس بعينهم من دون أيّ عاطفة، وكأنّهم ليسوا سوى قطع أثاث اعتياديّة، طاردة إيّاهم من حياتها بأن تصرّفت وكأنّها لا تطيق احتمال الغباء، إلّا أنّها لم تستطع أن توضح لنفسها كيف تعلّمت هذا التصرّف.

لم تستطع النوم، فثمّة صوت رجل في الدور العلويّ يصيح ويشتم، وامرأة تتوسّل وتبكي وتقول: «لا بالله عليك، سوف أكون ممسحة الأرجل من تحت قدميك. لا، أرجوك». وكان السقف يهتزّ بثقل شيء رُمي على الأرض. واستمرّت الضوضاء بالنبرة نفسها والوتيرة نفسها برهة وجيزة من الزمان، ثم توقّفت. وتخيّلت إيلام لحظة وجه امرأة مشوّش الملامح، ولا تعرفها، وأنفها ينزف وتحيط الكدمات بعينها. ثم انزاح الوجه إلى الوراء مبتعدًا شيئًا فشيئًا حتى بات وجهها هي.

جلست في سريرها وانتظرت. كان قلبها يدقّ بعنف. ما من جريمة لم تحدث في الليل. وسرعان ما عمدت إلى محو الصورة من ذهنها. وبعد هنيهة، طرق سمعها صوت همهمات ضعيفة ممتزجة بصوت السرير وهو يصدر صريرًا متّصلاً وبإيقاع منتظم، إلى أمام وإلى خلف. وفكّرت أنّ الرجل يغتصب زوجته بعد أن ضربها ضربًا مبرّحًا كاد يودي بحياتها!

أطفأت النور وانسلّت من تحت الأغطية.

لا بدّ للمرء أن ينقّب في أعماق النفس البشريّة كي يتمكّن من فهمها. ينقّب، ينقّب، ينقّب...

* * *

٥

عطلة نهاية الأسبوع. شعر فولكان بانزعاج قليل وتمنّى أن يبقى في المنزل. كان في حاجة إلى الراحة، غير أنّ الهاتف الذي راح يرنّ منذ الضحى، لم يشأ أن يتوقّف. ثمّة خبر صغير نُشر في إحدى الصحف تسبّب في ضجّة قبل المناقصة.

كان الخبر مستندًا إلى حقيقة مفادها أنّ ثمّة فسادًا في مناقصة تخصّ قطعة من الأرض مثيرة للجدال تسعى إحدى الشركات المحلّيّة إلى شرائها والتباحث بشأنها. وكانت هذه الأرض لا تصلح من الناحية القانونيّة للاستثمارات السياحيّة، غير أنّ هارون عقد صفقة مع المشتري، وضمن له أنّ القضيّة سوف تجد لها حلًّا قانونيًّا استنادًا إلى قانون يوشك أن يصادق عليه البرلمان. وكان قد حصل على وعد من الحكومة بذلك، بيد أنّ مدّعيًا باحثًا عن الفضائح راح قبيل إكمال الصفقة يهدّد كلّ الترتيبات والخطط التي وُضعت قبل ذلك.

وكان الاتّهام متمثّلاً في أنّ تعريض قطعة الأرض لهذه العمليّة من الاحتيال والسرقة توجب على شركة كوزموس أن توقف الصفقة وتعطّلها من الداخل، وذلك بأن منحت رشوة لشركة رفضت التخلّي عن المناقصة. ولم يكن هذا صحيحًا، على وجه الدقّة. كان اتّهامًا تبسيطيًّا. وعندما جنّ جنون هارون وهاج وماج غضبًا، قرّر محامو الشركة إرسال شخص مناسب إلى الصحيفة ليُسقط حقّه. وراحوا يشجبون النشر المستند إلى اتّهامات باطلة وجّهها أشخاص خبيثون وعلى استفزازات لم تتجاوز الهرطقة، وكانت تهدف إلى إلحاق الضرر بسمعة الشركة. غير أنّ فورة الغضب لم تهدأ، فكلّ من كانت له صلة بالصفقة ولو من بعيد، راح يتّصل هاتفيًّا.

وكان هارون يصيح من خلال سمّاعة الهاتف:

ـ قل لي: أين الخطأ الذي ارتكبناه؟ كان ينبغي لنا أن نبقي ذلك الدجّال خارج الصفقة منذ البداية؟

ـ كلّ ما سينجم عن هذه القضيّة هو القليل من الرائحة النتنة. إهدأ! ولسوف نفرغ من الموضوع بأسرع وقت ممكن.

ـ أنت لا تدري يا فولكان. ما الذي تخطّط لتنفيذه؟

ـ لن نفعل أيّ شيء. إنّ غدًا لناظره قريب، ما من أحد يمكنه أن يحاصرنا. أنت تعرف أفضل منّي بأنّه ليس ثمّة سبب يدعو إلى القلق.

كانت الصفقة قد أُعدّت إعدادًا ذكيًّا، وكان ثمّة أربعة ممثّلين في هذه المفاوضات، أربعة زعماء، وكلّ واحد منهم أكثر طموحًا وأشدّ بأسًا من الآخرين، وتُركت المسافات بينهم غير مؤكّدة على

نحو يجعل كلّ من يريد التدخّل في اللعبة وإفسادها أن يخرج منها بعد أن يكون قد تورّط في شبكة من العلاقات ازدادت تعقيدًا. لهذا لا يمكن القضاء بسهولة على مثل هذه المؤامرة مُحكمة التخطيط.

وكانت المشكلة ذات صلة بفولكان شخصيًا، وراوده إحساس بالقلق بسبب الدور الذي أدّاه في الصفقة من دون أن يحمل اسمًا فيها. الحقّ أنّه راح في المدّة الأخيرة يكره كلّ شيء عمله وكلّ ما في حياته إذا ما برزت أيّ مشكلة.

يضاف إلى هذا، لم يقلق بسبب أيّ شيء حدث، وكلّ شيء سوف ينتهي كما خطّط له تمامًا.

جذب الأغطية من فوق رأسه واستلقى متكاسلاً وصابرًا مستغرقًا في التفكير في أمور صغيرة. كان يهوى أحلام اليقظة، وكان يطلق عليها تعبير لحظات استرخاء في السرير ـ يسرقها من قلقه اليومي ـ وجلسات حلم يقظته.

كانت ملكة قد دخلت الآن، ورمت بحقيبتها وبدأت تخلع ثيابها ببطء. كانت ترتدي سروالاً بلون الليلك، وكان ردفاها القويّان اللذان لوّحتهما الشمس يشبهان علبة هدايا مدهشة محكمة الشدّ بخيط ما. وكانت قد رمت الغطاء الأصفر بعيدًا عن السرير بحركة واحدة، ووقفت بجانب السرير، وراحت تخلع صديريّة نهديها لتمنح فولكان أولويّة وتسهّل عليه الأمور...

غير أنّ الصورة تغيّرت على حين بغتة.

مرّت الصورة من أمام عينيه: حديقة مشمسة، حافلة ذات

طبقتين بنوافذ زجاجيّة غائمة، وليل جميل تتساقط فيه الثلوج بدا متألّقًا وسط مقاطع من أغنية. كانت أضواء برودواي التي تصيب المرء بالدوار تسطع وسط ضباب مساء جميل من شهر تشرين الأوّل. وثمّة مظلّة حمراء تحت المطر...

وفكّر: نساء، ووضع ذراعيه على غطاء السرير، وراح يصغي لصوت المطر الذي ينهمر على زجاج النافذة. ونساء يسدّدن لك ضربة مفاجئة بزعنفة. تخسر واحدة أو تترك واحدة، فتعترض طريقك ثالثة. علبة هديّة جديدة، شهوانيّة ومدهشة يصعب شمّها وتذوّقها واكتشافها.

مثل كارول على سبيل المثال...

* * *

حدث ذلك بعد رحيل نيلهان مباشرة. يا لها من أوقات مؤلمة وقارصة. طيور زرق وشحارير تشدو فوق الشجر، وعبق الأزهار المنعش يصيب المرء بدوار. وصورة العالم هي صورة رغبة.

كان هو وكارول يجلسان فوق مقعدين متجاوزين في رحلة جوّيّة تأخذهما إلى ماوي. كانت الفتاة آية في الحسن والجمال والجاذبيّة، فلم يجد أمامه بدًّا من اللحاق بها والوقوع في شباك حبّها. خطأ واحد فحسب، تحويلة جانبيّة غير ضروريّة وانسجام سهل، آلهة نصف حقيقيّة، نصف وهم، قارب نجاة... ما من تعريف للطريق الذي تسلكه الأشياء. شاهدا فجر هاليكالا المدهش في اليوم التالي وبعد سنة واحدة، عادا معًا إلى تركيا.

أربع سنوات بدت مثل كرة من خيوط غزل متشابكة، امتزجت

خلالها امتزاجًا عشوائيًّا ممارسة الجنس، والعناق الطويل والشوارع والبيوت والأشجار وسواحل البحر والمطابخ والمهارات والليالي.

ثم انتهى كلّ شيء.

يمكن رؤية السعادة بالعين المجرّدة ولكن يستحيل وصفها. أمّا الحزن فيستحيل فهمه من دون لمسه، ولكن وصفه أسهل لسبب من الأسباب. ربّما كانت السعادة شيئًا آخر، أكثر غموضًا من أن يرغب الواحد في الآخر رغبة جنونيّة، وأكثر هدوءًا وأكثر انتظامًا واعتدالاً... عاطفة تلقائيّة وطبيعيّة... ومثل نغمة موسيقيّة عالية، وفقرة تصعيديّة في المكان الصحيح وفي اللحظة الصحيحة... صمت يثير الدهشة، صعود تامّ، كأنّه مواجهة وجهًا لوجه أمام حالة تتصوّر فيها نفسك أنّك استثنائيّ.

كانت المرأة الشابّة أجنبيّة، تائهة ومرتبكة في بلد الرجل الذي أحبّت. كانت لا شيء من دون فولكان، شيئًا لا يفيد إلّا لتسلية موقّتة. في بلدها، كانت ممثّلة مسرحيّة جذبت الأنظار، وكان لها مستقبل واعد. أمّا هنا، فهي دمية ترقص رقصات دائريّة على قدم واحدة. كانت أحيانًا مهمومة، شديدة الحزن، يلفّها ألم لا سبيل إلى التخفيف عنه في وحدة جسدها التي لا تقاس بشيء ممّا يدفع فولكان إلى أن يأخذها في أحضانه ويجذبها نحوه. وعندما يجد نفسه عاجزًا عن تحمّل يأسها وسكونها، يبتعد من جديد.

تعذّر على الاثنين التواصل في الأشهر الأخيرة. فخرج فولكان رفقة نساء أخريات، ولكنّه اقترب من كارول بعطف وحنان كي يهرب من الشعور الاعتدائي الذي راوده تجاهها. لكن هذا الموقف لم يعمل إلّا على زيادة خيبتها، إذ كان فولكان هو الذي

تخلّت عنه، ولم يعد يجد نفسه محبوبًا، وراح في يأسه يدافع عن نفسه بلامبالاة. ساوره إحساس أنّه كان يريد أن تعاني كارول وأن تتألّم، وأن تكون ضائعة تمامًا، بل أن تموت وهي ما تزال مخلصة له.

كان في قمّة عطائه الوظيفي في ذلك الوقت، وكان يخشى كثيرًا من السقوط سقطة غير متوقّعة، ويزداد إحساسه بالضعف والوهن وهو يعاني ألم الإخفاق المتعذّر على التفسير في حياته الشخصيّة. وازدادت طغيانًا رغبته في العيش وحيدًا، وراح يجبر نفسه على أن يبدو خلاف ذلك حتى في أوقات المصالحة معها.

لم تأكل أو ترقد على نحو ملائم. وفي الآونة الأخيرة، لم تستطع فعل أيّ شيء من دون أن تنفجر باكية. وكانت رؤيته لها على تلك الحالة لا تختلف عن القفز بغتة في ماء بارد كالثلج. وكره الإنسان الذي لم يتمكّن من الارتباط بها على الرّغم من قوله: أحبّك حبًّا شديدًا لا يمكنك أن تتصوّريه.

شخص بدأ من نقطة معيّنة وسار يحدوه الأمل في اتّجاه معيّن، ولكنّه لم يتمكّن من الوقوف في مكان واحد. تتألّف الحياة من مسارات، وهذه هي التي تقرّر كلّ شيء. أشياء تبدأ لينتهي بعدها كلّ شيء.

هذا ما حدث مع كارول، عادت إلى بلدها، إلى المنطقة التي تنتمي إليها، إلى عالمها. ولم يعترض فولكان على هذا الفراق، فتركها تذهب في سبيلها.

دفع عنه غطاء الفراش وجلس على حافّة السرير. كان رقّاص

الساعة يتأرجح باستمرار يمينًا وشمالاً[1] وكان هو وكارول يلتقيان من جديد في تلك اللحظة. مرّة أخرى يلتقيان في عصر ذلك اليوم حيث تعانقا وذرفا الدموع في سعادة وفي حزن من فورهما. كانت كارول تنظر إليه من فوق منكبها عندما ابتعدت عنه وخرجت، وكان فولكان يرى الإدانة في عينيها، فاخضلّ قلبه من وطأة الألم.

كان قد حمل صورتها وذكراها في ذهنه بعض الوقت. ثم فقدت الصورة وضوحها وتلاشت، ولم يبق منها سوى ظلّ أشقر نحيل ورقيق يشاهده من وراء زجاج مخشوشن. ذكريات وألوان واختلافات وجفوات...

* * *

نهض من فراشه وأزاح الستائر جانبًا وسرح ببصره نحو البحر. كان المطر قد توقّف عن السقوط. ومن وراء الغيوم التي كانت تسير مسرعة، راحت الشمس تبزغ وتتوارى مثل كرة بيضاء متجمّدة. ذهب إلى المطبخ وأخذ يعدّ الشاي. ثمّة تقارير يتعيّن عليه قراءتها وبيانات تتطلّب الدراسة، بيد أنّه لم يكن في مزاج رائق كي ينهي ذلك.

شاهد برنامجًا حواريًا أثناء تناوله وجبة الإفطار. في مثل هذه البرامج التي كانت تحظى بشعبيّة كبيرة، يكشف مشاهير الضيوف، وهم يواجهون أسئلة ذكيّة وملحّة، عن أسرارهم التي ليست هي بأسرار أبدًا ـ ويبتسمون أحيانًا ابتسامة تنطوي على حزن مصطنع. الواضح أنّ المسحوقين كانوا يشعرون بالقناعة والرضا، لأنّهم

(١) في النصّ الإنكليزي: يتأرجح باستمرار إلى الأمام وإلى الخلف وهذه حركة غير منطقيّة للرقّاص الذي يتأرجح يمينًا وشمالاً وليس إلى الأمام وإلى الخلف، لذا اقتضى التنويه (المترجم).

متساوون عندما يشاهدون بؤس الأثرياء والمتأنّقين والمشهورين. وربّما وجد بعض الناس عزاءً إذا ما عرفوا أنّهم ليسوا وحيدين في حياتهم المفكّكة، وفي أحزانهم وحرمانهم وقهرهم وفي إدراكهم عدم وجود شيء اسمه السعادة الكاملة. ثم هناك برامج النساء التي يشاهدها الناس بالاهتمام والمشاعر نفسها. فهذه البرامج تقدّم مشكلات أسريّة يتعذّر فهمها، ويجري الكشف فيها عن أكثر الخطايا خصوصيّة وسرِّيّة، وذلك بصور رهيبة من صور الجنون ونزعات إظهار القدرات الكلاميّة على نحو لافت للأنظار. هذه المشاهد إذًا أكثر مدعاة للدهشة، يشاهدها الناس بشغف والدموع تترقرق في مآقيهم، بغضب وشفقة مزيّفين، ويصفّقون لها.

* * *

أراد أن يتّصل بملكة، ولكنّه لم يستطع. حمل نفسه على الاتّصال بها لأنّه لم يكن يعرف ما يريد أن يقول لها. لعلّه لم يرغب في أن يخسر اللعبة منذ البداية، فقد ذكرت ملكة ضمنًا أنّها غير مرتبطة، ولكن ربّما ما تزال تواعد صديقًا أو لديها شخص ما على علاقة به، فمثل هذه المرأة الجذّابة لا يمكن أن يُتوقّع منها أن تكون وحيدة. لعلّها كانت تلتمس الراحة والاستجمام بعد أن علمت أنّ كنزها الصغير لم تمسّه يد، فأرادت أن تترك فولكان وراءها. وفي تلك الحالة، ليس ثمّة منطق في أن يتوقّع أيّ شيء منها. فالمعلومات المتوافرة لديه لم تكن كافية كي يكتب قصّة حبّ لاثنين. فالاختلاط العادي والحدث اليومي العابر لا يمكن أن يُنظر إليهما نظرة أبعد من ذلك. المؤكّد أنّ حلمه ليس سوى حلم طفوليّ غير ناضج. يمكن للخيالات الوقتيّة أن تكون مجدّدة للشباب، ولكنّ

الضغط على امرأة من بعيد كان عملاً من أعمال من هو منحرف جنسيًّا.

أعترف بأنّه لا يستطيع منع نفسه من التفكير فيها بين حين وآخر، وسبب ذلك هو أنّ قلقه كان يريد أن يخرج من قفصه مشيّعًا بمشاعر مبالغ فيها عن الرغبة الجنسيّة. كان ذلك حلمًا اتّخذ له شكلاً في تلك المرأة المسمّاة ملكة.

في فصل الشتاء، بعد انفصاله عن كارول، كان قد بدأ باللجوء إلى أساليب جنسيّة مفرطة وفجّة وخليعة وبلا عواطف. كان موقفه تجاه هذا الموضوع وحواسّه وسرعته واهتمامه قد أخذت تتغيّر وتتبدّل. فهو لم يكن راغبًا في أن تتعمّق أيّ عاطفة، ولم يكن يرغب في تحمّل أيّ عبء، وأراد أن يترك نفسه منجرفًا مع الريح. كان في حاجة إلى عفويّة الفظاظة والسوقيّة كي يشبع حاجاته، وليتجنّب السقوط في شبكة عنكبوت الحبّ وأن يتجاوز الألم. ليست ثمّة ميوعة عاطفيّة، ما شأن الميوعة العاطفيّة بممارسة الحبّ؟

ثم لاحظ أنّ هذا النمط من الجنس تحوّل إلى شكل من أشكال الإدمان، إلى تخمة جنسيّة في وقت قصير. إذا أراد المرء أن يملأ الفراغ في الأعماق، فإنّه يشعر بجوع غاضب تنمو جرعته وقوّته نموًّا مستمرًّا. إنّه أشبه بمن أصيب بتشنّج وشعر أنّه فارغ في جوفه. كان يطمح إلى ما هو أكثر، دائمًا إلى ما هو أكثر، كأنّه مدمن على المخدّرات.

يضاف إلى هذا، أنَّ أنانيّته ازدادت، وراح يعاني صعوبة في الإثارة، وكان التعويض عن هذا النقص بالعنف والخشونة ممكنًا بوصف ذلك أسرع طريقة. ولمّا رأى هذا الميل في نفسه، راوده

إحساس قويّ جدًّا بالانحطاط والرغبة في التدنّي.

كان قد تمكّن على مدى سنين من بذل جهد عظيم كي يكيّف نفسه مع حدود ما هو طبيعي. ولكنّه ترك نفسه بعد ذلك أن يسقط من فوق قمّة جرف عالٍ إلى المياه المظلمة الممتدّة من تحته، وكأنّ الحياة ما تزال تملكه. كان يرغب في استمرار أن تحلّ به عقوبة مثل كلب محروم من الطعام والشراب، أن يمارس الجنس ممارسة اعتباطيّة، وعلى نحو وحشيّ وكأنّه في معركة، وأن يصرخ ويتوسّل ويطلب الصفح والغفران عن كلّ نقاط ضعفه البشريّة.

لكنّه على الرّغم من ذلك، لم يُلحق به أيّ أذًى. ثم فطن إلى أنّ هذه التجربة ليست أصيلة، وأنّها ليست سوى عاطفة تهدف إلى ما هو مزيّف، وأنّها خطيرة جدًّا.

غصَّ وتجمّد. كان يحرس نفسه من نفسه.

* * *

اشتغل على بعض الأعمال التي لم تنجز بكاملها، وهو يرشف الشاي بالليمون والقهوة حتى ساعة متأخّرة من المساء، ثم عاد إلى آخر تقارير الأعمال لقراءتها قراءة متأنّية بعد أن انشغل فيها، كي يتأكّد من عدم وجود أيّ عقبات غير متوقّعة.

كانت معدته في حالة تمرّد مستمرّ، فقد كان يمارس الحمية الغذائيّة منذ ذلك اليوم الذي كلّم فيه ملكة، ففقد كيلوغرامين اثنين من وزنه في غضون أسبوع واحد.

غير أنّ عذاب الجوع كان يشبه عذابًا لم يكن متأكّدًا من قدرته على تحمّله بعد الآن، فاختار طَبقًا من مجموعة الأطباق الباردة التي

أعدّتها له منظّفة المنزل، وهو «أمام بايلدي»، مع سَلَطة من دون زيت.

انبعثت رائحة سكائر من دون نكهة، وفتح الأبواب المؤدّية إلى السطح وخرج. كانت الشقّة العلويّة المطلّة على غابة من جهة الخلف وخليج بيبك من جهة الأمام رائعة بمشهدها البانورامي على البوسفور. كان جزء من أجزاء السطح يشبه قاربًا خشبيَّ الأرضيّة ومقعده الشبيه بنصف القمر. وثمّة ركن آخر رتّب بهيأة حديقة من الحدائق البوذيّة التأمّليّة. ثمّة وسائد ذات لون رمادي مائل إلى الزرقة على الكراسي وعلى الأرض. كان يتطلّع إلى تسليةِ ضيوفه في هذا المكان في فصل الصيف، غير أنّ ضيفه الوحيد كان والدته. كان قد وطّن العزم على أن يقيم حفلة قبل أن ينتهي فصل الصيف، ولكن بما أنّه أنهى إجازته إمّا في بعض النشاطات أو في السفر، فإنّه لن يحظى بتلك الفرصة أيضًا. الحقّ أنّه لم يرغب في دعوة أيّ شخص.

ارتعش في برودة ذلك المساء، وأرسلت الأشجار حفيفًا عند هبوب نسمات الهواء العليل الخفيفة. تلك هي تباشير فصل الشتاء. وامتزجت الأغاني المرحة والراقصة التي صقلتها نسمات منبعثة من مقهى قريب بضوضاء السيّارات المارّة في الشارع من تحت.

كان في سعادة غامرة إذْ يقضي حياته كما يريد ويحبّ، وحيدًا، ولكنّه يعرف كيف يقضيها، وهذا أفضل وأكثر مدعاة للافتخار من مشاركة رخيصة مع شخص آخر، سواء حالفك النجاح أو لم يحالفك!

وجد نفسه عيّنة متطوّرة من الجنس البشري. المؤكّد أنّ بعض

مطالبه انتهت بكارثة، غير أنّ نجاحه كان إلى حدٍّ ما على صلة بذلك. المطلب يعني الرغبة والرغبة قوّة هائلة كانت تراوده في كلّ خطوة يخطوها إلى أمام، بل حتى في الهزيمة. إنّ كونه واحدًا من بني البشر إنّما هو التوق الشديد والحقيقي إلى الحياة. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن تقهره قوى تترنّح في وسط أكاذيبها، وضغوط تسحق الناس، وحرمان وإخفاقات، لأنّ الرغبة كانت حالة دائمة من حالات التمرّد.

هل كان قلقه علامة تدلّ على فقدانه متعته في الحياة؟ هكذا تساءل. . ولكنّ الجواب كان: لا، لأنّ كلّ ما ملكه لم يعد جذّابًا. هذا كلّ ما هنالك. المؤكّد أنّ كلّ تلك الأشياء كانت ضروريّة في حياته، أو ضروريّة له كي يشعر أنّه ما يزال على قيد الحياة، ولكنّها باتت تافهة، بلا معنًى. وفي بعض الأحيان، كان ضروريًّا على بعض المواقف والتفسيرات ووجهات النظر المتباينة أن تتّحد وتشكّل كلًّا متكاملاً، وعندئذٍ يمكن للمرء أن يلاحظ الأشياء وأن يفتح عينيه ويرى العالم. وكما هو الحال في ضرورة أن يكون لأيّ كلمة معنًى، فإنّ من الضروري أن يتبع المقطع الأوّل مقاطع وأصوات وعلامات أخرى.

مضى إلى الداخل. كان قد قضى وقتًا قصيرًا في هذه الشقّة منذ فصل الصيف، ولكنّه لم يشعر أنّه في بيته. وبينما كانت قدماه تذرع تصميم الشقّة القديمة، فإنّه كان أحيانًا ينعطف عن خطأ للذهاب إلى المطبخ أو الحمّام. وكانت والدته قد قالت إنّ بيته يشبه مستشفى، وكانت البساطة طابعه كلّه. والمكان الوحيد الذي لا يبدو ملائمًا لبقيّة أنحاء البيت هو غرفة مكتبه. فقد كانت خزانات الكتب تغطّي

جدارين اثنين، وثمّة عدد قليل من اللوحات ومنضدة كتابة كبيرة أمام الأبواب التي تؤدّي إلى السطح على الجهة الأخرى، وأريكة سريريّة. هذه هي الغرفة التي أمضى فيها معظم وقته. وكانت الشقّة مطليّة من الداخل بالطلاء الأبيض، غير أنّه أصرَّ على استخدام ألوان أخرى لمكتبه وغرفة نومه، وكان اقترح اللون الأصفر لهاتين الغرفتين اللتين كانتا واسعتين ومنيرتين. كان اللون الأصفر، بحسب ظنّه، لونًا حيويًّا مثيرًا. غير أنّ الطلاء كان يميل إلى الاسوداد إلى حدّ كبير، عن عمد أو غير عمد. وبدلاً من أن يكون أصفر، فإنّه كان يميل إلى لون العسلي البرّاق أو الأصفر الزعفراني، وهو لون راقه أوّل الأمر، لكنّه لاح له أحيانًا من بعد ذلك لونًا مثيرًا، وفي أحيان أخرى مرهقًا ومثيرًا للكآبة بحسب حالة مزاجه وطبعه. وقرّر أن يغيّر من ذلك اللون عندما يعيد طلاء الشقّة.

* * *

لجأ إلى الإنترنيت، كدأبه عندما يكون ضجرًا. وأنفق معظم الليل يقرأ التعليقات الاقتصاديّة ويصغي إلى الموسيقى. كان في الليالي التي يشعر فيها بالإنهاك، يستمتع بتصفّح المدوّنات المحلّيّة ومواقع الدردشة التي كان يطلق عليها «رأي الشارع»، قبل أن يخلد إلى النوم. كان قد ابتعد عن الناس، عن الناس تمامًا، فراح يشعر بالبهجة وهو يراقب العالم الذي كان نقيض عالمه، الحقّ أنّ كلمة «بهجة» لم تكن الكلمة الملائمة. كان التطفّل على حياة الآخرين يمنح المرء قوّة لرفع رأسه إلى أعلى في هذا المحيط العام الذي ينطوي على انعدام الأمن والتلوّث والانحطاط. وكانت مشاهدته حياة ناس اعتياديين ملؤها الكآبة وعدم الاستقرار تسهّل عليه قبول

الأشياء التي حدثت حتى وإن كان حدوثها موقّتًا.

لاحت له حشود الشبّان وغير المتعلّمين والذين حظوا بقسط قليل من التعليم، وكأنّهم قطيع، بسبب من ابتذالهم وتفاهتهم. كان هؤلاء الناس يرون الفضاء الفعلي على أنّه المكان الوحيد الذين يمكنهم من رفض يأسهم. لم تكن لدى تسعين بالمائة من هؤلاء الناس أيّ رغبة في البحث عن عمق الحياة أو معناها. ما من شيء جديد ولا أفق للكلام، ولا روح... لغة فاسدة ومتردّية، جوفاء ومنكمشة... وجهات نظر مهلهلة... محاولات ذكيّة أو غبيّة... عواطف شديدة لا تفسّر أيّ شيء معروف سلفًا، أخطاء واعترافات يوميّة... رخيصة وضحلة وجاهلة... إحساس مريض بالنكتة ومتعة نرجسيّة ولامبالاة واضحة... على أيّ حال، لم يتمكّن من إنكار محاولات هؤلاء الناس للتأقلم في العالم، من دون التخلّي عن درعهم ومحاولة إسماع صوتهم. لولا هذا الاختراع الذي يتمكّن بوساطته الناس من التحرّر من أعبائهم، فإلى أين يمكنهم الهروب والاختباء، ولوصل القنوط العام مستويات أشدّ وأسوأ!

المؤكّد أنّ ثمّة مجموعة ذات مستوى معيّن. بعض أفرادها ـ ومعظمهم من كتّاب الأعمدة أو الأدباء الناشئين ـ أظهر إخلاصًا لم يتطلّب جهدًا جهيدًا. وحاول آخرون استعمال كلمات أكثر، ذات فاعليّة أكبر استعمالاً عامًا بتبنّي موقف حازم وإن كان ينمّ عن اهتمام. وتجد أيضًا أولئك الذين ألقوا محاضرات عن جمال منسيّ أو غير مكتشف، وأيضًا أولئك الذين تذمّروا من كونهم لا حظّ لهم بسبب الخيارات التي لجأوا إليها.

تصفّح شاشة الحاسوب من دون هدف، يغالب النعاس، كأنّه

شخص يتوقّع أن يظهر له أحدهم فيثير المشاعر التي كان في انتظارها. وكان يأمل في أن يسمع، من خلال هذا الضجيج اليائس والمدوّي المنبعث من جوقة هائلة، صوتًا منفردًا ومتميّزًا ومناقضًا لكلّ تلك الأصوات، ونغمة واحدة تلامس شغاف قلبه وتبدو مسرّة لأذنيه.

ولم يجد شيئًا كعهده. قليل من الفكاهة وبعض الكتابات التي لا تنمّ عن تجربة كبيرة، وقدر كبير من الجنس الفاضح... نهض وصبّ لنفسه كأسًا من البراندي. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. سوف يجعله الشراب يخلد إلى النوم، وسوف ينهي من بعده هذه النزهة الليليّة القصيرة في عالم البشر، الذين تخلّوا عن بقايا وجودهم وراحوا يحيّون الآخرين اعتباطيًّا على ما يكتبون من قصص بائسة.

وعلى حين بغتة، فاجأته أسطر ظهرت على الشاشة:

المستقبل

إلى عناية «الأشخاص النكرات»[1]

أرجوكم انظروا!

لقد رميت بنفسي عليكم مثل قنبلة حيّة، في الوسط ارمي بنفسي.

سمعتم به، صحيح؟ سمعتم الانفجار، فاستبدّت بكم الدهشة! أنا فعلت ذلك. نعم، أنا الذي أصرخ! أصغوا إليَّ...

---

(١) سوف يلاحظ القارئ الكريم في نصّ هذه الرسالة عبارات وجمل مفكّكة وغير مترابطة، وقد حاولنا في ترجمتنا إيّاها أن نحافظ على أسلوبها كما وردت في النصّ الإنكليزي (المترجم).

اضغطوا على الزرّ للاستمرار. .

أريد أن أغمض عينيَّ عندما أقرأ كتاباتكم. إنّكم تثيرون الضجر إلى أبعد الحدود بما تكتبون من جمل وعبارات برآقة أو غير مبالية أو غير متقنة عن مغنّياتكم الفظيعات وهيامكم الساذج وتفاهاتكم التي لا تتحمّل أيّ ظروف مخفّفة.

إنّني لا أطيق ضجركم وضحالة تفكيركم وقنوطكم المضلّل. جهودكم لقتل القتل باعترافاتكم الخياليّة وأساطيركم المدينيّة ودردشاتكم الميتافيزيقيّة. . .

أنتم على ما يبدو بلا أمل، ولكنكم تميلون إلى تقبّل كلّ شيء بسهولة.

إنّني أودّ أن أوضح بجلاء أنكم خُلقتم حتى يجري استغلالكم! قفوا! لا تتعجّلوا في الاعتقاد وتقولوا: «يا للمغرور المقرف ويا للاعتدال الخانق».

إنّني مثلكم تمامًا، واحد من أولئك النكرات. إنّني جزء من كلّ هذا الذي قلته أنا.

ففي صباح كلّ يوم أنتظر وإيّاكم مرهقًا ونعساناً أمام مبنى عظيم كي تفتح أبوابه.

أنا وأنتم، بِصمتنا المنطوي على صبر عظيم أو بتمرّدنا الغارق في الضوضاء في السنّ نفسه واللون نفسه. تتلامس مناكبنا، فيدفع أحدنا الآخر قليلاً، ونبدو من بعيد باعثين على الشفقة، وكأنّنا قطيع من الماشية، ونرتدي ثياباً متعدّدة الألوان.

وفي كلّ صباح نبدو مثل مجرمين خائفين من أن يقبضوا علينا

متلبّسين بجريمة محتملة، فنفتح سيقاننا وحقائب حواسبنا كي نوضح أنّنا لا نضع أيّ قنبلة، قبل أن يسمح لنا بالدخول.

* * *

لماذا أتفوّه بكلّ هذه الأشياء. أنتم تعرفونها سلفاً.

بيوت الدجاج الضخمة المصنوعة من الزجاج والعديمة النوافذ أو ذات النوافذ التي لا تفتح... هذه القواطع الصلبة والقويّة المخصّص كلّ واحد منها لرجل واحد وتقتضي الانتهاء من العمل... هذه الوطأة الخانقة لأجهزة تكييف الهواء التي نصبت مع الأخذ بالحسبان ارتفاع الرأس والتنفّس المحسوب...

عجزنا عندما تبدأ كلّ أجهزة الهاتف بالرنين في الوقت نفسه... الذين نفد صبرهم ينتظرون بينما تتساقط الرسائل الإلكترونيّة في الصندوق، واحدة تلو الأخرى، وعلى شاشة برّاقة... الاتّصالات التي نسعى إلى إقامتها مع اللغة قوامها نظرات خاطفة وعلامات غامضة...

المؤكّد أنّنا نعرف مدى وحدتنا.

إنّنا نكبّ على عملنا كي نحول دون استقرار الألم الذي ينسلّ من بين ضحكات محدودة. الضحكات والنظرات الخاطفة والمناقشات والنكات ممنوعة. ولا ينبغي لأحد أن يلمس الثاني من غير ضرورة. لا تحالفات.

نتكلّم بأصوات خفيضة ونتفوّه بكلمات تبتعد وتقلّ رويداً رويداً. نخفي ركبنا تحت مناضد الكتابة. ثمّة مراقبون لا يتحركون من فوقنا، باردون مثل نهايات مواسير يمنعون جهود الانجماد والمقاومة.

رزانة المكتب وترتيبه لا ينبغي الإخلال بهما.

بقع وغبار على مكاتبنا.

زينة مبتذلة، زهرة ذابلة، ومشروب غازي مراوغ.

لن يكون.

سوف ترتخي القيود في استراحة الدقائق العشر.

وسوف يتشكّل صفّ طويل في هدوء أمام آلة القهوة.

صوت جهاز الطباعة المستمرّ والأوراق المبعثرة وشبكات البرقيّات.

حديث مع زبائن أثرياء ودمثين، متأنّقين في فخر. على أيّ حال، الوقت ضيّق، فلا تتوانوا. الوقت الذي تقضونه في الحمّام سوف يستقطع من مجموع وقت عملكم في نهاية النهار.

لا تشربوا من الماء أكثر ممّا ينبغي. واملأوا في كلّ ساعة صحيفة أداء العمل.

نحن معوزون وحسنو النيّة وضعفاء. مخيّبون للآمال ودؤوبون على العمل ويقظون، ومستعدّون لمقاومة أيّ صعوبات ونبذل كلّ جهد! ما دام أجرنا يدفع لنا بسرعة ولا نطرد من عملنا.

نغادر المكتب في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة في أكثر تقدير، وكأنّنا نخرج من أنفسنا... بقليل من التذمّر والعيون المشدوهة والرؤوس المطهّرة... بوحدتنا التي لا تهمّ أحداً وشموعنا المطفأة... في حين ما تزال أمامنا ليلة طويلة.

هذا الرجل، تلك المرأة، الذين تدعوهم زملاءكم، ربّما في وسعكم أن تخلدوا إلى النوم مع الآخر الذي يحدجكم بنظراته كالخنزير طوال اليوم، لا لشيء إلّا لمجرّد النظر. لا، القضيّة ليست جسداً واحداً

وروحًا واحدة، وهي ليست جسداً واحدًا مضافًا إليه جسد واحد، الأمر ليس بذي أهمّيّة، ربّما كان مفيدًا للسأم أو للحيلولة من دون البكاء بلا سبب.

أو أسرعوا واشتروا بضعة أشياء قبل أن تغلق المحالّ أبوابها. تجوّل على نحو غير ضروري. من العلامات المعروضة للبيع. كن إيجابيًّا. ليكن إيمانك بأيّام أفضل مقبلة، ولا تقلق بشأن ما لا تستطيع فهمه. التزم بالقواعد والقوانين كما يجب. كن خالي الذهن أمام شاشات التلفزة، ويكفي أن تفهم أقلّ القليل عقليًّا ووقتيًّا.

أنتم أيّها «النكرات» الصغار، لا أعرف إن كنتم قد سمعتم. يبدو أنّ بعض كبار السنّ كانوا من بين المتمرّدين الذين أرادوا ذات مرّة تدمير كلّ شيء، المتبطّلين الذين غزوا الشوارع، الذين نشروا ووزّعوا بيانات سخيفة، وأنّ بعض الشبّان كانوا يكتبون الشعارات على الجدران، وفي وقت لاحق، انكمشوا مرتعدين وخفّفوا من غلوائهم، وقيل إنّ هؤلاء الناس كانوا يريدون نظامًا أكثر عدالة ومستقبلاً أكثر جمالاً وذا معنًى أكبر.

الواضح أنّهم يحلمون بمستقبل، وهم قادرون على الحلم بمستقبل!

يصعب كثيرًا تصوّر ذلك، ولكنّهم يؤمنون ـ وإنْ على نحو ساذج ـ بشيء اسمه مستقبل! ربّما ثمّة من يتذكّر من بينكم وجوه القريبين منكم في أيّام زيارة السجن. لا بدّ أنّكم أصغيتم وكأنّ قصّة مثيرة للرعب تُروى. إنّني متأكّد من أنّ قسمًا منكم يعرف كلّ الأشياء التي حدثت لهم.

هكذا تعلّمنا نهاية أحلام مشبوبة العاطفة لا تنتهي عند نقطة معيّنة!

أنتم تقولون لي إنّ لديّ وظيفة في الأقلّ، ولكن هذا لا يعني أنّني

لست على حقّ. فأنا سوف أفقد وظيفتي على الأرجح غدًا أو بعد غد.

غير أنّ الشيء الذي أريد أن أعرفه هو سبب كون المستقبل يفتقر إلى الوضوح وأنّه مظلم في نظرنا. ما الذي سوف يحدث «للنكرات» مثلنا في تلك الظلمة؟ هل يكمن المستقبل في أيدي الزعماء والمبتزّين والنخبة والمتنمّرين الأشقياء وأولئك الذين يقفون دومًا إلى جانب كلّ الحكومات؟ ماذا سيحدث لو لم يعد ثمّة مكان بسبب هذا الحشد؟ وماذا سيحدث لو لم نتمكّن من العثور على زاوية لأنفسنا في ذلك الجحيم؟

لا تغضبوا منّي أيّها «الأشخاص النكرات»، فأنا في مقتبل الشباب، لكنّ الصورة في ذهني مشوّشة جدًا، ولا أستطيع أن أكون مفعمًا بالأمل وطيّبًا ومنسجمًا على نحو غبي.

إنّني أكره الغباء وأكره لوحات سوق الأوراق الماليّة. إنّني أكره الرجال الشديدي الأناقة والحليقي الذقون الذين تنبعث منهم رائحة طيّبة ويحتذون أحذية يبالغون في تلميعها. إنّني أكره وسطاء الاعتماد المالي المهلوسين. إنّني أكره سوق الأوراق الماليّة ذات الشكل الدائري المغلق. إنّني أكره ميوعة المرتزقة والتأمين على الحياة المستند إلى وثائق نصب واحتيال. إنّني لا أحبّ صناعة الرحمة وسادة الابتذال المدرّبين منذ المهد. إنّني لم أحفظ عن ظهر قلب ولا عن إرادتي كلّ ما تعلّمته من دون مبرّر. أنواع الكروش... لقد اضطررت اضطرارًا إلى قراءة المجلّدات السبعة والعشرين عن تاريخ الأنبياء! إنّني متمرّد ولا أتأقلم مع قوانين السوق. لقد تبرّأت إلى الأبد من أولئك الذين ألحقوا الأذى بي.

إنّني أحبّ أن أجعل كلماتي لاذعة، جارحة، وأحبّ اقتراف الهفوات التي أندم عليها لاحقًا، والأشخاص الطيّبين طيبة ممتازة. كما أحبّ دخول تقاطع الطرق المجهولة.

على أيّ حال، ينبغي لي أن أعترف أنّني لست نظيفًا تلك النظافة التي قد تتخيّلون.

إنّني سرعان ما أصبح قذرًا مثل معظمكم.

قد أسلك طرقًا سيّئة، سيّئة جدًّا عن غير قصد.

كلماتي صغيرة وغير ملائمة على نحو يجعلها تطفو وسط شباك ثقيلة من الأكاذيب. أعرف ذلك. وهذا هو السبب الذي يجعلني واثقًا من أنّكم لم تفهموني مرّة أخرى.

أصغوا إليَّ! كلّ هؤلاء الحاضرين هنا مصادفة، وكلّ أولئك خلدوا للنوم، عقولهم شاردة، وجوههم ممتقعة وهم مؤمنون كاذبون أو ملحدون. إذا كان ما أقوله لا يثير اهتمامكم، فلا بأس. صلّوا باستمرار، اذهبوا وارقصوا، ودخّنوا الحشيشة وأقيموا حفلة كبرى، وقودوا سيّارتكم بسرعة إذا كان في وسعكم أن تجدوا سيّارة، كلوا واشربوا، مارسوا الجنس إلى أن تشبعوا.

أنتم على حقّ، فأنا مثير للسأم. لقد ضيّعت عليكم وقتكم التافه، العديم القيمة،

أعتذر.

لكن أنتم، الآخرين، الذين لا صلة لهم ولا ارتباط، أصدقاء صامتون. . . فكّروا، استجمعوا أفكاركم، وإذا ما رغبتم في أن يشارككم فيها أحد، فاحكوا للعالم عن قصّتكم الحقيقيّة، فلربّما نستطيع بعدئذٍ أن نجد حلًّا من الحلول لإنقاذ سفينة مستقبلنا الجانحة. . . بالتعاون و«بوسائلنا الخاصّة بنا». . .

البقعة الصفراء

ارتعش فولكان ارتعاشة غريبة ومال إلى الخلف وأشعل سيكارة. كان يجلس في مقعده مصغيًا إلى الصمت الذي يلفّ الليل. وراوده إحساس بأنّه أداة رخيصة تطبع بطاقات تثبيت الأسعار.

مهما كانت هويّة هذا الإنسان، شابًّا يعلن عن نفسه، فهو، أو هي، يدرك حقيقة مفادها أنّ نهاية العالم لم تحدث بعد. ربّما ينطوي ما كتبه / كتبته، على يأس وغضب غير أنّ الواضح هو أنّه / أنّها لا يخلو من ذكاء أو حساسيّة.

في الأقلّ كانت / كان يحاول التخفيف من خوفه / خوفها بالصفير.

زد على ذلك، كانت / كان يسير عاريًا وسط العاصفة ولا يمكن إلّا للحبّ أو الكراهية أو اليأس القاتل أن يدفع المرء إلى القيام بمثل هذا السلوك.

ليس واضحًا من هو الكاتب ـ رجلاً كان أم امرأة. الأسلوب الذي جرى به التعبير عن نفسه / نفسها يشير إلى أنّها / أنّه يحاول إثارة عشّ الزنابير، لخوض أوّل معركة عموديّة له / لها. أهمِّيَّة الرسالة الكبرى تكمن في إيضاحها أنّ من العبث الذي لا طائل من ورائه ترقيع ثقوب سقف أصبح مثل منخل بقطع مهلهلة من القماش.

عاد إلى بداية مقالة الشابّ وراح يُعيد القراءة. إنّه نصّ يمكنه أن يجيب عنه بأن يتماهى وإيّاه تماهيًا تامًّا، غير أنّه لم يرغب في الردّ ردًّا صحيحًا ومناسبًا على الرسالة، لاشخصيًّا ولا بوصفه فردًا في المجتمع، لكنّه بالرّغم من ذلك، لم يفقد قدرته على الاستماع.

ثمّة شخص ما يتكلّم في الخارج، شخص ما اعتقد أنّ مستقبله / مستقبلها قد ضاع، ولكنّه ما زال يعتقد أنّ في العالم من سيفهمه / يفهمها. ربّما لا يعرف / تعرف أيّ شيء، ربّما لا يعي / تعي وعيًا عميقًا أيّ شيء ولكنّه / لكنّها وجدت القوّة الكافية للدفاع عن وجودها / وجوده. فكانت / كان يحاول توضيح ما ينبغي له قوله وذلك بترتيب الكلمات واحدة تلو الأخرى، مناديًا للوقوف إلى جانبه / جانبها كلّ أولئك الذين هم ليسوا بأغبياء أو أشرار. وكان النداء ينطوي على عبارات وكلمات شاعر غير ماهر، غير أنّ هذا لم يقلّل من صدقها / صدقه. إنّ الردود التي تعمل على مثل هذه المقالة المحتشدة بالتساؤلات الاعتدائيّة، ولكنّها مبرّرة، من شأنها ربّما ألّا تفيد إلّا في زيادة الطين بلّة، وتلك قضيّة أخرى.

ارتجف. ألم يساهم، وإن كانت مساهمة صغيرة أو غير مباشرة، في سرقة ذلك المستقبل؟

لا، المؤكّد أنّ الغلطة ليست غلطته. كما أنّها ليست غلطة أحد. هكذا بدت الأشياء. فقد آمن كلّ فرد بأنّ التقدّم سوف يحدث بطيئًا، وأنّ على كلّ فرد أن يساعد في هذا التقدّم! يستحيل التقدّم من دون الإيمان بالتقدّم. ألم يتعلّموا بأن يقفوا إلى جانب التقدّم، سواء بالمشاعر النبيلة أو الأهداف الشخصيّة.

كان عقله مشوّشًا، لعلّ جريمته هي الصمت والسكوت، وأن يمتثل للصمت. إنّ أكثر الوسائل المريحة للاحتفاظ بالأسرار كانت التظاهر بعدم معرفة أيّ شيء. ألم يعرف ذلك؟ ملأ كأسه ثانية، ولم يعرف إن كان قد امتثل أم لا، لكنّ الحقيقة المؤكّدة تقريبًا في تلك اللحظة هي أنّه كان شخصًا آخر في ذلك الوقت.

وعلى حين بغتة، فكّر أنّه قد تجاوز خطر البقاء صامتًا، وأنّه يملك ـ أو عليه أن يملك في الأقلّ ـ القدرة على أن يكون شجاعًا مثل هذا الشابّ. فبدلاً من أن يكون ثريًّا ومعتدًّا بنفسه، فإنّ في مستطاعه أن يختار وأن يكون حرًّا غدًا. بيد أنّ من شأن هذه الحرّيّة أن تنطوي على صمت يخصّ ماضيه الذي سوف يستمرّ إلى أبد الآبدين من دون ريب. على أيّ حال، إنّ وضع أوراقه في اللعبة على الطاولة وإخبار هارون بكلّ ما يستطيع، وحتى بالأشياء التي لا يتعيّن عليه إخباره بها، من شأنه أن يكلّفه ساعات قليلة غير مريحة ولكنّها عابرة. هذا كلّ شيء.

* * *

كان قد نسي متى راوده آخر مرّة الشعور بمفهوم المستقبل، الذي كان ممكنًا وواقعيًّا ومنطويًا على التباسات وآمال وتوقّعات وانفعالات تتسبّب في أرق الليالي وفي أحلام وصراعات وخيبات. الأشدّ إيلامًا وعذابًا هو خلال السنوات العشر المنصرمة لم يمتلك فرصة لانتظار الغد، بتوق وحنين. بعض الناس عمد إلى لكزه من الوراء، دافعين إيّاه إلى الغد، ولكنّه كان يعيش حياة متسارعة على نحو أصابه بالعمى فلم يدرك مدى سرعته. ومن شأنه أن يدرك أنّ المستقبل لم يحدث إلّا بعد أن سقط فيه، ثم استقرّ ليراقبه يمرّ من أمامه وهو في جهل مطبق.

* * *

لحسن الحظّ أنّ المرء يلاحظ هذه الأمور أحيانًا في بضع ثوان وفي وقت قصير. المؤكّد أنّ هذه اللحظة هي لحظة طفح وفيض.

ساور فولكان إحساس بأنّه معلّق من جديد بين الماضي والحاضر. وهو إحساس راوده برهة وجيزة من الزمان، ثم مرّ به شعور بقلق مستقبلي وندم كبير للمرّة الأولى منذ سنيّ مراهقته. وتمنّى لو كان في إمكانه العودة إلى البداية.

* * *

مَن هذا الشخص؟ تمنّى لو أنّه التقاه، أن يراه ويتبادل الكلام وإيّاه.

وفي لحظة من الزمان، وجد نفسه يكتب له:

«عزيزي البقعة الصفراء...».

* * *

٦

رتّبت إيلام كتبها في صباح يوم الأحد. ولمّا لم تكن تملك أيّ خزانة كتب، فقد ثبّتت بعض الرفوف، وذلك بوضع عدد من الألواح الخشبيّة بين بعض قطع الآجر التي أتت بها من موقع بناء، وعمدت إلى صفّ أكبر عدد من الكتب فوق الرفوف، وتركت ما تبقّى منها مكدّسًا فوق أحد الكراسي. وبينما هي تتناول وجبة فطورها، قرّرت أن تفعل كلّ ما هو ضروري كي تتأقلم في هذا العالم، بغضّ النظر عن مدى إحساسها بالهزيمة، وكان ذلك القرار نابعًا من إيمانها بأنّ في وسع المرء أن يفعل كلّ الأشياء الضروريّة والمهمّة حتى لو كان في أحلك ساعات اليأس وفقدان الأمل.

ثمّة ردود على المقالة التي كتبتها. فقد رأى أحدهم أنّها موغلة في تشاؤمها، وراح آخر ينتقدها لأنّها أثارت ضجّة كبيرة بسبب مشكلاتها. فإذا كانت لا تروقها ظروف عملها، فينبغي لها أن تعمل في وظيفة أكثر مدعاة لراحتها. الحقّ أنّ شخصًا متمرّدًا مثلها يتعيّن

عليه أن يعمل في أماكن على الطراز الغربي.

وثمّة ردّ فعل آخر جاء عنيفًا مفاده أنّ أولئك الذين لا يؤمنون بمستقبل تركيا هم مغالون في وطنيّتهم ومتخلّفون استبدّ بهم رهاب التقسيم، ولن ينخدع سوى عدد قليل جدًّا من الناس بالمساعي التخريبيّة التي يبذلها ما يسمّى بالشاعر القليل المعرفة. فالشبّان (وكلّ الشباب من كلّ الأعمار) غير مجرّدين من الآمال والأحلام، ولكن هذه الأحلام ليست أحلام أجدادهم ولن تكون كذلك.

ثمّة ردّ آخر أكثر حكمة وحصافة شارك فيه كاتبه / كاتبتها قلق إيلام، على الرّغم من أنّ خطابها غير ملائم وليس ضروريًّا، وأنّ محتواه موغل في ميوعة عاطفيّة. وبحسب هذا الردّ، فإنّ السبب الوحيد لكلّ المشكلات إنّما هو الاقتصاد المعولم. فالذين استمرّوا في اعتمادهم على هذا المصدر المالي الذي لا يرحم لن يتمكّنوا من إنقاذ المستقبل من الرهن. فقد تحوّل البلد بكلّ ما فيه من أصول، إلى شيء عملاق مرهون، وهذه هي الحقيقة الوحيدة المُرّة التي سدّت الطريق أمام الشبّان وسرقت مستقبلهم. وعلى المدى القصير، ليس ثمّة ما يمكن تغييره بجهود فرديّة، بل على العكس، فإنّ الوضع من شأنه أن يزداد سوءًا يومًا فيومًا، ويصبح الانهيار الأخير حتميًّا. وانتهى المقال بالقول: إنّ الطريق الوحيد للخروج من هذه الحالة وبناء مستقبل جديد إنّما يتمثّل باستقلال عاجل وتطبيق النظام الاشتراكي.

استرسلت إيلام في القراءة بشيء من الضجر، لأنّها لم تجد في كلّ تلك الملاحظات أيّ شيء يبعث على الاهتمام. فمن السهل الإيمان بأنّ البلد، بل العالم أيضًا، يسيران نحو التهلكة. ولكنّ

الناس كانوا على الرّغم من ذلك يريدون شيئًا ما يعتمدون عليه، وأن يكون موضع أملهم. نعم، ولكن كيف؟ فقد راحت أحلام دعاة العولمة الذين دافعوا عن الاقتصاد الحرّ بالتبخّر، ولم يحقّق شيئًا الجدل الدائر من حول الانهيار المتوقّع في المادِّيّة الجدليّة التي آمن بها اليساريّون. وعوضًا عن ذلك، فإنّ القوّة التي كان يتوقّع لها الانهيار، نمت وأصبحت متوحّشة واتّخذت لها وجهًا مغايرًا تمامًا. وتصدّعت المثل والمبادئ المفعمة بالآمال وانهارت. ونتيجة لذلك، بات ضروريًّا تقبّل حقيقة أنّ كلّ ما انطوى على تحدٍّ لقوانين الوجود من شأنه أن يبقى بالتهام من يحيطون به ويدمّرهم. هذه هي الحقيقة المرعبة التي سمّمت العالم وخلقت موارد دخل من الحروب.

ثمّة ردّ قصير آخر يقول: إذا كان المرء يريد البقاء على قيد الحياة، فإنّ عليه أن يجد له سبيلاً للانسجام في هذا العالم، فيمتثل لقوانينه ويستفيد من فوائد النظام بقدر ما يستطيع. ولن يستطيع البقاء على قيد الحياة وامتلاك مستقبل سوى هؤلاء القادرين على تنفيذ هذه الأمور. أمّا من بقي من المتشرذمين الذين لا يستطيعون التطوّر مع الزمان، فمن شأنهم على وجه التوكيد أن يُمحقوا محقًا.

هزّت رأسها في خيبة أمل وقرّرت ألّا تدخل في جدل نظري على مثل هذه المنصّة، لأنّ اهتمامها كان ينصبّ على ما يشعر به الشباب من الناس، كأمثالها، وما مرّوا به من تجارب تخصّ مستقبلهم. لقد دوّن هؤلاء الناس أحلامهم الجنسيّة وتوقّعاتهم بأوضح أسلوب ممكن، وإن كانت لغتهم مهلهلة. ولكنّهم على الرّغم من ذلك، كانوا قلقين وخجولين ومرتبكين أشدّ الارتباك في التعبير عن أنفسهم على الصعيدين الداخلي والثقافي.

إنّ الرجال لم يتمكّنوا من تجاوز نرجسيّتهم المتضخّمة، في حين حاولوا إخفاء جروحهم بالاستناد إلى فكرة كاذبة كانت تخفي عارهم، وحتى في الحالات التي لم يستخدموا فيها هويّتهم وظلّوا مجهولين. كما نزعت النسوة إلى الحطّ من قيمة كلّ شيء، وذلك بتبنّي موقف ازداد خشونة وتفرّدًا وجرأة واعتدائيّة رويدًا رويدًا.

* * *

رنّ الهاتف، فوجدت أختها تتّصل بها.

قالت:

ـ لماذا لا تأتين إليّ لزيارتي بعض الوقت اليوم. كما تعرفين، أنا لا أستطيع الخروج، فعمّك سيّئ الطبع من جديد. وربّما سوف أشعر بتحسّن إذا ما تجاذبنا أنا وأنت أطراف الحديث.

كانت شقيقتها تقطن على بعد منطقتين من مناطق توقّف الحافلات. وفي إمكانها أن تؤجّل ترتيب المطبخ حتى يوم غد. وبينما كانت ترتدي ملابسها لاحظت أنّ خصر بنطالها الجينز قد اتّسع، وبرزت حدّة عظامها وتضاءل حجم نهديها. لقد فقدت كثيرًا من وزنها بسبب نشاطها وحركتها في الأسابيع القليلة الماضية. كان وجهها مضنًى وعظام وجهها بارزة، ووجنتاها غائرتين، في ما ظلّلت نظراتها الوحشيّة رموشها الطويلة والسميكة. ثمّة شيء يلوح عليها فيجعلها تبدو وكأنّها قادمة من خارج الكوكب. وفكّرت: ربّما سينمو لي جناحان، وعندئذٍ يمكنني الطيران إن لم يأتِ أحد ما ويمزّقهما.

خرجت وهي عازمة على أن تستقلّ حافلة، ولكنّها قرّرت أن تتمشّى. ومنذ لحظة وصولها مدينة اسطنبول، لم تشعر بالضجر

خارج مكتب الشركة. فلديها كتب ومجلّات للقراءة، وأشياء للكتابة وعمل تنجزه. كانت اسطنبول مدينة غاية في الجمال حقًّا. ولو كان لديها مقدار صغير من المال لكان ذلك شيئًا عظيمًا.

أرادت أن تتّصل بأبيها بعد أن ترتّب أمور حياتها. ومن شأن ردّه أن يكون عليها على هذا النحو: ليست لديّ مثل هذه الإبنة. أو: أين تتسكّعين بحقّ الجحيم؟ وليس ثمّة وسيلة لتغيير ذلك. وكان من شأن سماعها صوت والدها أن يجعلها تشعر أنّها أكبر سنًّا بعشرة أعوام وأنها مذنبة أيضًا. وفكّرت أنّ الأفضل أن تنسى الأمر برمّته.

* * *

فتحت صفديّة[١] الباب وحاولت أن تبعد ولدها البالغ خمسة أعوام الذي كان يجذبها من تنّورتها. كان عدد الناس الذين يتردّدون على المنزل لزيارتهم قليلاً ممّا يدفع الأطفال إلى الحماس كلّما رنّ جرس الباب. أمّا مروة البالغة تسعة أعوام، فقد ركضت لتعانق إيلام. كانت رائحة المشروبات الكحوليّة والطعام والبول تفوح في أنحاء المنزل، وكان الفقر والعفونة والإهمال منتشرًا في كلّ مكان.

هتف شكر من الداخل:

ـ من جاء؟ أهو موتينا؟

قالت سيديّة:

ـ اذهبي وألقي عليه التحيّة.

(١) يرد الاسم هكذا في النصّ الإنكليزي، ولكنّه ينقلب من بعد ذلك إلى سيديّة، ممّا يدلّ إلى خطأ طباعي في الأصل (المترجم).

دخلتا غرفة صغيرة تطلّ على الشارع. وكان شكر ـ الذي لم تستطع حمل نفسها على مناداته بكلمة «عمّي» ـ مستلقيًا على الأريكة التي لا يستطيع النهوض من فوقها: وكان غالبًا ما يفلح في الجلوس متّكئًا عليها. كان قد ضمر بدنه إن لم نقل إنّه قد انهار. ولاح على وجهه تعبير ينمّ عن الإحساس باليأس، بينما استقرّت في نظرته المحدّجة أنانيّة رهيبة.

قالت إيلام ببرود من دون أن تقترب وكانت ما تزال واقفة:

ـ مرحبًا، كيف حالك؟

ـ كيف تتوقّعين أن أكون؟ كما ترين. . .

كان الأبوان قد أرغما شقيقتها على الزواج بهذا الرجل الذي كان من الأقرباء الأبعدين، وكانت تسامح هذا التعس في وقت كان هو يسومها سوء العذاب منذ عشرة أعوام. وكان شكر يعذّب زوجته باستمرار، غاضبًا لأنّها لم تحبّه وللكره الصامت الذي كان يساورها تجاهه.

الآن، بات الرجل كريهًا، سيّئ الطبع أكثر من السابق. ولعلّ السكتة الدماغيّة التي ألمّت به قبل عام مضى كان مرجعها تناوله المشروبات الكحوليّة والمخدّرات. وقد زُجَّ به في السجن مرّات ومرّات لارتكابه شتّى أنواع الجرائم التي كانت تتراوح بين تهريب المخدّرات وبيعها، وبين التهريب والاعتداء، ولكنّه تمكّن من النفاذ بجلده في كلّ مرّة! ولكنّه بات الآن يشعر بالأسى لما قاسته زوجته من ألم في الماضي. غير أنّ زوجته لم تشعر نحوه بأيّ عاطفة ولا بأيّ حبّ، ولم تكن مدينة له بأيّ شيء.

وعلى الرّغم من شدّة الضنك والعوز في حياتهما، وصعوبة تدبير أمور حياتهما، إلّا أنّه استأنف الإدمان على الكحول بعد مغادرته المستشفى، وهو يعلم أنّ ذلك محظور عليه تمامًا. وكانت طاولة الشراب تعدّ له قبيل الظهيرة، وكان في غالب الأحيان يهتف بزوجته ويطلب منها أشياء وأشياء وهو يتناول الشراب طوال الوقت.

كانت إيلام قد أخبرت شقيقتها يومئذٍ قائلة:

ـ لو تمكّن من الإسراف في الشراب حتى الموت لتخلّصت منه.

ـ لا تقولي مثل هذا الكلام، فهو ما زال في ريعان الشباب! ثم ما الذي سيحلّ بنا؟

بدا الكلام وكأنّ الأخت قد أطلقت العنان لمشاعر لم يسبق لها أن عرفتها من قبل. ربّما هذا هو الذي كانت في حاجة ماسّة إليه. وها هي أخيرًا تستمتع بامتلاكها القوّة في وقت كانت فيه توبّخ زوجها وتتذمّر من وقت لآخر.

من كان مثل هذا الرجل لا يموت بسهولة: بل تراهم يتعذّبون ويعذّبون الآخرين معهم!

* * *

كانوا قد أُجبروا على إخلاء المأجور السابق لعدم تمكّنهم من دفع الإيجار.

وكانوا يدبّرون أمر معيشتهم عندما كان الزوج يشتغل بالمخدّرات. أمّا اليوم، فقد راحت أختها تعمل في تنظيف البيوت بضع مرّات في الأسبوع، فكان الطفل الصغير مشكلة، وكان على

أبيه أن يهتمّ به نصف النهار، بينما كانت مروة في المدرسة. ولمّا كان الزوج غير مؤهّل للقيام برعاية الطفل، فقد أضحى البيت معرّضًا لكلّ أنواع الحوادث المؤسفة. وعندما كانت أختها تذهب إلى العمل، فإنّها كانت تضطر إلى إقفال الباب من وراء حجرة أبيه وهو جالس فوق نونيّته.

وبينما كانت إيلام تغادر الغرفة، تذكّرت القواعد والكلمات التي جعلت حياتها جحيمًا في المنزل الذي نشأت فيه. ففي هذا المكان كان الطفلان يحومان من حولها ويضايقانها. ما من أحد يمكن أن يوجّه اللوم إلى حالة أختها سيديّة، فالحياة التي تُترك للقضاء والقدر والتساهل في العيش، تنقلب الأشياء مُرَّة، وفي كلّ خطوة يخطوها المرء، فإنّ الأخطاء تجرح الأرجل إذا ما وطأت على زجاج مكسور.

كانت شقيقتها قد أصرّت إصرارًا قويًّا على أن تعيش وإيّاهم، وكان في وسع إيلام أن تصغي لها وأن تعانقها وأن تخفّف من بؤسها، ولكنّها كانت تفضّل النوم في الشوارع على أن تعيش في المنزل نفسه مثل شكر وتراقب أختها الجميلة تذوي وتذبل أمام عينيها. كان في وسعها مدّ يد العون لها لو كانت تملك مالاً، ولكن...

وبينما كانتا تحتسيان الشاي، لاحظت إيلام الشعر الطويل وقد نما على ساقيْ أختها، ولاحظت أيضًا أنّ عينيها غائرتان وأنّ يديها جافّتان وخشنتان وازدادتا احمرارًا، واصفرّت أسنانها وغدت مشوّهة وبشعة. كانت ما تزال في بواكير الثلاثينيّات من عمرها، فتملّك إيلام حزن عجيب وسرحت ببصرها إلى أختها في اهتمام أكبر. كانت سيديّة تصرخ في وجه طفلها، مبهورة الأنفاس، الحياة لم تعد

مناسبة لها بعد اليوم. وعلى حين بغتة، راود إيلام إحساس بأنّها مهما فعلت فلن تستطيع مساعدة أختها.

وفكّرت في أنّها لو لم تقاوم لكانت حياتها مثل حياة أختها. كيف تمكّنت من الهروب من ذلك المصير؟ وهل تمكّنت حقًّا؟ وهل باتت في منأى عن الخطر؟ نعم، إلى حدٍّ ما. ولكن على الرّغم من كلّ شيء، فهي غير متأكّدة تمامًا لأنّها لم تولد محظوظة. محظوظة؟

* * *

كان كلبًا أبيض بأذنين سوداوين. عندما كانت إيلام طفلة، لم تكن تجيب على الغرباء إذا ما سألوها عن اسمها. ولم يكن سبب ذلك أنّها خائفة، بل لأنّها لم تستطيع لفظ كلمة «موتينا». يضاف إلى ذلك، أنّ ذلك الاسم لم يرقها. وكان اسم الكلب، أفضل: حظّ. كان شقيقها ـ الذي وافته المنيّة ـ قد سمّى الكلب بذلك الاسم بعد أن عثر عليه جريحًا في الشارع، فأتى به إلى المنزل.

كان المفهوم السائد في البيت هو أنّ الاستثمارات من أجل المستقبل تخصّص للصبيان في الأسرة. ولم يخن الأخ الأكبر هذا الاعتقاد، إذ أصبح شرطيًّا. أمّا الأخ الأصغر، فقد غرق في بحيرة السدّ، ولم يلحق مستقبله.

واضطرّت مؤخّرًا إلى أن تقاوم مقاومة منهكة الذكريات التي لبثت تراودها بالانتقام. شقيقها، والدها، أمّها، جدّها... على الرّغم من أنّها لم تشاهدهم منذ سنين، إلّا أنّهم كانوا يُلحقون الأذى بها بأشباحهم. كما أنّ جدّها نفسه الذي كانت تحبّه حبًّا جنونيًّا ظهر لها بوجه أبيها. وقد تفسّخ هؤلاء جميعًا مثل تفسّخ أخيها الغريق.

وكانوا يطاردونها كلّهم إلى حطام ذاكرتها، وتعيّن عليها أن تطردهم إلى أرض النسيان واللاوجود بجهد جديد في كلّ مرّة.

وسرعان ما أضافت وجه سيد وكلماته إلى هذه الوجوه. وفي السنوات الثلاث التي أنفقتها وإيّاه، كانت تفكّر على الدوام ـ تفكيرًا يتزايد مع مرور كلّ يوم ـ بأنّ سيد كان أصعب نموذج للرجال يمكن تحمّله في الحياة.

ـ أعشق فمك، وأنا مجنون بك.

كان الارتباط بعلاقة غراميّة مع رجل متزوّج خطيئة وعملاً غير أخلاقي، بيد أنّها كانت في حالة يأس شديد في ذلك الوقت. وكانت تعرف أنّ علاقتها لن تستغرق وقتًا طويلاً على أيّ حال. ففي وسع المتزوّجين من الرجال أن يدعموا مثل هذه العلاقات شريطة دفع الثمن، وكانوا أصحاب خبرة كبيرة ومغرمين حقًّا.

ـ لا يمكنني المجيء، ربّما في وقت لاحق.. مستحيل، إنّ زوجتي غير سعيدة...

أضاعوا أثرها. ولم تكن تتّصل إلّا بشقيقتها. وكانت شقيقتها هي التي أخبرتها أنّ والدهما قد تزوّج ثانية.

ـ أنتِ معتوهة، أنتِ مجنونة. تعالي إليّ، أنا لم أقطع وعدًا بأيّ شيء لك...

كانت علاقتها بسيد غير عميقة ولا يُعتمد عليها. الحقّ، أنّ سيد جعلها تحسّ بجسدها وأن تتذوّق طعم الحبّ واللذة، وجذبها إلى مساحات شاسعة تحت جلدها. علّمها كيف تهب نفسها وتنسى ـ حتى وإن للحظة واحدة من الزمان ـ كلّ ما حدث.

أمّا فيما خلا ذلك، فإنّ علاقتهما كانت تعني يأسًا، وقدرًا كبيرًا من الصمت وكآبة عميقة لكليهما. وكان ثمّة عدم وفاء من جانب إيلام، إذْ كان من شأنها أن تُظهر قدرًا من الامتنان للرجل الذي اهتمّ بها. هل هذا هو ما كان يعنيه سيد عندما وجّه إليها اللوم في رسالته بأنّها غانية؟

- لا تقلقي بشأن هذه الأشياء الآن... أحبّك كما أنتِ... إنّني مجنون بكِ...

تذكّرت تلك الليالي. كانت تكتب أطروحتها، وبذهاب سيد، راحت تجلس إلى الطاولة لتدرس حتى ساعة استيقاظ المدينة، ولكنّها كانت ما تزال لا تعرف أنّها سوف تظلّ وحيدة رفقة أحلامها وتطلّعاتها وآمالها! وقرّرت ألّا تذهب للعمل عند سيد بعد الآن، لأنّ المكان لا يلائمها كي تبني لها مستقبلاً، ووجدت نفسها مجهّزة تجهيزًا جيّدًا وأنّها ذات قيمة كبيرة. كانت مفعمة بآمال عظيمة.

ثم تعيّن عليها أن تكافح كفاحًا مريرًا على مدى بضعة أشهر حتى تعثر على وظيفة. وأدركت أنّ المستقبل المشرق الذي يتحدّث عنه الناس كان كذبة كبيرة، وأنّ كلّ ما قيل عن الآمال والأهداف والعواطف والسير في اتّجاه نحو هدف ليس سوى حكاية خرافيّة من حكايات الجانّ. وحتى لو افترضنا أنّ ثمّة شيئًا اسمه المستقبل، فإنّه متوافر لأقلّيّة صغيرة ومحظوظة. وإذا كنت قد تلقّيت تعليمًا في الولايات المتّحدة لمدّة سنة أو سنتين، أو كانت لديك ارتباطات وعلاقات معيّنة أو كنت منتميًا إلى وسط معيّن، عندئذٍ يمكن أن تحقّق تقدّمًا، وإلّا فإنّ النجاح ليس إلّا كلمة وخدعة.

لا بدّ من أشياء أخرى تنبغي معرفتها ومشاهدتها وإدراكها،

أشياء أخرى غير معروفة أوسع وأعمق وأصعب وأكثر إثارة للحزن. ذلكم هو السبب الذي دفعها إلى الاستمرار في القراءة. وبعد ساعة معيّنة من الليل، راحت الرسائل تتراقص أمام ناظريها، وتعلّقت الكلمات بأجفانها. وقرأت بكلّ وجودها، وكيانها ومشاعرها، وأعادت القراءة من جديد، تقلب الكلمة واحدة تلو الأخرى في ذهنها. كانت الكتب أشياء جميلة تصدر حفيفًا تحت إحدى اليدين. في الكتب، يُقدّم الصراع الإنساني بكلّ ما فيه من إثارة عظيمة وبحث مقدّس، انهياره وجهوده من أجل البقاء، وذلك بطرح عديد الأسئلة التي لا نهاية لها. إنّها أسئلة نبيلة ودائمة وقابلة للتطوّر.

ـ يا لكِ من شخصيّة! هل أنت غارقة الآن في كتب مغبرّة وعتيقة وذات رائحة كريهة؟ هل ستصبحين شيوعيّة أو فوضويّة في هذا اليوم وهذا العصر؟

يا له من واثق بنفسه! يعتقد أنّه يعرف كلّ شيء. لقد انضمّ مؤخّرًا إلى حزب ليبرالي يميني أُسّس حديثًا وراح يتقدّم الصفوف. وما هي إلّا بضع سنوات حتى يأخذ ما يستحقّ من السلطة والجاه والمال، وعندئذٍ سوف يرسل إيلام معبّأة في رزمة في أوّل فرصة تسنح له ويتولّى دور رجل الأسرة المحترم.

نعم، لكنّ سيد كان على حقّ. لقد تغيّر العصر، وهو الذي عثر على وظيفة لها، من خلال شخص يعرفه، في شركة استيراد وتصدير ذات مستقبل جيّد. لعلّه شعر أنّ الوقت قد أزفّ كي تتولّى أمر نفسها. بحيرة غولباشي، أمطار ما بعد الظهيرة، قبلات في السيّارة... أزهار التوليب، هدايا صغيرة... لقاء عطلة نهاية الأسبوع في فندق خمس نجوم في الجنوب... باختصار، مسرحيّة مسلّية ذات فصل واحد

سرعان ما عادت إلى النقطة التي بدأت منها.

وبعد ذلك، أيّام قلقة، غامضة، تمرّ بطيئًا.

كانت تفكّر في أن تجد لنفسها مكانًا تقطن فيه وتبتعد. دخان أزرق، أصفر خردلي، كلمات معتادة، أغاني فراق رخيصة تنبعث من وراء الأضواء المعتمة... كلّ هذه الأشياء جزء من الرتابة، والتسكّع غير المرغوب والجهود المعقّدة... صوت في داخل رأسها ظلّ يؤرقها: «حطّمي الدائرة، حطّمي الدائرة. لا ترجعي إلى المكان الذي انطلقت منه». ظلّ الصوت ملازمًا إيّاها لا تستطيع منه خلاصًا، ولكنّها لم تعرف كيف تتفاداه أيضًا. إنّ التحرّر من سيد لن ينقذها من الإحساس بأنّها أشبه بشيء عديم الفائدة ومنسيّ فوق رفّ من الرفوف.

الشيء الوحيد الذي كان في إمكانها رؤيته هو أنّ عقد العمل بينهما قد أصبح ملغيًا. لم يشعر أحدهما بالاشتياق للثاني، ولم يتّصل أحدهما بالآخر ما دامت الضرورة لا تقتضي ذلك. لكلّ امرئ مشكلاته. وراحت الكلمات والاتّهامات المتبادلة بينهما تزداد وطأة وكأنّها حجارة، وازدادت خشونة. على أيّ حال، ألم تكن القبلات مسمومة والزيارات عابرة والضحكات كاذبة منذ البداية؟

العلاقة التي أقيمت على أساس الصفقة استنفدت نفسها في تفاهتها ولاجدواها، وانتهت من دون أن تترك من ورائها أيّ دموع أو مرارة أو ألم. إنّ كلّ ما كان يراودها منذ وصول رسالة سيد ليس سوى الانزعاج وانعدام الراحة.

* * *

كانت قد وطّدت عزمها عند مجيئها إلى اسطنبول على ألّا تسمح لنفسها بالانجراف وراء الأحلام، وكانت ما تزال تحت التجربة في الشركة عندما عثرت على عمل. غير أنّها ما تزال لا تملك وثيقة تأمين، في حين لم تبق سوى أيّام قليلة على اتّخاذ قرار نهائي بعد نفاد مدّة الشهر. كانت واثقة من نفسها، ولكنّها سوف تصبح في موقف حرج إذا ما أُنهيت خدماتها.

كانت قد قبلت بتلك المخاطرة، وينبغي لها أن تؤمن بأنّها دخلت مرحلة الاكتفاء الذاتي. وكان العمل مدّة ثماني ساعات في اليوم، بوصفها من الدرجة الثالثة وتؤدّي عملاً لا يروقها، يستنزف طاقتها ووقتها وحساسيّتها، والأهمّ من هذا كلّه كلماتها المثقلة بالشعر. وعلى الرّغم من كلّ ذلك، لم تكن تلك الوظيفة توفّر لها المال الضروري لإقامة أودها.

تردّدت برهة من الزمان. هل تراها ارتكبت غلطة عندما قطعت كلّ علاقاتها بسيد؟ ألم يكن من الحكمة لو أنّها احتفظت بهذا الرجل في متناولها ليساعدها في أشدّ أيّامها صعوبة؟ كان رجلاً اعتياديًّا ومقدرته على فهم النقاط الدقيقة محدودة، ولكنّه كان من جهة ثانية رجلاً إيجابيًّا وصريحًا ولديه القدرة والمهارة على تحمّل الحياة وتقبّلها كما هي، وتمكّن من جعل آماله في السعادة على مستوى واطئ. وكان عونًا كبيرًا في التخفيف من القواعد والقيود التي فرضتها على نفسها، وإن لم يتمكّن قطّ من فهم عالم الانفعالات العاصف الذي كانت تحكمه وحشة مقدّسة.

وعلى حين بغتة، لمعت في خاطرها العبارات البذيئة التي دوّنها الرجل. أتراها خائفة إلى تلك الدرجة من مستقبلها؟ لماذا لم

تتمكّن من التخلّص من هاجس الاضطرار إلى أن تكون في حماية رجل؟ كانت هذه نزعة عادت إلى الظهور مؤخّرًا بين النساء الشابّات على نحو أكثر فجاجة وأنانيّة من المفهوم المحافظ، وكانت وباءً ينتشر انتشارًا سريعًا. اعثري على رجل منتظم ومخلص ويملك المال وعيشي حياتك من دون أن تكلّفي نفسك عناء أيّ شيء!

لكن ماذا بشأن.. الحبّ؟ إنّها لم تغرم حتى الآن، ولم تعشق أحدًا عشقًا جنونيًّا، ولكنّها تعلّمت من خلال كلّ ما قرأت أنّ القلب لا يمتثل للعقل. يضاف إلى هذا، يمكن للحبّ أن ينقلب في سرعة إلى كراهية إذا ما كان حبًّا قسريًّا. كانت تريد تذوّق طعم الحبّ النقي اللاعقلاني. وراودها إحساس بأنّها يجب أن تكون حرّة ومستقلّة، حتى وإن كان ذلك لتحقيق هذا الهدف.

كانت حياتها تنقسم على مراحل. فهي لم تتسلّم أيّ شيء على طبق من فضّة، بل على العكس من ذلك، تحوّل كلّ ما هو بسيط إلى شيء يزداد صعوبة وتعقيدًا، وتكتنفه العقبات. وأدركت بغتة شيئًا ما عن نفسها. فعندما كانت في مرحلة ضيق وعسر، وعندما كانت عواطفها تتغلّب على عقلها، فإنّها تصبح قاسية ودنيئة على النحو الذي كانت تتمنّاه قبل وقت قصير. كان في وسعها أن تتخلّى عمّا امتلكته من غير تردّد.

وكانت قد صرخت في وجه سيد في آخر يوم التقته:

ـ لست مدينة لك بأيّ شيء! لست مدينة لأيّ شخص بأيّ شيء.

كانت أعماقها تفور بقوّة غضب لا نزاع فيها.

ـ أنت شخص أناني لا تعرف الحبّ! كم كنت غبيّة! لن يطول بك العهد وأنت بهذا السوء!

ـ كنتِ تستغلّينني!

ـ بل أنت الذي عمدت إلى استغلالي!

مهما كان نوع العقد، فإنّ معظم العقود كانت تلغى بكلمات مثل هذه الكلمات في كلّ الأحوال.

* * *

كانت حافّة قدح الشاي الذي في يد إيلام مكسورًا، فوضعته على جانب الطاولة بقرف، ووعدت مروة أن تشتري لها زوج حذاء جديدًا عندما تتسلّم مرتّبها، وسوف تشتري شاحنة حمراء لأوزغور. جلست وقتًا أطول إلى حدّ ما رفقة شقيقتها، وقد كست وجهها ابتسامة باهتة وساورها إحساس بالوهم يصيب المرء بالدوار.

عادت إلى بيتها سيرًا على قدميها. كان الطقس دافئًا وكأنّه يوم من أيّام الصيف. كانت الشوارع مزدحمة، والأرصفة تحتشد بالمارّة. وكان الرجال يتسكّعون من دون عمل أمام واجهات المتاجر وعلى العتبات، أو يمارسون لعبة الورق في مقاه خانقة.

اشترت عددًا من المجلّات الأدبيّة وصحيفة. كانت العارضات تحتشد بمجلّات نسائيّة، صفحاتها الداخليّة تعلّم المرأة كيف تصطاد الرجل، وفيها موضوعات عن الطبخ والأزياء ومساحيق التجميل الباهظة الثمن. لا بدّ لهذه المجلّات من أن تجذب أنظار النساء وإلّا لما كانت ثمّة أعداد لا تُحصى منها. وكانت هذه المجلّات تحتوي أيضًا على معلومات تخصّ مشكلات الحبّ وكيفيّة ممارسة

الجنس، وتقنيّات الرعشة الجنسيّة، والجمال. الشيء الغريب هو أنّها تفترض بأنّ المرء يمارس الجنس طوال الوقت. وكانت تحتشد بمقترحات لشراء الثياب، وتقدّم نماذج وأمثلة «فريدة» عن كيفيّة تنظيم الحفلات وترتيب المنزل. لأولئك الذين لديهم المال بطبيعة الحال. أمّا لأولئك الذين لا مال لديهم، فإنّه كان يستحيل عليهم العيش من دون أن يشعروا بالحرمان من السعادة، وعدم الرضا والبؤس عندما يشاهدون هذه المجلّات.

عندما دخلت المنزل، عمدت إلى ترتيب مطبخها. لم تكن تملك كمّيّة كبيرة من مستلزمات المطبخ، لهذا راحت تمسح الجزء الداخلي من الخزانات ورتّبتها ووضعت فيها صحائف نظيفة من الورق. لقد بذلت والدتها أقصى ما في وسعها كي تبتكر لها بيتًا جيّدًا. وكانت قد أوكلت إلى ابنتها مهامّ تشقّ على النفس منذ أن كانت طفلة. الحقّ أنّ إيلام لم تكن فتاة صعبة الإرضاء، أو خرقاء، أو لا تعرف الطبخ، على الرّغم من أنّها تمنّت لو كانت كذلك. ورأت أنّ الأفضل ألّا تملك روح امرأة تمتهن التنظيف. كان الجهل أو التظاهر به هو الموقف السليم، وهو مظهر حديث كان يفصل بين أن تكون أنثى أو عبدة في البيت.

أوت إلى فراشها في وقت مبكر، وألقت نظرة خاطفة إلى المجلّات الأدبيّة. وفكّرت في أنّها لو تمكّنت من التطوّر في كتابة الشعر لعمدت إلى إرسالها إلى بعض المجلّات، ولكنّها ما تزال غير مقتنعة بها. لقد بات عالم عواطفها ضحلاً بسبب القلق الذي تنطوي عليه الحياة اليوميّة. من شأنها أن تكون قادرة على نظم قصائد أفضل وأعمق لو كانت مغرمة بالحبّ. كانت تعرف ذلك جيّدًا.

وكانت تفتقد أحيانًا سورة العذاب الذي يتسبّب به الحبّ. لكنّها كانت بعيدة البعد كلّه عن مثل هذا الاحتمال. وشعرت بتيّار هوائي غريب، بضغط في روحها لا سبيل إلى تفسيره. ثمّة أصوات في الدور العلويّ من جديد. وكانت الأرضيّة تهتزّ من تحت وقع خطوات ثابتة، والنافذة تردّد صدى صوت الرجل الجهوري وهو يصيح في خشونة ووحشيّة. وترامى إلى أذنيها صوت ضربة قويّة أعقبها سقوط شيء ما وارتطامه وانفجاره على الأرض. كان صوت المرأة في هذه المرّة أكثر ألمًا وتوسّلاً، في حين كان صوت الرجل أكثر وحشيّة وقسوة.

لن تتمكّن من الخلود إلى النوم. كانت ترتعد من شدّة البرودة. وكانت ترتجف في أعماقها، فذهبت إلى المطبخ وأعدّت لنفسها قدحًا من شاي الأعشاب. نعناع وبابونج وماء حارّ... ودخّنت سيكارة. طالما كانت خائفة منذ أن كانت مراهقة، وحوَّل الخوف من الاغتصاب حياتها إلى كابوس. لقد ازداد مؤخّرًا عدد المهووسين بالجنس، وتعرّض عدد كبير من النساء اللواتي يعشن بمفردهنّ إلى الاغتصاب في بيوتهنّ. وعندما رجعت إلى غرفة نومها، أرخت بصرها إلى باب الحديقة وحبست أنفاسها. وفكّرت «أهو قويّ بما يكفي؟» «لا بدّ لي من أن أحتفظ بهراوة بجانب سريري أو قضيب معدني لأهشّم الرؤوس بضربة واحدة».

* * *

تذكّرت بألم وخجل. كان شقيقها مصطفى قد انهال عليها بضرب مبرّح. وكان مصطفى شرطيًّا. كما ضربها جدّها بضع مرّات أيضًا. كان جدّها قاسيًا، أمّا شقيقها فكاد أن يقتلها. ثمّة غلام

يعمل في محطّة تعبئة الوقود كان قد كتب لها رسالة ووضعها في علبة ثقاب ورمى بها من خلال النافذة، فوقعت في يد شقيقها. كان الغلام قد كتب ما يوحي أنّ ثمّة علاقة بينهما واقترح عليها أن يلتقيا. غير أنّها لم تستطع جعل أسرتها تصدّق أنّها بريئة تمامًا. حاولت أن تمحو ملامح ذلك المساء من ذاكرتها، ولكنّه كان يرتدّ إليها ارتدادًا متقطّعًا، ظلّ ماثلاً لا يبليه كرّ الأيّام، غريبًا وبعيدًا... ومن دون تفكير. وكانت تحلم أحيانًا وكأنّها قد تعاطت مخدّرًا بضربات أخيها عندما دقّ رأسها بعنف على الجدار، وكان الدم ينزف من فمها ومن أنفها، ثم جذبها من شعرها إلى الحديقة حيث راح يرفس بطنها وكسر يدها على الأرض المتجمّدة. واضطروا يومئذٍ إلى نقلها إلى المستشفى.

لبثت هادئة بضعة أيّام، تهمس، ولكنّها نادرًا ما كانت تتحدّث. وبعد أن خرجت من المستشفى، حبسوها في الغرفة الخلفيّة من البيت. ولم تستطع تناول الطعام، وضمر جسدها واستحالت إلى جلد وعظم.

ولم تنظر إلى المرآة، بل لم ترمق أحدًا بنظرة. أختها الأكبر سنًّا منها هي الوحيدة التي كانت تكلّمها، وكانت تبكي دومًا إذا ما جاءت إلى جانبها. كان وجها الأبوين يعبّران عن غضب قاتم، وكانت نظراتهما تتسبّب في ألم أشدّ وجعًا عليها من جسدها الذي انهالت عليه الضربات.

لم يأت أحد على ذكر الحادثة في المنزل، وكأنّها حدثت ولم تحدث... كأنّ شيئًا ما سوف يتحلّل ويتفسّخ إذا ما ذكره أحدهم. وبجهل تامّ ومطبق ورهيب ومزيّف، لاذوا بعارهم خشية افتضاحهم.

وكانت تنتظر عناق والديها لتخفّف من آلامها. وتتحرّق شوقًا لكي تذرف دمعة واحدة على الأقلّ. تلك هي المرّة الأولى التي راودها الشعور بالهروب من البيت، وظلّ يلازمها على مدى أعوام وكأنّه ألم مؤجّل.

لم تكلّم شقيقها ثانية. وصادف أحدهما الآخر في أنقرة أكثر من مرّة، ولكنّها مرّت من جانبه من دون أن ترنو إليه ومن دون أيّ تقرير. وفي إحدى المرّات، جاء إلى محلّ عمل سيد وانهال عليها بوابل من التهديدات، غير أنّها أغلقت باب المطبخ من ورائها في ذلك الوقت.

* * *

النسيان! ختم قبيح مزركش على ثوب الذاكرة المهلهل. أن تبتعد عن الماضي وألّا تحتاج إليه إلّا قليلاً...

تنبّهت فجأة إلى شيء ما بدا لها غاية في الغرابة، وهو أنّها لم تستطع تدوين تلك الحادثة على الورق. ليست الحادثة نفسها بل الألم الذي كان يتأجّج في روحها. الحقّ أنّها أرادت أن تكتب ولكنّها لم تستطع. لم تكن قادرة على كتابة أيّ شيء عن جسدها، عن ألمها، وعن الحنين والتحوّلات التي عاشتها، عمدت إلى إخفائها عن الكلمات وكأنّها من المحرّمات التي لا اسم لها. ربّما سوف تطهّر نفسها من عارها لو تمكّنت من الكتابة. الحقّ أنّ كلّ الكلمات التي كانت تنبع من القلب كانت تدور حول الجسد. كانت هي صوت الجسد، بل وُلدت من رحم الجسد، وهي مرئيّة كالجسد ولكنّها ذاتيّة، وحرّة ومحرّمة كالجسد وسرِّيّة كالجسد.

لقد كتبت صفحات، الواحدة تلو الأخرى، ولكنّها ظلّت تبتعد عن كلّ ما لحق جسدها من أذًى وما تحمله عنه من ذكريات، مختارة الطريق الأسهل للخروج، متظاهرة أنّها غير موجودة. هذا هو السبب الذي جعلها لا تقدر على إنتاج أيّ شيء سوى قصائد جامدة، بلا حياة، مجرّدة وجوفاء ومهلهلة. لقد ظلّت كتاباتها بلا روح، لأنّها كانت مضطرّة إلى نسيان جسدها عندما كانت تكتب.

«نكرة» كان هو جسدها حقًّا.

* * *

٧

غادر فولكان منزله صباحًا، متفائلاً بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام. كان الطريق المؤدّي إلى المطار خاليًا، فحركة المرور لم تكن قد بدأت بعد. كان صباحًا جميلاً رماديًّا مائلاً إلى الزرقة من صباحات شهر تشرين الأوّل، بلا أيّ عتمة أو ظلمة، وإن كان ضباب خفيف قد كسا المدينة وكأنّه وشاح حريريّ. وكانت الأشجار ما تزال خضراء اللون تتحدّى فصل الخريف الذي بدأ متردّدًا في إماطة اللثام عن وجهه. وجانبا الشارع تغطّيهما مباني المكاتب والدوائر العالية وهياكل البناء واللوحات الإعلانيّة الهائلة في حجمها، التي لاحت وكأنّها تريد أن تثب من فوق المارّة. ورويدًا رويدًا، راح عدد المباني يقلّ ويتضاءل، حتى بات في وسع المرء أن يشاهد بعيدًا وراء قطع الأراضي الخالية المكسوّة بالحشيش، عمارات سكنيّة قبيحة المنظر وسطوحًا تعلوها أطباق البثّ. لقد انتشرت القباحة انتشار الوباء إلى ضواحي المدينة.

كان قد استمع في الليلة المنصرمة إلى الموسيقى على مدى ساعات، مزجيًا الوقت، متردّدًا في الاتّصال بملكة. لقد مضت عشرة أيّام منذ أن التقاها، وها هو قد انتظر طويلاً، ولا بدّ أن يعرف كيف هي حالها، وليس ثمّة ضرورة للانتظار مدّة أطول. والحديث سيأخذ مجراه في كلّ الأحوال. يُضاف إلى ذلك، أنّهما سيشعران بارتياح أكبر وهما يتحدّثان من خلال الهاتف.

غير أنّ الخطوات الجريئة المتّخذة من دون التزام بالقوانين، فإنّ كلّ لعبة تنطوي على مغامرة التحوّل إلى إخفاق مفاجئ. كان فولكان سيبدأ في اللعب، لكنّه لم يكن يعرف شيئًا عن لعب ملكة.

من جهة أخرى، لم يبدُ عليها أنّها من ذلك النمط من النساء اللواتي ينتظرن في خجل أن يبادر الرجل في الاتّصال أوّلاً. ربّما لم يرقها فولكان، أو أنّها لم تجد فيه ما يثير الاهتمام، وليست هناك ضرورة في أن تجرح مشاعره. لعلّها جاءت إليه مطالبة بكنزها الصغير لا أكثر، وتصرّفت تصرّفًا ودّيًا تجاهه لكي تضمن سلامة ذلك الكنز.

المؤكّد أنّها كانت ودّيّة ودافئة. نظراتها وحركاتها وأسلوبها في الكلام وذلك التوتّر العذب بينهما وتركها الباب مفتوحًا بعد انصرافها، بل كلّ ما فيها، كان يشير إلى أنّه ترك انطباعًا إيجابيًّا عليها. وفي تلك الحالة، لماذا يتعيّن عليه التردّد والتصرّف بمثل هذا البرود؟ عليه أن يعرض عليها صداقته، وأن يبذل جهدًا للفوز بقلبها. إنّ مثل هذه العلاقات، في محيطه الاجتماعي، يمكن أن تؤسّس في لحظة واحدة من الزمان. ولكنّه في هذه المرّة واجه امرأة مختلفة وغامضة، ممّا جعله يتحمّس وينفعل.

وفكّر في نفسه: ما شكلها عندما تكون عارية.

* * *

كان قد أوى إلى الفراش في وقت متأخّر ونام نومًا هنيئًا، ولكنّه استيقظ فجرًا على حين بغتة بعد أن راوده إحساس أثار اضطرابه، فتدثّر ببطّانيّة وجلس على السطح. وامتزجت رائحة الصنوبر الرطبة المنبعثة من الغابة بنسمة البحر الهادئة المثقلة باليود، فملأت خياشيمه. وكانت السماء والتلال والبحر قد لفّها ضباب متألّق باللون الأصفر الزعفراني. وكان النهار يشقّ طريقه ببطء فينبلج الصبح وكأنّه يريد أن يسلّط ضياءه على كلّ ما هو غامض وسرّي، وعلى أحداث الظلام الماضية، محوّلاً بهاء المدينة وقذاراتها إلى لون ذهبي، وإن على نحو موقّت، لأنّ الفجر تجدّد متكرّر، بل هو تجدّد آسر ودافئ وعظيم. الإلهام السماوي والطريق المفتوح كانا ضروريين، ولكن تلك العمليّة كانت تشير إلى ما سوف يعقب ذلك حتى إذا نظر المرء نظرة عابرة وسطحيّة.

كان هاجسه قويًا. فبعد أن صحا بنشوة برودة الصباح، بدت له حماسته الطفوليّة التي شعر بها في المساء الفائت، تافهة ومبتذلة. فمن غير المقبول على رجل ذي خبرة طويلة وناضج ودقيق مثله، وله باع طويل وجيّد في قيادة أصعب المفاوضات، أن يكون مهووسًا بمثل هذه الأفكار الساذجة. فهو غير معتاد قطّ على النظر إلى امرأة متواضعة وبسيطة ويتشبّث بها وكأنّه فاسق عجوز. وفكّر في أنّه لم يكن في حاجة إلى علاقة غراميّة اعتياديّة، كما أنّه لا يملك الوقت كي يكون حزينًا بسبب أحلامه وخيالاته المتهوّرة، لأنّ الحياة والحبّ ينبغي لهما أن يكونا أكثر قوّة وأشدّ إثارة. ممكن. ولِمَ لا؟

ولكنّه سوف يبتعد عن اسطنبول ثلاثة أيّام على الأقلّ، ولا يستطيع ضرب موعد بحديث هاتفي. على أيّ حال، في وسعه أن يرسل إليها بباقة زهور ليذكّرها بنفسه. أليس الأفضل غلق الكتاب بعد هذا الهجوم إن كان ذلك ضروريًّا؟

ما الذي سيفقده إن لم يحصل على ردّ؟ إذا ما ظلّ وحيدًا في هذه اللعبة؟ ثمّة بداية على الدوام، وسيكون جبانًا لو أنّه ترك القصّة في منتصفها. لم يكن رجلاً معقّدًا، وكان يعرف كيف يحمي نفسه. وعلى الرّغم من كلّ ما هو سلبيّ، حتى وإن كان كلّ شيء كذبة من البداية إلى النهاية، لا بدّ له من أن تكون ثمّة امرأة جديدة في حياته. وقد تكون هذه المرأة ملكة أو غيرها ما دام أنّها خارج وسطه الاجتماعي. في إمكانه أن يعشق امرأة عشقًا حقيقيًّا، امرأة مخلصة، صادقة وخالصة من الرياء والتكلّف. في وسعه أن يسلك السبل جميعًا، وأن ينتظر متألّمًا نداءات هاتفيّة. في وسعه أن يصرخ في الفضاء الخاوي، أن يكلّم نفسه، أو يكتب رسائل حبّ تحتشد بكلمات جنونيّة. ولكن قبل مرور وقت طويل، ربّما ستكون هذه التجربة تكرارًا مملًّا لتجارب سابقة وتتحوّل إلى ماضٍ يتذكّره بابتسامة. إذًا؟ التقطْ تلك الشعلة المتوهّجة في داخلك، التقطها وضعْها في راحة يدك، ولا تدعها تغيب عن ناظريك، واركع أمامها. هيّا، مرّة واحدة إلى أمام في محاولة أخيرة!

* * *

قال لسائقه على حين بغتة:

ـ أريد أن أرسل باقة زهور إلى سيّدة اليوم يا محمّد بك، وعليك أن تتولّى المهمّة.

ـ نعم يا سيّدي، كما تشاء.

لماذا ينبغي أن يكون إرسال شخص ما زهورًا إلى امرأة تروقه عملاً غير معقول؟ هذه علامة من علامات الاهتمام. دَوَّن العنوان على قصاصة ورق وناولها للسائق الأشيب صاحب التجارب الطويلة.

ـ أيّ نوع من الزهور تفضّل يا سيّدي؟

ـ زهور الأوركيد البيضاء، أو اترك الخيار لبائع الزهور.

ـ هل نرفق بطاقة بها؟

ـ نعم. لنرفق.

ثم أخرج بطاقة من محفظة أوراقه وكتب على ظهرها «مشتاق إليك» وناولها للسائق.

ـ لا تقلق يا سيّدي. سوف أطلب باقة جميلة وأسلّمها بنفسي.

* * *

توقّفت السيّارة أمام صالة الرحلات العالميّة، وبعد أن اجتاز فولكان الحاجز الأمني، هرع إليه فردي وأخذ من يده أوراقه. وكان الواضح من ملامح اليأس البادية على وجهه أنّ شيئًا غير متوقّع قد حدث. عيناه متردّدتان ووجهه قلق. أمسك بالحقيبة ووضعها على بطنه كأنّها درع وانتظر برهة وجيزة من الزمان، محاولاً أن يقدّر تأثير الخبر الذي يوشك أن يفضي به. ثم تراجع خطوتين إلى الوراء وكأنّ شخصًا ما دفعه دفعًا، وقال متأوّهًا:

ـ ثمّة تأخّر في طائرتك لمدّة ساعتين يا سيّدي. الواضح أنّه عطل فنّي.

ضرب فولكان الأرض بقدمه وهتف:

ـ يا للّعنة!

لا، إنّه لم يتوقّع هذا التأخير، خاصّة اليوم!

ثمّة جهود كبيرة مبذولة، وأُعدَّت عدّة كلّ شيء، وفي اليوم المحدّد الذي توشك أن تصل فيه هدفك، وإذا بسبب لا صلة له بك يرغمك على وضعٍ لا تقوى على فعل أيّ شيء تجاهه. لا، إنّ هذا العمل لا يمكن لهُ الاستمرار برحلات جوّيّة حكوميّة. فهي لم تعد نافعة، ولم تنفع!

ـ كفى! لماذا لا نملك طائرة خاصّة تكون في متناول أيدينا؟ طائرة خاصّة، نعم. إنّني أريد طائرة خاصّة!

عندما سمع صوتًا، يفترض فيه أن يكون صوته، صوتًا منطلقًا منه، غطّى فمه بيده كأنّه خائف من هيجانه. وسرعان ما عاد الصوت إلى مصدره، ولكن صداه ظلّ يتردّد في أذنيه. إنّني أريد!.. من؟ طائرة خاصّة؟ طائرة خاصّة.. خاصّة...

لبثت قدمه فوق المكان الذي ضرب فيه الأرض. هل هذا صوته حقًّا؟ «صوتي! أنا.. من أنا؟ طائرة خاصّة. لم لا، كان يمكن أن تكون لدينا طائرة خاصّة، ولكن ليس ثمّة طائرة خاصّة. ما الذي ينبغي لي أن أفعله أنا؟ ما أفضل شيء يمكن عمله؟».

كانت الصالة محتشدة بالناس وبجلبة الصباح. ثمّة صفوف طويلة أمام شبابيك التذاكر. جال ببصره من حوله علّه يشاهد شخصًا يعرفه. هل سمع أحد ما صراخه؟ لا، إذْ كان ضجيج الناس على أشدّه.

خذ نفسًا عميقًا، وابدأ العدّ حتى العشرة. طائرة خاصّة! غير معقول. نعم، لكنّ اليوم جنيف وغدًا دبي، وبعد ثلاثة أيّام بروكسل وبرلين ونيويورك وروما... ليس سهلاً الاحتفاظ بهذا الإيقاع.

حتى إذا سافرت على متن الدرجة الأولى، كيف يمكن لمن هو في مستواي أن يعمل بكفاءة في حين تتجاذبه طائرات حكوميّة اعتياديّة تغادر وتصل بحسب هواها، وحيث الكراسي الخلفيّة مملوءة بناس تفوح منهم رائحة العرق ويصرخ أطفالهم النزقين ويبكي الرضّع منهم، محوّلين الرحلة بذلك إلى عذاب حقيقي؟

المؤكّد أنّ طائرة خاصّة أمر ضروري، وفيها مرافقون خاصّون. راحة. منضدة كتابة. سرير... وغيرها ممّا يبعث على المسرّة، ولكنّه لا يستطيع أن يتذكّر في تلك اللحظة. شخص ما في مكانه ومركزه يتعيّن عليه أن يخطو خطوة واحدة إلى أمام من دون توافر هذه الأشياء... أنا... من أنت بحقّ الجحيم؟ تمالك رباطة جأشك.

وشعر بدوار على حين بغتة، وبقلق عميق وغربة شديدة. فتح فاه ليتفوّه بكلمة، ولكنّه لم يخرج منه أيّ صوت في هذه المرّة. الأسئلة نفسها تردّدت في ذهنه: من أنا؟ من أين أتيت؟ أين أنا؟ ماذا أفعل؟ من أنا حتى أطلب طائرة خاصّة؟

كانا يقفان في وسط الصالة، معترضين طريق المسافرين. وعندما تحرّكا باتّجاه ركن من الأركان، نظر نظرة خاطفة إلى ساعته كدأبه: السابعة والثلث. وفكّر في أنّ الطائرة لو غادرت المطار في الساعة التاسعة والنصف، فمن غير المرجّح أن يتمكّن من اللقاء بماركينيس.

وسأل فردي:

ـ أين طغرل؟

ـ ذهب ليتأكّد من إمكانيّة تبديل تذكرة سفرك بأخرى أقرب موعدًا.

لماذا لا يخرس هذا الصوت المنبعث من داخله؟ من أنا؟ من أين أتيت؟ الأهمّ من هذا كلّه: إلى أين أريد أن أصل؟ إلى أين تراني أركض على هذا النحو بحقّ الجحيم؟

خلع سترته وأرخى من رباط عنقه استعدادًا لذعر يحتمل أن يصيبه. كان قميصه ينزّ عرقًا من تحت إبطيه، وكان بنطاله المصنوع من قماش السرج البنّي اللون المتقن التفصيل يحرق ساقيه.

ـ الطقس حارّ جدًّا! أفلا تعمل أجهزة تكييف الهواء؟

قال فردي:

ـ لنذهب إلى المطعم، وسوف أتّصل بالآخرين كي أبلغهم بالموقف، في حين ينبغي لك يا فولكان أن تتناول طعام فطورك وتخلد إلى الراحة، وسوف نؤجّل الموعد حتى يوم غد إن كان ذلك ضروريًّا، فليس ثمّة مشكلة. لا تقلق.

ـ ما معنى كلامك: ليس ثمّة مشكلة؟ لقد انتظرت هذا الموعد عشرة أيّام.

ربت فردي على كتفه بمودّة وسار به إلى المطعم، فما كان من فولكان إلّا أن ترك نفسه ينقاد إليه. وهنا عاد طغرل خالي الوفاض، واهن العزيمة، مكتئبًا، يزرّر سترته.

ـ صباح الخير. ما الأخبار يا طغرل؟

ـ ليس ثمّة طائرات أخرى. طائرة واحدة فوق أثينا، ولكنّها ستصل في وقت متأخّر. أعتقد...

ـ ماذا تعتقد؟ قل لي...

ـ يمكننا أن نخبرهم بالموقف وان نطلب تأجيل الغداء ساعة واحدة. هذه الأشياء كثيرة الحدوث يا فولكان بك. أظنّ السيّد ماركينيس سوف يتفهّم...

ـ أرجو ذلك..

في مثل هذه الحالات، يتصرّف هؤلاء الشبّان الذين هم تلامذة فولكان، وكأنّ واجبهم الأهمّ تهدئة رئيسهم. الحقّ أنّه اختارهم لما يملكون من قدرة على البقاء هادئين، رابطيّ الجأش. جلسوا في المطعم، وكانت المقاعد ضيّقة جدًّا. ووجد صعوبة في حشر نفسه من بينها. كان قد بدأ، أو يوشك أن يبدأ، بالإحساس بالإحباط من هذه الحادثة المشؤومة التي لم تكن غلطته. طلب قليلاً من الماء، وأخرج قرصًا مهدّئًا من جيب قميصه وانتظر، متردّدًا في بلعه.

كان قد فقد سيطرته وشرب حتى الثمالة في الليلة الماضية، وإذا ما تناول قرصًا مهدّئًا، فممّا لا شكّ فيه أنّه سيشعر بثمالة أكبر. وكان أيضًا قد فقد الأمل في الوفاء بالموعد، ولهذا دفع به جانبًا. مستحيل. كان ينبغي له أن يسافر قبل يوم واحد. لكن كيف؟ ألم يكن في موسكو في صباح يوم أمس؟ لحسن الحظّ، كان من المقرّر عقد أهمّ اجتماع في اليوم المقبل.

أعاد القرص المهدّئ إلى موضعه وشرب الماء وأخذ نفسًا عميقًا. في الإمكان تدبير أمر ماركينيس، ولكن قلقه استفحل عندما

فكّر في الاجتماع الكبير الذي سوف يعقد في اليوم المقبل. كان أوتو سبيربر رجلاً في وسعه قراءة ما يدور في ذهن خصمه من أفكار من أوّل نظرة خاطفة. كان يساريًّا سابقًا، خفّف المال والشهرة من وقع وجهه الثعلبي الماكر والعجوز. وكانت سحنته تشير إلى أنّه يتوقع من خصمه أن يقول على الدوام: «نعم»، وإلى أنّه مطمئن إلى أنّ كلّ شيء سوف يسير على ما يرام. إنّها سحنة قاسية لا تعرف الرحمة، سحنة تنطوي على تكشيرة. لهذا السبب، كان عديد الناس الذين لا يريدون رؤيته حتى ولو في أحلامهم.

وذكّر فولكان نفسه بأنّ عليه أن يكون شديدًا.

لم يتناول أيّ فطور في البيت، بل تناول حفنة من الڤيتامينات واحتسى كأسًا كبيرة من عصير البرتقال. طلب طغرل من النادل أن يأتي ببعض قطع المعجّنات التي كان متأكّدًا من أنّها ستروق رئيسه الذي أومأ برأسه استحسانًا وموافقة، ففي لحظات الشدّة، لم يكن قادرًا على كبح جماح شهيّته.

رأى وجهه المتلألئ كالقمر في زجاجة ساعته الكبيرة واللامعة المصنوعة من البلّور. من أنا؟ هذا أنا، أنا فولكان، فولكان كومان، الرجل الوسيم والناجح والرومانسي! أو، الرجل الذي كان يتّصف بتلك الصفات يومًا ما إذا توخّينا دقّة أكبر!

في تلك اللحظة، لم يكن على ما يرام.

ربّما وجدته ملكة بدينًا وضخمًا أكثر ممّا ينبغي، ويتعيّن عليه أن يفقد من وزنه بأسرع وقت ممكن. لديه بعض أجهزة الرشاقة في المنزل، غير أنّه شديد الكسل لا يريد استعمالها. وإذا ما بدأ الآن

واتّبع حمية غذائيّة صارمة، فسوف يفقد أربعة أو خمسة كيلوغرامات قبل موعد الاجتماع المقبل. ليس ثمّة ضرورة للتشاؤم، فالوقت ما يزال مبكرًا على مثل هذا القول. وسوف يكون كلّ شيء بخير، وسوف تكون ثمّة بدايات جديدة دومًا، ويحتمل أن تكون الإجابة متوافرة في وقت قصير عن التطوّر الذي سينجم عن تلك البدايات.

غير أنّ زهور الأوركيد ليست هي الزهور المناسبة، ولا بدّ أن تكون زهورًا أكثر بساطة، فقد عبَّرت ملكة عن إعجابها بزهور الأقحوان. لا، زنبق أو زهور صفراء اللون... النساء يعشقن الزهور ذات اللون الأصفر. قد أعاني بعض الصعوبات، لكن لا بأس. ينبغي لي أن أعيش قصّة حبّ تجعلني أقفز في الهواء، أو أزحف. وسوف أموت إن لم تفعل بي هذا الفعل، فالعشق من جديد هو الأمل الذي سيكون مختلفًا في هذه المرّة. صحيح؟ أليس الحبّ معناه الهيام في دنيا الخيال على نحو يائس والإدراك بأنّه لن ينجح؟ الحبّ. يا لها من كلمة معقّدة... يجب أن أقول «ربّما». تلك هي الكلمة الإحساس! لا ينبغي للمرء أن يقلّل من قيمة المصادفات أو يقفز من فوقها حتى لو كانت الحالة لا تزيد عن افتتان بلا مستقبل. ما المستقبل؟ أليس هو بشيء يخيّم على الحاضر؟ عش يومك! أترك لنفسك عنان الانجراف في سريان اللحظة، فالعالم غاية في الصغر والحياة غاية في التفاهة والابتذال!

هذه البقعة الصفراء... الشاعر الطفل... هذا ما كان ينبغي له أن يكتبه في تلك الليلة بدلاً من هذه الكلمات المبهمة والمعقّدة. عزيزتي البقعة الصفراء. لا تقلقي بشأن المستقبل. عيشي اللحظة يا طفلتي! ما يزال في وسعه أن يكتب على هذا النحو، على وجه

التوكيد. راوده إحساس قصير بعذاب الضمير. كان ذهنه خاليًا عاجزًا في تلك الليلة على نحو دفعه إلى كتابة أشياء غريبة، مثيرة للقنوط والكآبة إلى الطفلة المسكينة. المؤكّد أنّ في وسع المرء أن يوغل في ميوعته العاطفيّة عندما يكون على انفراد. زد على ذلك، أنّ توجيه الكلام إلى فراغ أسهل بكثير. وفكّر معزّيًا نفسه: أين المعجّنات؟

كان ينبغي له أن يكتب رسالة ذات مغزى أهمّ على البطاقة التي أرسلها إلى ملكة رفقة الزهور. لا، كانت كلماته إليها جميلة. مقتضبة ومباشرة. كما أنّ زهور الأوركيد جيّدة أيضًا. كان يعرف أنّ السائق سوف يشتري أغلى الأزهار وأكثرها طراوة. وكان في وسعه أن يكتب كلامًا فخمًا مثل: «شكرًا لك، فقد أيقظت الربيع في نفسي. ربّما كانت مثل هذه البطاقة أكثر تأثيرًا. ربّما ستضحك لذلك الإعلان النمطي الذي لا طعم له عن الحبّ. دعها تضحك... ملكة! ملكة إيدا... يا له من اسم جميل. كان الاسم يرنّ في أذنيه، فعلى حين بغتة، برز الاسم من دون مقاومة من بين ملايين الأسماء!

ليس ثمّة ضرورة لفقدان الأمل، فالعالم ليس مكانًا مظلمًا إلى هذا الحدّ، ففيه نجوم وفجر وصباحات وبدايات ونساء. وثمّة أغان وقصائد وروائح وفراشات وزهور وبحار، ولكن لا ينبغي له أن ينسى أنّ ثمّة شذوذًا وفوضى ونفاقًا وطموحًا وشرًّا. ولكن ثمّة دموعًا وبراءة وممارسة للجنس. نعم، هذه الأشياء موجودة. وأنت، أيّتها الطفلة اليائسة، أيّتها البقعة الصفراء، ارفعي بصرك إلى أعلى وسدّدي نظراتك...

وهناك، كان الناس يشقّون طريقهم ذهابًا وإيابًا في اضطراب

وفي أمل. لقد سارت الأمور سيرًا مدهشًا على الرّغم من الفوضى الضاربة أطنابها في كلّ مكان. كان الناس يحبّ أحدهم الآخر، ثم افترق بعضهم عن بعض. وظهرت مشكلات وجرى حلّها أو لم تحلّ، ولكن على الرّغم من كلّ شيء، فإنّ الحياة تستمرّ.

إنّني أبالغ في كلّ شيء. لقد أصبحت ليّنًا أكثر ممّا ينبغي في الآونة الأخيرة، ولكن حقيقة الأمر تتمثّل في أنّني لست مميّزًا.

كان يردّد كلمة «أنا» باستمرار على مدى أعوام. . . ماذا تعني هذه الأنا؟ من هو هذا الأنا؟ شخص ما مضنًى من الركض في اهتياج نحو مستقبل مجهول، أحمق وصل نقطة لم يعد فيها يعرف ما يريد من الحياة لأنّه لم يعد ثمّة شيء يريده. غبيّ قبل أن يحيا بموافقة الآخرين، في حين ابتعدت عواطفه وأفكاره عن كلّ ما هو اعتيادي. إنّها سيّان عنده. وعلى الأرجح، ما تزال ثمّة عقبات أمامه. شعر بألم في رأسه، فقرّر ألّا يطرح أيّ أسئلة على نفسه. فالوقت ليس مناسبًا، والمكان ليس ملائمًا للتطوّع والجلوس في مقعد الاتّهام. وضع قطعتين صغيرتين من المعجّنات في فمه والتهمهما بلذّة ومتعة. أشعل سيكارة. على أيّ حال، كان الصباح جميلاً.

كان ينبغي له أن يشعر بالحزن، لأنّه فاته موعده مع واحد من أشهر زبائنه والمؤيّدين له وأكثرهم تميّزًا، ولكن يمكن النظر إلى القضيّة من وجهة نظر أخرى. هل من الذكاء النظر إلى المسألة بوصفها شرفًا لأن يكون في المكان نفسه ـ من حول طاولة تحتشد بكلّ ما يمكن تخيّله من الطيّبات ـ حيث يتفاوض الناس للتوصّل إلى صفقات وعقود من شأنها أن تلحق الضرر بسكّان العالم الثالث

الجائعين الذين، لا حول لهم ولا قوّة، وتنطوي على نتائج معادية للشبّان من أصحاب المؤهّلات ولكنّهم ما زالوا بلا عمل؟

حسنًا، حسنًا. متى وصلت إلى المرحلة التي أفكّر فيها بمثل هذه الأمور الصعبة الإرضاء؟ أم أنّ وعيي الطبقي المكبوت والمتضائل هو الذي يتصرّف على هذا النحو بقصد لفت النظر؟

هل حدثت تغيّرات فيه أو في العالم خلال اليومين أو الأيّام الثلاثة الماضية؟ لا، المؤكّد أنّ شيئًا ما لم يتغيّر، عيناه ترنوان إلى الجهة نفسها. على أيّ حال، ما زال العالم يدور في بطء أمامه، فلفت انتباهه شيء ما، فحتى إذا كانت الحقيقة باهتة مثل نور القمر في ضوء النهار، فإنّ في وسع المرء أن يشاهدها إذا ما رفع رأسه ونظر إلى أعلى.

تذكّر مقالة البقعة الصفراء من جديد. إنّه عالم غريب حقًّا. فالنجاح والفشل يقودان الناس عاجلاً أو آجلاً إلى خيبة الأمل. ولم يكن ممكنًا فهم السبب في هذا الموضوع من دون الوصول إلى جوهر الأشياء. على المرء أن يدرس كلّ حلقة من حلقات نشوء الإنسان كي يصل النتيجة النهائيّة، ولكن ربّما لم يعد أيّ شيء بذي أهمِّيَّة بعد الآن. ولو وقع اختيارك على الجهة التي أنت فيها، فإنّك سوف تتقدّم من دون الاصطدام بهذا أو ذاك، ومن دون أن يلحق بك أذى أو تصاب بضرر. المهمّ هو أن يكون خيارك صحيحًا منذ البداية. نعم، لكنّ الصعوبة ما تزال قائمة في التأكّد من الشيء الذي يطلق عليه «صحيح»، لأنّ ذلك يختلف أيضًا اختلافًا عظيمًا. لعلّ السؤال الذي أثار اهتمامه الآن، السؤال المهمّ جدًّا الذي برز على حين بغتة، وهو: «إلى أين أذهب»؟ يتّصل بتحوّل مفهومه عن الصحّ

والغلط. ما الذي تغيّر؟ لنفكّر بعقل صافٍ. ما الذي تغيّر وجعلني على هذا النحو؟

إنّ البشر يثقلون كلمتي «الجنس البشري» بآلاف المعاني في كلّ لحظة. من جهة أخرى، لم تتوقّف قطّ لا العداوات ولا الطموحات، والناس يتكلّمون إلى ما لا نهاية عن العدل والحرّيّة، ولكنّهم ما زالوا يدفعون بزملائهم من بين البشر إلى الجوع والعبوديّة والموت والعنف، في حين يواصل آخرون البقاء صامتين في وجه مثل هذا العنف. إنّ «الإنسانيّة العظيمة» لا توجد إلّا في أفواه الناس وقوانينهم التي لم توضع موضع التنفيذ. يا للعار!

شعر فولكان أحيانًا بالحرج، وكأنّ له دورًا يؤدّيه في مجمل هذا النفاق وهذه الوحشيّة. كان يبحث عن نفسه في ركن من أركان ذلك البئر المظلم، وكان مضنًى من قسوة القلوب وصلابتها ومن إظهار الاحترام الصامت لناس لا يمكن توجيه النقد لقذارتهم، ومن السير مع من يزهو بنفسه وكأنّه شخص مهمّ. لقد علّمته مهنته التجاريّة قوّة المال، والأهمّ من هذا، صعوبة امتلاك المال، وفي بعض الأحيان، سهولته المدهشة. وأسوأ ما في الأمر مدى الخطورة التي قد يواجهها من يملكه. هذه تجارب مهمّة، ولكن ما فائدتها، وماذا يفعل بها؟

ضوضاء، إعلانات... الطيران إلى هامبورغ الرقم ٦٠٨... النداء الأخير: لندن، تأخير مدّة ساعتين! لا. لن يفيد ذلك. كلّ هذا الإرباك... عليه أن يفكّر في القضيّة تفكيرًا جادًّا عندما يتوافر له وقت أطول.

وهاجت في أعماقه موجة غضب شديدة، وفكّر: لندع

ماركينيس ينتظر. على من يكسب أن ينتظر، والذين لا يريدون الانتظار، لن يكسبوا شيئًا. هل ثمّة سبب يدفع إلى التفكير في هذه القضيّة تفكيرًا عميقًا؟ ما الذي يجعله يزيد من صعوبة حياته؟ على أيّ حال، إنّ هذه الوظيفة...

كان فولكان قد ألمح إلى أنّ هارون نفسه ينبغي أن يعرف عن أسرار هذه الصفقات المريبة. ولكن كما هو الحال دومًا، كان هارون قد تجاوز هذا الموضوع، وأنّ الصفقة تمّت تقريبًا ولا تحتاج إلّا إلى أكبر قدر من السرّيّة. وعند هذه النقطة، فإنّهم لن يناقشوا سوى بعض التفاصيل وما لم يثبت العكس، ينبغي لهم أن يولوا ثقتهم إلى الزبون من دون أيّ دوافع أخرى.

ماذا؟ أيّ ثقة؟ ثمّة شائعات مفادها أنّ الشركة الوسيطة الممثّلة للجانب الآخر ذات ارتباطات بمنظّمة إسلاميّة إرهابيّة!

لا تذبذب يا فولكان! ما صلتنا نحن بذلك؟

هكذا كان هارون قد تكلّم. وحتى لو كان الأمر كذلك، فقد كان متأكّدًا من أنّ المشتري غير متورّط! لكن هل من مشتر بريء البراءة كلّها في المفاوضات الدوليّة؟

كان فولكان منزعجًا من الضجر ومن مسحة التشامخ التي يظهرها رجال ماركينيس غير الودّيين والمبهرجين الذين سيفاوضهم. بدت وجوه تلك الشخصيّات مصنوعة من مادّة البلاستيك كي يتمكّنوا من الاحتفاظ بمعلومات مهمّة وحسّاسة لأنفسهم فقط. وكان نطاق تفكيرهم ضحلاً على نحو لا يمكن استغواره. وكانوا يكذبون ويخلقون كلّ أنواع العقبات، ويتكلّمون في حدّة حتى عندما يناقشون

تفاصيل العقود الفنِّيّة. ممّا لا ريب فيه أنّه يجب أن يكون حذرًا ومتحفّظًا كعهده في الصفقة «الإسرائيليّة» التي توصّل إليها آخر مرّة. كان في حاجة إلى يومين كي يشعر بالأمان والاطمئنان الكافيين حتى يخلع عنه قناعه الواقي. لا بأس بذلك. على أيّ حال، إنّ الرجال ليسوا عصابة متميّزة ينتظرونه وأيديهم على مسدّساتهم. بادئ ذي بدء، القيمة الاستراتيجيّة للبضاعة ذات فائدة لشركة كوزموس. لكلّ فرد نقطة ضعفه. ومع هذا، فإنّ العمليّة لن تكون سهلة، في هذه المرّة، لن تكون سهلة أبدًا.

لتكن العمليّة كذلك! فهي لم تكن أبدًا سهلة. ولا ينبغي لها أن تكون سهلة. وسرى في بدنه شعور بفقدان الأمل والقلق. إلى أيّ مدى سوف يقدر على تحمّل هذا العمل، هذا الإيقاع الجنوني؟ ما الذي سيفقده في حياته إذا لم يذهب إلى ذلك الاجتماع، وإذا تخلّى عن كلّ شيء، وإذا انسحب تمامًا من هذا الجوّ؟ لا شيء، بل على العكس، فإذا ما فكّر في القضيّة من وجهة نظر شخصيّة، فإنّه سوف يبدأ بممارسة التمارين الرياضيّة ويفقد شيئًا من وزنه، ويتوقّف عن التدخين ويستعيد صحّته وعافيته. ويمكنه أن يغرم بامرأة من جديد وأن يذهب إلى رأس الرجاء الصالح، وحتى يتزوّج وينجب أطفالاً.

طفل! شيء مدهش، ولكن ينبغي أوّل الأمر العثور على أمّ. على أيّ حال، سوف ننتظر. فأنا لم أبلغ سنّ الأربعين بعد. وما تزال ثمّة فسحة من الزمان لتأجيل أحلام تكوين أسرة سعيدة شأنها شأن أشياء كثيرة أخرى. كانت الأشياء التي يهتمّ بها عاجلة على الدوام، ولكن حياته الخاصّة بدت مثل كرة خيوط متشابكة ومؤلّفة من أشياء مؤجّلة. أي بني! إنّك الإضافة غير الجيّدة لكلّ الأحلام

التي أجّلتها إلى المستقبل. أيّ مستقبل؟ المستقبل قصّة خياليّة ولا يمكن أن تكون عزاءً للناس المرهقين مثلي الذين أضاعوا طريقهم. هل كان لديه حلم يستحقّ أن يبذل جهدًا من أجله؟ لا. إنّ من لا يملك حياته لا يمكن أن تكون لديه أيّ أحلام تخصّ المستقبل. وهل في وسع من يعتقد أنّه تذوّق كلّ شيء أن يكون لديه حلم كي يهتمّ به؟ إنّ حياته اشتراها الآخرون وهم الذين يوجّهونها. لعلّه كان يغذّ السير مسرعًا نحو الموت. وشعر بخفقان مفاجئ، وفكّر: إنّني سأموت. كرع عصير البرتقال. ما من أحد سيمنحه وسامًا. كما أنّه لا يحتاج إلى هذا الوسام، فقد كسب ما يكفي من المال، وفي وسعه أن يكسب أكثر من ذلك إن اقتضت الضرورة، لكنّ الشيء الذي لم يكن يريده هو الاندفاع من صفقة إلى أخرى بضمير متعب يكره كلّ دقيقة فيها.

* * *

ـ هل أنت على ما يرام يا سيّدي؟

ـ إنّني على ما يرام يا فردي. هل في إمكاني أن أطلب قهوة من دون حليب رجاءً؟

ـ نهض طغرل باحترام وقال متسائلاً:

ـ وهل تريد بعض الصحف؟

ـ هذا أمر جيّد.

اتّصل فولكان بهارون، لكنّ الهاتف ظلّ يرن من دون مجيب. لا بدّ أنّه نائم. الله وحده يعلم أين أمضى ليلته حتى الصباح.

المدير لم يستيقظ بعد.

قال فردي:

ـ سوف نهتمّ بكلّ شيء يا سيّدي.

أيّ أحلام تراود هذين الرجلين عن المستقبل؟ أحلام معتادة: التقدّم في الحياة وكسب ثروة أكبر، والسلطة والحياة الكريمة. في الأحلام التي تساور الناس عن المستقبل يمكن لكلّ شيء أن يتعايش معًا: الخير والشرّ، السهل والصعب، الجمال والقبح، ولكن كلّ شيء يرقى إلى النتيجة نفسها على المدى البعيد.

وتساءل فولكان عن السبب الذي أدّى إلى تلف ذلك القماش الجميل الذي نسج منه مستقبله بهذه السرعة. لم يعرف السبب لأنّه كان مذعورًا. كان يستحيل عليه أن يفكّر تفكيرًا واضحًا وبسيطًا. ينبغي له أن يحتفظ ببروده. فكما هو دأبه، فإنّ الخطأ كلّ الخطأ في صبّ الزيت على النار.

* * *

قلب الصحف التي أتى بها طغرل.

وكعهده، ألقى نظرة خاطفة لامبالية على العناوين الرئيسة ثم انقلب إلى صفحة الاقتصاد فالرياضة. وبحسب ما ذكرته الصحف فإنّ البلد يخلو من أيّ شيء يثير الاهتمام. فقد وصلت باريس هلتون وكشفت عن ظهرها. مزاد علني لبيع قبو مملوء بالنبيذ والشمبانيا يعود إلى أحد أصحاب المصانع بعد إفلاسه، جنود أميركيّون يظهرون في صور وهم يعذّبون عراقيين عذابًا لاإنسانيًّا.

كانت الأخبار قديمة ولا طعم لها. أمّا الافتتاحيّة فهي ناقصة ومتميّزة، ووجهات النظر ضيّقة. ولم يكن ممّا يبعث على التسلية الحصول على معلومات من الدرجة الأولى عن مجريات الأمور

والعيش في خضمّ علاقات سرِّيّة وصفقات وهميّة. لهذا السبب كانت أخبار الصفحة الثالثة تجذب اهتمامه منذ بعض الوقت. نوبات جنون وقتلة، أهوال المواصلات، أمراض سيّئة الحظّ، عمليّات اغتصاب، أطفال مفقودون أو تحوّلوا إلى لصوص ونشّالين... قرأ هذه الأحداث الاجتماعيّة من دون أن يتجاوز سطرًا واحدًا كما يقرأ قصّة من قصص الأسرار. كانت هذه كلّها تمنحه مفاتيح أكثر لفهم ما يجري. وبينما هو يلقي نظرة إلى آخر عمليّات هروب الفتيات العاريات في صفحات المجلّات، فكّر في الجنس الذي بات سعارًا في كلّ مكان. فقد انتشر ذلك الجنس المظلم والكثيف والممنوع الذي كان يمارس سرًّا، انتشار المقذوفات البركانيّة وغطّى كلّ شيء. وراحت هذه الحرّيّة الوحيدة واللامحدودة بالطوَفان في حرّيّة في شوارع المدينة وأحيائها القذرة.

ونشرت إحدى الصحف بعض الصور عن عمليّة القبض على رجل وضع سكّينًا على رقبة ولده، وهو يهتف بأنّه سوف يقتله وينتحر إن لم يوفّروا له عملاً من فورهم. وبينما كان هو يقرأ في هذه الأخبار، راوده إحساس بالتوتّر الممتزج بالإرهاق، يشبه الانتظار الذي يسبق الانفجار. ولم يكن سبب ذلك هو تأثّره تأثّرًا مباشرًا بذلك الخبر. وبفضل الأحداث المماثلة التي يشاهدها المرء على شاشة التلفاز يوميًّا، فإنّها لم تعد مثار اهتمام أحد منذ وقت بعيد، لكنّه شعر أنّ في وسعه أن يتماهى مع ذلك الرجل على نحو غير متوقّع. ولسبب ما... يمكنه أن يرتكب مثل ذلك العمل يومًا ما.

* * *

نهض من مكانه واتّجه إلى مرحاض الرجال وفكّر في نفسه:

إنّني لا أعرف حقًّا ماذا أريد. في هذه اللحظة لم يكن متأكّدًا أنّه يريد ملكة أيضًا. امرأة تهرّب التذكارات والتحفيّات، وصانعة أساور وحلي رخيصة تافهة! إنّها العفويّة نفسها دائمًا! إنّ ما يحتاج إليه هو أن تكون لديه امرأة ذكيّة حيّة الضمير. وشعر أنّه معتوه متخلّف اعتقد أنّ أوّل امرأة التقاها هي ملاك بجناحين. كان العالم مملوءًا بالأفّاقين والشذّاذ، وإذا ما أشارت إليه إحدى النساء، ففي إمكانه أن يضاجعها مرّات ومرّات. هذا كلّ شيء.

ظهرت صورة ملكة أمام عينيه، بكلّ هدوئها ورشاقتها وغموضها... وعلى حين بغتة شعر أنّه قريب منها وكأنّها أخته. أمّا تفكيره فيها قبل لحظة واحدة من الزمان على أنّها واحدة من المهرّبين والأفّاقين إنّما هو... لا، ليس ثمّة ضرورة كي يخدع نفسه. إنّه يضع مسافة بينه وبين الناس بسبب وظيفته. وفي الآونة الأخيرة، راح يشعر بالريبة الشديدة من كلّ ما فعل، وكلّ ما سعى إليه سعيًا جنونيًّا. يُضاف إلى هذا، كان الإحساس بالذنب الذي تسبّب فيه هذا القلق يضغط عليه بين حين وآخر. كان يحاول أن يُسكت وعيه، أن يتجاهله، لكن استقامته كانت تنادي ضميره كي يعود من جديد.

رنا إلى المرآة وهو يغسل يديه، وشعر للحظة أنّه اتّخذ شكلاً آخر، وقال للشخص الذي خُيِّل إليه أنّه يراه:

ـ هه، أنت أيّها البدين! بدلاً من أن تذهب إلى سمسار غير شريف، ومرابٍ خسيس، فإنّ في وسعك أن تذهب حيثما تشاء، أو الأفضل من هذا، في إمكانك أن تفعل أشياء أخرى مختلفة. الاختلاف كلّه من أجل البشريّة.

بدين؟ لا ، يستحيل العثور على كلمة يمكن أن تصفه من حيث مظهره. فهو لم يستطع رؤية نفسه على حقيقتها، لأنّه كان لا يرى إلّا الصورة غير الحقيقيّة، والأشياء التي تنقصه وعيوبه. كان يرى نفسه من خلال عيون الآخرين ممّا خلق في نفسه شعورًا بالنقص وارتبك ارتباكًا شديدًا. لعلّ السبب في هذا كلّه أنّه قبل برهة وجيزة من ذلك الصباح، التقى وجهًا لوجه غريبًا اعتقد أنّه هو نفسه شخصيًّا فازداد رعبًا وهلعًا. ما الذي جرى حقًّا؟

ألم يشكر الله قبل وقت قصير على نِعَمه التي أنعم بها عليه؟ لقد صعد نجمه صعودًا أصابه بالدوار، وحصل وهو شابّ على أشياء كثيرة سعى عديد الناس من أجل الحصول عليها طوال حياتهم، ولكنّهم لم يحصلوا عليها. حياة مبهرجة، فيها كلّ الخصائص المميّزة، ووظيفة جيّدة، واحترام ومال...

لم يكن فخورًا في التفكير فيها، لكنّه نظر إلى الخاسرين ممّن هم في عمره نفسه نظرات المتشامخين الواثقين من قدراتهم. ووجّه إليهم اللوم في سرّه لما هم عليه من كسل وتصرّف أخرق. كان عديد الناس من أبناء جيله الذين يتمتّعون بالمؤهلات نفسها التي يتمتّع بها، بل وحتى أولئك الذين هم أكثر ذكاء منه، يبذلون محاولات مستميتة للتأقلم مع البطالة والصعوبات والفوضى والغموض والافتقار إلى الأمان في حياتهم، وهم يلومون الحظّ السيّئ لكلّ ما لحق بهم من مصائب. حسنًا، للناس مستويات مختلفة من التعليم ومتباينة من القدرات. كما أنّ قدرتهم في كسب الثروة لا تتشابه. ثمّة متطلّبات أكبر تقع على عاتق أولئك القادرين، وقد دفعوا ثمن ذلك. لهذا السبب فإنّ طريقه كان على الدوام متألّقًا

ومفرحًا، في حين بدا الآخرون يائسين وقلقين لما يروه من ظلمة حالكة تمتدّ أمامهم، وتزداد حلكة فتستحيل عليهم رؤية المستقبل.

لكنّ الأطفال الصغار أنفسهم ـ البقعة الصفراء ـ باتوا مدركين هذه الحقيقة اليوم. وفي وسعهم أن يحاصروه في زاوية ويبصقوا في وجهه. ماذا تعني هذه البقعة الصفراء؟ وكلّ ما كتبته عن سماسرة سوق الأوراق الماليّة؟ البقعة الصفراء؟ المؤكّد أنّ لهذا الاسم صلة بالبصر. إذًا، بقعة صفراء! ارتعدت أوصاله! ما خطبه؟ هل فتحت عيناه في تلك اللحظة التي راح يضرب فيها الأرض بقدمه وهو غاضب؟ ربّما ساوره شعور بالألم والضياع وكأنّه شعور بالجوع، وأدرك أنّه يحنّ إلى كلّ ما فقده وضاع منه، ولكنّه لم يغفل عنه، أو آثر أن يظنّ أنّه لم يغفل عنه. كانت حياته ليست أكثر من غلطة، بل كانت نكرانًا. استبدّت به الدهشة وكأنّه بغتة في هوّة سحيقة وراح يحدّق إلى ثقب المغسلة.

ينبغي له أن يتخلّى عن عمله. وفكّر في نفسه: لا بدّ لي أوّلاً من الذهاب إلى مكان ما، وأن أحاول أن ألمّ أطراف شجاعتي. في وسعه أن يفعل ذلك، فهو حرّ! لا، ليس حرًّا. وظيفته أشبه بعبوديّة الذين حاولوا إثارة الرعب والهلع في العالم بصياحهم وجأرهم.

أصبح منذ بعض الوقت لا يؤمن بأنّ حياته مستمرّة في مثل هذا الاتّجاه الرائع والبهيّ. كان يسافر بين مدن العالم، ويلتقي المصرفيين والسماسرة من ذوي الشهرة العالميّة في مراكز ماليّة دوليّة، مفاوضًا يشعر طوال الوقت بقلق ممضّ.

من شأن عديد الناس أن ينظروا إليه بعين الحسد وهم يروه موضع حفاوة سماسرة وول ستريت الذين كانوا يدعونه إلى أفخم

المطاعم في العالم، فيتناول الطعام بنهم. ولكنّهم كانوا بعد وقت قصير يجعلونه يشعر كأنّه آلة. كلّ شيء خواء. خواء تامّ!

عاجلاً أم آجلاً، يشعر المرء أنّه ضجر من النوم في فنادق فخمة جدًّا، توفّر له فتيات متعة من الدرجة الثانية، كاللواتي تحفل بهنّ مجلّة بلاي بوي، لقاء سكوته عن صفقات قذرة. وفي الوقت الذي يتجمّع في داخل المرء سرًّا الغضب والقلق والخوف من التورّط في هذه العمليّات أو السقوط من القمّة في بيئة عمل متّجهة دومًا إلى الترقية، فإنّ هذا المرء يدرك أنّ التاج الموضوع على رأسه إنّما هو مصنوع من الأشواك، ويصبح الأمل بشيء أكثر جمالاً ومعنًى عبئًا ثقيلاً بمرور الزمن.

لا يمكن للمرء أن يخفي حزنه عن نفسه مدّة طويلة وإلى الأبد. وعندما نظر إلى الماضي، لاحت له أرقام سوق التبادل الماليّة قبيحة، وبدا له كلّ ذلك التوتّر وكلّ تلك الصدمات متعذّرة على الاحتمال، شأنها شأن الأزمات الاقتصاديّة ـ المفاجئة أو التي كانت متوقّعة منذ زمن بعيد ـ والرجال المغرورين من وراء لعبة المال القذرة. . .

سوف ينسحب من العمل. ليس ثمّة ما يدعوه إلى الخوف. فهو لن يصبح رجلاً تعيسًا باع روحه، شخصًا لم يعد في وسعه التراجع على الرّغم من أنّه كان يتلوّى ويتضايق على نحو يائس.

عندما كان يعدّل من حزامه، أدرك أنّ يديه ترتعشان. لعلّه كان ينتظر شرارة صغيرة من شأنها أن تُعيده إلى نفسه الاعتياديّة. وهو لم يحلّل كلمة «تحوّل» من حيث المعنى أو الضرورة. المؤكّد أنّه لم يوفها حقّها من التفكير، فهي ليست سوى تفسير.

الحقّ أنّه لم يظهر مثابرة ـ أو ربّما القوّة ـ في إنقاذ نفسه من

القذارة منذ البداية. على أيّ حال، إنّه في موضع من يستطيع الإقدام على ذلك الآن. المؤكّد أنّه لن يتمكّن من إنقاذ نفسه من الحلقة المطوَّقة بها رقبته على جناح السرعة. لا بدّ له من أن يعدّ خطّة. وينبغي له أن يحسب حساب أفعاله وأن ينسحب في حذر من دون عجالة!

هكذا ستكون الأمور إذًا، وسوف تنتهي انتصاراته على حين بغتة وفي لحظة غير متوقّعة، انتصارات فاز بها وهو يحاول الوقوف على قدميه، على الرّغم من إدراكه أنّ ذلك الطريق المنفرد كان ملتويًا.

اثنان... أربعة... واحد... النداء الأخير...

لا، بدأ تحوّله قبل وقت قصير. كانت تلك اللحظة التي تسمَّر فيها، وسأل نفسه عن هويّته بعد أن ضرب قدمه بالأرض وتفوّه بتلك الكلمات الغريبة، لحظة قويّة جدًّا من لحظات الاكتشاف وكانت هي النهاية.

نهاية مرحلة.

كان الصوت المنبعث من مكبّرات الصوت يتردّد في الآذان:
اثنان... أربعة... واحد... النداء الأخير...

هذه هي النهاية. لا ينبغي له الإسراع من الآن فصاعدًا. ولم يشعر بمثل هذا الهدوء منذ زمن بعيد. ما زال في وسعه أن يشمّ الرائحة النتنة التي خيّمت عليه، ولكنّها سرعان ما سوف تزول... قريبًا جدًّا...

* * *

٨

سارت ملكة متّجهة إلى مدخل قاعة الفنون باذلة قصارى جهدها كي لا تظهر لضيوفها نقمتها المتزايدة. ففي داخل القاعة ثمّة فتيات صغيرات السنّ صادف مرورهنّ من أمام القاعة فدخلن من أجل التسلية وهنّ يخفين فضولهنّ من وراء أقنعة الجدّ والمجاملة. ثمّة نساء بالغن في ارتياد الثياب ووضع مساحيق التجميل، وزوجان في خريف العمر عليهنّ ثياب رثّة، وناس كانت أسماؤهم على قائمة القاعة وهم من الزبائن المنتظمين الذين يحصلون على مشروبات من دون مقابل، وأحد جامعي اللوحات، وكان عجوزًا، فضلاً على بعض مقلّدي المجوهرات الماكرين. وبدا الافتتاح وكأنّه متعذّر على الوصف.

كانت الآثار الفنّيّة معروضة في واجهات زجاجيّة موزّعة في أنحاء الغرفة الصغيرة التي كان اللون السائد فيها هو الأبيض. وبدت المجوهرات الذهبيّة والفضّيّة من مختلف الأنواع والأحجام جذّابة

تحت الأنوار الساطعة. وثمّة شخوص ميثولوجيّة وأشكال نباتيّة محوّرة، وأنماط من أشكال مجرّدة ودبابيس وقلائد وأساور ذات حجارة ثمينة.

وانتشرت في القاعة رائحة الزنابق العذبة ـ وكانت قد أُرسلت لافتتاح المعرض ـ وفي أحد أركان القاعة ثلاث آلات كمان انهمك عازفوها في عزف موسيقى الغرفة. ولمّا كانت ملكة هي التي قد تحمّلت نفقات الكوكتيل، فقد كانت المشروبات والمأكولات الشهيّة متوافرة بكثرة. ولم يكن هدفها كسب كمّيّة كبيرة من المال وإنّما لتكشف عن زهوها وأصالتها.

وبعد أن كانت قد تردّدت كثيرًا في اختيار ثيابها، فقد لجأت في نهاية المطاف إلى اختيار تنّورة سوداء طويلة وفضفاضة وقميص حريريّ ضيّق بلون الزعفران مزرّر الرقبة على طريقة الكيمونو. أمّا شعرها فعقصته إلى أعلى رأسها، فبانت رقبتها بكلّ ما فيها من فتنة وسحر.

أمضت برهة وجيزة من الزمان تتجوّل في أنحاء القاعة وهي تتحدّث إلى الحاضرين الذين كانت تعرفهم وتستفسر عن صحّتهم. ثم أجابت عن أسئلة طُرحت عليها ـ بهدف الحديث ليس إلّا. وبحلول الساعة السابعة والنصف، فقدت الأمل نهائيًا في أن يكون افتتاح المعرض على النحو الذي كانت تتخيّل. سأم. سأم شديد! وفكّرت في نفسها: أليس من أحد يأتي كي يرفّه عنّي ويجعلني أشعر بالدفء من أعماقي.

كان عمّها قد وعدها أن يأتي، ولكنّه قد لا يأتي بمفرده، وربّما يرافقه حيالي في زيارة مجاملة أيضًا. كانت تجارة عمّها هي التي

تسمح له بإنفاق المال أو التشبّث بملكيّته. وكلّما فكّرت في هذا الموضوع قلّ اهتمامها به. إنّها آخر شخص قد يطرح السؤال على حيالي.

تذكّرت ملكة وريثة عمّها الأخرى. فلو سمعت هذه المرأة بما يدور لجنّ جنونها، لأنّها هي وحدها التي في إمكانها أن تضرب ذلك الرجل. لا، ليس من الحكمة دعوة تلك الساحرة في هذه المرحلة. ففي الأيّام التي أعقبت كلامها إلى عمّها، فكّرت في حيالي كثيرًا محاولة أن تحلّل مشاعرها تجاهه تحليلاً موضوعيًّا. الحقّ أنّها كانت تجد صعوبة على الدوام في المكوث وإيّاه وحدهما في الغرفة نفسها والبدء في حوار، إذْ سرعان ما كان التوتّر يسيطر عليها من دون أن تعرف له سببًا.

الأغرب من هذا كلّه، هو أنّ شذوذه الجنسي كان قد أثّر فيها تأثيرًا شديدًا، واستطاعت أخيرًا أن تعترف بهذا الأمر في قرارة نفسها. إنّه شعور معقّد، وكأنّها تريد أن تقرّ بذلك الاختلاف، وفي الوقت نفسه أن تغور في أسرار حيالي لإزالة ذلك الاختلاف. ربّما كان الشيء الذي تريده حقًّا يتمثّل في رؤية صورتها في عينيْ حيالي، وأن تقوم بحركة قويّة باتّجاه إزالة التشابه الجنسي وبهذا الأسلوب، سوف تتمكّن من تحطيم درعه.

تذكّرتْ عينيت حيالي اللتين تنطويان على عجرفة، وثقته بنفسه المثيرة للإحباط ونكاته الساخرة، فازدادت غضبًا، لا، إن ذلك الثعلب لن يسقط في الفخّ. يضاف إلى ذلك، ليس ثمّة وسيلة لتلقينه درسًا ما دام عمّها يقف بينهما.

* * *

هيّا، لِيَأْتِ شخص ما مثير للاهتمام!

رفعت كأسًا من النبيذ الأبيض من على الصينيّة التي قُدّمت لها. كان ثمّة خاتم بقطعة ياقوت زرقاء كبيرة تزيّنه في أصبعها، وكان هذا الخاتم من صنعها. ومالت فتاة بيضاء الوجه وعلى وجنتيها المكتنزتين غمّازتان من فوق أصبعها وراحت تتفحّص الخاتم، فابتسمت لها ملكة وحوّلت من بصرها باتّجاه المدخل. قبل أسبوع، أعربت عن شكرها لفولكان برسالة هاتفيّة قصيرة لإرساله الزنابق زعفرانيّة اللون. الواضح أنّه أرسلها إليها لغوايتها، ولكنّها لم تستطع القول إنّها لم تكن مسرورة بها. كانت الزهور مرتّبة في باقة جميلة، تجسّد إلى حدٍّ كبير الاهتمام الذي شعر به نحوها. وكان قد أتى بها إلى المحلّ السائق، ذلك الرجل العجوز المجامل الذي بدا مساعدًا لا يرتكب هفوة واحدة وعيناه تراقبان في وفاء الجهة التي ينظر إليها سيّده. وقد أجاب الشابّ من فوره، قائلاً إنّه قد يزور المحلّ في يوم السبت.. وقد جاء حقًّا. كانت زيارة لطيفة، وبدا رجلاً دمثًا ولطيفًا وممّن يحبّون الاهتمام بالبيت. كان على ما يبدو أكثر نحافة مرتديًا ثيابًا جميلة غير رسميّة. والواضح أنّه كان قد بذل جهدًا.

كانت ملكة قد أطلعته على محترفها في الدور العلوي، حيث تبادلا نظرات خاطفة بضع مرّات، وشربا الشاي معًا، ولكن لسوء الحظّ، لم يفرغ المحلّ في ذلك النهار من زبائنه، كما أنّ المساعد الذي يعمل في المحلّ كان فتاة فضوليّة. وتحدّثا عن موضوعات عامّة حديثًا متقطّعًا. قالت ملكة في نفسها بأنّ الرجل يمكن أن يكون صديقًا طيّبًا، وزوجًا طيّبًا، وأبًا أيضًا، ولكنّها لم تعتقد قطّ أنّه سيكون عاشقًا متيّمًا. ذلك حدس، حدس لا أكثر!

ردّدت في صمت: فولكان كومان. وتمنّت لو جاء في ذلك المساء. نعم، فالقليل من الإثارة لن يكون بالأمر السيّئ في هذا السكون المطبق. ولو جاء، فسوف تكون لطيفة جدًّا وإيّاه وأن تنظر إليه نظرات متفحّصة من جديد، وستقرّر من بعد ذلك إن كان يصلح للإغواء أم لا. الحقّ، أنّها كانت تشعر بأنّها مفعمة بالحيويّة والنشاط وأنّها سعيدة سعادة غريبة منذ اليوم الذي التقيا فيه. ربّما كانت مبتهجة لأنّها التقت أخيرًا المرشّح المناسب للأبوّة. من يدري؟ طفل ذكي وجميل من أب ذكِي. لِمَ لا؟

* * *

شاهدت عمّها يدخل القاعة ـ مترنّحًا إلى حدٍّ ما ـ رفقة أيشيك. تبادلا القبلات. أمّا حيالي فكان لديه موعد مهمّ مع شخص ما. فأل حسن! إذْ لم تكن ملكة تملك من الصبر ما يجعلها تتحمّل مشاهدته وهو يؤدّي الدور الرئيس لجذب الاهتمام إليه، ولو حتى لمدّة نصف ساعة، لا، ليس في هذا المساء. وتمنّت لو أنّ هذه الفتاة لم تحضر هي الأخرى، وكانت هذه ترتدي جواريب ضيّقة ذات خطوط عموديّة باللونين الأسود والأبيض، من تحت تنّورتها بالغة القصر والممزّقة والتي تبدو الخيوط منسّلة من الحافّة. وكانت ترتدي أيضًا معطفًا طويلاً أسود اللون بأزرار وكتفيّات معدنيّة برّاقة. زيّ يتراوح بين اللامعقول والمثير للضحك. حسنًا، ربّما ليس سيّئًا بهذه الدرجة، فهو يناسب معايير أزياء المراهقات.

رنت ملكة إلى أيشيك بشيء من الغيرة. ما الذي يجعل عمّها يجرّ من ورائه هذه الفتاة حيثما يذهب؟ هل يريد أن يُظهر للآخرين أنّها ليست صديقته وإنّما سكرتيرته وصديقته الحميمة؟ أم أنّ السبب

يتمثّل في أنّه يريد أن يكون مدلّلاً؟ ولكن كيف؟ فالفتاة غاية في الجدّ والصرامة ممّا يجعلها تولّد الانطباع بأنّها محيّرة. وجهها بلا مساحيق تجميل، جامد كالصخر، يلوح لمن يراه أنّها جاءت إلى هذا المكان التزامًا منها بواجبها. ما زالت صغيرة السنّ، صغيرة جدًّا، بل لم تتعلّم بعد أنّ النفاق هو الذي يجعل الناس متحضّرين.

قال نيازي بك وهو يضع ذراعه على كتف ملكة:

ـ لن أبقى طويلاً هنا، فأنا كما تعرفين لا أحضر حفلات افتتاح، ولكن كيف تسير الأمور؟

قالت ملكة:

ـ إنّني منفعلة ومتحمّسة من دون سبب، ليست هناك حركة كبيرة.

ـ شيء جميل هو عرض التذكاريّات، بل ضروري. زد على ذلك، أنّك غاية في الحسن والجمال في هذه الليلة.

ثم ضحك وكأنّه يريد أن يمنحها ثقته واستحسانه. ثم طاف الاثنان في أرجاء المعرض.

وقالت أيشيك:

ـ أهنّئك، لقد أعجبني معرضك، وأحبّ أن أشتري هذا السوار.

قالت ملكة:

ـ سوف أحجزه لك إن لم يكن قد اشتراه أحد ما.

وضع نيازي بك نظّارته على عينيه لينظر عن كثبْ إلى السوار

الفضّي، الذي كان يبدو وكأنّه ثلاث أفاعي متداخلة، وكان مزيّنًا أيضًا بأحجار ملوّنة.

قال:

- إنّه جميل حقًّا. لا تبيعيه. لقد اشتريناه يا عزيزتي. حسنًا.

اجتاح الغضب ملكة برهة وجيزة، ولكنّها سرعان ما تمكّنت من تجاوزه، وقالت:

- مؤكّد يا عمّي. إنّه لك.

كانت ملكة تعتقد أنّ حبّ عمّها لهذه الفتاة مفهوم بسبب من طبيعته، إذْ كانت الفتاة تجسّد جمالاً متعذّر الإنكار، مزيجًا من الأنوثة والرجولة، فضلاً على الجاذبيّة الجنسيّة التي لم تكن بالغة الإثارة. إنّ ازدواجيّة هذه الطفلة التي وضعها تحت حمايته كانت تمثّل النموذج المثالي للميثولوجيا والتاريخ البشري. الحساسيّة والرقّة والرغبة الدفينة هي صفات أنثويّة، في حين أنّ حبّ الجمال والنبل والشجاعة صفات رجوليّة، وكانت الخصائص التي ترمز إلى اتّحاد هذه الصفات بالغة القداسة. وعلى المرء أن يتجنّب التقليل من شأن هذه الطفلة الرضيعة!

حاولت ملكة أن تتخيّل مظهر عمّها الجادّ الذي كان يشكّل نقيضًا لشباب الفتاة ورشاقتها، سلوكه الأبوي الذي يحميها والطاقة الجنسيّة التي تتمتّع بها فتاة مثلها وتأثيرها عليه. وسرعان ما وضعت حيالي بجانبهما، فشعرت بهزّة. تلك هي علاقة ذات جذور أعمق ممّا تتصوّر.

- إنّ مشاهدة مجمل عملك على هذا النحو ينطوي على أكبر

قدر من الإثارة يا إيدا. أنت هاوية أصيلة، وأنا بكلامي هذا إنّما أطري عملك، فهذه التصاميم تتمتّع بجرأة كبيرة، وأنت تملكين ذوقًا مرهفًا ممّا يعزّز من قدرتك على الإحساس.

ـ شكرًا لك يا عمّاه!

ـ والآن، أستميحك عذرًا بالذهاب.

ـ ألن تشرب شيئًا؟

ـ لا، يا عزيزتي. لقد ابتعدنا عن المنزل، وما زال أمامنا ليل طويل.

وبينما كانت ملكة تودّع عمّها، لمحت سائق فولكان وهو يقود سيّارة سيدان ذات لون أزرق غامق، ثم يتوقّف أمام المعرض. وفي لحظة خاطفة، وثب فؤادها من بين ضلوعها، وشاهدت فولكان يترجّل من السيّارة. كان جذّابًا، غاية في الجاذبيّة! وعلى حين بغتة، تحرّرت من التوتّر العصبي. وسرت في أوصالها موجة انفعال جديدة، واقتربت من عمّها وقبّلت وجنته. كانت مرتاحة، ونادت على حرّاسه وهي تقول:

ـ شددوا الحماية عليه!

ثم تنحّت جانبًا لتفسح المجال ومدّت يدها لفولكان:

ـ إنّني سعيدة لقدومك، فأنا لم أظنّ أنّك سوف تتمكّن من الحضور.

ـ كدت ألّا أحضر يا إيدا.

ثم رشقها بنظراته برهة وجيزة وكأنّه مسحور، وابتسم أحدهما

للآخر. . تنشّقت ملكة عبير الرجل، قادمًا من بعيد، وخفيفًا، فاستيقظ في أعماقها حنين مألوف. نعم، كلّ شيء كما كان في السابق. الرائحة نفسها، ونفس العينين الكهرمانيّتين المتفائلتين اللتين تمنحان المرء إحساسًا حزينًا بالوحدة. اجتماعات، إثارة. . . لحظات تعود من جديد ضمن سلسلة متّصلة من التكرار. . . تلك البهجات اللامنطقيّة والملتهبة. . .

الوقت يقترب من الساعة التاسعة، ولم يبق إلّا عدد قليل من الزوّار داخل قاعة المعرض.

سار الإثنان إلى الواجهات الزجاجيّة في وسط القاعة، وقد شملهما إحساس طفيف بالارتباك. يا لها من إثارة! وكأنّهما لا يعرفان من أين يبدآن. . . رمق الاثنان في صمت التذكاريّات من وراء الزجاج لبرهة، وكأنّهما يخشيان من قول كلام غير مناسب أو أنّهما يفتّشان عن أساس منطقي لكلماتهما. ولسبب من الأسباب، شعرت ملكة أنّها العرّافة التي تنبّأت بهذا الموقف الذي بدا مصادفة كلّيًا، وأنّها هي التي ينبغي لها أن تقوده.

قال فولكان:

ـ يسرّني كثيرًا أن أسمع صوتك وأن أكون في رفقتك. أرجو ألّا أثير ضجرك. صحيح؟

قالت ملكة في دهشة مصطنعة:

ـ لا، ما الذي دفعك إلى هذا التفكير؟

ـ لا أدري. ما زلت غير متأكّد منذ بعض الوقت وحتى الآن.

ثم شرب مشروبًا آخر. فولكان. . . رأى وجهه منعكسًا في

الواجهة الزجاجيّة، صورة غير واضحة المعالم. وعن غير قصد، لمح الخاتم في يد ملكة، وأدرك أنّها كانت ترنو إليه، منتظرة إيّاه لينهي كلماته.

قال:

ـ كان يومًا شاقًّا، منطويًا على الكثير من القلق والإثارة. وقد اضطررت إلى الهروب من اجتماع كي أحضر إليكِ، بعد أن لاح لي أنّه سوف يستمرّ حتى الصباح.

توقّفت ملكة هنيهة عند سماعها كلمة «إليكِ»، ونظرت إليه مستطلعةً، غير أنّه لم يكن ينظر إليها. كانت جذور شعره مبلّلة، وراح يرتعش. وكان يرتدي قميصًا أصفر اللون من تحت بذلة بنّيّة غامقة بشكل سبعات وثمانيات. كان ممتقع الوجه، فساورها على حين بغتة إحساس عميق بالعطف اتّجاهه، ورغبة قويّة في حماية الرجل الشابّ من مشكلاته التي لم تكن تعرف عنها شيئًا.

قالت:

ـ هل فقدت شيئًا من وزنك؟ فأنت تبدو أشدّ نحافة.

أجاب فولكان:

ـ إنّ حياتي عجيبة وغريبة.

ثم أمسك عن الكلام قبل أن يسترسل قائلاً:

ـ بدأت أشعر بصعوبة إنجاز مهمّاتي وواجباتي والوظيفة التي أعمل فيها. أنا لا أتمتّع بيوم إجازة واحد. رتابة وانفصام شخصيّة، ولا شيء غير ذلك.

ثم توقّف من جديد وأردف:

ـ إنّها قضيّة لا أستطيع الحديث عنها حديثًا عابرًا.

ـ إذا رغبت في أن أشاركك...

ـ نعم، أظنّ أنّني في حاجة إلى أخت في هذه المرحلة.

قالت ملكة، وابتسمت:

ـ أفهم كلامك.

الحقّ أنّ كلامه لم يكن مفهومًا قطّ. أختًا؟

وبغتة، قال فولكان وهو يرخي بصره إلى عينيْ ملكة:

ـ هل يروقك تناول العشاء معي في هذه الليلة؟ هل أنت قادرة على الحضور؟

كانت كلماته منطوية على توسّل.

قالت ملكة وهي تهزّ رأسها وكأنّها تواجه موقفًا ميؤوسًا منه:

ـ حسنًا. ربّما يتطلّب الخروج من هذا المكان ساعة من الزمان. هل نخرج في التاسعة والنصف؟

ـ على وجه التوكيد. شكرًا لك، سوف أتولّى الحجز.

طاف الإثنان صامتين في قاعة العرض، وكان فولكان قد استعاد هدوءه أثناء ذلك واسترخى وتحرّر من التوتّر العصبي. وأثنى على خيال ملكة وصنعتها. هل ثمّة خطورة في استنساخ هذه القطع الجميلة وتصنيعها؟

قالت ملكة:

ـ المؤكّد أنّ ثمّة خطرًا، وأنّ بعض الذين شاهدتهم في هذه القاعة إنّما حضروا لهذه الغاية. وسيأتي عاجلاً أم آجلاً أولئك الأشخاص الذين يريدون التقاط الصور أيضًا، ولكن عندما تفكّر في الموضوع، فإنّ الأعمال الفنِّيّة المحفوظة والمحميّة في المتاحف معرّضة لهذه المخاطر. على أيّ حال، إنّ النسخ التي يمكن لأيّ فرد أن يشتريها لا تقلّل من قيمة الأصل.

قال فولكان:

ـ أنت على صواب. إنّ أثمن شيء هو أن يكون الإنسان نفسه في حالته السويّة.

ثم غادر الإثنان في التاسعة والنصف.

سأل فولكان:

ـ هل نتمشّى؟ فالمكان الذي سنذهب إليه ليس بعيدًا عن هنا.

سارا على امتداد ساحل بيبك. وكان المطعم يبعد مسافة خمس دقائق سيرًا على الأقدام. ثم أشار فولكان إلى شقّته حيث يقيم، وكانت تقع على امتداد الطريق. سارا وسط الليل برطوبته العالية القادمة من البحر، واجتازا أضواء علامات النيون المتعدّدة الألوان. وكان الرجال الواقفون أمام أبواب المطاعم ينادونهما ويوجّهان لهما الدعوة بالدخول. كان الجوّ نظيفًا يبعث على الارتياح ويبدّد التوتّر.

التفت فولكان وسرح ببصره. كانت المرأة الشابّة آسرة الجمال وفاتنة بألقها وشفتيها الخاليتين من أحمر الشفاه ومساحيق التجميل التي كانت تبرز سحر عينيها. كانت طواعيّتها الجادّة قد أيقظت

شعور الصداقة والرغبة في أن تتجاذب أطراف حديث ودّي بدلاً من الإحساس بالرغبة.

قال فولكان:

ـ لقد سئمتُ كلّ شيء، بل رحت أكره الناس بسبب عملي.

ـ يا له من أمر محزن، ولكن ماذا ستفعل؟

ـ رحلة سفاري إلى أفريقيا واستجماع قوّتي.

أطلقت ملكة ضحكة.

ـ هل تحبّين السفر وإيّاي؟

فكّرت ملكة في صور أفريقيا التي شاهدتها في أشرطة وثائقيّة، وتذكّرت الأسود وهي تستعرض قوّتها بكبرياء، وصيد الفهود وبنات آوى والفضاءات الشاسعة...

ـ إنّني جادّ في كلامي. هلّا تأتين؟

ـ إنّني أفكّر. أرجوك دعني أفكّر، فهذا العرض هو أكثر العروض جرأة وإثارة للاهتمام أتلقّاها من رجل لا أكاد أعرفه.

ثم ضحكت كرّة ثانية، وفكّرت في نفسها: أهو جادّ؟ مستحيل. إنّها ليست سوى ثرثرة خالية من الهموم. حسنًا، يمكنها أن تجاريه في مزاحه.

ـ لِمَ لا؟ نعم، إنّني آتية. متى؟

ثم رمقت فولكان بنظرة تنمّ عن تحدٍ. ثمّة خصلة أو خصلتان من شعرها انسابتا على وجهها. وكانت عيناها متلألئتين وكأنّهما مملوءتان بالماء، ولكنّهما كانتا عنيدتين.

قال فولكان:

ـ حسنًا، سوف أرتّب كلّ شيء وأبلّغك.

على الرّغم من أنّ فولكان كان يهوى العيون ذات اللون الفاتح، إلّا أنّه فكّر بأنّه لم يشاهد في حياته قطّ مثل هاتين العينين السوداوين الرائعتين.

* * *

عندما اتّخذا مجلسهما متقابلين حول طاولة في الدور الثاني المطلّ على الطريق، شعرا أنّ أحدهما يعرف الآخر منذ عهد بعيد. وكانا سعيدين معًا تحت الأضواء الخافتة، يشمّان عبق البحر ويسمعان ضجيج حركة المرور القادم من النافذة المفتوحة. وتذكّرت ملكة كلمة «أخت». هل تراها التقت هذا الرجل في زمن غير ملائم؟ أخت؟ وفكّرت في لقائهما السابق. لا، لقد كان مختلفًا تمامًا. لا بدّ أنّ فولكان في حالة إحباط موقّتة وخاصّة في هذه الليلة.

الحقّ أنْ لا خير في أن تكون أختًا. فهي حتى اليوم، وكلّما جلس رجل إلى جانبها، فإنّ الحكاية تنتهي بغرام في السرير، ليعقب ذلك فراغ... وخواء، في حين أنّ هذا النمط من الألفة من شأنه أن يبعد المرء عن كلّ المراحل التي تدعو إلى الرثاء عندما يكون عاشقًا.

قالت ضاحكة:

ـ نعم يا أخي فولكان.. كلّي آذان صاغية...

ثم شربا نخبهما من النبيذ.

تكلّم فولكان عن الأشياء التي كانت تخنقه أثناء الأشهر المنصرمة، وعن إحساسه بأنّه ذئب وسط مجموعة من الذئاب، لكنّه لم يرغب في إثارة سأم إيدا بالتفاصيل، غير أنّ البلد كان يجرّه جرًّا نحو أماكن مظلمة، أناس فاسدون مصابون بالعمى. وكان يريد الهروب من كونه جزءًا من كلّ ذلك أو من كونه أداة فيه. وقد أدرك أنّ المرء لا يمكنه أن يكون سعيدًا بالمال أو الوصول إلى مكانة كان يحلم بها أثناء شبابه، فهو ابن أسرة من الطبقة المتوسّطة عملت بشرف في الوظائف الحكوميّة. وكان أبواه مثاليين، وعليه الرجوع إلى جوهره، وعلى نحو طبيعي قدر المستطاع.

قالت ملكة:

ـ معذرة، فأنا لا أريد أن أكون وقحة في يومنا هذا، لأنّ عديد الناس يعتقدون أنّ التفكير في التخلّي عن الوظيفة ليس سوى إسراف وتبذير. إنّني أفهم من كلامك أنّك قد ضمنت لك مستقبلك، ولكن فكّر في أولئك الأشخاص الذين لم يتمكّنوا من ذلك على الرّغم من كفاحهم على مدى سنين طويلة، أولئك الذين يضطرون إلى الاستمرار في العمل في وظيفة ما لا تروقهم وإن لم يكونوا قد ارتقوا أدنى درجات السلّم.

ـ أحيانًا أتمنّى لو كنت واحدًا من هؤلاء، لأنّني سأكون عندئذٍ قريبًا من الحياة.

ـ لا أوافقك الرأي، إذْ ما من شأنك أن تريد أن تكون بهذه الدرجة من العجز، كما أنّك ستكون غير سعيد تمامًا.

ـ نعم، ولكن لماذا لا أستطيع أن أحيا حياتي على الرّغم من

امتلاكي كلّ الوسائل؟

ـ بل تستطيع. القيمة الأكثر أهمِّيَّة اليوم هي المال. ومعظم الناس يعتقدون «أنّني سأنفض يدي حالمًا أحصل على كنز». ولكنّهم لا يقدرون على الخروج ما دام هم دخلوا. اللصّ يقول أيضًا: «سوف أسرق مصرفًا وأضمن مستقبلي ولن أكرّر فعلتي ثانية». ولكنّه ما إن ينفّذ السرقة حتى يجد نفسه عاجزًا عن التوقّف عنها.

صعق فولكان واستبدّت به الحيرة، ورنا إليها وكأنّه أُهين. فتفصّد عرقًا.

قال:

ـ يؤسفني أنّك تفسّرين الأمور على هذا النحو، في حين أنّني أريد أن أعثر على من يفهمني.

قالت ملكة:

ـ لا أعتقد أنّني فهمت مشكلتك فهمًا كاملاً.

وهنا ران صمت قصير.

ـ الحقّ، أنّني لا أعرف مشكلتي معرفة واضحة. فرأسي يحتشد بالأسئلة ولا أدري كيف أوضح نفسي، وكيف سأتمكّن من فهم نفسي أوّلاً، وبعد ذلك أجعل شخصًا ما يفهمني.

ـ حاول، إنّني أستمع إليك.

ـ أعني أنّني لا أريد البقاء في منطقة حياد يعرفها الآخرون جميعًا على أنّها سعادة. إنّني في جهة، ولكن في الجهة الثانية، ثمّة تيّار قوي يحطّم من أحاسيس سمعي وشعوري. انظري إليَّ. إنّني

مولع بالرياضيّات، وأعشق الرياضيّات لأنّها خالصة وواضحة، ولكنّني أعتقد أنّني ارتكبت هفوة في مكان ما.

قالت ملكة:

ـ عندما تفكّر بشأن التخلّي عن وظيفتك، فلا تقرّر استنادًا إلى مشاعرك، إذْ قد ترتكب غلطة.

ـ إنّني لا أعتبر التخلّي عن هذه الأشياء التي في وسعي الاستغناء عنها إخفاقًا، لأنّني لست خائفًا من البحث من جديد والخسارة وحتى إن لم أعثر؛ وأعلم على الرّغم من كلّ شيء أنّ روحي غير ملوّثة وحكيمة!

قالت ملكة:

ـ يقول ريلكه إنّ كلّ فرد يولد وفي داخله رسالة.

ثم أشعلت سيكارة ونفخت دخانها في الهواء، وعادت تصغي من جديد.

قال فولكان في انفعال:

ـ يا لها من عبارة جميلة! أظنّني راغب في قراءة تلك الرسالة الآن. أحيانًا أشعر أنّني شخصيّة في رواية ما. شخص ما غير حقيقي. شخص ما متخيّل، وينطبق الشيء نفسه على بيئتي الاجتماعيّة، فقد تعبت من العلاقات القصيرة المدى والضحلة. إنّني في حاجة كي أتعلّم كلّ شيء مرّة أخرى، بيد أنّني أحتاج أيضًا إلى مساعدة، أحتاج إلى بعض الناس الذين يمدّون يد العون، ويرشدونني.

أرسلت ملكة إليه نظرة حزينة.. لا، بل نظرة ملؤها الألم.

وفكّرت أنّها لا تستطيع أن تكون المرأة المناسبة لهذا الرجل، لأنّها هي نفسها نبتة بلا جذور، وراية اعتياديّة تخفق عند هبوب أيّ ريح... وهي غير ملائمة لتؤدّي الدور البنّاء الذي يتوقّعه هذا الرجل من امرأة دائميّة. لهذا، فإنّ اقترابهما المحتمل من بعضهما بعضًا لا يمكن أن يتقدّم على هذا المسار.

يضاف إلى ذلك، لا تستطيع بدورها أن تخبره بأنّها مشبعة بمثل هذا التلوّث. الاختلاف الوحيد بينهما يتمثّل في أنّ ملكة تشاهد الأشياء من موقع أعلى مقارنة بفولكان. وساورها إحساس مرّة أخرى بعذوبة المستحيل التي يتعذّر فهمها. في تلك اللحظة، وصلت السمكة التي طلباها، وانتظرا حتى انصرف النادل.

قالت ملكة:

ـ أعتقد أنّك تبالغ في المشكلات أيّها الأخ، إذْ لا ضرورة تستدعي منك كلّ هذا اليأس وفقدان الأمل.

ـ صدّقيني.. أنا لا أبالغ.

ـ أنت تقول بأنّك تعيش في جوّ مشبع بالخداع العاطفي. عديد الناس يعيشون على هذا النحو، أعداد أكبر ممّا يمكنك أن تتصوّر. كما أنّك لا تستطيع أن تسمّي ذلك خداعًا. إنّه نمط من أنماط التخفّي، مهرب، بل محاولة أيضًا لوقوف المرء على قدميه. أنا شخصيًّا أحيا هكذا إلى حدٍّ ما أيضًا. يضاف إلى ذلك، فإنّ هذه حالة وجوديّة تنتشر انتشارًا سريعًا. هكذا تسير الأمور ونحن نتصوّر أنّ كلّ شيء طبيعي. فنحن ننضمّ إلى حشود الناس عن وعي تامّ. وأعتقد أنّ هذا انهيار حتمي، وحالة مميّزة لمراحل التفكّك. الشيء

الذي يبدو غريبًا لي هو: إنّ الذين يطرحون الأسئلة هم أولئك الذين لا يستطيعون البقاء منفرجي السيقان، والذين هم متورّطون بشكل أو بآخر، لا يبدون أيّ اعتراض. كيف تفسّر أنّك...

ـ إنّني مهتمّ بالأمر، لأنّ الدائرة تضيق من حولي باستمرار. إنّني أقول هذا القول بوصفي من داخل النظام، وإنّني أستند إلى واقع وليس إلى مخاوف الجيل الذي أمامنا. إنّني أشير إلى حقائق ثابتة، هل أناديكِ ملكة أم إيدا؟

ـ في وسعك مناداتي بكلا الإسمين، بأيّهما يبعث الارتياح في نفسك. أتدري؟ إنّني متأثّرة بمقاربتك أو بتفسيرك. ثمّة شخص أُغرمت به قبل عشرة أعوام، وكان يساوره مثل هذا القلق! ولكن لم يتغيّر أيّ شيء، وظلّت بيئة التفكّك والتحلّل والفوضى متواصلة في وقت تزداد أكاذيب جديدة طوال الوقت.

ـ تمامًا. لقد فهمت هذا. ففي حين يستخدم بعض الناس كلمات ومفاهيم جوفاء لأداء دور مريدي الحرّيّة والديموقراطيّة ونماذج المجتمع المثلى، فإنّ الآخرين يهربون بما يحصلون عليه من السرقة. ربّما كان فخًّا إلى حدّ ما. دعيني أوضح لك على هذا النحو. ففي حين نجد بعض الناس نائمين، أو حتى متورّطين عن غير قصد، فإنّ الآخرين يعرضون مسرحيّة مأساويّة من مسرحيّات التفكّك على المستوى العالمي. ليس ثمّة مجال هنا للعنصر الإنساني. إنّ هذه الفوضى الجديدة سوف تتواصل بكلّ قوّة.

ـ إنّني على علم بهذا الخطاب، ولكنّني لست متشائمة مثلك. هذه لعبة غبيّة. فالذين يتفكّكون هم أولئك الذين يعتقدون أنّهم يحكمون العالم. الإمبراطوريّة الرومانيّة نفسها حكمت العالم،

ولكنّها في نهاية المطاف تلاشت من الوجود بسبب من بذاءتها التي كانت بلا معنى.

ـ كنت أودّ رؤية ذلك. حسنًا، كفانا الحديث عن السياسة. ربّما تسبّبت في ضجرك.

ـ لا، ولكنّني أريد أن أطرح عليك سؤالاً. على الرّغم من أنّ هذه هي المرّة الأولى التي نتحدّث فيها أنا وإيّاك حديثًا ممتازًا بكلّ ما في الكلمة من معنًى، إلّا أنّك لم تتردّد في الكشف عن خبايا نفسك الحقيقيّة وخبايا عالمك. لماذا؟

ـ لا أدري. لعلّها الرغبة في أن أوضح لكِ أنّني أعرف وأنّني صريح. ولكن لا يمكن أن يتحدّد السبب بهذا فقط. فأنا لم أتحدّث إلى أيّ مخلوق عن مثل هذه الأمور، ولا إلى أيّ امرأة رائعة الجمال مثلك منذ زمن بعيد. ربّما هذا هو السبب الذي يجعلني قلقًا من كلّ شيء باستثناء الحقيقة.

ـ أفهم من كلامك أنّك تثق كثيرًا بالحقيقة، لكن عليك أن تعيد التفكير بذلك.

ـ فهمت أنّك لست امرأة سهلة. إنّك تغيّرين مجرى الحديث.

قالت ملكة:

ـ لا، فأنا لم أصادف شخصًا مثلك، رجلاً صادقًا وجادًّا منذ زمن بعيد. الحقّ، أنّني مندهشة قليلاً. لا بدّ أنّني لم أكن دمثة.

ثم عضّت على شفتها ومدّت يدها وضغطت على يد فولكان بلمسة سريعة ورقيقة وجذبتها من جديد. وتبادلا نظرات صادقة، وتناولا السمكة في صمت، في حين كانت موسيقى تركيّة هادئة تنبعث في المكان.

قال فولكان:

ـ الآن حان دورك للكلام. أخبريني عن نفسك.

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ أريد أن أعرف كلّ شيء عنك.

ـ إذا تمكّنت من أن أصبح أختك، فسوف تعلم بمرور الوقت، لأنّ المرء لا يستطيع أن يشكل رأيًا صحيحًا عند الحديث أو إبداء الملاحظات عن نفسه. هذا شيء مقبول، ضروريّ أيضًا.

ـ أخت؟ لا، لا أعتقد أنّني سأكتفي بذلك يا إيدا.

رفعت ملكة بصرها، ونظرت إليه نظرة مباشرة.

ـ إذًا ماذا ستفعل؟ أتظنّ أنّنا سنبقى متربّعين على مرأى من الناس مثل حمامتين أختين تحبّ إحداهما الأخرى؟

قال فولكان:

ـ في وسعنا أن نشكّل حرب عواطف. هذه هي المرحلة التي نحياها الآن. إنّها نمط من أنماط الحرب لا يعرفها أولئك الذين لا يملكون عواطف، أولئك الذين فقدوا مشاعرهم وقليلو الإحساس. الحقّ أنّنا بدأنا توًّا، ويروقني ذلك.

ـ حذارِ، فقد تصبحين شهيدة.

ـ ليكن كذلك. . مع بالغ سروري.

تبادلا نظرة طويلة، كأنّ أحدهما مفتون بالآخر. كانت ملكة تشعر بنشوة الرغبة في محاربة عدوّ جبّار، وهذا ما كانت تتوقّعه منذ بعض الوقت، وما كانت تحلم به سرًّا. لم يكن النصر أو الهزيمة بالشيء المهمّ في هذه المعركة. كلّ ما هنالك هو أنّها كانت تفتقد متعة المعركة، وتريدها.

خفض فولكان من بصره، تاركًا التحدّي في عينيْ ملكة يملأ روحه بغتة. ثم شعر برغبة غير متوقّعة لأن يعضّ رقبتها الطويلة والأنيقة، وأن يجعل الدم ينزف منها. كان جسده يشتعل ويتوهّج، فقد حرّر الحبّ نفسه من قيوده بعد أن كان قد حبسه في أعماقه مدّة طويلة.

* * *

عندما غادرا المطعم، رجعا وسارا على امتداد الساحل إلى منطقة بيبك. ثم أخذا سيّارة ملكة من موقف السيّارات.

وقبل أن تذهب ملكة إلى الجانب الآخر من المدينة، قالت لفولكان:

ـ ما تزال أمامك فرصة كي تفكّر في الموضوع. لا تنسَ. فقد تتعبك حرب بعد أخرى.

قال فولكان:

ـ إنّ ما ينتظره كلّ رجل هو أن تهزمه امرأة وتسامحه.

وساوره إحساس بالمقاومة والقوّة مثل الزجاج. ليكن ما يكن.

٩

ذهبت إيلام إلى العمل مشوّشة الذهن، قلقة في صباح يوم الخميس. شعرت ببرودة في داخلها في حين كان النهار دافئًا، وكانت الشمس مشرقة والسماء صافية خارج النوافذ التي لم تفتح بعد. تكلّمت هاتفيًا في تردّد وإعياء مع بعض الزبائن. الشهر في نهايته، وسوف تعلم عن وضعها في العمل في ذلك النهار.

رفع الشابّ الجالس خلف الطاولة المقابلة، والذي لم تتمكّن من معرفة اسمه حتى الآن، رفع رأسه ونظر إلى إيلام وأشار إشارة تنمّ عن سلوك وقح إلى الهاتف الذي كان يرنّ على طاولتها.

وبّخته إيلام قائلة:

ـ نعم، إنّني أسمعه. هل يجب عليَّ أن أردّ من فوري؟

نظر الرجل نظرة طويلة إليها بعينين متشامختين، ثم هزّ رأسه يمينًا وشمالاً، ووضع يده على أذنه ورفعها كأنّه يريد أن يقول لها: هل أنت صمّاء؟

ـ لا ، لست صمّاء، ولكن يبدو أنّك أنت الأصمّ؟

التفتت كلّ الرؤوس والعيون الوجلة إلى حيث كان الرجل وإيلام يجلسان. وانفجر أحدهم بغتة! لقد بدأ المزاح. لكن لا. خفض الرجل من رأسه وراح يحدّق إلى الشاشة. رنت إيلام إلى الهاتف الذي توقّف عن الرنين، وهنا ظهر المدير قرب الباب ثم توارى عن الأنظار. اللعنة! لم يكن ذلك ضروريًا. فهي لم تردّ من فورها على الهاتف، بل كانت تركته يرنّ أربع أو خمس مرّات لأنّها لا تستطيع العمل بسبب كلّ هذه النداءات القادمة. ثمّة عشرون شابًّا وامرأة في هذه القواطع من الدائرة. نهضت قليلاً وجالت ببصرها من حولها. إنّ هؤلاء الأغبياء يتحدّثون إلى الزبائن بأصوات خفيضة لا تكاد تكون مسموعة حتى على الهاتف. وكانوا يسدّون إحدى آذانهم بأصابعهم كي لا يطرق سمعهم ضجيج الطابعة في المكتب. في القاطع الآخر، ثمّة رجل متعجرف، حليق الرأس، وذو وجه يشبه لون نشارة الخشب. وإلى جانبه فتاة ذات رأس صغير ولكنّه بدا كبيرًا بسبب شعرها المنتفخ الأحمر اللون. وإلى مسافة أبعد قليلاً، جلس رجل ضئيل الجسم ذو عينين كأنّهما خرزتان، بدا وكأنّه يعاني صعوبة في التنفّس. كان بعض هؤلاء الناس قد مضى على خدمتهم في هذا القفص عشر سنوات. وثمّة آخرون مضت على خدمتهم خمسة أو ثلاثة أعوام. بدوا غاضبين أو متوتّرين لأنّ شعورًا كان يراودهم بأنّهم قد حُكم عليهم بالجلوس خلف مناضد الكتابة حتى لو اشتغلوا في جدّ. لا بدّ أنّ الطموحين منهم قد توقّفوا عن الاهتمام والتفكير في هذا الحال، أو ربّما استكانوا إلى الهدوء عن وعي أو لاوعي. صفتهم المشتركة هي فقدانهم الأمل.

وتساءلت: كيف يعيش هؤلاء البشر؟ ممّا لا ريب فيه أنّ ثمّة من يهرع إلى منزله من فوره بعد مغادرة هذا المكان، أو من يصبّ جامّ غضبه على أطفاله الذين ولدوا قبل موت السائل المنوي، أو ثمّة من يذهب لتعاطي الشراب أو يسترخي ويتحرّر من التوتّر العصبي باللجوء إلى وسائل أخرى. وهناك أيضًا المضطربون عقليًا، الذين خطّطوا لارتكاب جرائم قتل، وكلّ أنواع المنحرفين. وفكّرت إيلام: يا له من ضياع وخراب! ففي إمكان هؤلاء الناس أداء أعمال أخرى. يمكنهم مثلاً أن يبيعوا الليمون أو السميط في باحة السوق أو يعزفوا الموسيقى على آلة الهارمونيكا في قطار الأنفاق، أن يعملوا نادلين في المشارب والحانات أو أن يبيعوا تذاكر كرة القدم في السوق السوداء!

بماذا يفكّرون؟ بإجازاتهم؟ سواحل البحر حيث يدهنون أجسادهم بالزيت ويستسلمون للنعاس تحت أشعّة الشمس؟ قسط السيّارة أو بطاقة الائتمان؟ هل هم سعيدون؟ ما مفهومهم عن السعادة؟ ألم يشعروا بضرورة التعبير بالكلمات عن الأشياء التي يظنّونها صحيحة؟ ثم ما الذي دفعهم إلى استخدام لغة الجسد وحدها؟ الحقّ، هم ليسوا مضطرّين إلى أن يطيعوا الأوامر ويمتثلوا للقوانين على نحو أعمى. ولو أرادوا، لأمكنهم في سهولة أن يدمّروا نظام المؤسّسة برمّته، فهذا النظام لا يمثّل شيئًا كي ترتعد فرائصهم أمامه. إنّ هذا الضغط الهائل يدخل ضمن الإهانة والاستغلال، وأصبح هؤلاء الناس خاضعين ومذعنين أكثر فأكثر بدلاً من أن يثوروا ويتمرّدوا. يا لهم من مساكين! ليس هم وحدهم... لأنّ ثمّة ملايين البشر في هذا العالم الذين لم تسنح

لهم الفرصة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم من خلال الكلام!

عند اقتراب النهار من نهايته، استدعتها مديرة القسم، وكانت امرأة في الثلاثينيّات من عمرها واسمها دورا وولر، ذات وجه طويل يخلو من أيّ عاطفة أو رحمة، وشفتين رقيقتين، وسحنة تنمّ عن الأسى. أشارت إلى إيلام كي تجلس، وفي لحظة من الزمان لاح على وجهها شبح ابتسامة غامضة قبل أن تضع قناع الحزن المصطنع. وضيّعت الوقت سدًى، وتلكّأت برهة وجيزة متظاهرة بدراسة إضبارة أمامها، قبل أن ترفع رأسها وتنظر إلى إيلام. كانت عيناها الزرقاوان الرائعتان تبدوان وكأنّهما الجانب البريء الوحيد فيها. لعلّها عمدت إلى إظهار الصلابة في سلوكها كي تبقى على قيد الحياة وتدير الأعمال وتقرّها. ابتسمت إيلام ابتسامة حذر.

ـ آسفة. إنّنا لن نستطيع العمل وإيّاكِ يا موتينا خانم.

ثم ران صمت طويل. كان كلام المرأة قاسيًا لا يرحم، ولكنّه باتّ وقاطع.

سألت إيلام كأنّها تبذل محاولة أخيرة يائسة:

ـ لم لا؟

ـ تجربتك غير كافية، فقد لاحظنا أخطاء كثيرة في عملك.

ـ إنّني أتوخّى جانب الحذر دومًا.

ـ إنّ عملك يتطلّب مقدارًا أكبر من الاهتمام والمرونة. الأهمّ من هذا، أوضح زملاؤك في العمل أنّك لا تصلحين للعمل الجماعي. يمكنك التوجّه الآن إلى قسم الأفراد لتسلّم مرتّبك المتراكم، وقد أصبح عملك منتهيًا منذ الغد.

ثم وضعت القلم الذي كانت تمسك به على منضدتها.

قالت إيلام بنبرة متشامخة:

ـ مرونة؟

ـ آسفة جدًّا، فالنقاش لن يغيّر شيئًا من النتيجة.

جملة بسيطة وقرار واضح لا يرقى إليه أيّ شكّ. ليس ثمّة ما يقال بعد الآن. فنهضت إيلام من مقعدها وخيّم عليها صمت يكسبها شرفًا وهي الخاسرة. ثم تفوّهت بشيء ما كأنّها كانت تريد أن تسمع هدوء صوتها:

ـ نعم، مع السلامة يا سيّدة وولر.

ـ أتمنّى لكِ التوفيق.

التوفيق؟ يا له من عطف!

وبينما كانت تسير في الممرّ، شعرت بألم يسري في كلّ أنحاء جسدها، وتوقّفت عند نافذة مغلقة لا يمكن فتحها، ونظرت إلى أسفل متسائلة إن كان كلّ ما في الخارج يتصاعد منه الدخان. لا، كلّ شيء على ما يرام، من دون عناية أو ثقة، كلّ شيء على حاله. البوسفور والجسر والسيّارات العابرة... البيوت الجميلة وسط الخضرة اليانعة، الطريق الساحلي، المراكب، وناقلة نفط...

أرادت أن تبكي. فها هو مستقبلها تنقطع به السبل من جديد. لا تصلحين للعمل الجماعي؟ نعم، ولكن لم يمنحها أحد المجال الذي تتمكّن فيه من معرفة زملائها والبدء بالعمل وإيّاهم. كما أنّهم لم يمنحوها الوقت كي تفهم مجريات العمل وإمكانيّات التواصل. كانت تعرف أنّها واحدة من أشدّ الناس الذين عرفتهم دأبًا ومواظبة

ومنهجيّة في الحياة العمليّة. كانت واقعيّة وهادئة. ربّما كانت تفتقر إلى الابتكار والإبداع اللذين وفّرتهما للكتابة. ممّا لا ريب فيه أنّ أكبر أخطائها هو أنّها ملتزمة بالمبادئ، وأنّ لها شخصيّة مستقلّة وقدرًا من المعرفة التي تعطي الانطباع بأنّها متغطرسة. وقد شعر الناس بهذه الصفة، فتملّكهم إحساس قاس بالغيرة منها ببساطة، لم تستطع أن تتصرّف وكأنّها بلهاء ومتزلّفة سهلة الانقياد.

* * *

بعد أن تسلّمت مرتّبها وغادرت مبنى العمل، اتّجهت إلى حديقة على الساحل وجلست على مصطبة وأرخت بصرها إلى البحر مدّة طويلة من الزمان. وفكّرت في أنّها لدى عثورها على وظيفة جديدة والبدء بعمل مرّة أخرى، فإنّها لا بدّ أن تسير في طريق مغاير. سوف تغمض عينيها عن الأشياء المخفيّة عنها حتى لو تسبّب ذلك في جرح مشاعرها. وسوف تصدّق كلّ ما يُقال لها وتتصرّف على أنّها واحدة من السرب. وسوف تكون واعية لكلّ شيء ليلاً، ولكنّها سوف تعيش كفتاة بلهاء ومعتوهة تمامًا أثناء النهار، فتاة مرحة ومقتدرة وخالية من الهموم...

كانت النوارس تحلّق في دوائر من فوق البحر، كما قطع خيط الدخان الأبيض الطويل الذي خلّفته طائرة غير مرئيّة السماء وكأنّها سكّين. طرق سمع إيلام طنين حياة المدينة ينساب من خلفها، يدقّ مثل دقّات قلب. الحياة مستمرّة. ولكنّها لا تسير إلى أمام، أو إلى المستقبل، بل كانت تتراكم، وتتكدّس حيث هي. وبغتة تذكّرت القاعدة: لا يمكن أن يوجد شيء من دون تخيّل وجوده.

لبثت في المنزل أسبوعًا، تقضي جلّ وقتها تقريبًا أمام

الحاسوب وطالعت صفحات مواقع تصيّد الكفاءات وتركت سيرتها الذاتيّة على كلّ تلك المواقع. قرأت الإعلانات الخاصّة بالموارد البشريّة والأعمال وأرسلت استمارات التقديم لها. لم تجد أعمالاً كثيرة تناسبها، فآثار الأزمة الاقتصاديّة ما تزال قائمة، وغدا آلاف الناس بلا عمل والأجور متدنّية جدًّا. وإذا ما توخّت الحيطة والحذر، فسوف تتمكّن من تدبير أمورها الماليّة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على أكثر تقدير. كما أنّها سوف تعتمد على بطاقة ائتمانها إلى حدٍّ ما، ولكن ديونها باتت كثيرة منذ الآن!

جذب انتباهها إعلان، فقرأته ودوّنت رقم الهاتف: مطلوب موظّفات من حملة الشهادات الجامعيّة!

سيّدات ممّن لهنّ معلومات ثقافيّة وناجحات في العلاقات الإنسانيّة وفي سنّ يتراوح من ١٨ ـ ٢٥ سنة.

إذا عملتنّ معنا فقد تحصلن على أجر مقداره ٥٠٠ ـ ٧٥٠ ليرة تركيّة للجلسة الوحدة.

(فعلى من تجد نفسها اهتمامًا بالوظيفة الاتّصال على رقم الهاتف ٠٢١٢٣).

لعلّهم يبحثون عن وجوه طبيعيّة للظهور في إعلانات تلفازيّة أو موديلات لشركات منسوجات من الدرجة الثالثة. نعم، لكن ما ضرورة المعلومات الثقافيّة في مثل هذه الأعمال؟ ربّما أدخلوا الأزياء أو الإعلان في الفنون والآداب كي يعرّفوا بالوظيفة إلى حدٍّ ما. ثمّة عديد الفتيات اللواتي رمين شهاداتهنّ الجامعيّة جانبًا ورحن يكسبن مالاً وفيرًا في مثل هذه الأعمال. كان يروق إيلام أن

تجرّب، ولكنّها لم تكن تؤمن بأنّها جميلة. الأهمّ من هذا هو أنّ طولها البالغ ٦٨ ر ١ م لا يكفي.

فكّرت قليلاً، وتنبّهت إلى أنّهم لم يأتوا على ذكر الطول في الإعلان. يُضاف إلى هذا، يستطيع خبراء التجميل المهنيّون أن يجعلوا من أكثر الوجوه العاديّة وجوهًا جميلة وملائمة للتصوير من وجهة النظر الجماليّة. المهمّ أن تمتلك الفتاة القوام المناسب الذي يبدو جيّدًا أمام الأضواء. وفي هذه الناحية، تجد إيلام نفسها محظوظة.

وقفت أمام المرآة وتفحّصت وجهها موضوعيًّا وكأنّه وجه فتاة غيرها. كانت صاحبة وجه جميل وجذّاب، ومن شأنه أن يبدو أكثر جمالاً تحت الأضواء المناسبة. فقرّرت أن تتّصل هاتفيًّا لتتبيّن معالم الوظيفة.

زارت مواقع الشبكة العنكبوتيّة حيث كانت قد كتبت عن «المستقبل» تحت الاسم المستعار «البقعة الصفراء»، فوجدت بضعة ردود أخرى على مقالتها، وكان أحد الردود قصيدة رديئة، وردّ آخر يطلب الإذن باستخدام مقالتها في كتابة أطروحة جامعيّة. كما وجدت رسالة مثيرة للاهتمام موقّعة بالاسم المستعار «أصفر زعفراني». وكان صاحب هذه الرسالة يبغي الاتّصال المباشر.

البقعة الصفراء

في بعض الليالي يقف امرؤ ما وحيدًا على ساحل بحر مظلم، وينظر إلى السماء الشاسعة ويشعر بالسعادة تغمره عندما يرى كلّ النجوم المألوفة في مكانها الاعتيادي، ولكنّه يلاحظ فجأة أنّ ثمّة نجمة أخرى بعيدة، ليست لامعة أو كبيرة كبقيّة النجوم، تغمز له. فيستبدّ به الفضول، أم هل هو شهاب؟

إنّني فضولي بشأنك على هذا النحو. وقد أعجبتني شجاعتك وكتابتك. لديّ إحساس يراودني بأنّني أنا من وجّه الدعوة لك. أنا في حكاية أخرى، ويصعب عليّ أن أوضّح بأنّ حالة ما يمكن أن تتضمّن حالة أخرى مختلفة عنها تمامًا.

لعلّي فقدت حاسّة سمعي موقّتًا. وقد التقيت في هذه المياه مؤخّرًا من لديه روحًا صافية. إنّني لا أريد أن أمرّ بك مرور الكرام.

وإنّني أرغب في أن أكتب إليك شخصيًّا.

رجلاً كان أو امرأة، مهما يكن، بدا وكأنّه ينادي من كوكب آخر. ويبدو أنّه متعجرف وله أسلوب أنثوي. لا بدّ أن يكون للاسم المستعار الذي يحمل صفة الاصفرار إشارة ما. لقد اختارت الكاتبة اسمها المستعار ليكون على اسم النقطة الحسّاسة التي تمنح العين نقطة الارتكاز. ما معنى اسمها / أو اسمه؟ فالأصفر الزعفراني لون جميل ويرمز إلى الشمس والصحّة ويقظة الأرض والخصب، ويلائم مفهوم الإشراق ويشير إلى التجديد والجاذبيّة والبهجة والانسجام، باختصار، إلى الدفء والنماء. إنّ الشخص الذي كتب لها امرأة على الأرجح، وتريد التعبير عن وحدتها، وفي الوقت نفسه، عن فرحها بالحياة.

ليس ثمّة ما يقتضي الإسراع في الردّ. فسوف تكتب رسالة خاصّة بعد بضعة أيّام، فقد راقتها رسالتها / رسالته من دون بقيّة الرسائل. وشعرت بقدر من الابتهاج. نعم، سوف تكون مراسلة هذا الشخص. من تراه / تراها تكون؟ جميل جدًّا أن يكون أحدهما فضوليًّا نحو الآخر، وأن يمدّ في هذا الفضول إلى وقت طويل من دون أن يتعرّض لخيبة أمل. كما أنّ المرء يشعر بالسعادة عندما يمدّ

يده في سلام لصداقة شخص لا يعرفه، وأن ينتظر في حالة وعي يبعث على السعادة في مكان تمتزج فيه مياه أرض الأحلام...

«أنا في حكاية أخرى...» حكاية أخرى. جميل. ربّما كان دخوله حكاية شخص آخر مدعاة لتغيير حكايته.

* * *

رنت إلى المرآة من جديد قبل أن تأوي إلى سريرها. ثمّة فراغ صغير وحزين حلّ محلّ وجهها هذه المرّة، وبدت كأنّ صورتها غامت لحمايتها من الأذى الذي قد يُلحقه العالم بها. أذًى؟ لا أحد يمكنه إلحاق الأذى بها. ماذا تحتاج غير بطّانيّة كي تبقى على قيد الحياة؟ ربّما يستحسن أن تتخلّى عن كلّ شيء ترتبط به، وعندئذٍ ستتخلّص من هذا الصراع المؤلم الذي هدَّها. وسوف تكون قادرة على الاستمرار في العيش من دون أن تضطر إلى فتح كفّها وتتذلّل، من دون رعشة ومن دون جرح مشاعرها.

جالت ببصرها من حولها... هذا الأثاث الرثّ، وهذه الستائر القطنيّة المتقلقلة، وهذا المصباح الباهت المتدلّي من السقف في نهاية سلك كهربائي، وهذه الجدران العارية التي تبدو منفرة إلى أبعد الحدود... في مثل هذا المكان، سهل جدًّا على المرء أن يفقد السيطرة على الأشياء التي تجعله واحدًا من البشر. وفي تلك الحالة، ما الذي تملكه كي تخاف أن يضيع منها؟ ليس صعبًا جدًّا أن ترى شيئًا ما من شأنه أن يغذّي العقل، وأن تشعر بالألم وأن تلامس الحياة، لكن إن كان ثمّة مستقبل، فينبغي أن يكون مستقبلاً يستحقّ التضحية بالنفس.

احتست كأسًا من الحليب. وفكّرت لو أنّها امتلكت زجاجة من النبيذ. كانت قد تعلّمت كيف تحتسي النبيذ عندما كانت تلتقي سيد. في بعض الأحيان، كانت مخاوفها تراودها من جديد، ووثبت ـ من دون وجل ـ من فوق المرتفعات الحمراء الساخنة حيث تتسكّع الشياطين، لتسقط في أعماق الجحيم. وطويت صفحة جريمتها. ولم تعد ملائكة الخطيئة تنظر إليها لبعض الوقت الآن، مثل ملائكة الرحمة والعطف... إنّ الحبل السميك الذي يربطها بالله لم ينقطع تمامًا، لكن ذلك الجزء من وعيها لم يعد يؤمن بالحكايات الممنوعة، وراح يتحدّى أولئك الذين يضعون العقبات بينها وبين الله. وبدأت تتحدّث إليه من دون علم ـ من دون اهتمام ـ إن كان يسمعها أم لا. بصوتها...

لا تشغل نفسها بالوجود، بل بأن تكون لا غير.. هذا هو الشيء المهمّ، هذا هو المكان حيث تقف.

عدّلت من وضع وسادتها وأوت إلى فراشها. وتركت نفسها مستسلمة لنعومة اللحاف. الليالي تزداد برودة، وعمّا قريب ينبغي لها أن تدفّئ الغرفة. أسهل الحلول هو مدفأة غازيّة. وتساءلت: كم ستكلّفها المدفأة. وتذكّرت الإعلان: خمسمائة ليرة في الجلسة الواحدة... على أيّ حال، لن يجدوها مثيرة للاهتمام، ولهذا لن يعطوها سبعمائة وخمسين ليرة. لا بأس، لأنّ مبلغ الخمسمائة ليرة جيّد جدًّا أيضًا. غير أنّها يجب أن تعرف أوّلاً ما طبيعة تلك الجلسات.

* * *

في اليوم التالي، اتّصلت برقم الهاتف المثبّت على الإعلان،

وحصلت على موعد وعلى العنوان. الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة... بعد غد... المكان الذي ستذهب إليه يقع في الدور الثاني من عمارة سكنيّة تضمّ متجرًا للثياب في الدور الأرضي في ماتشكا.

عندما وضعت سمّاعة الهاتف في موضعها، راودها إحساس بالاهتياج الممتزج بنفاد الصبر. كانت قد استيقظت في ذلك الصباح مذعورة، وشعرت برخاوة ولزوجة داخل رأسها مثل وعاء خبز مملوء بالعجينة. ما الذي يتعيّن عليها أن ترتديه كي تبدو مقبولة. هرعت إلى خزانة الثياب وبحثت علّها تجد ما يناسبها... ثياب رخيصة، تفتقر إلى الشكل... فهي لم تتمكّن من شراء أيّ شيء جديد لها على مدى العام المنصرم.

في البدء فكّرت في ارتداء بنطال، ولكنّها قرّرت أن ترتدي تنّورة لأنّها أجمل، خاصّة أنّ ساقيها جميلتان، وعليها أن تكشف عنهما بدلاً من إخفائهما. من جهة أخرى، لا ينبغي لها أن تبدو متكلّفة. سوف تبذل قصارى جهدها من أجل الحصول على هذه الوظيفة. ألا يمثّل الناس العاديّون أدوارًا في أشرطة تجاريّة؟ هل الفتيات اللواتي يظهرن لترويج مساحيق الغسيل وحفّاضات الأطفال ومناديل الطمث الصحّيّة والأغذية بأفضل منها؟ وضعت جانبًا تنّورة سوداء وقميصًا ضيّقًا بلون العاج وبرقبة مربّعة الشكل. كان كعبا حذائها متآكلين، لهذا، فهي مضطرّة إلى إصلاحهما.

في تلك الليلة، حفّت حاجبيها وأزالت الشعر غير المرغوب فيه من جسدها، واهتمّت ببشرتها وأعدّت لنفسها قناعًا قوامه العسل والليمون.

في صباح يوم الخميس، استعدّت للذهاب إلى مزيِّن النساء الواقع في الشارع الرئيس. وفكّرت إن كانت تريد أن تغيّر لون بعض خصلات شعرها، لكنّها عدلت عن الفكرة وآثرت أن يظلّ شعرها على حاله، طبيعيًّا. وعندما سارت على امتداد الشارع ووصلت الطريق، تذكّرت سيديّة تقول لها: إذا أغلق باب، فإنّ آخر سوف يُفتح. رفعت بصرها إلى السماء. وفكّرت: يا له من عالم رمادي مثقل بالغيوم.

كانت حتى اليوم تشعر باليأس والإحباط عندما تشاهد فتيات في مثل سنّها وهنّ يسرقن الحاجيات باستمرار. وشكرت الناس الذين كانوا يمرّون من دون الاصطدام بها، والسيّارات المارّة من دون دهسها على الطريق المزدحم. كانت كلّ خطوة تخطوها مرتبكة، وشعرت أنّها فقدت توازنها، وتوشك أن تهوي من فوق قمّة جرف عالٍ.

فكّرت في الفتيات اللواتي يعملن عارضات ويتصنّعن في الظهور ويشمخن في أنوفهنّ بحضورهنّ الذي يثير الدغدغة أو بغيابهنّ المريب، ليجذبن أنظار كلّ فرد، أكثر حيويّة وفتنة وجاذبيّة. أمّا هي، فبعد كلّ ما مرّت به من أحداث، فقد انقلبت إلى فتاة واجمة وكئيبة وباردة جنسيًّا ومثيرة للملل.

توقّفت أمام واجهة زجاجيّة. وفكّرت: هذا القميص الوردي لا بأس به. لا، لن تلبس ثيابًا من دكاكين الفقراء بعد اليوم. نعم، ولكن. . . ماذا ستفعل إن لم ترقهم؟ كانت هائمة في دنيا الخيال. من السابق لأوانه أن تكون مفعمة بالآمال. نعم، من السابق لأوانه كثيرًا.

تركت حذاءها الأسود عالي الكعبين لإصلاحه. وكانت قد أهملت العناية بشعرها منذ أسابيع، وقد أصبحت حافّاته متقصّفة. دخلت محلّ تصفيف الشعر وجلست فوق أحد الكراسي ونظرت إلى نفسها. قرأت وجهها تحت الأنوار المثبّتة على كِلَا جانبي المرآة ممتقعًا قليلاً ومتغضّنًا. وفكّرت في أنّ القلق هو السبب في ذلك. على أيّ حال، كان أسبوعها سيّئًا.

قالت مساعدة مصفّف الشعر:

ـ حافّات شعرك متقصّفة، فهل نقصّ قليلاً منه؟

افعلي كلّ ما هو ضروري، ولا بأس في جعله قصيرًا إلى حدٍّ ما. أريد أن يبدو شعري طبيعيًّا، كما أريد تسوية أظافر يدي.

توقّفت قليلاً أمام بيت أختها قبل أن تعود إلى المنزل، ولكنّها لم تجدها في البيت، إذْ ما زالت في عملها حتى الآن.

* * *

أنفقت المساء في الاستعداد. وبعد أن شاهدت شريطًا سينمائيًّا على شاشة التلفاز، تصفّحت الإنترنيت على غير هدًى حتى ساعة متأخّرة من الليل. ثم أعادت قراءة الردّ المرسل إليها من أصفر زعفراني. قرّرت أن تجيب في هدوء وعلى نحو غير مباشر. وبدأت بضع مرّات، وكانت مختلفة في كلّ مرّة. ثم راحت تكتب التالي:

أصفر زعفراني

يسرّني كثيرًا أنّك تتمنّى أن تعرف من أنا وأن تريد مراسلتي شخصيًّا. كانت رسالتك مهذّبة، وكلماتك منعشة لروحي.

هل تظنّ أنّ مراسلتي فكرة جيّدة؟ من جهتي، لديّ بعض الشكوك.

فأنا لا أدري إن كنت بحاجة إلى شخص غريب.

أنا لست شجاعة بالقدر الذي تتصوّر. ومن الصعوبة عدم الشعور بفقدان الأمل في وقت يمرّ فيه الزمن سريعًا، متغيّرًا طوال الوقت، فتنزلق قارّات وتولد نجوم وتموت. إنّني بلا أمل لأنّني قد لا أستطيع أن أحقّق أيّ شيء سوى التوقّف عن الحياة في هذا العالم القاسي، حيث تباع فيه وتشترى بلايين الأشياء والبشر من دون توقّف.

مساء بارد ومطير. لا أملك مدفأة، أشعر بالبرودة إلى حدٍّ ما. في مثل هذه الأمسيات، أشتاق إلى الابتسامة التي وُلدت من دون أن أراها على وجهي. وفي الآونة الأخيرة، رحت أرى أشياء لم أستطع مشاهدتها بوضوح من قبل.

لو أردت أن أخبرك عن حياتي، فهي سلسلة اعتياديّة من أحداث بائسة تستحقّ الازدراء. لكن على الرّغم من ذلك، فإنّني أعلم أنّه لو كان ثمّة مستمع، فإنّ إنسانًا اعتياديًّا جدًّا يستطيع أن يتحفه بالأسرار. لهذا السبب تجدني استخدم الأداة التي أنادي بها عليك بوصفها لوح كتابة، وفي حين أمارس الكتابة، فإنّني أفكّر في أنّ الحياة ليست مغامرة بل محاكاة ساخرة وسخيفة.

ينبغي لي أن أكلّمك عن نفسي كي لا أوقفك عن التفكير بماهيّة شخصيّتي. فأنا غريبة عن المدينة وليس لديّ عمل ولا مال دفتر عناوين. ليس ثمّة ما أندم عليه في حياتي الماضية، ولكنّني أُصاب بالإرهاق والتعب إذا ما تذكّرتها.

إذا كنت امرأة، فأنا أيضًا امرأة لسوء الحظّ. ولكن إذا كنت رجلاً فعليك أن تتذكّر بأنّني لا أكتب لك هذه الرسالة من أجل المزاح أو فتح الباب أمامك لممارسة الجنس. إنّ الحبّ لا يكتسب معناه إلّا من خلال

منظور الماضي والمستقبل، ويتحوّل إلى قوّة جبّارة مكمّلة ويساعدنا في العثور على طريقنا. أمّا ما خلا ذلك فليس سوى اغتراب تامّ.

ربّما في إمكاننّا أن نتواصل إذا ما تخلّيت عن سلوكك المتعالي إلى حدٍّ ما.

إيلام

استيقظت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وكانت قد راودتها كوابيس معقّدة ومظلمة في تلك الليلة، ولكنّها لا تتذكّر أيًّا منها. على أيّ حال، لقد تركت تلك الكوابيس فيها خوفًا أعمى وتشاؤمًا لا أساس له. نظرت إلى المرآة عندما كانت تنظّف أسنانها. كانت بشرتها ناعمة وبرّاقة مثل بشرة طفل رضيع. لقد تغذّت على تطهّر وعناية كاملتين حتى باتت في رقّة الحرير.

وفي خارج البيت، كانت الشمس اللطيفة مشرقة، ترسل ظلالاً رقيقة على طقس الخريف الكابي. وقد ذكّر إحساس إيلام بالبرودة في مثل هذا اليوم الرائق بأنّها بحاجة إلى تدفئة في المنزل. ارتدت كنزة صوفيّة سميكة وتناولت فطورها في عجالة.

لم يكن شعرها قد أعجبها في اليوم السابق، لأنّ تسريحته كانت مبالغًا فيها، ممّا دفعها إلى أن تعيد تمشيطه من جديد. ثم غيّرت من لون صبغ أظافرها وجعلته لونًا طبيعيًّا وأزالت اللون الخمري الذي كانت مطليّة به قبل يوم واحد. وفكّرت في نفسها: إنّني ما زلت توّاقة إلى أشياء بعينها وكأنّني فتاة ساذجة. ولحسن الحظّ، سرعان ما عوّضت عمّا فاتها.

لم يسبق لها أن أخذت جمالها على محمل الجدّ. ربّما لم

تشعر بضرورة ذلك لأنّها لم تغرم بأيّ شخص. وكانت بدافع الخوف والكبرياء اللذين لا ضرورة منهما قد أخفت الأجزاء الجميلة من عالمها الداخلي ومن طبيعتها. ربّما كانت الإخفاقات التي صادفتها في حياتها المهنيّة تعود إلى هذا السبب. ولا بدّ أنّ خجلها البليد، وضجرها وسلوكها الذي ينمّ عن لامبالاة قد أوقعت كلّ النفور والاشمئزاز في نفوس الناس الذين اشتغلت وإيّاهم.

يتعيّن عليها أن تتغيّر لكي تدفع ثمن فشلها، فاضطرت إلى إظهار أنوثتها الدفينة، الأنوثة التي لم تمنحها حتى الآن إلّا لسيد. هذا هو المهمّ. الجمال هو أهمّ شيء في محيطها الاجتماعي. وقد فقدت قيمتها ومصداقيّتها تلك القيم التي عدّتها يومًا ما مقدّسة، وعليها أن تتأقلم مع العالم بدلاً من أن تندب حظّها وتجري وراء أمل واهم ووعود لا تتحقّق.

فرغت من ارتداء ثيابها ووقفت أمام المرآة، وباعدت قليلاً بين ساقيها اللتين لاحتا أطول من السابق بسبب الكعبين العاليين، واتّخذت موقفًا نموذجيًّا من مواقف الفتيات في الصور. رنت إلى نفسها، فلم تتمكّن من العثور على شائبة، بل على العكس من ذلك، كانت فاتنة الجمال، على درجة كبيرة من الجاذبيّة التي جعلت جسدها لا يتناغم والاكتئاب الذي يسري في روحها.

وعلى حين غرّة، شعرت بخفقان مفاجئ وتعب هائل. فرمت حذاءها جانبًا وتهالكت من فوق حافّة السرير. لا، إنّها لا تستطيع أن تضحك على نفسها بعد اليوم. كانت تدرك تمامًا ما كانت تعدّ لنفسها.

إنّها ليست على تلك الدرجة من السذاجة، ففي الإمكان أن

تتطوّر الأمور في اتّجاه لن تستطيع من بعد ذلك السيطرة عليها، فإذا كان ما حدث ينطوي على خديعة واحتيال، ولا يخلو من البذاءة، وإذا كانت الأدغال قد ازدادت تشابكًا أمامها، فإنّ عليها أن تقرّ وتعترف أمام نفسها بما تعدّ لنفسها.

تقلّص وجهها بسبب يأسها الفظيع. لا تذهبي. أنت تعرفين ماذا سيحدث إذا ما ذهبت. يجب ألّا تذهبي! لا، لقد عشت كوارث ومصائد لا أوّل لها ولا آخر، وليس من سبب يدفعك إلى الذعر. هيّا، اذهبي، اذهبي وسترين!

* * *

عثرت على المحلّ بعد بحث لم يدم طويلاً، وكان يحتلّ الدور الأرضي من عمارة سكنيّة مطليّة باللون الأبيض ومؤلّفة من خمسة أدوار. وكان المحلّ ضيّقًا وطويلاً وفيه نافذة بسيطة. وثمّة ثياب اعتياديّة للشبّان، مختلفة في نوعها وتنمّ عن حسن ذوق. وقرأت على النافذة الجانبيّة كلمة مود اسكورت مكتوبة بخطّ مذهّب. دخلت وسألت عن جالي خانم. فعمدت مساعدة شابّة إلى إجراء اتّصال هاتفي، ثم قادتها إلى مصعد في الجزء الخلفي من المكان وأشارت لها بالصعود إلى الدور الأوّل.

أرخت إيلام بصرها إلى هيئتها في المرآة المظلمة المثبّتة في المصعد، فتنبّهت إلى أنّها لم تضع أيّ مساحيق تجميل حتى تبدو أصغر سنًّا، وتمنّت لو وضعت شيئًا من هذه المساحيق حتى تبدو وجنتاها أكثر تورّدًا. وعندما خرجت من المصعد، وجدت نفسها في غرفة فسيحة تغطّي أحد جدرانها مرآة كبيرة. وسرعان ما أدركت أنّ هذا المكان رائع. فأخذت نَفَسًا عميقًا، وعلت ثغرها ابتسامة رقيقة

وانتظرت. وعلى حين بغتة، تذكّرت أنّها لم تعثر لها على اسم مختلف. يا الله! يا لقلّة خبرتي! الاسم إيلام لا ينفع. لا، إيلفان؟ نعم، اسم جميل.

تقدّمت منها امرأة شابّة، فارعة القدّ، شقراء، وابتسمت لها وأخذت منها معطفها وطلبت منها الجلوس والانتظار قليلاً، ثم توارت من وراء أحد الأبواب. المكان الوحيد المخصّص للجلوس هو أريكة صينيّة أنيقة مغطّاة بمادّة ذات لون أحمر غامق. فتربّعت من فوقها في لطف وعناية. ثمّة موسيقى كلاسيكيّة هادئة تنبعث في المكان، والأضواء اللطيفة تتلألأ من السقف. كانت على الجدران بعض اللوحات الانطباعيّة. ورأت على منضدة من المناضد كرات من حرير أو من نسيج مطرّز، بألوان مختلفة، سائبة النهايات المتدلّية من فوق الأرض، ومتداخلة في انسجام أمام الأريكة. وثمّة دمية ثياب بالقرب من الشاشة، وُضع عليها ثوب سهرة قصير مصنوع من قماش الشيفون الورديّ اللامع ومزيّن بأشكال يابانيّة.

وكانت أرضيّة الغرفة مفروشة بسجّادة سميكة ذات لون بنّي فاتح ما جعل حذاءها يبدو رخيصًا وقبيحًا جدًّا في نظرها، رشقت النافذة الوحيدة في الغرفة المغطّاة بستائر من قماش التول السميك، ولاحظت العين الاصطناعيّة وهي العدسة المثبّتة من تحت طبقة الجصّ السميكة على امتداد جانب السقف. ثم جالت ببصرها من حولها، فشاهدت عينًا أخرى في ركن الغرفة وفي الجانب الآخر منها. إنّها مراقبة!

في تلك اللحظة، ظهرت المرأة الشقراء ثانية وطلبت من إيلام أن تتبعها، وسارتا في ما يبدو أنّه مدخل شقّة، ووصلتا إلى باب بعد

أن اجتازتا ممرًّا قصيرًا معتمًا. ابتسمت المرأة لإيلام ابتسامة عريضة وكأنّها تبغي تشجيعها، وفتحت الباب.

كانت الغرفة مترامية الأطراف، حسنة الإضاءة بفضل النور المنبعث من خلال النوافذ الكبيرة المطلّة على الطريق. أغلقت إيلام الباب في هدوء وانتظرت. كانت هذه الغرفة مزيّنة بالاهتمام نفسه الذي زُيّنت به الغرفة السابقة. ثمّة امرأة ذات شعر بنّي وعينين خضراوين واسعتين وشفتين غليظتين في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، اتّخذت مجلسها من وراء مكتب مجاور للنافذة. ولاحظت إيلام أنّ المرأة نهضت من مكانها وتقدّمت في اتّجاهها. كانت مكتنزة قليلاً، ولكنّها فارعة القدّ وترتدي بنطالاً أسود أخفى زيادة وزنها، وسترة بلون القرفة، كما ثبّتت دبّوسًا من الماس على ياقة قميصها الحريري. كانت جذّابة.

قالت المرأة:

ـ لنجلس هنا.

ثم أشارت إلى أريكة بيضاء ومريحة. وكانت مزوّدة بوسائد بلون التربة. أمّا الجدار المقابل، فكانت تزيّنه مرآة كبيرة. مرّة أخرى، تولّد في نفس إيلام الانطباع بأنّها تحت المراقبة. تقدّمت نحو المرأة وصافحتها وهي تشعر أنّ عينيّ المرأة مثبّتتان عليها، وربّما عيون أخرى أيضًا.

قالت المرأة كأنّها تنتظر إجابة:

ـ أنا جالي.

ـ إيلفان أوزغول.

جلست المرأتان عند طرفيّ الأريكة، وكانت إيلام تجلس معتدلة القامة، في حين جلست المرأة الشقراء في غير انتظام.

قالت جالي:

ـ يبدو عليك الخجل. استرخي يا حبيبتي.

لاحظت إيلام أنّ إحدى عينيّ المرأة زرقاء والأخرى خضراء، وساورها إحساس بالدوار مدّة قصيرة من الزمان، وكأنّها فقدت إحساسها بالعمق.

قالت:

ـ جئت بخصوص الوظيفة التي وردت في إعلانكم، ولكنّني لم أفهم تمامًا ما طبيعة العمل. ربّما هذا هو سبب توتّري القليل.

ـ لا داعي للتوتّر. نحن وكالة للدعاية والإعلان ولتقديم خدمات المرافقة لناس من الطبقة العليا. ماذا درست؟

ـ الاقتصاد. إذا كنتِ في حاجة إلى نبذة مختصرة عنّي...

ـ ليست ضروريّة. في وسعك أن تخبريني عن نفسك يا عزيزتي. بماذا اشتغلت حتى اليوم؟

ساور إيلام إحساس بوقاحة لسان المرأة، وبشيء من البذاءة في سلوكها العامّ. ولكنّها لم تقرّ أو تعترف.

ـ اشتغلتُ في عدد من الشركات الصغيرة، ثم عملتُ في شركة تأمين أميركيّة، ولكنّني بلا عمل منذ أمد قصير.

ثمّة حمامة شجاعة حطّت على حافّة النافذة الخارجيّة، وراحت تسير من فوقها في مرح وتصدر أصواتها. رنت إيلام أوّلاً إلى

الطائر، ثم إلى وجه المرأة، فرأت المرأة تحدّق إليها في تهكّم واستفهام ما دفعها إلى الإحساس بأنّ فؤادها ينعصر، وشعرت بدقّاته تضرب في معدتها للحظات.

قالت المرأة:

ـ الحياة التجاريّة من التاسعة وحتى الخامسة مرهقة جدًّا.

قالت إيلام موضحة:

ـ ليس هذا هو السبب، بل ثمّة مشكلات لا دخل لي فيها. أزمات، خداع، أعمال أدنى من مؤهّلاتي. فقداني الأمل في المستقبل.. لو كنت أسكن في بلد آخر، لوجدت فرصة أمامي للتقدّم في العمل. وممّا يثبّط الهمم أن يعرف المرء أنّه محكوم عليه بالبقاء وراء الحاسوب على مدى سنين في بعض الدوائر والمؤسّسات.

ـ هل تعيشين رفقة أسرتك؟

ـ إنّني وحيدة. وصلت اسطنبول من فوري. وكنت أسكن في أنقرة قبل ذلك.

نهضت جالي وقرعت جرسًا من فوق مكتبها. وبعد برهة قصيرة ظهرت امرأة ترتدي بزّة العمل..

ـ أحضري لنا الشاي يا ميرجان.

أحنت المرأة رأسها في احترام وانصرفت.

كانت جالي ترنو إلى شيء ما على شاشة الحاسوب. وكان جبينها الأبيض يلمع وهو محاط بشعرها الأسود الذي شدّته إلى

الخلف. وكان لمعانه يشبه تلًّا صغيرًا مكسوًّا بالثلوج تحت الضوء المتسلّل من النافذة. وهنا وجدت إيلام الفرصة سانحة كي تتأمّلها موضوعيًّا، فوجدتها تتصرّف وكأنّها في موقع المسؤوليّة.

وكان ثمّة ما يشير إلى أنّ المرأة توحي للناظر أنّها مديرة ماخور، لأن كلّ خطّ من الخطوط التي تعلو وجهها تنبئ بالجنس الذي يتعذّر إنكاره. رفعت من بصرها ونظرت إلى إيلام بعينين ثاقبتين.

قالت:

ـ ثمّة عدد من الفتيات اللواتي يشتغلن هنا معنا. وهنّ من النمط الذي يعمل ما يمليه العقل. وقد تركن ماضيهنّ وراءهنّ ونجحن في بناء حياة لأنفسهنّ، لأنّهنّ تحمّلن المخاطرة بالخروج على قوانين ثقافتنا المحافظة من أجل الحصول على حرّيّتهن.

سألت إيلام بعد أن لمّت أطراف شجاعتها:

ـ ما نوع تلك الحياة؟

ـ كم عمركِ؟

ـ ثلاثة وعشرون عامًا.

ـ أنت لست طفلة صغيرة يا حبيبتي. لنتكلم بصراحة. إنّنا هنا نقدّم خدماتنا لصفوة الصفوة، لأثرياء الناس والمجتمع الراقي. ويحتاج هؤلاء الناس إلى رفقة فتيات شابّات وجميلات ومثقّفات، ويطلبن المشورة منّا بخصوص رفيقات يمكنهنّ أن يرافقوهم في سفرهم أو يذهبن وإيّاهم إلى الحفلات للاستمتاع. يمكن أن يكون هؤلاء الناس من مختلف الأعمار والمراكز: رجال أعمال وفنّانون

ورياضيّون. وهم جميعًا من معارفنا ويمكننا الوثوق بهم. لا أدري إن كنت واضحة في حديثي.

ـ بمعنى، خدمات صداقة ووساطة.

قالت جالي مؤكّدة:

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ ظننت أنّ العمل قد يكون الظهور في عرض أزياء أو التمثيل في إعلانات.

قالت إيلام ذلك في نبرة كسيرة، وكأنّها أهينت بسبب طبيعة العمل المعروض أمامها.

سألت المرأة بعد أن تلبّسها الجدّ:

ـ ألديكِ أيّ تجربة في هذا العمل؟

ـ لا، ولكن. . .

ـ نعم، بداية، ينبغي لك أن تؤسّسي لبنية تحتيّة. لا تستهيني بالأمر، فقد أصبحت غالبيّة الفتيات والفتيان أيضًا مشهورين بعد أن وجدن شخصًا مهمًّا يستندون إليه. أوّلاً، ينبغي أن يراك الناس في النوادي الليليّة أو الحانات رفقة مخرج تلفازي ذائع الصيت أو رفقة ناس يُعدّون من أصحاب النفوذ في السوق. ويجب عليكِ أن تجذبي الأنظار إليك كي تعثري على عمل. وستجدين صعوبة كبيرة إن لم تكن لديك طريقة في العرض، ولن يعرف أحد شيئًا عنك. المؤكّد أنّ رفقة مثل هؤلاء الناس تتطلّب ثقافة عامّة إضافة إلى المظهر الحسن. ما هي معلوماتك الثقافيّة يا عزيزتي؟

فكّرت إيلام بأنّ هذه الوظيفة ليست سوى بغاء مهذّب. ولم تستبدّ بها الدهشة، لأنّها جاءت إلى هذا المكان وهي على استعداد إلى حدٍّ ما. في الأقلّ، اتّخذ القلق الذي لا شكل له والذي كانت تشعر به على مدى الأيّام الثلاثة الماضية، شكلاً معيّنًا في نهاية المطاف. وعنّ على خاطرها بأنّها استُدرجت إلى حوار تطوّر إلى جهة لم تستطع السيطرة عليها.

ـ إنّني أقرأ كثيرًا وأنظم الشعر، وليس مبالغة إذا ما قلت لك إنّني مثقّفة إلى حدٍّ بعيد.

ـ هل لديكِ أيّ إلمام باللغة الإنكليزيّة؟

ـ نعم، إلمام جيّد.

ـ وأيّ لغات أخرى؟

ـ إلمام قليل باللغة العربيّة...

قاطعتها المرأة:

ـ حسنًا، القرار متروك لك. الشيء المهمّ عندنا هو الاستعداد. إنّنا نبذل جهدًا كبيرًا في الاختيار، ونحاول أن نوفّر أفضل العلاقات الملائمة للعاملين لدينا. صدّقيني، لقد تمكّنوا كلّهم من شراء بيوت وسيّارات ووفّروا مالاً كثيرًا. وإنّ إحدى فتياتنا ممثّلة في مسلسلات تلفازيّة، وثمّة واحدة ثانية أصبحت نجمة إعلانات مشهورة جدًّا. كثيرات منهنّ تزوّجن. المؤكّد أنّ زبائننا يهتمّون أكثر بالفتيات اللواتي يشاهَدْن على الشاشة. فعلى سبيل المثال، يتّصل رجل ويقول: أريد تلك الفتاة الجميلة التي تظهر في إعلان عن الحليب.

قالت إيلام:

ـ لم أفهم تمامًا شروط العمل.

ـ ليس ثمّة ما يستدعي الفهم. فالعناوين ورخصة صفيحة الرقم والعلامات الفارقة والحالات النفسيّة لزبائننا مسجّلة لدينا. نحن شركة حديثة، ولكنّنا اكتسبنا مكانة متميّزة في السوق. فعندما يتصل بنا أحد الزبائن، فإنّنا ندرس المعلومات الخاصّة به ونوفّر له الخدمة على هذا الأساس. إنّ حدود العمل موضّحة توضيحًا دقيقًا سلفًا. ثمّة تعرفة معيّنة وتحمّل المسؤوليّة في الامتثال للقوانين. المؤكّد أنّ تنمية العلاقات الشخصيّة ضروريّ لدخول عالم الاستعراض، وهذا يعتمد على قابليّتك.

ـ هل الأجور المعلن عنها في الإعلان حقيقيّة؟

ـ الأجور التي أعلنّا عنها هي الحدّ الأدنى ولساعة واحدة، وهي تتغيّر بتغيّر البرنامج والمدّة. ونحن نحصل على ثلاثين من المائة.

كلّ شيء واضح وصريح.

قالت إيلام في صوت واهن:

ـ أودّ أن أعرف شيئًا عن بعض المساوئ.

ـ ليست ثمّة مساوئ، ومديرنا ضابط سابق في الشرطة. أنا شخصيًّا عملت في الشؤون الأمنيّة. شبكتنا واسعة، ومن بين الناس الذين نعرفهم من هو سياسي، وثمّة محامون وأطبّاء. كلّ شيء خاضع للأمن. الضوابط والإجراءات الصحّيّة لا تتوقّف، ونحن نسيطر على كلّ جلسة، ونقل الفتيات إلى المكان المقصود ونعيدهنّ

إلى هنا. أمّا المدّة الزمنيّة، فهي متروكة لك. فالفتاة التي كسبت مالاً وفيرًا قد تقول: كفى. وتنصرف بعد انتهاء العقد.

وصل الشاي، وعادت جالي وجلست من فوق الأريكة. وفكّرت إيلام: ما الضرر من التجربة؟ ألم تكن تمارس هذا العمل مع سيد؟ إنّ الجهل بالقذارة لم يكن كافيًا للوقاية من التلوّث. من العبث الذي لا طائل من ورائه أن تنتهي في مكان يملكه الآخرون، أو أن تحاول الإبقاء عليه بعيدًا. يضاف إلى هذا، لا فائدة من التوكّل على الله والاعتماد على الصلاة، إذْ لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة معتمدة على هذين الشيئين.

قالت إيلام:

ـ فهمت.

ـ الآن اذهبي إلى السكرتاريّة في الغرفة المجاورة وتعرّفي على الشخص الموجود هناك، إذْ ينبغي لك أن تملأي استمارة.

ـ أريد أن أفكّر في الأمر حتى يوم غد.

ـ على وجه التوكيد، ولكن ما زال في وسعك ملء الاستمارة، وسوف تكتبين اسمك الحقيقي.

في تلك اللحظة، كان في مستطاع إيلام رؤية طفل رضيع مضطجع على ظهره في الظلمة، ويبكي بكاءً مريرًا، ويتخبّط في مكانه، ملوّحًا بذراعيه وساقيه كأنّما يطلب العون. وكان سنّ جالي المغلّف بالبورسلين هو الشيء الوحيد الذي اخترق الظلام.

ـ إذا وافقت على العمل، فسوف تتدرّبين مدّة ثلاثة أسابيع، وسيكون هناك من يهتمّ بك، وسوف يتحسّن شكلك أيضًا في نادي

الرشاقة الخاصّ بنا. كما أنّنا سنعمل على تغيير صورتك ونجعلك أكثر جاذبيّة وفتنة. سنهتمّ بكلّ شيء يخصّك من الألف إلى الياء. أين تقطنين؟

ـ في كاغيثان.

ـ ينبغي لك الانتقال إلى منطقة لائقة أكثر.

ـ لا أملك الوسائل لذلك.

ـ بل سوف تملكينها.

ـ سأفكّر في الأمر. وسوف أبلغك.

ـ السرّيّة في العمل هي أهمّ شيء. والكلام الذي تفوّهنا به سوف يبقى سرًّا بيننا.

ـ على وجه التوكيد...

ـ أنت فتاة جميلة وجذّابة، وسوف تنجحين في عملك.

خرجت إيلام ومضت في سبيلها. وبينما هي تجتاز الممرّ، أدركت أنّ الشقّتين قد فُتحت إحداهما على الأخرى. في تلك اللحظة، خُيّل لها أنّها سمعت صوتًا، صوت ضحكة مكتومة اعتقدت أنّها صدرت من وراء أحد الأبواب. هل كان ذلك صوت نشيج وبكاء، أم صوت هو بين الاثنين! تراجعت إلى الخلف، في ذلك الصوت، ثمّة صدى لبكاء من وراء ضحكة.

عندما رجعت إلى الغرفة الكبيرة، التقت المرأة الشابّة نفسها. كانت بسيطة جدًّا، من دون أيّ مساحيق تجميل، شعرها الأشقر بهيئة ذيل حصان، وكانت على ما يبدو امرأة مرحة جدًّا. فصحبتها

إلى مكان بدا وكأنّه غرفة سكرتاريّة مترامية الأطراف، تحتوي على مكتبين زجاجيين وخزانة لحفظ الملفّات، وغير ذلك من الأشياء الثانويّة، مثل صور فنِّيّة بالأسود والأبيض لنساء، معلّقة على الجدران. . وكانت ثمّة فتاة أخرى تتكلّم مستخدِمة الهاتف وتقول:

ـ شقراء، زهاء المتر وثمانين سنتيمترًا. جديدة. تمثّل في الإعلان الخاصّ بالجواريب الطويلة. ألف ومائتين لثلاث ساعات يا سيّدي. هل قلت ٣٠٧؟ نعم يا سيّدي. بعد نصف ساعة. الأمر مرهون بحالة المواصلات.

ملأت إيلام الاستمارة التي قُدّمت لها.

* * *

عندما خرجت من المبنى، رأت السماء مكفهرّة بالسحب من جديد. كانت إيضاحات جالي خانم السائغة ترنّ في أذنيها. ولم تستطع أن تقول لها: لا. أرادت أن تقول، ولكنّها لم تستطع. كانت كلمة «لا» صعبة جدًّا أحيانًا، وكانت أحيانًا أخرى بلا فائدة تمامًا.

ثمّة إحساس بوجود المرء يذهب إلى ما هو أبعد من المعرفة، وهو ما يطلق عليه الحدس. إنّه وراء الوعي، في مكان عميق، وهو حاصل جمع كلّ المواقف والعواطف التي يواجهها المرء أثناء سريان حياته، وعلى الأخصّ من العلاقات القائمة بين السبب والنتيجة. كان عجزها عن لفظ كلمة «لا» يتّصل بهذا الشيء. كانت تعرف نزعاتها. فحتى ذلك الوقت، كانت قد بدّدت كلّ طاقتها على سيطرة داخليّة وخارجيّة اعتقدت أنّها ملائمة لحالتها. وحاولت أن تمنع نفسها حقّ الانزلاق، ولكنّها انزلقت أخيرًا.

سارت بتؤدة على امتداد طريق روملي ومن أمام واجهات المحالّ الزجاجيّة البرّاقة والأنيقة. كانت لا تبغي شيئًا سوى السير، أن تضع قدمًا قبل الأخرى وتمضي... تعرف أنّ مستقبلها سوف يأخذ شكله المحدّد بهذا السير، وبالخطوات الشجاعة التي اتّخذتها والطريق الذي اختارته.

لم تدرك أنّها وصلت موقف الحافلات، بل ربّما أدركت، ولكنّها استمرّت في السير باتّجاه نيشانتاشي. لا يمكن للعالم الكائن في رأس امرئ ما أن يتأقلم مع العالم الواقعي. لهذا السبب، فإنّ الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله إنّما هو أن تجرّب أساليب جديدة للموت في خضمّ تدهور أعظم، وفي خضمّ دائرة التدهور والتحجّر المتكرّرة دائمًا.

* * *

الشـــــتاء

١٠

كان فولكان يقلِّب صفحات الجرائد وهو يصغي إلى أمّه وهي تعمل في المطبخ. كانت غولسين خانم قد وصلت قبل ليلة واحدة، ولم يكن قد رأى أحدهما الآخر منذ شهر حزيران. وعندما أخبرته أنّها مشتاقة إليه كثيرًا، أصرّ على أن تأتي لزيارته.

هتف من مكانه في اتّجاه المطبخ:

ـ سأكتفي بوجبة خفيفة يا أمّاه لأنّني أتّبع نظام الحِمْية.

ـ إنّني لا أعدّ من الطعام سوى شوربة وسلطة.

كان فولكان قد فقد ثلاثة كيلوغرامات أخرى من وزنه بالسير على جهاز المشي ساعة ونصف الساعة من صباح كلّ يوم، ويأكل النزر اليسير مثل طائر. كان رائق المزاج. ولمّا كان مضطرًّا إلى التقليل من احتساء المشروبات أثناء إقامة والدته معه، فقد قرّر أن يقلّل من وزنه كيلوغرامين إضافيين في ذلك الأسبوع.

عندما كان بمعيّة والدته، شعر أنّه ما زال طفلاً صغيرًا، وهو شعور دافئ يبعث على الاطمئنان. كانت اللحظة القصيرة الفاصلة بين سماعه صوتها من خلال الهاتف والكلمة الأولى التي نطقت بها، تحتشد بالوجع والحزن والأحداث الكبيرة والصغيرة والعواطف المنسيّة منذ مدّة طويلة، والقصص المكتوبة من فورها أو لاحقًا. كانت الصورة هي صورة أمّه في أيّام صباها وهو بمعيّتها، وكان ما يزال طفلاً صغيرًا. طفل جميل أشقر الشعر ذو خدّين متورّدين مثل الخوخ، ينظر إلى العالم بعينين واسعتين مفعمتين بالأمل والفرح...

ينبغي له أن يحفر عميقًا ليعثر على ذكريات سعيدة.

روضة أطفال... صور مصنوعة من حبوب، أشكال لدائنيّة... الأيّام التي رفض فيها تناول الطعام، واضطراره إلى الاعتذار... المدرسة الابتدائيّة.. شريط الفصول المثبّت على حائط غرفة الصفّ المدرسي: الربيع والصيف والخريف والشتاء... منضدة الدجاج... المتبصّرون... الإصابة بالبرد طوال الشتاء... أطلس العالم الملوّن... لعب الليغو...

شارع معتم تحفّ به الأشجار... بيوت، الواحد تلو الآخر... لا يعجبه اللعب خارج المنزل... فهو يخشى الأطفال الصغار الأشرار في الشارع، لكنّه يعرف كلّ الثقوب الخاصّة بالكرات الزجاجيّة. المكان الذي هو ملك نفسه هي غرفته. فهو ينعزل فيها ويحلم. لعلّه طفل لا يستطيع أن يكون طفلاً، يصنع النماذج والأشكال من أوراق الشوكولا. والده يقول إنّه يمتلك شخصيّة. يبدو وكأنّه نما وكبر، ليعود طفلاً من جديد.

النموّ... يعني أنّ ثيابه باتت صغيرة عليه، بدنه يتحوّل إلى

شرنقة شاحبة اللون، ثقيلة الوزن. يتصوّر نفسه كما هو. يتصوّر نفسه راعي بقر، غلام بطل قادر على قهر الصعاب كلّها.

كان في سنّ الحادية عشرة، وهم في أنقرة: والده سكرتير أحد الوزراء. وكانوا يسكنون في مسكن حكومي في حيّ ساراشوغلو. كانت المرحلة صعبة، إذْ كان عشرات الناس يلقون حتفهم في المعارك التي كانت تندلع في الشوارع، وثمّة نقص حادّ في الزيت والكيروسين والوقود. وكان انقطاع التيّار الكهربائي مدّة طويلة من الزمان يعطّل الحياة، كما أنّ الدخان الأسود الذي كان يخيّم على أنقرة زاد من صعوبة التنفّس. كان والده يرجع إلى المنزل في منتصف الليل تقريبًا، منشغل البال، مهمومًا. وكانت حكومة أجويد تعيش أيّامها الأخيرة.

كانت المساكن المصطفّة في صفّ واحد قديمة جدًّا ورثّة. وما تبقّى من ذكريات فولكان هي تلك الدرجات الفسيفسائيّة رماديّة اللون من ذلك المبنى والغطاء الذي كان يغطّي الأرضيّات، والسقوف العالية، وطلاء إطارات النوافذ الذي ازداد سمكًا وتشقّقًا، والغرفتان المؤدّيتان إلى ردهة المطبخ الضيّق، وتذمّر والدته من صغر حجم المنزل وعدم أهليّته للسكن إضافة إلى إحساسهم بالبرودة ليلاً ونهارًا. ولم تكن أجهزة التدفئة المشعّة لتدفّئ أيّ شيء سوى نفسها، لأنّ نظام التدفئة كان يعود إلى السنوات الأولى من العهد الجمهوري، فكانت الأنابيب مسدودة بالكلس، يضاف إلى ذلك النقص الحادّ في الوقود.

وكان فولكان يغلق الباب من ورائه بعد رجوعه من المدرسة، ويبدأ بتأليف قصص الأهوال والجرائم، على مدى ساعات طويلة،

ويرسم الصور التوضيحيّة لها بعد ذلك. كانت والدته سعيدة باهتمام ولدها بالكتابة والتأليف حتى ولو كانت موضوعات كتاباته تثير الفزع والاضطراب. إنّها علامة من علامات رهافة حسّه.

في نهاية ذلك العام، توفّي مائة وعشرة أشخاص بحسب التقارير الرسميّة، والمئات بحسب تقدير والده في أحداث ماراش. ولم يعد والده إلى البيت أيّامًا بطولها، ودخل ذلك الحدث بيتهم مثل كابوس. فرسم فولكان تلك الأحداث المرعبة على مدى أشهر، ورسم معها الدم والحرائق والجثث التي شاهدها في التلفاز وفي الصحف.

ثم سقطت الحكومة وصُرف والده من الخدمة بوصفة مستشارًا، على يد حكومة ديميريل المعروفة بالجبهة الوطنيّة الثانية. وراحت البلد تتّجه اتّجاهًا سريعًا نحو انقلاب أيلول ١٩٨٠.

* * *

أعدّت والدته وجبة الطعام فوق طاولة المطبخ. وكان ركن الطعام في غرفة الجلوس فسحة جميلة مزيّنة وفق أسلوب الزينة في الشرق الأقصى، وفيه طاولة واطئة وعريضة تحيط بها أريكة ووسائد. وكانت الصورة تكتمل بالمصابيح اليابانيّة والنباتات وأوراق خضر عريضة تضاف إليها كلّها زينة جداريّة. ولكن على الرّغم من ذلك، لم تأنس غولسين خانم أيّ راحة في الجلوس هناك.

سرح فولكان ببصره إلى والدته وهي تصبّ الشوربة في طبقه، هادئة على ما يبدو، ومبتسمة ابتسامة ما تزال فاتنة وإنْ شابَهَا قدر من الامتعاض من جهة، وما تزال، من جهة أخرى، تحتفظ بأثر

ابتسامة امرأة شابّة من الماضي البعيد. كانت مثل امرأة أخرى الآن، وكذلك فولكان، فما من أحد يبقى على مظهره مثل هذه المدّة الطويلة من الزمان!

كانت هذه الشقّة الجديدة المطلّة على مشهد جميل، والتي اشتراها مؤخّرًا، تثير حفيظة والدته، وقد اضطربت أيّما اضطراب منذ البداية بسبب صعود نجم ولدها المفاجئ. فبعد كلّ انتصار كان يحقّقه، تراها تفرح وتبتهج أوّل الأمر، ولكنّها تجد نفسها من بعد ذلك وقد امتلأت هلعًا وذعرًا وشكوكًا، والتزمت جانب الصمت واستبدّت بها حيرة مثيرة للقلق. وفي هذه المرّة، راحت تفكّر بأنّ ولدها ربّما ارتكب بعض الهفوات غير المقصودة من أجل امتلاك مثل هذا المكان. وكانت النجاحات التي لا تخلق سوى السعادة والفخر في نفس أمّه تسبّب خوفًا وريبة في نفسها. ممّا لا شكّ فيه أنّ الأمور سببها مفاهيم أمّه البالية عن الإخلاص والنزاهة. كيف يمكنه أن يساعدها حتى تفهم؟

لكنّني لا أستطيع العيش في أحياء الفقراء يا أمّي!

عندما جاءت غولسين خانم لزيارة ولدها في مطلع الصيف، لاحظت في حزن حياة ولدها والوزن الزائد الذي اكتسبه والثروات التي حصل عليها من دون بذل جهد شاقّ. لم تكن غولسين خانم امرأة ذات مفاهيم راسخة، ولكنّها كانت تعتقد بأنّ البلد يسير كلّه سيرًا سريعًا ومأساويًّا نحو الخراب بسياساته وشعبه وطبيعته وكلّ ما فيه، وأنّ حالة فولكان تتّصل اتّصالاً وثيقًا بهذا التغيّر السلبي الذي لا هدف له ولا مبدأ، والذي لم يؤخذ مأخذًا جادًّا.

ولكي يهدّئ من روعها، اضطرّ إلى أن يطمئنها بأنّه لم يتغيّر،

وأنّه ما يزال الشخص نفسه. أمّا المال فهو شيء مسلَّم به. وعندما أخبرها أنّه شريك في الشركة وأنّ حصّته من الأرباح تبلغ اثني عشر بالمائة، ما يعني أنّ دخله سوف يمكّنه من العيش في رغد وبحبوحة طوال حياته، فتحت المرأة عينيها وسألته عن الثمن الذي ينبغي له أن يدفعه لقاء هذا!

أمّه... معلّمة الجمهوريّة الرقيقة المتواضعة والمتفانية... راحت، خيبة الأمل المريرة تنتظر بنفاد صبر في عينيها الزرقاوين. كانت فردًا من أفراد جيل منقرض، وسوف تبقى على حالها حتى يوم وفاتها. وأنّه لأمر طبيعيّ لها ألّا تنسجم والعالم المتغيّر وروح العصر، بل أن تقاوم كليهما. فبعد عقد الثمانينيّات من القرن العشرين، بدا كلّ شيء زائفًا وغير قانوني وفاسدًا في نظرها. وقد تحوّل الحدّ الفاصل بينها وبين العالم إلى شيء حادّ كالشفرة منذ زمن.

لم يستطع مشاركتها مخاوفها ووحدتها لأنّه يعيش وحدته التي يفكّر فيها. أحبّها وأحبّ بنيتها الرقيقة واستقامتها وابتسامتها. وأحبّ يديها القلقتين اللتين مسّدتا شعره، ووضوح كلماتها التي دافعت بها عن العدالة. ورفعت حاجبيها في حيرة وذهول عندما سمعت كلمات مثل: الصناعة المصرفيّة وسوق الأوراق الماليّة والتجارة والأعداد الكبيرة...

كانت ما تزال تعيش في أنقرة، وهي مدرّسة فلسفة متقاعدة، عرفت شخصيّتها ونفسها على نحو أفضل عندما حصل الطلاق بينها وبين أبيه قبل سنوات، ولم تتزوّج مرّة ثانية. وهي تعمل في بعض المنظّمات غير الحكوميّة وتبدو سعيدة في عملها.

كانت قد قرّرت زيارة إحدى صديقاتها في أرنيكوي في ذلك النهار والتسوّق بعد ذلك. وسيكون لها سائقها الذي سيقلّها، فاستعدّت وخرجت بعد الغداء.

قرّر فولكان أن يتّصل بملكة بعد تريّث قليل. وكان الاثنان قد التقيا مرّتين على إثر لقائهما في ذلك المساء الذي تناولا فيه الطعام معًا. وفي اللقاء الأوّل، ذهبا إلى مقهى، وفي اللقاء الثاني ذهبا لمشاهدة حفل موسيقيّ. ولكن على الرّغم من كلّ ذلك، لم تتمخّض الأمور بينهما عن أيّ شيء، بل ليس أكثر من تجربة تشبه الحبّ، وتوتّر جسدي يستبدّ بهما عندما يلتقيان. الحقّ أنّهما ازدادا ابتعادًا عن بعضهما بعضًا في كلّ لقاء، ولهذا لم يلتقيا إلّا نادرًا. ربّما هذا هو القصد من وراء تلك المغامرة، ولم يستطيعا فعل أيّ شيء.

ربّما كانت ملكة تعيش حياتها مثله أيضًا. كانت تبدو امرأة قويّة، نزّاعة إلى الاستبداد. وفكّر فولكان: ما الضير في ذلك؟ لا شيء. الحقّ، ليس ثمّة جواب منطقيّ! وفي إحدى المرّات، طرحت عليها سؤالاً: يعرف الرجال الشيء الكثير عن العالم ولكنّهم لا يعرفون شيئًا عن أنفسهم؛ ثم أتت بعد ذلك على ذكر شيء على هذا النحو: لكلّ واحد منّا خطاياه السرّيّة. وفي نهاية كلّ لقاء، كانت تتوق إلى الرجوع إلى المنزل. ولسبب من الأسباب، لم ترغب في البقاء مدّة طويلة وإيّاه. وكان أهمّ شيء هو أنّها كانت توجّه النقد لفولكان بدلاً من أن تفهمه، وهو شيء لم يفرحها، بل كان يثير اضطرابها.

كان ما يزال منشرح الصدر عند لقائه بهذه المرأة والاقتراب منها، والاستمرار في الهيام في دنيا الوهم والخيال، على الرّغم من

أنّه لم يغرم بها على ما يبدو. ربّما كان مقتربه اللاواعي منها عندما استعمل كلمة «أخت» هو الأسلوب الأفضل. هل ثمّة هدف من وراء اللهاث وراء امرأة مثقّفة، في حين يمكنه أن يستمتع بامرأة أخرى أكثر شبابًا وأسهل انقيادًا؟

من جهة أخرى، ليس صحيحًا أن يتّخذ قرارًا متعجّلاً، ويتخلّى عن المرأة قبل أن يعرف أحدهما الآخر، بل حتى قبل أن يمارسا الحبّ. إنّهما ما زالا في بداية الطريق، حتى وإن لم تكن صداقة وثيقة العرى. أجّل الاتّصال بملكة إلى المساء. ربّما سيحتسي كأسًا من الشراب بعد أن تأوي أمّه إلى الفراش. وعندئذٍ سينهض ويدغدغ أسماع ملكة ببعض الكلمات الحلوة.

* * *

مضى على مكوثه في المنزل أربعة أيّام، لم يحلق ذقنه، بل غمرته لذّة حزينة وعذبة من ترك نفسه على هواها. وابتهج وهو يتجوّل مرتديًا كنزات صوفيّة قديمة وسراويل من قماش القطيفة المضلّعة ذات الركبتين البارزتين. وكان هارون قد قال له: أنت في إجازة، فلا تأتِ قبل أن تستجمع رباطة جأشك.

كانت إجازة إجباريّة، ولكنّه كان قد استفاد من فترة الراحة، وشاهد مباراة كرة السلّة على شاشة التلفاز، وكان يستسلم للنعاس بين حين وآخر. الوقت مساء.. والطقس سيّئ منذ أيّام، غير أنّ الشمس بزغت أخيرًا في ذلك اليوم وللمرّة الأولى، نهض من مكانه ورنا إلى البحر.

بينما كانت زرقة السماء تزداد حلكة، مضيفة سديمًا ورديًّا على

الجوّ، كانت بقع الرذاذ تنتشر على صفحة البحر. وذكّر البوسفور في تواضع وقبول ميئوس منه، الناظر بتراث المدينة الزاخر وبمؤامراتها ودسائسها وعظمتها وأشياء أخرى كثيرة، وحشيّة وجميلة، مخزية ورائعة، تحوّلت كلّها إلى قصص خياليّة وكأنّها لم تحدث قطّ.

* * *

انساب إلى سمعه ضباب طفولته الرقيق وأحلام مراهقته وهي تتذبذب في الهواء. كان في طفولته يحلم بأن يصبح قبطانًا يطوف أرجاء العالم في باخرة كبيرة. رغبة قصيرة لم تعش طويلاً، خالية من أيّ تعبير أو بُعد، مثل صورة فوتوغرافيّة. لا بدّ أنّ هذا هو السبب الذي دفعه إلى البدء بكتابة قصص غريبة ودمويّة، عندما كان في الثانية عشرة وكانت أمّه في السجن. على الرّغم من أنّه كان يخشى رؤية الشرطة وضبّاط الجيش في ذلك الوقت، إلّا أنّه فكّر أنّ عمل رجل التحرّي مثير للاهتمام، وأنّ المتعة تكمن في محاولة العثور على المذنبين الحقيقيين بدلاً من القبض على من لا ذنب لهم إطلاقًا، وفي حلّ لغز الجرائم في بطء وذكاء ومن بعد ذلك الخلود إلى السكينة والنظام والسعادة.

وعندما كان طالبًا في المدرسة الثانويّة، كانت الدروس المفضّلة لديه هي الرياضيّات والفنون واللغة التركيّة. كانت الأشكال والألوان والكلمات تدور في رأسه عندما يكون خارج المدرسة. كانت أمّه ترغب في أن يصبح طبيبًا، ولكنّه قرّر أن يصبح طيّارًا، إذْ من شأنه أن يجيل الطرف في السماء لحظات طويلة، وينظر إلى الطيور بعين الحسد. شاهد طيورًا مرهقة وسحرته وهي تنزلق نحو عزلتها بكلّ ما عندها من كبرياء تنمّ عن صبر. وفي اللحظة التي توشك فيها أن

تسقط، وجدها تنتفض وتحلّق من جديد.

أُصيب بالصداع، إذْ كان قد احتسى كمِّيّة كبيرة جدًّا من المشروب في النادي في الليلة الفائتة، كما أنّ زكامه ازداد سوءًا. وعجز عن التفكير بأيّ شيء جديد، أو موقف جديد، ولكنّه على الرّغم من ذلك، راوده أمل بالهدوء والسكينة يبعث السلوى في نفسه. كانت الأفكار تتسارع في رأسه. الإنسان استمراريّة معتمدة على ماضٍ متغيّر داخل الزمان. وكان الماضي ينشر بذوره في كلّ مكان، والعشب يخضرّ لونه وينمو ويغطّي كلّ شيء حتى ينقلب إلى غابة. ثم يتحوّل المرء نفسه من دون أن يدري إلى جزء من تلك الغابة العظيمة وتلك الاستمراريّة. لقد شدّت أيدي الزمان اللامبالية كلّ شيء، وفي بعض اللحظات قد يتحوّل المستقبل إلى ماضٍ.

وهنا سمع نداء الصقر الأوروبي الصغير مؤلمًا في البساتين.

* * *

عاد إلى طفولته. لقد باتت حياتهم غاية في التعقيد في مرحلة من المراحل الزمانيّة. وكانوا بعد الانقلاب قد تركوا مأواهم وانتقلوا للسكن في بيت في حيّ باهشيليفلر. في تلك الأيّام، جاء ابن خالته سيرجن الذي كانت أسرته تقطن مدينة أزمير ليبقى وإيّاهم. وقد عارض والده هذه الزيارة الطويلة وجرى نقاش حادّ وعنيف بين والديه، ممّا قضى على السلام في البيت. وظلّ سيرجن ملازمًا غرفته معظم الوقت محاولاً ألّا يراه أيّ شخص. وأحبّه فولكان، وراح الاثنان يستمعان إلى الموسيقى ويمارسان الألعاب ويمازح أحدهما الآخر، وشعر بالسعادة إذْ وجد الأخ الأكبر الذي طالما حنّ إليه.

حذّرته أمّه من عدم التحدّث بأيّ شيء عن سيرجن أمام الآخرين. وهذا ما فعله. ففي البيت كانا يتكلّمان همسًا إلى حدٍّ ما. ولاذا بالصمت والانتظار المخيف لحماية نفسيهما من العنف والأهوال التي كانت تحدث خارج بيتهم، ولأن يحظيا بحياة اعتياديّة داخل جدران أربعة في الأقلّ. كان والداه يكافحان من أجل التغلّب على الفوضى بدرع من الصبر. وتوقّفا عن الجدال، ولكنّهما كانا يخفيان غضب أحدهما من الآخر في هدوء عجيب.

وعلى الرّغم من ذلك، اقتيدت أمّه رفقة سيرجن في منتصف الليل بضع مرّات لاحقًا، بتهمة «إخفاء ومساعدة وإيواء هارب في منزلها على الرّغم من معرفتها أنّه مطلوب».

كان فولكان يومئذٍ في بداية سنيّ مراهقته. كانت حياته العاطفيّة مضطربة، وجسده مفعمًا بالآلام.. وازداد انطواؤه لدى رؤيته أمّه تعاقَب بمثل ذلك العقاب. وراح يستشعر طعم الحنين والتوق لشخص ما. كما راح يتعلّم أشياء أخرى. تعلّم شجاعة أمّه وكبرياءها وشجاعتها. ولم يعرف على من يلقي باللائمة. ولم يستطع نسيان تلك الأيّام عندما كان يغرق أثناءها في حزن غاضب نابع من خيبة الأمل. تلك أيّام ملؤها التهديد والخوف.

أنفق تلك المرحلة من حياته في بيت عمّه، محاولاً أن يفهم ولفترات طويلة ماذا حدث، وساوره شعور وكأنّه سقط على حين بغتة على وجهه، وهو وحده في ظلمة كلّ ما فيها يحدّق به، ويُبدي ملاحظة ساخرة وسرّيّة ويبتسم ابتسامة شفقة ورثاء. ثم سمع ذات يوم عن غير عمد كلمات عمّته، واكتشف أنّ والده يقيم علاقة غراميّة مع إحدى سكرتيراته في العمل، فتحطّم.. ولكنّه ما زال لا

يصدّق ما قالته. في مثل هذه الأوقات، تلوّث الكلمات التي تبدو صادقة الحقيقةَ المجهولةَ على أثر خروجها من فم المرء. كما أنّ تلك الكلمات ترتفع في الفضاء وتتكرّر باستمرار حتى تسقط في هاوية سحيقة مظلمة. وإذا كان المرء ضعيفًا، فالصعوبة تزداد أمامه للدفاع عن نفسه.

وعندما أُطلق سراح أمّه بعد سنة واحدة، لم يكن الجوّ في بيتهم قد تغيّر. فثمّة وجوم غريب وصمت جديد. وشعر أَبَواه بأنّهما دفعا دفعًا من المجتمع ونُفيا عنه على نحو ما، كأنّ كلّ فرد يراقبهما، فتعطّلت حياتهما. وبعد مرور ستّة أشهر جرى الطلاق بينهما، وشعر فولكان أنّ سبب الطلاق هو التجارب التي مرّا بها. فالأوقات التي تكون فيها حياة الناس تحت طائلة الخوف والتهديد إنّما هي أوقات إجهاد وضغط وحساب لكلّ فرد. وهكذا يُستهلك الحبّ وتنهار الزيجات من دون سبب.

عندما سأل أمّه عن الطلاق، كان جوابها بكلّ بساطة هو: «لم نتمكّن من الاستمرار معًا». ثم تزوّج أبوه من بعد ذلك السكرتيرة التي ورد اسمها، ونشأ فولكان بعيدًا عن أبيه. كان يقطن في مدينة أزمير منذ سنين، ولم يلتقيا إلّا نادرًا.

قلّما شعر فولكان بغياب أبيه. الحقّ أنّ قرب أحدهما من الآخر بوصفهما أبًا وابنًا كان محدودًا دومًا. لهذا السبب، فإنّ غياب شخصيّة الأب من حياته جعله يتحرَّر من التوتّر العصبيّ ويشعر بالحرِّيّة. كانت أمّه تمثّل كلّ شيء في حياته، وعاشا حياة ملؤها الهدوء والسلام في المنزل. كان لديه عدد كبير من الأصدقاء في المدرسة، وكان محبوبًا لأنّه كان شخصًا ذكيًّا، مفعمًا بالحيويّة

ودافئًا. روحه هي روح طفل يعدو فرحًا نحو ضوء الشمس. كان عميقًا مثيرًا للاهتمام وجذّابًا.

وطوال سنيّ دراسته، ترسّخ في ذهنه الاعتقاد بأنّ الأيّام السعيدة في انتظار بلده، وكذلك المستقبل المشرق، وأنّه يمكنه أيضًا ـ بل ينبغي ـ أن يكون له مكان وسط أولئك الذين سوف يخلقون المستقبل الوضّاء. تلك أيّام ملؤها الحماس عندما انهار الجدار. أيّام الشباب التي آمن فيها السذّج بالنهايات السعيدة، عندما كان المرء يتخيّل في سهولة أن يعيش من أجل أهداف وقيم شاملة، وأن يحبّ العالم الذي يخلو من كلّ حدود. في يوم ما، نظر إلى الحياة بهذه النظرة والحماسة الطفوليّة إلى أن أدرك أنّه لم يعد بقادر على المضيّ في طريقه، وأدرك أنّ الوقت ليس عنصرًا يملكه أو في إمكانه أن يصنعه، بل على العكس، إنّه ذرّة صغيرة من الوقت وذو وظيفة محدودة. واستمرّت الحياة بالسَرَيان من تحت السطح بما فيها من دوّامات وجزر، ليس سرًّا بل علانيّة، على نحو مرئيّ وبسيط.

* * *

رنّ هاتفه، كانت أمّه تتّصل به، وأخبرته أنّ صديقتها لن تسمح لها بالانصراف وأنّها سوف تقضي الليلة في بيتها. توقّف، وبغتة شَعَر بالارتياح. وفكّر أنّه لأمر جيّد أن تكون والدته هناك، ولكنّه لم يشعر بالراحة عندما تكون قريبة منه. فكّر في ملكة ثانية، وتساءل إن كانت قد تزوّجت يومًا ما، فهي لم تتحدّث عن نفسها قطّ، وتجنّبت أسئلته في ذكاء. وفي حين أخرج فولكان كلّ ما في جعبته، فإنّها كانت تكتفي بمراقبته. الواضح أنّه هو الذي بدأ اللعبة مع معاق، هذا إن كانت ثمّة لعبة أصلاً. لماذا لا ينبغي أن تكون ثمّة لعبة؟

ماذا عليه أن يفعل غير ذلك؟ اتّصل بملكة.. لكنّه شعر بالضيق عندما سمع صوتها:

ـ مرحبًا. كيف حالك؟

يمكنه أن يحبّها من أجل صوتها فحسب.

ـ أفضل من السابق. لم أتمكّن من الاتّصال بك، لأنّ والدتي تزورني حاليًّا، وكنت مضطرًّا إلى الاهتمام بها. أين أنت؟

ـ لا تقلق. كان في وسعي أن أتّصل بك أيضًا، ولكنّني لم أجد متّسعًا من الوقت. إنّني في المعرض، في قاعة العرض.

ـ وأنا على بعد بضع مئات من الأمتار عنك.

ـ هل أنت في البيت؟

ـ نعم، أنا في إجازة. لماذا لا تأتين إليَّ؟

ـ إنّني مشغولة في هذه الليلة.

لم يكن في صوتها ما يدلّ على أنّها تريد أن توضح السبب. كانت جافّة ومتوتّرة وحازمة.

ـ حسنًا، حسنًا، أراك لاحقًا.

وضع سمّاعة الهاتف غاضبًا. يا لها من لامبالاة! سار على غير هدى داخل الشقّة. كانت الساعة السادسة، والمساء يمتدّ أمامه. خاليًا لا يعرف ماذا يفعل. في وسعه أن يذهب لرؤيتها، في الأقلّ، أن يعرف سبب انشغالها. لماذا لا ينبغي أن يكون له الحقّ في توقّع الإخلاص؟ ربّما تغيّر ملكة من رأيها إذا التقيا وجهًا لوجه. لعلّ في وسعه إحضارها إلى منزله. لهذا قرّر الذهاب إلى المعرض سيرًا على القدمين.

عمد إلى تنقية جوّ الشقّة وغيّر من الملاءات ـ تحسّبًا ليس إلّا ـ ورتّب مكتبه. كان حليق الذقن، مرتديًا ثيابه وعلى أهبّة الاستعداد بحلول الساعة السابعة. غادر في سرعة، وساوره الإحساس بعدم الارتياح من جرّاء الفرق بين أفكاره وتصرّفاته وهو يغذّ السير إلى أمام. كان شخصًا اعتاد النجاح والسلطة، ولهذا لم يستطع منع نفسه من الشعور بأنّه لم يجد التقدير والإطراء، بل شعر بالتأنيب.

بدأت الكتابة الضوئيّة تتلألأ، وثمّة ريح تهبّ خفيفة باردة والبحر يحضن برفق جبهة الماء، والزوارق مصطفّة إلى الجانب، فضلاً عن ظلال شابّ وشابّ متعانقين وهما جالسان على مصطبة في ذلك المساء الذي يشبه لونه لون الشربت. كان العالم جميلاً، إنّه على وجه التوكيد مكان للعيش عيشة هانئة. وشعر بخفّة جسده وكأنّ الجاذبيّة قد خفّت، فأسرع في خطوه.

لكنّه على الرّغم من ذلك، استهجن ما أقدم عليه لدى وصوله الباب، وتمنّى لو أنّ ملكة قد مضت في سبيلها. شاهد على النافذة الجانبيّة ملصقًا عن المعرض لم يسبق له أن تنبّه إليه عندما جاء إلى القاعة في المرّة السابقة. ولم يكن مؤخّر الملصق صورة وإنّما لوحة غامضة وكأنّها استنسخت عن لوحة فنّيّة. ولاحظ أنّ الصورة تشبه ملكة إلى حدٍّ ما، وأنّ أصابع اليد الجميلة الظاهرة فيها تحتشد بالخواتم.

دخل القاعة على استحياء، فرأى ملكة في الجانب الخلفي منها، تتجاذب أطراف الحديث رفقة رجل متوسّط القامة في خريف العمر ذي لحية قصيرة مشذّبة. كان الإثنان واقفين، ولاحت له ملكة غاية في الحسن والجمال ببنطالها الجينز وقميصها الروسي التصميم

وحزامها الأحمر العريض المصنوع من الجلد الطريّ والذي كانت تضعه من فوق قميصها، في حين أرخت وشاحًا كشميريًّا أسود اللون من فوق كتفها الأيسر، وبانت مقدّمة حذائها بعنقه الطويل وكعبيه الواطئين من تحت بنطالها. وكانت تزيّن معصمها بسوار عاجيّ سميك.

استبدّت بها الدهشة برهة وجيزة لمّا شاهدت فولكان، ولكنّها سرعان ما تمالكت رباطة جأشها ورشقته بنظرة جريئة من تحت رموشها السوداء الطويلة. أومأت له برأسها على مضض وابتسمت له ابتسامة متكلّفة، وسارت بعد ذلك وصوت كعبيْ حذائها ينقر على بلاط القاعة الحجريّ. يا لها من مشية رائعة وخطوات وثّابة! في تلك اللحظة، أوقفتها امرأة مسنّة كانت تنتظر بالقرب من إحدى اللوحات وطرحت عليها سؤالاً، فتوقّفت كي تردّ على السؤال، وعليها مسحة بائعة ذات خبرة، تتصنّع المودّة والإثارة المقنّعة والكلمات المعهودة.

أرغم فولكان نفسه كي يحتفظ بهدوئه وألّا يتصرّف تصرّفًا متهوّرًا يسيء إلى كرامته، ورمق الرجل الذي كانت تكلّمه قبل قليل بنظرة خاطفة، ورآه يتحدّث هاتفيًّا وعليه مسحة مبالغ فيها من الثقة بالنفس. وفكّر فولكان بأنّ هذا الرجل ليس سوى واحد من أشباه المثقّفين أو ما يسمّون بالفنّانين، وأنّه غبيّ يسعى للفت النظر.

تركت ملكة المرأة وتقدّمت نحوه، وبدت على وجهها ملامح الاستياء والإنهاك. وهنا راود فولكان إحساس طاغ بأن يطوّقها بذراعيها ويقبّلها، وكان إحساسًا أشبه بأمر صادر إليه ولا يقوى على عدم تنفيذه.

ـ مرحبًا بك. ما الذي حدث؟ لقد تحدّثنا قبل برهة وجيزة.

ـ شعرت بدافع قويّ لرؤيتك.

رمقت ملكة الرجل الذي ما زال يتحدّث هاتفيًّا بنظرة من عينيها، وضغطت على نفسها كي تبقى صامتة.

سأل فولكان:

ـ من ذلك الرجل؟

ـ زميل.

في هذه اللحظة فرغ الرجل من المكالمة الهاتفيّة وتقدّم نحوهما، وقال واضعًا يديه في جيبيه:

ـ مرحبًا.

فردّ فولكان بفتور:

ـ مرحبًا.

نظر أحدهما إلى الآخر نظرة تفحّص. كان الرجل يرتدي بنطالاً ضيّقًا أسود اللون، وسترة مخمليّة بلون التبغ وقميصًا مقلّمًا. كانت قمّة رأسه صلعاء، ولكنّه صفّف شعره في مؤخّر رأسه على هيأة ذيل حصان. وكان يزيّن إحدى أذنيه قرط، وحدّج فولكان بنظرة حاول فيها أن يخمّن نمط العلاقة التي تربط هذا الرجل بملكة، ثم التفت نحوها بعد أن فقد الاهتمام بفولكان على ما يبدو.

سألها:

ـ ألن تعرّفي أحدنا للآخر؟

قالت ملكة من دون أيّ حماس:

ـ ماتن، فولكان.

ثم طرح الرجل سؤالاً على فولكان:

ـ ما مهنتك يا سيّدي؟

ردّ فولكان:

ـ إنّني لاعب كرة قدم.

فنظر إليه الرجل في ريبة وتفحّصه من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه.

قال:

ـ ممّا يؤسف له أنّك شخت وضعفت.

ـ ولكنّني ملك الأهداف لهذا العام.

ـ إنّك مضحك جدًّا.

قالت ملكة موضحة، في محاولة منها لترطيب الجوّ:

ـ ماتن مصوّر ذائع الصيت. وفولكان سمسار في سوق الأوراق الماليّة.

ـ حسنًا يا عزيزتي. هل أنتِ مستعدّة؟ هلّا نذهب؟

قالت ملكة في نبرة تنمّ عن عدم الارتياح:

ـ سوف نذهب بعد لحظة.

شعرت أنّ ثمّة من يضغط ويسيطر عليها.

* * *

ابتعد فولكان عنهما كي يتكلّما في مودّة واطمئنان. وتظاهر بأنّه

يتفحّص المجوهرات، وفكّر: الواضح أنّ هذا الرجل كان جزءًا مثيرًا للاضطراب والقلق في حياة ملكة، ولكنّه لم يكن يعرف عنه شيئًا. سارت ملكة في اتّجاهه وهي تخطو خطوات سريعة، وقالت له:

ـ آسفة جدًّا، إنّني مضطرّة إلى مرافقة ماتن إلى مكان ما في هذه الليلة. لقد أخبرتك بذلك هاتفيًّا.

قال فولكان في صوت خفيض:

ـ تحرّري من توتّرك رجاءً. إنّني سأنصرف من فوري.

تفرّس فولكان في عينيْ ملكة، فردّت المرأة على نظراته بنظرة خاطفة تنمّ عن اليأس كأنّما تطلب منه العون. أمّا ماتن، فقد لوى قسمات وجهه اشمئزازًا أو ازدراءً، ثم رشق ملكة وبعدها فولكان بنظرة متغطرسة. وكانت نظرته تنمّ أيضًا عن شيء من الاعتدائيّة. في هذه اللحظة رنّ هاتفه الخلوي، فسار نحو الباب وقال:

ـ سأنتظرك خارج القاعة.

قالت ملكة لفولكان:

ـ إنّني سعيدة للقياك، وقد اشتقت إليك، وكم كان بودّي لو أنّني استطعت قضاء الليلة وإيّاك.

سأل فولكان من جديد:

ـ من هو؟

قالت ملكة:

ـ إنّه ليس شخصًا جديرًا بأن نتحدّث عنه.

ثم خيّم الصمت عليهما، فأردفت:

ـ لا تذهب بك الظنون إلى أنّني متورّطة وإيّاه في قصّة حبّ عاطفيّة. آسفة. فأنا لم أرغب في أن أجعلك غير سعيد.

بدت ملكة ذليلة، مهانة، وكأنّ إحدى نقاط ضعفها السرّيّة قد انكشفت.

ـ الغلطة غلطتي، وينبغي لي أنا أن أعتذر لك، إذْ لم يكن يتعيّن عليّ الحضور على هذا النحو المفاجئ.

ـ لا بأس. في وسعنا أن نلتقي مساء الغد، فعمّي سيحتفل بعيد ميلاده غدًا، وسأزوره في هذه المناسبة، ويسرّني كثيرًا إن رافقتني إلى هناك. هلّا أتيت؟

ـ لا أدري. . .

كان صوته كسيرًا، ينمّ عن استياء.

ـ يمكنك أن تأتي إلى منزلي مساءً وسنحتسي شرابًا أوّل الأمر، ثم نغادر في العاشرة. حسنًا؟ هيّا، قل إنّك موافق. سوف أرسل لك رسالة نصّيّة رفقة العنوان في صباح الغد.

كانت ملكة ترنو إليه بنظرات مخلصة ومتوسّلة. فكّر فولكان بأنّ في ذلك جائزة تبعث على السلوى. لقد أشّر، على الرّغم من ذلك، إشارة في المربّع الصحيح.

قال هامسًا إلى حدٍّ كبير:

ـ حسنًا إذًا.

اتّجهت ملكة إلى الغرفة الزجاجيّة في مؤخّر المعرض وودّعت

الفتاة التي كانت تدير القاعة، وأخذت معطفها وحقيبة يدها وعادت أدراجها. . وخرجا معًا، وكان ماتن أمام الباب.

عانقت ملكة فولكان عناقًا حارًّا وقبّلته على وجنته. أمّا ماتن، فقال وقد لاحت في نبرته بشائر النصر:

ـ طابت ليلتك يا سيّدي.

* * *

كانت الرياح قد ازدادت سرعتها، وفي لحظة عبرت، شعر فولكان أنّه بات نسيًا منسيًّا، لا يدري إلى أين يتّجه أو ماذا يفعل! وساوره شعور مزيج من الاستياء والذنب. فقد أظهر شجاعة غير ضروريّة، ولكنّه واجه مقاومة وصدًّا وطردًا بالقوّة. زد على ذلك، كان في موضع من تُرك وحده في بؤس من أجل رجل آخر.

الواضح أنّ ملكة ليست المرأة التي كان يتخيّلها، أو المرأة التي توقّعها وعقد أمله عليها. . . ربّما لم يعد ثمّة وجود لمثل هذه المرأة بعد اليوم. فالمرأة التي كان يحنّ إليها ويشتاق بدت صعبة المنال إلى حدٍّ كبير، مراوغة وخطرة. من جهة ثانية، ليس صحيحًا أبدًا أن يكون ضيّق التفكير بشأن الموقف. فملكة امرأة تعمل في التجارة، وأنّه لأمر طبيعي أن تكون لديها شبكة من العلاقات وأن تعرف العديد من الناس. يضاف إلى هذا أنّها أخبرته سلفًا أنّها مشغولة في تلك الليلة.

لم يرغب في الذهاب إلى منزله، فهو لم يعد يطيق قضاء تلك الليلة بمفرده. لتذهب ملكة إلى الجحيم! فثمّة عشرات النساء اللواتي في إمكانه أن يقضي وقته معهنّ. بداية، فكّر في الاتّصال بنيلهان،

ولكنّه لا يستطيع مضاجعتها. إنّه يريد أن يعبث ويمرح وأن يمارس الجنس وأن يتحرّر من توتّره العصبي وأن يسترخي. اتّصل بفاندي، فوجدها في المنزل، وأنّها تفكّر في الذهاب إلى النادي. إذًا هي غير مرتبطة بأحد.

ـ أريد أن أجيء إليكِ يا فاندي. ما رأيكِ في أن تفركي عنّي الصدأ الذي حلّ بي؟

ـ عظيم! الحقّ أنّني اشتقت إليك. أحضر إليَّ وأحضر معك زجاجتين من النبيذ.. هيّا.

* * *

١١

اقترب فولكان قليلاً من ملكة ووضع يدها في راحته. يد رقيقة وأصابع رشيقة... هل كانت هي نفسها اليد التي رسمت في الملصق الخاصّ بالمعرض؟ لا، تلك يد امرأة أخرى. ثم ماذا بشأن الصورة الغائمة؟

ـ إنّها صورة صنعتها في الأكاديميّة، وكان ماتن هو الذي التقط الصورة، وهو الذي صمّم ذلك الملصق.

كانا في منزل ملكة، يجلسان فوق أريكة. كان فولكان مسترخيًا، وكان قد أنفق وقتًا رائعًا رفقة فاندي استعاد فيه ثقته بنفسه. بدت الحياة أكثر سهولة ويسرًا. كان هو وفاندي يبحثان عن الحبّ، عن الإثارة الوجوديّة الوقتيّة الخالية من الجهد.

كان البحث عن الرضا أشبه بالدائرة، ولا بدّ من تكراره. فهو يبدأ وينتهي مرّات ومرّات. الحقّ أنّ الرحلة ليست صعبة حتى إذا ما بدت أحيانًا مثل سجن.

قال مخاطبًا ملكة:

ـ إنّني مفعم بمشاعر متناقضة. ففي لحظة أجد نفسي قريبًا جدًّا منك، في لحظة تالية بعيدًا جدًّا. لعلّي أخاف من خيبة الأمل، لأنّني لا أعرفك أبدًا.

ـ لديّ المشاعر نفسها، لكن هذا الوضع لا صلة له بك. فأنت صريح ومخلص، في حين أنّني لست واثقة من أيّ شيء أظنّه صحيحًا بخصوص نفسي.

ـ يصعب تصديق ذلك.

ـ قبل عشر سنوات كتب رجل عشقته رواية عنّي(١)، حاولت قراءة الكتاب بعين موضوعيّة، وأعترف لك بأنّني سنحت لي الفرصة لأنظر إلى نفسي من الخارج أوّل مرّة...

ـ مدهش. أودّ قراءة ذلك الكتاب أيضًا.

ـ لقد بات في طيّ النسيان منذ زمن بعيد. وكان المؤلّف يعاني حالة انفصام شخصيّة مأساويّة في ذلك الوقت. فكانت النتيجة نصًّا مشوّشًا ومضطربًا. وعلى الرّغم من أنّه استخدم اسمي الحقيقي، إلّا أنّ المرأة التي يتحدّث عنها المؤلّف في الكتاب ليست أنا تمامًا، بل هي تفسير، ووجهة نظر، لأنّني لم أخبره بأيّ شيء. ولكن على الرّغم من ذلك، ثمّة ملاحظات صحيحة أثّرت فيّ وكانت محطّ إعجابي. وفي وقت لاحق أخبرني المؤلّف أنّني بالغت في التماهي مع الشخصيّة الوارد ذكرها في الرواية، وغضّ النظر عن اعتراضاتي. لكنّها تمثّل مدخلاً جيّدًا فيه دلالات معيّنة.

---

(١) رواية «أزمنة كاذبة جديدة»، إنجي أرآل (المؤلّفة).

ـ هكذا يبدو الروائيّون. ففي البدء يميلون إلى الكشف عن ذوات الناس، ثم يميلون إلى إنكارها. أنا شخصيًّا أقرأ عددًا كبيرًا من الروايات، ولكن هذا ما يردّده الناس.

وضحك الإثنان.

ـ أذكّرك أنّ ماتن يرد ذكره في الرواية أيضًا، وبدقّة متناهية تصل حدّ الكمال. فإذا ما قرأت الكتاب، فإنّك سوف تعرف من هو وماذا يعمل!

قال فولكان:

ـ إنّني غاية في التشوّش والارتباك. وسوف أقرأه في أوّل فرصة تسنح لي، ونتحدّث بعد ذلك عنه مفصّلاً.

كانت غرفة الجلوس بهيجة، تحتوي على كرسيين وأريكة وخزانة كتب عالية ومتحرّكة ومملوءة بالكتب. ثمّة تمثالان صغيران على رفّ المدفأة، وكتابان على المنضدة الجانبيّة بالقرب من الأريكة، وكانت الصفحات تفصلها مؤشّرتان شريطيّتان. الكتاب الأوّل هو بروست. وعلى الجدران لوحات وتخطيطات مختلفة الأحجام. وتنتشر في أرجاء الغرفة أعداد كبيرة من الحليّ التافهة الرخيصة الثمن، ولكنّها كانت مختارة ومنظّمة في عناية. كان بيتها بيتًا حقيقيًّا، دافئًا وبهيجًا انعكس على شخصيّة صاحبته.

وبينما كان الإثنان يحتسيان الشراب، سألت ملكة فولكان إن كان قد تزوّج سابقًا، فأخبرها عن كارول. كانت علاقته بها أشبه بعلاقة الزوج والزوجة وإن لم يكن زواجًا حقيقيًّا.

سألها:

ـ وأنتِ؟

ـ تزوّجت مرّة واحدة، وكنت طالبة في سنّ العشرين. ولم يدم الزواج سنتين اثنتين. يُخطئ من يظنّ أنّ في الإمكان الاعتماد على الزواج في الحياة، كما أنّني لم أنجح في أن أكون مولعة بالحياة الأسريّة.

ـ هل كان ماتن من شخصيّات ذلك الزمن؟

ـ يمكنك أن تذهب هذا المذهب. كنت يومئذٍ طفلة صغيرة، وكان هو شيطانًا بعينه. وفي وقت لاحق، صادفت دومًا أشخاصًا مزعجين مثله في حياتي. وشاهدت شربهم الخمر حتى الثمالة ووحدتهم وهوسهم. وفيما خلا المؤلّف الذي ذكرته لك، كانوا كلّهم شخصيّات فارغة، تشبه الشخصيّة الأولى، حتى شعرت كأنّني أصادف الشخص نفسه مرّات ومرّات. وكنت أفارقهم بعد ذلك، لأنّني لم أشعر أنّ أحدًا منهم يستحقّني.

شابت صوتها نبرة ألم واضحة، ويأس عميق.

قال فولكان.

ـ فهمت.

ـ ماذا فهمت؟

ـ أنّك فقدت الأمل ويئست ولا تفكّرين كثيرًا فيَّ.

ـ لقد أسأتَ الفهم، فأنت رجل غاية في الجاذبيّة، ولكنّني لست المرأة التي رسمتها في ذهنك.

ثم ضحكت ضحكة غير مكترثة.

قال:

ـ ماذا تتوقّعين من الحياة ومن المستقبل؟

ـ أن أتعلّم بغتة ما الشيء الذي أتوقّعه.

ـ بمعنى، سوف يحدث شيء ما، أو أن يأتي شخص ما وتقولين: هه، هذا ما أريد تمامًا. صحيح؟

ـ لا، ليس أبدًا. إنّني أعلم جيّدًا أنّه لا يوجد مثل هذا الضمان. على أيّ حال... سأعدّ لك بعض الطعام لتأكل. لحوم باردة مع السلطة؟

راقب فولكان ملكة وهي تسير إلى المطبخ، وكان رأسه مزدحمًا بالأسئلة. وكان سعيدًا، لأنّها لم تطلب منه عدم المجيء. وعلى حين بغتة، وجد نفسه يؤدّي دور الصديق الودود والراعي والحامي وصاحب القلب الرحيم. وعلى الرّغم من أنّ هذا الدور كان ينطوي على قدر من خيبة الأمل، إلّا أنّه كان سعيدًا به. كان يعرف المخاطر التي قد يفضي إليها مثل هذا القرب. إنّ الأخ المطيع والمتفهّم والمتعاطف يعني موت عنصر الإثارة والرغبة الوحشيّة في اكتشاف الآخر، بمعنى موت الجنس. راقب ملكة وهي تشقّ المطبخ ذهابًا وإيابًا لإعداد صلصة السَلَطة. ثم أخرجت ما تبقّى من نبيذ في القدحين. ولم يستطع أن يفهم السبب في تطوّر علاقتهما ونحوها هذا المنحى. فهو بلا أخت ولا أخ. ولم يضطرّ قطّ إلى أن يُغرم بامرأة من دون أن يرغب فيها، أو يشتاق إلى لمسها. إنّه لم يعرف ذلك المحرّم البتّة.

سوف يتناولان الطعام في غرفة الطعام، فحملا أطباقهما وجلسا يواجه أحدهما الآخر. رنا فولكان إلى وجه ملكة الجميل

الدقيق الملامح، وسرعان ما فهم: كانت هذه المرأة تفضّل الصداقة والعلاقة الحميمة والمخلصة والسهلة على التعلّق بمستقبل مجهول ملؤه الفوضى والغربة المريبة والتوتّر. وعند تلك النقطة، يصبح الحبّ والعاطفة شيئين غير مناسبين، ممّا يعني عجز الرجل ومهانته.

وفجأة، قالت ملكة وهي تضع كأس نبيذها جانبًا:

ـ ربّما تجد عمّي غريب الأطوار إلى حدٍّ ما، إذْ إنّه يسكن رفقة شابّ.

وهنا سرت رعشة في جسد فولكان، ثم وبّخ نفسه، قائلاً: إذهب لتزجية الوقت وإيّاها، كن شجاعًا وتصرّف تصرّف الرجال!

ـ ألا يضطرب عمّك ويرتبك إذا ما جاءه ضيف من غير دعوة؟

ـ لا، بل يروقه ذلك، ولكنّ الناس الذين هم معه قد يثيرون حفيظتك ويسبّبون لك صدمة.

ـ لماذا؟ أتظنّين أنّني يجب أن أكون في جيب أمّي العزيزة وأنا في هذه السنّ؟

ـ عمومًا، إنّ الذين يشتهون الجنس الآخر ينظرون إلى أولئك المثليي الجنس ولديهم شعور ما دون الوعي بالشفقة عليهم. وهم أنفسهم أوّل من يضطرب لهذا السلوك.

ـ أرى أنّ اضطرابهم لا صلة مباشرة له بأولئك الناس، فأحلامهم السرّيّة المقموعة تطفو بينهم على نحو دقيق، ويتحوّل قصورهم إلى غضب جنسي.

ـ لا أظنّ القضيّة بهذه السهولة، فثمّة أوجه أشدّ ظلمة في نظرة المجتمع إلى الهامشيين.

ـ إنّ غريزة الأغلبيّة تنحصر في محو، بل حتى تدمير كلّ ما تجده متناقضًا. وتنزع هذه الغريزة إلى القضاء على كلّ شيء وخلق الرتابة للمساواة بين الأشياء.

قالت ملكة:

ـ لا يمكنني أن أتّفق وإيّاك اتّفاقًا كاملاً. فإذا كان التنوّع يثير الرعب والهلع في الجنس البشري بهذا القدر الكبير الذي تذكره، فإنّ من شأننا أن نحيا تحت ظروف تسودها مساواة على نحو أكبر، وفي عالم أكثر عدلاً.

ـ تلك مسألة أخرى. عند تلك القضيّة يظهر ميزان القوى في الصورة. أولئك الذين يحكمون وأولئك المحكومون. كيف وصلنا يا الله إلى هذه الموضوعات الآن؟

وعلى حين بغتة، لزم فولكان الصمت. فقد تكلّما أكثر ممّا ينبغي، وأغرقا فرصهما في حديث غير ضروري. تفرّس في وجه ملكة، ولكن أعينهما لم تلتق، فابتسمت ابتسامة عذبة كأنّما تريد أن تخبره بألّا يبذل محاولات من دون طائل. نظّفا المائدة؛ وعندما ذهبت ملكة إلى الحمّام، صبّ فولكان لنفسه كأسًا مزدوجة من شراب الويسكي من القنينة التي كانت فوق المنضدة الجانبيّة. استيقظ يا رجل، وثب إلى رشدك!

وقف في الجوار والمشروب في يده، فلفتت نظره جنّيّتان عاريتان من الرخام موضوعتان فوق رفّ المدفأة. الواضح أنّ ملكة كانت امرأة ذات خبرة واسعة في شؤون الرجال. وعلى العكس من المقترب العامّ الذي تتبنّاه النساء إلى هذا الموضوع، فقد أخبرته في

صراحة تامّة. ربّما كانت نزاهتها ترجع إلى ثقتها بنفسها.

فكّر فولكان بأنّه آخر حلقة في السلسلة في الوقت الراهن، ولكنّه على الرّغم من ذلك، لم يرتعد، بل إنّ ذلك سوف يدفعه إلى اتّخاذ موقف واع، إذْ يُستحسن أن يبدأ علاقة بعينين مفتوحتين بدلاً من أن تصيبه صدمة نتيجة اعترافات مفاجئة قد تظهر إلى العلن في يوم ما. وتساءل: من كان رفقة ملكة غير ذلك الغبيّ المدعوّ ماتن؟ ولمن تعود تلك الأجساد التي زارتها؟ وأنتَ؟ أيّ أفكار غريبة هذه! إنّه في نحو الأربعين وهي في الخامسة والثلاثين. وتذكّر الليلة الفائتة التي أنفقها مع فاندي. يمكن القول إنّه غير مخلص لها منذ مدّة.

استوعب الشراب قدرًا معيّنًا من توتّره، ولاحت على فؤاده تباشير التفاؤل المرح. ولكنّه بالرّغم من ذلك ما يزال يشعر بالتشوّش، لأنّه لا يعرف كيف يتصرّف أمام امرأة لأوّل مرّة في حياته.

عادت ملكة أدراجها، وكانت قد شدّت شعرها ووضعت مساحيق التجميل، وارتدت ثوبًا قصيرًا ذا لون أسود وبحمّالتي كتفين رفيعتين وقلّادة فضِّيّة مرصّعة باللآلئ. كانت تبدو آية في الجمال، حتى إنّ فولكان لم يتمكّن من إشاحة نظره بعيدًا عنها لبرهة! ثم وضعت قرصًا مدمَّجًا جديدًا وجاءت وجلست بجانبه.

قال فولكان:

ـ أنتِ فاتنة الجمال.

وفكّر في نفسه بأنّ كلّ ما في هذه المرأة يخلق في أعماقه

شعورًا مدمّرًا، ويثنيه عن عزمه في كلّ خطوة.

شكرته ملكة بصوت ناعم وابتسمت له ابتسامة مشجّعة. ثم تبادل الإثنان نظرات تنمّ عن فهم رقيق. وأدرك فولكان أنّه راح يشعر برغبة مشابهة لتلك الرغبة التي تملّكته عندما هرع إلى قاعة المعرض في الليلة الفائتة. وشعر بالإثارة، وهو يستشعر الدفء المنبعث من ملكة، والجسد القريب منه، والعبق الذي يشمّه. منذ البداية، كان كلّ ما قالته قد أثار ارتباك عقله ومشاعره. ولكن ها هو الآن، في منزلها، وبجانبها. لقد اختارته هو. وراوده إحساس بالكبرياء والخوف والانتصار، هذه هي بداية المغامرة التي كان يتطلّع إليها منذ كلّ هذا الزمن الطويل. من جهة ثانية، ما تزال علاقتهما تفتقر إلى الآن إلى المعنى. ففي إمكانها أن تتخلّص منه أسوة ببقيّة الرجال.

ليس ثمّة ضرورة تدفعه إلى الالتفات نحو الحقيقة، أو أن يركّز أكثر ممّا ينبغي في فكرة عابرة. فما إن ينتهي اهتمام هذا المتنقّل العليم بكلّ القلوب، حتى يجد نفسه من دون ريب رفقة بقيّة الضحايا. وفكّر: آه، يا ألله! ثم راح يركّز تركيزًا شديدًا في الفتاة.

قالت ملكة:

ـ كنت أفكّر في لعبة المعارك العاطفيّة التي اقترحتها. صدّقني أنا لست لاعبة، بل أنا كما يدلّك عليه مظهري. كما أنّني لا أجدك موهوبًا جدًّا أيضًا.

قال فولكان:

ـ ذلك كان كلامًا عابرًا.

قالت ملكة:

ـ إنّني لا أريد خوض معركة، ولا أريد إثارة استياء أحد أو جرحه أو هزيمته. كلّ ما أبغيه هو الحبّ. أعلم أنّني فاتني الأوان على ذلك، ولم أكن قادرة على أن أعيش تجربة عميقة في أيّ شيء منذ مدّة طويلة، حتى مع الرجل الذي أحببت. فقد وافته المنيّة، ولكنّني لم أفهم مقدار حبّي الكبير له إلّا بعد أن فقدته. غير أنّ الألم الذي عانيت علّمني كيف أشعر. والآن، ثمّة شيء آخر أمامي. شيء مختلف. إنّني أحنّ إلى علاقة طويلة الأجل تبعث الثقة في النفس. بماذا تشعر؟

كان صوتها مشوبًا بنبرة مريرة وسلبيّة.

قال فولكان:

ـ إنّك تتحدّثين في سرعة، فلا أتمكّن من السيطرة على مشاعري. في هذه اللحظة، أشعر وكأنّني أضحك وأبكي في الوقت نفسه. إنّني أفكّر في كلّ ما أشتاق إليه وأفتقده في فوضى حياتي... إنّني أريد أن ألغي هذا الحلف الأخوي البغيض.

مال إلى ملكة وسرح ببصره إلى عينيها. طوّقها بذراعيه وشعر بذراعيها العاريتين تطوّقانه. تبادلا قبلة، وكانت قبلة حسّاسة ملؤها الحبّ، ولكنّها كانت تفتقر إلى دافع الجنس، كانت بلا حريق.

فكّر فولكان: هذا هو أوّل اتّصال بيننا، وهو اتّصال طبيعي جدًّا. وظنّ في لحظة وجيزة أنّه آخذ بالعودة إلى مخاوف مراهقته المتمثّلة بازدراء قوّته الجنسيّة. ثم تذكّر صبيًّا مضحكًا وكريهًا واعتدائيًّا لم يجرّب عواطفه بعد. إنّه لم يعد ذلك الصبيّ، وعليه أن

يُبقي قدمه على كابح السرعة في الوقت الراهن، لأنّ هذه المرأة. . .

قالت ملكة:

ـ ما تزال قدرتك على الحبّ هائلة.

وكانت ما تزال تطوّقه بذراعيها وخدّها يضغط على وجهه. كانت رائعة ودافئة، وذات رائحة عطرة. كانت مدهشة فحسب.

ـ لماذا قلتِ هذه العبارة؟

ـ لأنّك لم تحاول أن تتحدّاني، ولا أن تستعرض أمامي. . .

ثم قبّلته قبلة رقيقة على وجنته. فكّر فولكان بأنّ العاطفة يمكن أن تكون لا حياة فيها، في حين أنّها ملتهبة وآسرة من غير ضرورة، وتجعل الناس يفقدون الأمل بالحبّ في بداية علاقة ما. ربّما هذا هو ما كانت تريد أن تقوله ملكة، ولكن هل يتعيّن عليها أن تصوغ كلّ شيء في كلمات؟

قال:

ـ أشعر أنّني في ورطة، فأنتِ في منتهى الصراحة.

تمتمت ملكة:

ـ أعتقد أنّ هذه صفة جيّدة.

ـ ليس دائمًا.

أصغيا إلى مقاطع رقيقة وشجيّة من كالاس وهما يتحدّثان عن الحبّ، وكيف ينتاب المرء الإحساس في بداية كلّ قصّة حبّ. بأنّه / أنّها التقيا مستقبلهما وأنّ حياتهما أصبحت في نهاية المطاف متوازنة وباتت لا تستدعي أيّ فرصة أخرى. طوّقها فولكان من

جديد، وكانت قبلتهما في هذه المرء مشبوبة العاطفة وأكثر اتّقادًا، على الرّغم من أنّ ملكة كانت مسيطرة على نفسها.

استمتع فولكان بصدق ملكة وإخلاصها، ولكنّه غضب بسبب سيطرتها الذاتيّة المستمرّة. وشعر أنّ كلّ كلمة وكلّ تصرّف يصدر عن هذه المرأة له صلة بهذه السيطرة. ما حاجتها إلى دليل؟ لعلّها أقدمت على هذا العمل كي لا تترك الأمور بيد الأقدار، بل هزمت السحر وأقعدت فولكان.

كانت منذ اليوم الذي التقيا فيه أوّل مرّة أكثر جرأة منه، محتفظة بموقع القائد. لهذا السبب شعر فولكان بالارتباك وهو جالس بجانبها، ولم يستطع منع نفسه من التفكير بأنّ صورته راحت تتحطّم. ماذا سيحدث إذا ما انقلب الاهتمام الذي كان يشعر به نحو ملكة إلى إنكار حادّ وانغماس في الملذّات يحرقان كلّ شيء قبل مرور وقت طويل؟ إنّ ضعفه سيجعله مريضًا وستزداد هشاشته أمام هذه المرأة الصعبة.

رنا إلى ملكة. لقد أخبرته أنّها أُغرمت بأديب من الأدباء في يوم ما. هل استطاعت أن تحبّه حبًّا غير مشروط، أم أنّ المرأة جرحت «أنويّة» الرجل بشخصيّتها الطاغية؟

ـ لماذا توفي الرجل الذي أحببتِ، أعني أديبكِ؟

التوَتْ قسمات وجه ملكة كأنّها تعاني ألمًا ما، وأسندت رأسها إلى الوراء على الأريكة لتخفي وجهها الذي أصبح بعيدًا من نور المصباح.

قالت:

ـ لم يعتقد أنّ أيّ شخص يسمعه.

وتوقّفت هنيهة، وأردفت:

ـ وعندما ظنّ أنّ العالم لم يعد عالمه بعد الآن، تخلّى عن الحياة.

ـ هل انتحر؟

ـ تمرّد أو انتحر.

ثم نظرت إلى ساعتها واسترسلت:

ـ ينبغي لنا أن نذهب الآن.

ونهضت مسرعة وكأنّها تبغي التوقّف عن الكلام في هذا الموضوع.

فكّر فولكان في نفسه: سوف نقاتل شاءت أم أبت. هكذا تبدو الأمور لي. لا يخلو أيّ حبّ من أخطاء. ورأى نفسه يسبح في مياه عميقة بلون الصدأ. لقد بدأ يسبح وهو في طريقه. ثمّة نافذة صغيرة مضاءة تلوح من على الساحل البعيد، وكان يسعى إلى الوصول إلى هناك مهما كلّفه ذلك من ثمن لكي يرى ما الذي تخبّئه النافذة من ورائها.

* * *

كانت الأنوار كلّها مشعّة في المنزل، ومازحت ضبّاط الأمن الواقفين قرب البوّابة، قبل أن يتوجّها إلى غرفة الجلوس في الدور العلوي، حيث احتشدت عشرات الشموع من كلّ الأحجام في كلّ مكان، مضيفة على المكان طابع الحلم. وفي الداخل، ثمّة عشرة أو

خمسة عشر رجلاً وامرأة وغيرهم من أشباه رجال. ثمّة من يعزف على آلة البيانو، وأخرون يرقصون. أمّا الذين انتشروا فوق الكراسي والأرائك فكانوا يتناولون الطعام ويتبادلون النكات والمزاح. واصلا سيرهما بين الطاولات الوسطيّة التي احتشدت فوقها الكؤوس والأطباق.

ولاح لهما رجل مسنّ شبه عار وفي حالة من البلادة واللامبالاة ـ وإن كان على استعداد للانقضاض والهجوم في أيّ دقيقة! وهو يرقص رقصة تانغو مبالَغًا فيها رفقة غلام شابّ يضع مساحيق التجميل على وجهه ويرتدي بنطالاً ضيّقًا جدًّا. كانت عينا الشابّ تجيلان الطرف في أنحاء المكان بتركيز شديد. تنبّه فولكان إلى جسد الغلام الجذّاب وذراعيه القويّتين وظهره الأملس.

سارت ملكة إلى عمّها. ثمّة أربعة أو خمسة أشخاص جالسين على الأريكة في الركن الدائري، والذئب العجوز اتّخذ مجلسه في أفضل مقعد، وبدا كأنّه زعيم يتولّى حماية قبيلته. وسرعان ما تمّ التعارف، واستقرّت ملكة وفولكان في أريكة صغيرة قبالة الركن.

كان نيازي بك قد وضع ذراعه فوق كتف حيالي، في حين كانت إحدى ركبتي كلّ واحد منهما تلامس ركبة الآخر. ولاح على الرجل العجوز أنّه مستمتع بحالة من حالات اللذّة المرهقة ومتعة السلطة. كان أكثر ما يجذب النظر إليه هو عمق عينيه وقوّتهما. عيناه، كما يبدو، خضراوان غامقتان تشبهان نظرة فهد ثاقبة. وكانت الغضون العميقة تنحدر على جانبيْ أنفه لتصل إلى زاويتي فمه. وكانت هيأته وأسلوبه في توجيه الأوامر لتنفيذ طلباته يشبهان أسلوب زعيم مافيا أفلح في الارتقاء إلى مستوى فوق مستوى بيئته ومحيطه،

وبات أكثر صقلاً وتهذيبًا. وبعد أن رحّب بملكة وفولكان ترحيبه المتحمّس الأوّل، ثبّت عينيه على فولكان برهة وجيزة قبل أن تتحوّل تحديقته الفضوليّة إلى ملكة. وفي نهاية الأمر، ابتسم. هذه هي المجاملة اللامبالية وشبح الابتسامة المصطنعة، ما ينبغي إظهارهما أمام شخص ما على نحو عابر. الواضح أنّه لم يجد في فولكان ما يثير الاهتمام.

أرخى فولكان بصره في اتّجاه حيالي الذي كان مظهره منافيًا للذوق السليم أكثر من غيره، والذي سرعان ما كان يترك أثره في الناظر. كان قصير القامة لا يناسب طوله طول الرجال، وذا جسم رياضي. كان بدنه غضًا ومشدودًا كأنّه حيوان قويّ، سريع الحركة، لا بدّ أنّه رجل يتمتّع بالاكتفاء الذاتي، وأنّه يمنح اللذّة والمتعة للآخرين، كما ظنّ فولكان. كما يبدو أنّه كان مدركًا الإدراك كلّه أنّه الشخص الأهمّ، وهو أمر لم يتردّد لحظة في إظهاره بكلّ فخر وكبرياء. تملّكت الحيرة والدهشة فولكان للحظات لما يتّصف به حيالي من شدّة الإغراء، بشعره القصير جدًّا وعينيه الشرقيّتين الواسعتين وفمه الحادّ الذي يفترّ عن ابتسامة ساخرة. لقد ركّز الرجل الشابّ على الموسيقى، وكان يهزّ رأسه بحسب الإيقاع الموسيقي. ثم التفت نحو فولكان وحدّق إليه على نحو يشير إلى أنّه غير موجود.

كان الشخص المكمّل لهذه الصورة العائليّة السعيدة يتمثّل في خنثى منحرفة السلوك والملبس جلست بجانب حيالي. وبدت غاية في الجاذبيّة، ومقزّزة على نحو غريب في الوقت نفسه. وفكّر فولكان في هذا العالم المستقلّ بنفسه، ولم يتمكّن من فهم سرعة

الإيقاع الموسيقي الهائلة والحزن الذي تثيره في آن واحد. انتابه شعور بعدم الارتياح وبالوجوه، فالتفت ليلقي نظرة إلى ملكة، فرآها سارحة ببصرها إلى اتّجاه آخر، وركّزت عينيها في حيالي تمامًا. كانت أمارات هذا الرجل تشي بالغرور والنصر، وظهر كأنّه يسخر من عدوّ سقط في فخّه الذي نصبه له. وظنّ فولكان أنّ ثمّة مشكلة، أو حسابًا لم يسدّد بين ملكة وهذا الرجل. تقلّصت شفتاه الساخرتان اللتان كانتا تفصحان عن مكره ومتعته، وانكمش جسد ملكة مثل قطّة على أهبّة الانقضاض على ضحيّتها. وبينما كان فولكان يشعل سيكارة تساءل عن السبب الذي دفعه إلى المجيء إلى هذا المكان. ألم يكن الأفضل لو أنّه عرض على ملكة خياراته بدلاً من أن يتبعها؟

ثمّة امرأة فارعة القدّ، على درجة بالغة من الحسن والجمال تجلس بجانب نيازي. وكانت ترتدي قميصًا مقوّر الصدر ذا لون أحمر غامق وسروالاً ضيّقًا أسود اللون.

كانت تنعم عليه باستمرار بكلمات وإشارات رقيقة غير مبالغ فيها. مالت ملكة نحو فولكان وهمست بأذنه أنّ هذه المرأة ليست سوى رجل بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وأنّه متزوّج ولديه طفل صغير.. وأنّه يكسب رزقه من شذوذه الجنسي، وأنّ زوجته هي التي تلبسه ثيابه قبل أن يذهب إلى العمل، وأنّ اسمه الليلي هاندان. يا للأسى! رجل بشحمه ولحمه، ولكنّه بغيّ... رجل وغانية في الواقع!!

أرخى فولكان بصره في عناية، وإن على نحو غير ظاهر، في اتّجاه حسن أو هاندان. رجل وسيم تروقه نعومة النساء ولكنّه يعرض

نفسه على الرجال من أجل أن يعيش. . . لا تلمسه، فهو يريد أن يصرخ، لا تلمسه!

ساوره حزن عميق نحو كلّ من كان يهوى أن يمثّل دور شخص آخر، أو اضطرّ إلى أن يتعلّم تمثيل دور. شيء ما يستهلك في كلّ لحظة من خلال الاتّصال الجنسي ليتحوّل إلى شخص واحد، فراق وطرق ورحلات ومسارب وتراكمات وصمت ومتوحّدون وجلّادون وضحايا يستمدّ كلّ واحد منهم المتعة من الآخر. وشاهد العناق المثير بين رجلين يقفان بجوار الحائط ويضغط أحدهما على ردفي الآخر ضغطًا قويًّا. إنّ ما يعرض في هذا المكان إنْ هو إلّا توتّر يستفزّ العنف، ناجم عن التناقض بين عالمين داخلي وخارجي.

رفعا كأسيهما وشربا نخبهما!

وبعد ذلك شربا مرّة ثانية.

ومرّة ثالثة. .

* * *

قدّم حيالي عرضًا قره قوزيًّا محتشدًا بالحوارات البذيئة، فجعل الحاضرين يضحكون ضحكًا مجلجلاً، وخرجت الضحكات والصرخات والهتافات عن السيطرة تمامًا.

ثم نهض نيازي بك وألقى كلمة عن الشعور المدهش الذي يراوده وهو بين الأصدقاء. وكاد أن ينفجر بالبكاء.

كانت الموسيقى الراقصة قد بدأت في حين استراح عازف البيانو وراح يحتسي كأسًا من الشراب. ولم يتجاذب الحاضرون أطراف الحديث كثيرًا، بل آثروا لغة العيون والجسد.

وضبط فولكان من جديد ملكة وهي تحدِّج حيالي بنظرة تنمّ عن شرّ مستطير ومزيج من الهيجان والحقد والرغبة. ولاحظ أثر التوقّع المفعم بالقلق في وجه المرأة الشابّة والطريقة المزدرية القاسية التي كان ينظر بها إليه. لقد شعر أنّه محطّم، فهذه المرأة مبتلاة بهذا الرجل إلى حدٍّ ما!

شعر أيضًا أنّ رأسه يتصدّع وكأنّ سلكًا من أسلاك التوتّر العالي قد انقطع ليعقبه انفجار وتمزّق مثير للحزن ولا سبيل إلى إصلاحه.

ما الذي دفعه إلى المجيء إلى هذا المكان؟ لا، الحقّ أنّه أحسن عملاً بمجيئه. ففي هذا الكرنڤال، أطلق هؤلاء الناس العنان لمشاعرهم الحقيقيّة الخفيّة، وشوّشوا الحديث الموحي بالذكاء وسيطرة العقل، وولدوا من جديد من رحم البساطة.

أيّ مشاعر حقيقيّة؟ وضع فولكان يده على ظهر ملكة وقبض على كتفها وضغط عليها ضغطًا قويًّا آلمها. دفعت ملكة رأسها إلى الوراء وحدَّجته بنظرة حادّة بان فيها بريق ثورة عارمة لبرهة وجيزة، فيما راح منخراها ينتفخان من شدّة الغضب. نظرة خفيّة متمرّدة... ثمّة ظلال من تحت عينيها وتورّد محتقن على عظام وجنتيها. التفتت التفاتة قويّة وحرّرت كتفها ونهضت من مكانها، وجذبت فولكان من يده:

ـ هيّا، لنرقص.

ردّ فولكان وهو يشعر أنّه مثل آلة تعطّلت على حين بغتة:

ـ لا بأس.

مَن هذه المرأة المتشبّثة بذراعه تشبّثًا طائشًا وغريبًا، وتتصرّف

مثل مراهقة مدلّلة؟ ما الذي يحدث؟ ما هذه المسرحيّة التي لا يمثّل فيها إلّا دورًا صغيرًا ومجهولاً؟

ـ هيّا، هيّا...

نهض فولكان من مجلسه ليحول من دون تحوّل المشهد إلى كوميديا رخيصة، وراح الإثنان يتمايلان في أحد جانبي غرفة الجلوس. كانت ملكة تنظر إلى الفضاء كأنّ مشاعر فولكان ليست بذات أهمِّيَّة، وكانت تبدو وقد ركّزت كلّ تفكيرها في عواطفها وأحلامها، أو ربّما كانت تعرض جمالها أمام مرآة غير مرئيّة. وشعر فولكان أنّه أكثر ثمالة ممّا هو في الواقع، وترنّح لحظة قصيرة وكأنّ ثمّة من ضربه على رأسه، ثم جذب ملكة نحوه في غضب، وهمس في أذنها:

ـ ذلك الرجل حيالي، أأنت مغرمة به؟

وعلى حين بغتة، خفضت ملكة من ذراعها وتراجعت إلى الوراء، وتقلّص فمها وكأنّها مشمئزّة.

ـ يا له من سؤال مقزّز. إنّه...

أمسك فولكان بذراعيها في صعوبة واضحة وضغط عليهما في اتّجاهه. وشعر بالغضب وبخيبة الأمل، ولا شيء غير ذلك. وراح الإثنان يستديران في خطوات أسرع ممّا مضى.

ـ ثم ماذا؟ أليس ذلك ممكنًا؟ بل هو مؤكّد. لقد شاهدت طبيعة النظرات التي كنتِ ترمقينه بها.

ـ أيّ نظرات؟ لو كان في وسعي لشربت من دمه.

ـ أهي الكراهية؟ صحيح؟

ـ منتهى الكراهية.

ـ لماذا؟

ـ إنّه دجّال. بل أنا أرتاب في أنّه مثليُّ الجنس. إنّه يخدع عمّي.

ـ ربّما كان عمّك هو الذي يلاعبه. ما الضرر الذي ألحقه بكِ.

ـ إنّك تتحدّث في قضايا لا تعرف شيئًا عنها يا فولكان.

ـ يُقال إنّ ثمّة خيطًا رفيعًا يفصل بين الرغبة في القتل والرغبة الجنسيّة.

ـ هذا ما يقال عن الشاذّين جنسيًّا!

ـ لكنّ الصحيح هو أنّ الكراهية هي الوجه الحقيقي للحبّ. أليس الأمر كذلك؟

ـ أليس الوقت مبكرًا جدًّا على إظهار الغيرة يا فولكان بك؟ أنا لا تروقني مثل هذه الأشياء أبدًا.

ـ آه، لو عرفت ماذا تحبّين وماذا تكرهين! على فكرة، لماذا أتيتِ بي إلى هذا المكان؟

ـ أنت غرّ، تعوزك اللياقة في هذه الليلة. لقد أردت أن تكون في رفقتي. صحيح؟

ـ لا بأس. آسف.. لنجلس.

* * *

كان الجالسون إمّا يتكلّمون كلّهم أو يلوذون بالصمت، وهو الأعمّ الأغلب.

كانت الموسيقى قد استُبدلت بأخرى غيرها، وامتلأت الغرفة في فترة قصيرة بموسيقى الهوائيّات من بيزه[١] وفردي[٢] لتعقبها من بعد ذلك موسيقى الروك السريعة والصخّابة.

في أحد أجنحة غرفة الجلوس، راح بعض الناس يمارسون الجنس تحت ضوء شمعة.

الشعور الطاغي في هذا المكان هو الرغبة التي كانت ذات أهمِّيَّة تفوق الكلمات التي لا معنًى لها. ولعلّ هذا هو السبب في أنّ الموسيقى كانت صاخبة جدًّا على نحو يكفي للحيلولة دون سماع أيّ حديث. فاللغة لا فائدة منها عندما يكون عبق الرغبة منتشرًا في الجوّ، مع ضوء الشموع المرتعش وبقع أحمر الشفاه وبصمات الأصابع على الكؤوس والنبيذ وغطاء الموائد والمرآة والأزهار.

ليس ثمّة ضرورة للكلمات اليوميّة من أجل التعبير عن الرغبة. فاللغة الوحيدة التي يمكن أن تكون مفيدة في مثل هذه المواقف هي لغة الشعر والموسيقى. وفكّر فولكان: ينبغي لي أن أنصرف من هذا المكان، لأنّني لا أنتمي إليه وهو ليس بمكاني، وأنا رجل متخلّف ومحافظ، لا وجود له. هذا كلّ شيء.

* * *

(١) ألكساندر سيزار ليوبولد بيزه (١٨٣٨ ـ ١٨٧٥): موسيقار فرنسي. ولد في باريس، له روائع مسرحيّة غنائيّة منها «صيّادو اللآلئ» و«كارمن» و«جميلة» (المترجم).

(٢) جيوسبي فردي (١٨١٣ ـ ١٩٠١): موسيقي إيطالي اشتهر بتأليف الأوبرا، منها «ريغوليتو» و«لا ترافياتا» و«عايدة». تميّز فنّه بالدراما وبنفحة غنائيّة قويّة (المترجم).

ـ هل أنت على ما يرام يا فولكان؟ هل ثمّة مشكلة؟

كانت ملكة هي المتحدّثة. وظنّ فولكان أنّها تحاول أن تحميه. إنّها متأسّفة بسبب إحضاري إلى هنا. كان شعرها البنّي مؤطّرًا بالضوء المنبعث من الجهة الخلفيّة، وبدت وكأنّها مستمتعة الاستمتاع كلّه. كان حيالي واقفًا بجانب الطاولة، وفجأة أمسك بذراع الفتى الذي كان يرقص رقصة التانغو وضغط على مؤخّرته.

قال فولكان من دون أن ينظر إلى وجه ملكة.

ـ إنّ حيالي رجل خطير، فانتبهي لنفسك.

قالت ملكة:

ـ هذا ما أحاول صنعه. لقد أسأت فهمي كثيرًا.

كان فولكان يحدّق إلى خنثى ذات شعر أشقر مبالغ فيه، لا ينسجم وملامحها الخشنة، وكانت شفتاها اليابستان مطليّتين باللون الأحمر الغامق، وكان نهداها اصطناعيين. وقد دأبت على الرقص من دون وعي في منتصف الغرفة. وشاهد فولكان شخصين أحدهما بدت عليه مظاهر النساء والآخر له مظهر الرجال. وكانا متعانقين عناقًا هادئًا، عيونهما مغمضة وهما يدوران في الغرفة غير مباليين بالموسيقى، ومستمتعين بالثنائي الذي خلقاه، وازدادت وطأة روائح دخان السكائر ومساحيق التجميل والبودرة والشراب والعرق. وفكّر فولكان أنّ هذه المجموعة من البشر البعيد أحدهم عن الآخر، وإن لم يكونوا غرباء تمامًا، ليست مختلفة عن المجموعة التي ينتمي إليها. فقد جاؤوا كلّهم إلى مكان صغير لكي يرى أحدهم الآخر، ولكي يرقصوا ويتوزّعوا زوجًا زوجًا، شأنهم شأن الآخرين. حاول

أن يجري بعض التعديلات في فكره، وأن يقبل الوضع كما هو من أجل أن يستمتع شخصيًا. وتناول كمّيّة إضافيّة من المشروبات، كأسًا تلو الكأس. لحسن الحظّ، كان شراب الويسكي جيّدًا.

وعندما حان موعد قطع قالب الحلوى، ساد الصخب والضوضاء[1]. وكان الحاضرون يصيحون بأعلى أصواتهم وينشدون عيد ميلاد سعيد على إيقاع نغمات الموسيقى، ويضحكون ضحكًا مدوّيًا.. يناكد أحدهم الآخر وتبدو السعادة على محيّاهم وهم غارقون في خضمّ الضوضاء. كان فولكان هو الغريب الوحيد بكلّ ما في الكلمة من معنًى.

كانت ملكة قد مدّت عنقها وبسطت ذراعيها من حول عمّها لتساعده في إطفاء الشموع. ذراعاها العاريتان، فمها، رقبتها، خصرها، نهداها، وكلّ ما فيها آية من الحسن والجمال! وكانت تبدو رائعة في هذا الجوّ. زد على ذلك، أنّها كانت واثقة من مكانتها ومن هالتها. الحاضرون في هذا المكان هم تحت الأضواء، والذي لا ينسجم في أيّ موقع، والكئيب والاعتيادي هو نفسه. ربّما كان كلّ فرد من هؤلاء الأفراد يبحث عن جنّته التي من شأنها أن تحوّل حياته إلى أكذوبة قابلة للتصديق، مدركًا أنّ الجحيم هو الذي سيحقّق النصر في كلّ مرّة.

عندما رجعت ملكة وجلست بجانبه، أخبرته في فتور أنّ التعب يبدو عليه وأنّ في وسعه الانصراف إذا شاء ذلك. أمّا فهي فسوف

---

(١) استخدمت المؤلّفة هنا كلمة بانديمونيوم **Pandemonium** وتعني عاصمة الجحيم التي ورد ذكرها في ملحمة «الفردوس المفقود» للشاعر الإنكليزي ملتون (المترجم).

تلبث بعض الوقت، إذ ليس من المستحبّ أن تترك عمّها وتمضي في سبيلها. وافق فولكان على هذا الاقتراح بشيء من الارتياح والبهجة. وفكّر أنّه تغلّب على هوس سخيف بالحبّ. نعم، يستحسن به أن يغادر هذا المكان، فقد أصيب بالصداع، ويفترض به أن ينهض في صباح الغد الباكر. سار الاثنان وسط جموع الناس وتقدّما نحو السلالم، وتمنّيا لبعضهما بعضًا ليلة طيّبة بكلمات اعتياديّة مألوفة غير ضروريّة ولا معنًى لها.

في تلك الليلة، راود فولكان حلم عن رجال عراة ومشاهدة مطاردة دمويّة مرعبة. وامتلأت أذناه بضجيج كلّ المركبات التي تسير مسرعة من إحدى نهايتي العالم إلى النهاية الأخرى، وبصخب الشوارع المزدحمة والمظاهرات وخطوط الإنتاج. وشاهد أشخاصًا يتطايرون في الجوّ بعد انفجارات مروّعة، وقصاصات من الورق تتطاير وعليها كتابات غير مفهومة. وكان إيقاع الأغاني الغراميّة المتشابهة يطغى على كلّ هذه الأشياء.

* * *

١٢

وثبت إيلام داخل سيّارة أجرة سيرفيس لتذهب إلى حيّ تقسيم. كان ذهابها إلى المعمل بمفردها منافيًا للقواعد والقوانين، ولكنّها كانت ترى أنّ طلب سيّارة غير ضروري إذا ما توجّهت إلى مكان قريب جدًّا. وكانت جالي خانم قد أشارت عليها بأن تنتقل إلى شقّة في منطقة أتيلر وتسكن رفقة فتاتين اثنتين، ولكنّها لم تقبل لأنّها تريد أن تظلّ مستقلّة مهما كان الثمن!

ترجّلت من سيّارة الأجرة أمام الفندق واستقلّت المصعد إلى الطبقة السادسة خائفة، وجلة، ولكنّها حاولت أن تحافظ على رباطة جأشها. سارت على امتداد الممرّ وهي ترنو إلى أرقام الغرف حتى تصل إلى الغرفة ذات الرقم ٦٧٣. كانت في حاجة إلى عديد الكلمات كي تعرف سقوطها في الخطيئة، وإلى مبرّرات مهمّة لتغفر لنفسها، ممّا دفعها إلى التوقّف عن التفكير. لبثت على مدى أيّام تسبح في سديم معتم، مقتربة وبوعي من الوضع الذي آلت إليه.

كانت تحاول أن تصدّق أنّ حياتها الجديدة التي لا تصطدم بمفهومها عن العالم سوف تعلّمها من جديد ـ وللمرّة الأخيرة الآن ـ حقائق الحياة البسيطة والعارية. ووعدت نفسها أنّ هذه عمليّة موقّتة، ولن تستغرق وقتًا طويلاً.

ما عدد الرجال الذين توجّهت إليهم؟ لم تعد تعرف. وكان أوّل زبون تذهب إليه يسكن في ڤيلّا مؤلّفة من ثلاث طبقات تستخدم مكانًا للّقاءات، في مجمّع سكني في حيّ جنكلكوي. وفي وسع الشخص الذي يطلب الفتيات أن يختار بين فندق أو مسكنه الخاصّ به أو المكان الذي تحدّده له الشركة للّقاء. وكانت الڤيلّا تحتوي على غرفة جلوس مترامية الأطراف في الطبقة الواقعة تحت الأرض وعلى أربع غرف نوم وحمّام واسع في الدورين الآخرين. وكذلك هناك شرفة مطلّة على الحديقة.. وكان الأثاث والترتيبات الموسيقيّة وغيرها من التفاصيل التي منحت المنزل كلّ الراحة المتوقّعة.

وكان للبيت مدبّرة في خريف العمر من أصل روسي، وتحسن التكلّم باللغة التركيّة. تسكن في شقّة مشيّدة في أرض الحديقة، مؤلّفة من حجرتين ومطبخ. وكانت هذه المرأة ضخمة البنيان ذات الصوت الأجشّ تدعى لارا، ولكنّ الفتيات يسمّينها كي.جي.بي[1]، وكانت مسؤولة عن التنظيف وإعداد وجبات الطعام والاهتمام بالقادمين والذاهبين وحفظ النظام وجباية الأجور. وكان المنزل من ممتلكات امرأة تُدعى آيسيفيم التي تملك أيضًا دكّانًا في ماشكا، وهي مديرة الشركة، وبحسب ما تردّده الإشاعات، عضو الشرطة السرّيّة سابقًا.

---

(١) هي الأحرف الثلاثة الأولى لمختصر لجنة أمن الدولة (السوفيتيّة)» (المترجم).

وكانت قد بدأت هذا المشروع شراكة مع امرأة تُدعى بتول، أو بيتي، تدير مركزًا للرشاقة والرياضة في أتيلر. وكانت هذه المرأة تسكن رفقة رجل يدير ناديًا ليليًّا في كوروشيزم، تلك المنطقة الملائمة لعرض الفتيات وتسويقهنّ.

كانت الفتيات يقضين وقتهنّ في جنكلكوي إذا كنّ يشتغلن ليلاً أو إذا كانت ثمّة حفلة جماعيّة. وكانت أعلى درجات الاهتمام والرعاية تبذل من أجل عدم التسبّب في إثارة أيّ مشكلات من شأنها أن تزعج الأسر التي تقطن في الفيلّات الأخرى، وكانت الموسيقى منخفضة دومًا. كانت لارا امرأة مقتدرة وربّما أيضًا مديرة ذات تجربة من أوجه متعدّدة، وكانت أيضًا امرأة لا تعرف الوحمة ولا تقدّم تنازلات، ولكنّها من جهة مغايرة، تؤدّي واجبها من دون أن تشوبه شائبة. فالمواعيد تنظّمها سكرتيرات مكتب بإشراف جالي مع ضمان عدم التداخل في المواعيد. وفي إحدى المرّات، كانت إيلام قد جلست في غرفة الجلوس رفقة فتاة أخرى مدّة ساعة من الزمان، ثم وصل زبونها الاعتيادي، فمضت في سبيلها. وكان الزبون يسمّى هنا «رزمة».

وفي المرّة الأولى التي مارست إيلام فيها عملها، كان زبونها شابًّا أسمر البشرة، رومانسي النزعة، مجاملاً وثمّة عناية واضحة في اختياره كي لا يثير من خوفها. ولبثا معًا من الساعة التاسعة مساءً حتى منتصف الليل، ممّا اضطرّ إيلام إلى النوم في تلك الليلة في الفيلّا بعد أن انصرف الزبون. وكان والد الرجل يملك متجرًا مشهورًا لبيع الأحذية النسائيّة. وقد استمع الإثنان إلى الموسيقى واحتسيا النبيذ معًا وتجاذبا أطراف الحديث، وإن كان حديثًا سطحيًّا

أثناء تظاهرهما بالمغازلة. وفي وقت لاحق مارسا الحبّ ممارسة مشبوبة العاطفة.

كانت إيلام قد أنفقت ستّة أشهر كاملة من دون أن تمارس الحبّ بعد انفصالها عن سيد، ولهذا استمتعت استمتاعًا كبيرًا بممارسة الحبّ رفقة هذا الرجل المدهش، الذي كان رائعًا من كلّ النواحي ونظيفًا، فأعجبها إلى أبعد الحدود. في جوّ ذلك المنزل المريح والطبيعي، ورقّة الرجل ومعاملته إيّاها معاملة أنيقة، استيقظ جسدها من دون أيّ جهد واستجاب للزبون استجابة سريعة. وسارت تلك التجربة الأولى، التي أفزعتها سلفًا، سيرًا حسنًا دفعها إلى التعجّب، بل شعرت بشيء من الإهانة إذْ قبلت أن تأخذ مبلغًا من المال لقاء المتعة التي عاشتها. سار كلّ شيء كما قيل لها، فالعمل الذي تؤدّيه لا ينطوي على مخاطر ولا على أيّ سلبيّات. كما أنّ عدم الإحساس بالقذارة شيء مدهش.

وفي وقت لاحق فكّرت في أشياء أخرى. شيء طبيعي. إنّ في وسع مثل هذا الرجل الجذّاب أن يحصل على أيّ امرأة يريد. ما الذي دفعه إلى أن يكون في رفقة امرأة مدفوعة الأجر؟ هل يعاني قصورًا في موضوع الحبّ؟ ألا يقدر إلّا على مضاجعة المرأة التي يدفع لها أجرها فقط؟ هل ثمّة خدش في صورته النقيّة يجعله يفضل مثل هذه الصداقة المبهمة؟

من يدري؟ ثمّة أشياء كثيرة كانت تأمل أن تعلّمها الحياة إيّاها، بضمنها كلّ ما أرادت أن تعرفه عن الجنس الخشن.

كان الزبون الثاني مختلفًا إلى حدٍّ ما، إذْ كان رجلاً ناضجًا ومهيبًا، يبعث على الاحترام، وكانت جالي قد أخبرتها أنّه عضو في

البرلمان، ولكنّه راح أثناء الساعة برمّتها يؤنّبها قائلاً:

ـ أنت لا تفهمين ما أقول لك. صحيح؟

كما أنّه شوّش فكرها وأزعجها ووبّخها بملاحظات متتالية مثل: افعلي هذا الشيء، لا تفعلي ذلك الشيء، يا لك من فتاة غريبة الأطوار. وعندما راح يقذف السائل المنوي، كاد ينقلب إلى كلب مسعور، يصرخ ويصيح على نحو دفع إيلام إلى الذعر والهلع معتقدة أنّه يحتضر. وكانت ممتنّة لأنّهما كانا في المنزل وليس في أحد الفنادق. وعندما شكت أمره إلى جالي تلقّت الردّ: إنّه رجل طيّب جدًّا، ولكن زوجته اضطهدته وبالتالي هجرته، وينبغي لك أن تعامليه بتسامح ولا تبخلي عليه بالتمتّع بشيء، بل نفّذي رغباته.

ظنّت في البداية أنّ هذه الوظيفة لا صلة لها بالعارضات أمام المصوّرين، أو أنّها ستصبح وجهًا إعلانيًّا ذائع الصيت كما كانت تأمل ـ أو لم تأمل ـ عندما بدأت العمل، لكن ثمّة تطوّرات في ذلك الموضوع، فعلى سبيل المثال، رافقت رجلاً في صناعة النسيج وَعَدَها بأن يستخدمها عارضة. القضيّة الأساسيّة هي أنّ هذا العمل يدرّ عليها ربحًا وفيرًا، وهو مضمون، وكانت بحاجة إلى أن تعمل. وكما هو متوقّع، لم تتلقّ أيّ رد أو اقتراح جادّ يقنعها من أيّ جهة من تلك الجهات التي أرسلت لها نبذة مختصرة عن سيرتها الذاتيّة.

* * *

توقّفت أمام الغرفة ٦٧٣. هذه هي نهاية الطريق، فقد ضاجعت أكثر من عشرين شخصًا في غضون شهرين، ولكنّها ما تزال عاجزة عن التخلّص من مخاوفها. فخلعت معطفها وحملته على ذراعها.

كانت ترتدي تنّورة قصيرة وقميصًا ضيّقًا بلون الفستق الأخضر. قرعت الباب ودخلت، وتركت معطفها على مجموعة من الحقائب. وبعد أن ألقت بالتحيّة على الرجل ابتسمت له. كان الرجل يجلس على كرسي بذراعين بجانب النافذة ويراقبها باهتمام، ويبتسم لها ابتسامة تنمّ عن شعوره بالزهو لظنّه أنّه أرفع قدرًا منها. فردّت على ابتسامته بشيء من الوجل وحبّ الفضول، محاولة أن تبدو مسترخية ومتحرّرة من أيّ توتّر عصبيّ. ألن ينهض ويصافحها؟ يا له من رجل فظّ! كيف وأين سيبدآن؟ ما الذي سيتحدّثان عنه؟

اختلست نظرة من حولها ورنت في حيطة وحذر إلى الألوان الفاتحة التي لا تنسجم ولون السماء الرمادي من خلف الستائر. وأرسلت نظرة إلى السرير وأبواب خزانة الثياب ومرآة منضدة الزينة والمذياع الذي ينبعث منه صوت خافت، وكأنّها ترى كلّ هذه الأشياء أوّل مرّة. اغتصبت ابتسامة أخرى، غير أنّ جمود وجهه دفعها إلى أن تفقد شجاعتها برهة وجيزة. الواضح أنّه اعتاد أن يصدر الأوامر من مجلسه على الكرسي وأن يُطاع. لهذا ينبغي لها أن توليه كلّ احترام.

ـ اقتربي أيّتها الحبيبة! ما اسمك؟

ذكرت اسمها واتّجهت إلى مصدر الصوت والشعور يلازمها بأنّها تطير على ارتفاع يصيبها بالدوار، وكأنّها تدخل اختبارًا عاجزة عن اجتيازه. إنّها غير مضطرّة إلى أن تكلّم هذا الرجل الأناني من دون شفقة. على أيّ حال، يصعب الكلام للتفوّه بشيء غير ذي قيمة. لهذا اكتفت بقول «نعم» و«لا» بضع مرّات. كان الرجل قد فتح ياقة قميصه البيضاء إلى أسفل صدره المكسوّ بشعر أسود كثيف.

وحاولت أن تفكّر قليلاً في هذا الرجل بوصفه أشبه بالبشر أو أن تفكّر بكلمة محدّدة أو بأيّ شيء آخر، ولكنّها لم تستطع. جسد ضخم وشفتان غليظتان وخدّان متهدّلان. وفي العينين البنيّتين الجاحظتين ما يشير إلى أنّه يريد أن يقول بكلّ صلافة وغرور إنّه يعرف كلّ ما يجري ويحدث في العالم. كما لاحت على وجهه أمارات مخيفة تشي بالترفّع على الآخرين، وهو ما جعل إيلام تشعر بفقدان الأمل...

مسكين! يا لبؤس مظهره! لديه عمل كثير ينتظره. وهو مضطرّ إلى حضور الاجتماعات، الواحد تلو الآخر في الساعات المحدّدة، من الصباح حتى المساء، وإلى إدارة مجموعة كبيرة من الناس، وأن يتّخذ القرارات الضروريّة، وأن يطوّر المشاريع. لعلّ هذا الهروب بين اجتماعين يفيده في التقليل من الجهد الذي يبذله. ولم يكن رائق المزاج كي يتجاذب أطراف الحديث مع عاهرة عاديّة في هذه الساعة المتخيّلة التي احتفظ بها للهروب من الواقع. وإذا اقتضت الضرورة، فإنّها ليست كذلك، أمّا إذا دعته الضرورات فسوف يشتري شيئًا ساذجًا مثل قطعة فنّيّة أو من الخزف. وفكّرت إيلام: انظري إليه! إنّه بحاجة إلى المتعة، ولكنّه لا يبالي بالشيء الذي سيبعث فيه المتعة. إنّه يريد أن يصل الرعشة الجنسيّة، غير أنّه مشمئزّ إذْ سيصبح حميم المرأة التي سيقذف عليها سائله المنوي! ومن دون التوقّف عن التفكير بالشيء الذي يفتقر إليه، فإنّه سيحاول فتح طريق لنفسه بين ساقيْ دمية جميلة في نطاق مدّة محدودة. إنّه يفعل كلّ شيء من أجل أن يحتفظ بهذا السرّ بعيدًا عن مسامع موظّفيه وعن زوجته الممانعة والكارهة والضعيفة الهمّة، وعن أبنائه الراشدين وعن

سكرتيرته التي يسعى جاهدًا كي لا يغويها، بل حتى عن الله إن كان ذلك ممكنًا. لكن لسوء الحظّ، ها هو من جديد، على مسرح الجريمة.

مسرح الجريمة... غرفة فندق مترامية الأطراف ذات جدران صفراء اللون... وستائر مسدلة... مصباح جداري يتلألأ من فوق المرآة... سرير مزدوج مغطّى بغطاء بلون العسل، مصباحان على جانبيّ السرير... كلّ شيء غير مألوف، كذلك الأشكال والمشاعر... الكلمات التي توضّح كلّ شيء ليست سوى مضامين، وصور.

جلست إيلام على الكرسي قبالة الرجل، واضعة ساقًا فوق أخرى. كانت الغرفة تطفو أمام ناظريها، شعرت كأنّها تحت تأثير مخدّر، ولم تشعر بأنّها غير مرتاحة أكثر ممّا ينبغي. كانت تعلم أنّها في مكان ما، ولكنّها لا تدري أين هو مكان صورة الشخص «الفكرة». لم تتوقّع أن تجد مكانًا أليفًا في كلّ الأحوال. وعلى الرّغم من ذلك، سيكون شيئًا لطيفًا لو تجاذبا أطراف الحديث قليلاً وأفصحا عن نفسيهما وتعرّف أحدهما إلى الآخر إلى حدٍّ ما. ألا يتمكّن هذا الغبيّ الأحمق من فتح فمه قليلاً؟ ألا يستطيع الحديث عن الطقس أو المرور أو الموسيقى المنبعثة من المذياع؟ لماذا تهرب الكياسة وروح المجاملة من مثل هؤلاء البشر؟

شعرت بعينيّ الرجل تحدّقان على نحو بغيض إلى جسدها وساقيها، فحاولت أن تتذكّر ما الذي ينبغي عمله للبدء في حديث أو علاقة في مثل هذه اللحظات. لقد تعلّمت أنّ بعض الرجال يحبّون ممارسة العادة السرّيّة وهم لا يفعلون شيئًا سوى إرخاء بصرهم، في

حين يصل آخرون إلى الرعشة الجنسيّة وهم يرضعون حلمة الثدي أو أصبع القدم. وثمّة نوع ثالث من الرجال يفضّلون تلقّي الضربات أو أن يُعاملوا معاملة الكلاب وغير ذلك من الممارسات التي لا معنى لها. لقد تدرّبت على مدى خمسة عشر يومًا وأظهرت تقدّمًا جيّدًا. كما أنّها طبّقت بعض الحالات تطبيقًا عمليًّا... لكنّها على الرّغم من كلّ ذلك، ارتبكت واضطربت، إذْ يحدث أيّ تطوّر نحو أيّ من هذه الأفعال على مدى الدقائق العشر الماضية.

كانت الفتاة في الشركة قد أخبرتها بأنّ الرجل لا يروقه تناول الشراب، وأنّه يتوقّع من الفتيات اللواتي يأتين إليه أن لا يكنّ قد شربن أيّ شيء. الحقّ أنّ كأسًا من شراب مسكر يفيد في التمهيد للعمليّة إلى حدٍّ ما. ربّما في وسعهما الحديث عن السيّارات لماذا؟

سألته:

ـ ماذا تحبّ؟ إنّني لا أعرف ما اهتماماتك. كيف نبدأ؟

في البدء، بدا هذا السؤال عامًّا من وجهة نظرها، وهو سؤال قابل لكلّ التأويلات، لكنّه في هذه الظروف سؤال غاية في الوضوح وموجّه نحو الهدف، وهذا هو المطلوب.

ـ هل أنت جديدة في المهنة؟ قالوا لي إنّك جديثة العهد، فهل هذا صحيح؟

تورّد وجهها ارتباكًا وأزاحت إحدى ساقيها عن الأخرى، ولم تجد ضرورة في الإجابة.

قال الرجل:

ـ أمّا بخصوص ما يعجبني، فإنّني أريد أن نبدأ بالاستثارة،

لأنّ عضوي لا ينتصب من تلقاء نفسه، لهذا ينبغي لك أن تبذلي جهدك وإيّاه. فنحن لم نحضر إلى هذا المكان للجلوس فحسب. صحيح؟

نهضت إيلام من مكانها وحاولت أن تحتفظ بهدوئها. في الأشهر الأولى من عملها في هذه الوظيفة، كان في وسعهم أن يرتّبوا لها أشخاصًا أكثر تمدّنًا وأكثر حساسيّة. هكذا ظنّت إيلام. نعم. لأنّه يستحيل عليها الشعور بالراحة بين هاتين الساقين القصيرتين كثيفتيْ الشعر وعضو الذكر في فمها. وليس ثمّة رقّة إنسانيّة في هذا الجسد، ولا صدر يمكنها من أن تلقي برأسها عليه، ولا كلمات في ذلك الفم القبيح لتخفيف ألمها. لا شيء سوى الخواء من البداية حتى النهاية، خواء يمكن تحمّله لقاء أربعمائة دولار في الساعة! حسنًا. ماذا كانت تتوقّع؟

ـ اخلعي ثيابك يا حبيبتي! كلّها باستثناء أربطة الجواريب. لقد طلبت ذلك عندما اتّصلت هاتفيًّا. أنتِ لديكِ أربطة الجوارب. صحيح؟

تردّدت لحظة. حسنًا، ولكن يتعيّن عليها أن تحصل على المال أوّلاً. تلك هي التعليمات. التعليمات مهمّة ولا ينبغي نسيانها. وعندما يكون الأمر كذلك، فإنّ من حقّ هذا الأخرق أن يراها مثل أيّ سلعة. وهنا أمسك الرجل بمظروف من فوق منضدة بجانبه وقدّمه لها، وكأنّه فهم ما كان يدور في خلدها. فما كان من إيلام إلّا أن أخذته ووضعته في عجالة داخل حقيبتها.

لم تعد ثمّة ضرورة لأيّ كلمات مفيدة أو رقيقة أو مقاربة تفاهم ذات معنى. كانت قد حفظت عن ظهر قلب الكلمات الجنسيّة

الضروريّة، والطريقة التي ستخلع بها ثيابها أو تستخدم فمها ويديها وعضلاتها. كما أخذت على عاتقها أن تتذكّر أنّها أوّلاً وقبل كلّ شيء أنثى من ذوات الأثداء، وعليها أن تطيع مذعنة ومنقادة، وأن تسير بكعبين عاليين، وأن تهب نفسها بحسب مختلف الأذواق.

فهي قبلت طواعيّة أن تستلقي على سرير التعذيب في سجن يلوّث روحها إلى الأبد. رفعت من صوت المذياع المثبّت عند رأس السرير، فراحت الموسيقى الأجنبيّة اللطيفة تنساب منه، وأخذت تخلع ثيابها وهي تؤدّي حركات دائريّة وتعمل على إبراز نهديها وردفيها، وتتموّج إلى أعلى وإلى أسفل، وتجثو منفرجة الساقين، وتلوي خصرها وكأنّها تؤدّي رقصة. تخلّت عن ثيابها قطعة فقطعة ما عدا أربطة الجوارب السود.

أمر مدهش. فكلّما خلعت قطعة من ثيابها وهي تدور في مكانها، ازدادت بعدًا عن الإحساس بنفسها، مقنعة نفسها بأنّها جسد صامت يتألّف من أعضاء جميلة المظهر ومن ثقب مخصّص للإيلاج، ويرجع السبب في هذا إلى أنّ الجسد قادر على تبنّي نفسه فضلاً عن أنّه ليس حقًّا تلك الآلة المعقّدة. ثمّة كلمات قليلة لاختصار ذلك، كما أنّ كلّ فرد يعرف هذه اللغة المرئيّة والاعتياديّة. بل هي ليست لغة، وإنّما صيغ وعبارات مختصرة ومحفوظة عن ظهر قلب. وفي ظلّ مثل هذه الظروف، لم يعد ثمّة ما يستدعي الاكتشاف.

الجزء الصعب كان يتمثّل في أن تعود إلى نفسها من خلال الجسد، وأن تسمّيه وأن تشعر به شعورًا عميقًا.

نقلت نفسها إلى صحيفة بيضاء، إلى جسد بلا وجه وبلا اسم

وبلا علامة وبلا هويّة، لا أن تكون امرأة انتظرت ملاطفة الأيادي الرقيقة التي لا تشعر بالرغبة إلّا لمن أحبّت. ليس صعبًا عرض جسد لا يضطرّ أحد إلى الشعور نحوه بأيّ مشاعر وأن يمنحه الشكل المطلوب، وأن يجعله ينفّذ الواجب المطلوب منه. قد يكون مميتًا في نهاية المطاف، ولكنّه ليس صعبًا. وشاهدت الرجل وهو يخلع عنه ملابسه من منطقة الخصر وإلى أسفل وبحركات صغيرة وهو جالس في مكانه. وغمرتها السعادة معتقدة أنّها لن تجد صعوبة في تنفيذ أوامره وفي الاستجابة لمطالبه. ووجدت نفسها تهبط مسرعة إلى أسفل، والأهمّ من هذا، أنّها راحت تؤدّي عملها بملء إرادتها ورغبتها بوصفها كائنًا حسّاسًا ومعقولاً. لم تشعر أنّها تؤدّي عملاً خارج السياق، فقد سبق لها أن اضطرّت إلى محاولة ذلك مرّات ومرّات. وعلى أيّ حال، بدا لها كلّ شيء ممكنًا وجوهريًّا عندما فتح أحدهم عينيها ما دام الأمر لا ينطوي على أوهام. عملها هو أن تستسلم وأن تمحو نفسها، وأن ترجع إلى ظلمة جسدها الخصبة، وتنظّف ذاكرتها وتنسى عامل الزمان.

مرّت بها لحظة من الزمان حاولت أن تنظر فيها إلى الرجل بوصفه أبًا أو أخًا أو قريبًا أو حتى زوجًا. سألته عن اسمه، فردَّ الرجل باقتضاب: أحمد محمّد. لا، ليس كذلك، إنّه ليس شخصًا يمكن أن يطلق عليه أيّ اسم من الأسماء.

كما أنّه ليس حتمًا واحدًا من الناس المقرّبين إليها، ولا واحدًا من الذين يمكنها أن تتصوّرهم. فهو حتى تلك اللحظة لم يتفوّه بكلمة حبّ واحدة ولا بعبارة تعجّب أو توبيخ. المؤكّد أنّه وجد صعوبة في الكلام على الشيء الوحيد الذي ألزمه كلّ هذا الصمت.

كانت عيناه مشعّتين، كما أنّه كشف عن عضوه النائم أمام الفتاة. هذا كلّ شيء.

وعلى حين بغتة، شعرت إيلام بشفقة واضحة، وبحنوّ تجاوز ما كانت تشعر به حصريًا تجاه الرجل. إنّه أسًى يوجّه للحياة عمومًا ولعجز الإنسان وحرمانه. كان الرجل في حاجة إليها لأسباب لم تعرفها، ولكنّها أسباب مسوَّغة منطقيًّا من وجهة نظره. لهذا تراه أبقاها وإيّاه بدفع المال لها. وحتى لو كان يملك عديد المصانع والعمّال والسيّارات الفارهة والمنازل الجميلة وزوجة، فإنّها لا تكفيه كلّها، لأنّ ثمّة خواءً في أعماقه يصعب فهمه، خواءً لا يمكن أن تملأه إلّا فتاة مستأجرة.

لسوء الحظّ لم تستطع أن تهبه أيّ شيء سوى هذا الجسد الذي تعرّض إلى التحديق وإلى الضرب، من دون الوصول إليه. وكانت التفاهة هي الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تقدّمه لأولئك الذين لا يقتربون منها إلّا بأمل لانهائي وغير مناسب بالرغبة العارية.

أطبقت جناحيها وهبطت إلى الأرض، وجثت على ركبتيها أمام الكرسي، وسمحت ليد الرجل أن تقبض على قفا عنقها وأن تدفن رأسها في خشونة بين ساقيه.

* * *

صكّ سمعها ضجيج طائرة عابرة وكأنّه هزيم الرعد، وبات مفهومها عن الزمن كليلاً لا تكاد تفقه منه شيئًا. وأرادت أن تنهض من فوق السرير وأن تخرج وتتنفّس بعض الهواء النقي، ولكنّها شعرت بثقل جسدها وكأنّه ملتصق بالسرير. وأرغمت نفسها على أن

تتذكّر أين كانت ومن هي!

إنّها الغرفة نفسها. . وعلى حين بغتة، وجدت الرجل وقد أصبح فوقها وأمسك بها مسكة مصارع. كانت إحدى ذراعيه أشبه بقضيب من حديد، ملتفّة من ورائها وتطوّق خصرها، في حين كانت الذراع الثانية تلتفّ من حول ردفيها. فما كان منها إلّا أن دفعته بعد أن امتلأت إحساسًا بالألم والغضب، ولكنّها لم تستطع مقاومة اغتصابه إيّاها. يبدو أنّ الرجل كان يحاول بذل قصارى جهده ليثبت لها رجولته، أو حتى لينتقم منها، كأنّه يحاول التهامها من فوره. كان يختبرها ويقيس مقدرتها على التحمّل، محاولاً أن يجرّب معها كلّ الأوضاع، مرغمًا إيّاها وملحقًا الأذى بها وإجبارها على الصراخ. شيء مثير للهلع، يشبه عمليّة اختطاف إلى الجبال!

فتحت عينيها فرأته واقفًا قرب السرير وقد لفّ خصره بمنشفة، يراقبها، وكأنّه ينتظر ليراها تلفظ نفسها الأخير قبل انصرافه.

ـ أنت رائعة يا حبيبتي. سوف أطلبك في المرّة القادمة. هيّا، انهضي!

فكّرت إيلام بينها وبين نفسها: أخيرًا، شيء من العاطفة. ثم أعقبت ذلك بآهة خافتة.

وتذمّرت قائلة:

ـ كنتَ غاية في الفظاظة، لقد آذيتني! وفي وسعك أن تنسى حضوري مرّة أخرى إذا كان هذا هو سلوكك! كما كان الاتّفاق على ساعة واحدة. . .

ـ أعرف ذلك، لا تقلقي. سوف أدفع لك لقاء كلّ شيء.

ثم راح يرتدي ملابسه.

أغمضت إيلام عينيها. لقد انتهز اللصّ عدم خبرتها، والمؤكّد أنّ الفتيات من ذوات الخبرة الأكبر منها يلجأن إلى أساليب معيّنة في التعامل مع أمثال هذا المجنون. عليها أن تتعلّم هذه الأشياء. جلست في السرير وحاولت أن ترتّب شعرها الأشعث قليلاً.

كان هاتفها الخلوي يرنّ، ولكنّها لم تعرف مكان حقيبتها. فنهضت في صعوبة وراحت تجيل الطرف من حولها. كان الرجل يشير إلى الكرسي، فاتّجهت إليها والتقطت حقيبتها وعثرت على الهاتف الذي كان يرنّ من دون توقّف، وردّت. كانت المتحدّثة هي جالي، التي سألتها إن كان كلّ شيء على ما يرام، فأخبرتها أنّ الزيارة استغرقت منها وقتًا طويلاً وأنّها كادت أن تنصرف. لم ترغب في التذمّر أمام أنظار الرجل الذي كان يحدّق إليها. هل تريد سيّارة؟ لا، إنّها لا تستطيع الانتظار، ولهذا سوف تستقلّ سيّارة أجرة. وفكّرت بينها وبين نفسها: إذن هم على دراية بتصرّفات الرجل، وباعوني له من دون أن يعرفوا ماذا سيحدث. اللعنة!

جلست على جانب السرير. وراحت كلمات وصور تطارد إحداها الأخرى في رأسها، وتتفرّق تفرّقًا عشوائيًّا قبل أن تتحوّل إلى قطع صغيرة. شعرت بآلام في أعماق جسدها وعلى ظهرها. وأخذ صدرها يعلو ويهبط في رفق مثل صدر طفل نائم. أخرج الرجل محفظة نقوده من جيب سترته ورمى بالأربعمائة دولار الإضافيّة الأخرى أمامها، وهي تمشّط شعرها أمام المرآة.

* * *

ـ حسنًا؟ سأنصرف بدوري، فلا تتسكّعي هنا وقتًا طويلاً.

ـ هذا مبلغ ضئيل جدًّا إذا ما أخذتِ في الحسبان أنّني لن أتمكّن من ممارسة عملي بضعة أيّام. مبلغ ضئيل جدًّا.

رمى الرجل بمئتي دولار أخرى على منضدة الزينة، لكن إيلام لم تنظر إليه. وسمعت صوت الباب يُفتح ويُغلق. كانت تصرّفاته قد تجاوزت حدود الضرب، ولكن في الأقلّ، لم يحاول أن يساوم، ذلك القذر الأخرق. ربّما كان هذا اختبارًا، اختبارًا في الصبر والقدرة على التحمّل. على أيّ حال، انتهى كلّ شيء. من يدري ماذا ستواجه في المستقبل!

راح الضوء داخل الغرفة يبهت ويضعف ولم تعد الستائر ترشح ضوء النهار، فنظرت إلى ساعتها، ورأت أنّ الوقت يقترب من الساعة السادسة. فكّرت في الليل وهدوء سريرها، فنهضت ودخلت الحمّام وبدأت تستحمّ استحمامًا شاملاً مستخدمة الصابون، وانتظرت تحت الماء الحارّ. وعندما بدأت تجفّف شعر رأسها أمام المرآة، لم تستطع الاستدلال على نفسها من أوّل وهلة. وخُيِّل إليها أنّ ثمّة امرأة أخرى تقف في مكانها. ورأت شفتيها وأجفانها متورّمة ومحمرّة، وثمّة كدمات على رقبتها وكتفيها، فأسرعت في ارتداء ملابسها. كانت تعلم أنّ الزبائن يفضّلون فتيات جديدات، وأنّ الحداثة تلفت الأنظار أكثر من الجمال. لهذا السبب، كانت هذه الشركات تبحث دومًا عن وجوه جديدة وعن فتيات جديدات، ولا ترفض طلبات أولئك الفتيات اللواتي يظهر عليهنّ القليل من الاحتشام.

فنّ، ثقافة؟ بدت لها هاتان الكلمتان على حين بغتة مثل نكتة

سمجة. فكلّ شيء أكذوبة. فالشركة فبركتها كي تجعل الشروط مقبولة.

جمعت إيلام النقود ووضعتها في مظروف مع البقيّة. ألف دولار نظير ساعتين! لقد تلقّت ضربًا مبرّحًا وشعرت بالإهانة، ولكنّها حصلت على استحقاقها. لقد عاملها الرجل وكأنّها من عامّة الغواني، من دون كلام ومن دون مشاركة... ليكن الأمر كذلك، ألف دولار. وإذا ما وضعت حصّة الشركة البالغة ثلاثين من المائة، فإنّ المتبقّي من المال هو سبعمائة دولار، وهو مرتّبها الشهري عندما كانت تعمل موظّفة تأمين منذ الساعة التاسعة صباحًا حتى الخامسة عصرًا.

الجامعة والتجربة المهنيّة، وكلّ العمل والكفاح والآمال بحياة وظيفيّة محترمة، كلّها عبث لا طائل من ورائه.

العار والنزاهة... رجل حياتها، وما يستتبع ذلك من بيت وأطفال أحبّاء... وأوهام... أن تسقط في الفخّ... أن تبلع الطعم... إنّ نقاوة الفرد وإخلاصه هما اللذان يضيفان الواقعيّة على الحبّ، وكذلك القدرة على الحلم والتفاؤل بالإبقاء على جذوة الإيمان بالمستقبل. أمّا أنا، فقد فقدت نقائي منذ زمن بعيد.

* * *

كان المساء قد أرخى سدوله عندما خرجت، وكان الطقس باردًا ممّا جعلها ترتجف من أعماقها، فتدثّرت جيّدًا بمعطفها ولفّت رأسها بوشاحها. أرادت أن تتمشّى قليلاً على الرّغم من رداءة الطقس، وانضمّت إلى حشود الناس وانعطفت إلى شارع

الاستقلال، ولكنّها شعرت أنّها تائهة وسط الفراغ. وكان تذكّرها لما حدث، يمثّل ألمًا عنيفًا، لا يليق بها. ففي ذلك اليوم، شعرت بخيبة الأمل والاستياء. وكان في وسعها أن تحسّ بالألم في أطراف أعصابها، ومع هذا، كانت مفتوحة وخاوية لا تعرف ماذا سيحلّ بها لاحقًا من لمسات وروائح ولقاءات ومغامرات... وذكر ينتظر من وراء الباب في كلّ مرّة، وهو ذكر نكرة. وتذكّرت التنقّل من سرير إلى آخر وعجزها عن رفض كلّ ما هو مطلوب منها.

دخلت محلًّا يبيع النقانق وطلبت طاسًا من الشوربة وهي تضع حقيبتها فوق حضنها. وعندما خرجت، سارت على امتداد الطريق كلّه المؤدّي إلى تونيل.

نادرًا ما التقت جالي، إذ كانت الاتّصالات بينهما تجري هاتفيًّا. كانت إيلام تذهب لممارسة الرياضة في القاعة ثلاث مرّات أسبوعيًّا وعلى نحو منتظم. كان جسدها قد أصبح أكثر جمالاً ومرونة من أيّ وقت مضى، وتوثّقت عرى الصداقة بينها وبين ديديم، وهي إحدى مساعدتيْ بيتي اللتين كان اهتمامهما يتركّز في العناية بالفتيات في قاعة الرياضة. وكانتا قد ذهبتا للتسوّق معًا قبل أسبوع وابتاعتا ملابس داخليّة جذّابة وأشياء أخرى. كان معظم الزبائن يفضّل الثياب اليوميّة الاعتياديّة البسيطة ذات النوعيّة الجيّدة.

قرّرت أن تتّصل بجالي في اليوم التالي لتوبّخها قليلاً بخصوص الرجل. واضطرّت إلى السكوت عن مثل هذه الحوادث المؤسفة، وأن تُبقي علاقتها بها وأن تلمّ أطراف شجاعتها، غير أنّ الأمر المؤكّد هو أنّ لديها الحقّ في أن لا تضاجع هذا الرجل من جديد.

في هذه الأثناء، تمكّنت من إصلاح مشكلة التدفئة في شقّتها

بأن اشترت مدفأتين غازيّتين، غير أنّ هذا الحلّ ليس حلًّا صحّيًا. كان لديها أمل دفين مثل كلّ الفتيات، وهو لفت نظر رجل ثريّ لتصبح خليلته. ووطّنت العزم على أن تظهر قدرًا من الجهد لمثل هذا الحلّ الجذريّ قبل أن تنهك قواها وتستنفد. غير أنّ هذا يحتاج إلى حظّ كبير.

عندما وصلت منزلها، حاولت أن تدفّئ الشقّة بإشعال المدفأتين معًا. ففي المساء المقبل، ستذهب هي وعدد من الفتيات رفقة جالي إلى نادي صديق بيتي الليلي المعروف، وستعيش أيّامًا أحلى وتلتقي رجالاً أفضل في بيئة محدّدة بلا أدنى ريب. فالمرء لا يمكنه أن يطيق هذه الحياة من دون ذلك الأمل.

تناولت القليل من الطعام وألقت نظرة إلى بريدها الإلكتروني، فشاهدت رسالة مرسلة من أصفر زعفراني، ولم تكن قد سمعت أيّ شيء منذ مدّة لا بأس بها، ولم تكن تتوقّعها.. ولهذا استبدّت بها الدهشة.

إيلام:

لم أقدر على الكتابة إليك منذ بعض الوقت، وليس لي أيّ عذر في ذلك.

ليست لديّ ادّعاءات بشأنك، مثلما لن تكون لي أيضًا. أتصوّرك صوتًا مناقضًا وعنيدًا، وأنّك تدفعينني إلى الإحساس بوطأة الروح الإنسانيّة، وهو أمر يروقني.

إنّني رجل ذو تجربة وخبرة وفي سنّ السادسة والثلاثين. ولا أريدكِ أن تظنّي أنّني واحد من أولئك الذين يتصيّدون على نحو عشوائي.

يضاف إلى هذا، أنّ الصورة التي أملكها عنكِ شديدة الوضوح.

إنّني مدير تنفيذي في شركة ماليّة، وكدت أن أتخلّى عن عملي عندما قرأت مقالتك عن المستقبل.

لديّ نقاط ضعفي، كما أنّني ارتكبت أخطاءً. الماضي يتكوّن في مدّة قصيرة جدًّا. أمّا بخصوص محاولة التنبّؤ بالمستقبل، فإنّها تجرّ المرء إلى التشاؤم. ومهما كانت الظروف، فإنّني أعتقد أنّنا لا ينبغي لنا إلاّ الرغبة في المستقبل وتصوّره. فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها أن نسمع أغنية العالم.

إنّني أرسل لك صورتي الشخصيّة.

(فولكان كومان)

كانت الصورة لطيفة، فقد لاح وكأنّه نجم مشهور من نجوم السينما، ولكنّها لا تستطيع تذكّر اسمه. لعلّه أرسل لها صورة ذلك النجم على سبيل المزاح. إنّ فولكان كومان يريد أن يجعلها مطيّة له! مدير تنفيذي في شركة ماليّة! بالله عليك! إنّ أمثال هذا الرجل لا يرفعون عيونهم عن لوح سوق الأوراق الماليّة أو ينظروا من حولهم، أو أمامهم على وجه الخصوص. إنّه يطلق لسانه حقًّا. نسمع أغنية العالم! ثم نظرت إلى النصّ الذي ظهر على الشاشة:

هل أنتِ هنا أيّتها البقعة الصفراء؟

كانت تلك هي المرّة الأولى التي صادفته فيها إيلام على الأونلاين. فانتابها حماس شديد.

إ ـ نعم أيّها الأصفر الزعفراني. إنّني مستغرقة في التفكير.

ف ـ أخبريني بماذا تفكّرين؟

إ ـ أشعر أنّ الرغبة في الحصول على شيء والتصوّر بحاجة إلى قدر من الإسناد، على أمل أو بعض الضوء. وأنا لا أملك هذين الشيئين، أمّا أنت فلست كذلك. وهو شيء حسن لك! إنّني أرتاب في كلّ ما تقول عن نفسك. لهذا، فأنا لست فضوليّة بك. كما أنّ صاحب الصورة ليس أنت. لماذا تشعر أنّك في حاجة إلى أن تفعل مثل هذه الأشياء؟

ف ـ إنّ ما أكتبه صحيح. فأنا الشخص الذي تكلّمت عليه. وأنا أحاول أن أخرج من قذارة عالم المال في هذه الأيّام. كما أنّني مستوحد.

إ ـ ظننتك امرأة! هذا غير مهمّ. ولا أريد توضيحًا ولا اتّساقًا في هذه الأيّام، بل على العكس، أشعر بالرضا نحو الفوضى والتنوّع.

ف ـ ماذا تعنين؟

إ ـ لا شيء. أتدري ما السبب الذي يدفعني إلى الكتابة إليك؟ لأنّني أسوة بكلّ الذين يوشكون على الغرق، لم يعد ثمّة شيء آخر يمكنني أن أفعله سوى رمي الصراخ في أعماقي أو حتى نفسي في حفرة، أي هنا.

ف ـ لم نستطع التقدّم كثيرًا في هذين الشهرين، إنّنا نتحاور أوّل مرّة، وإنّني لأجد صعوبة في ذلك.

إ ـ ليست لديّ أجوبة جاهزة أيضًا. إنّني أميل إلى التعبير عن نفسي بالتفكير. شيء مثير للسأم. صحيح؟ كم أتمنّى لو كنتُ شخصًا آخر، منبوذاً مثلاً، وعندئذٍ ستكون مختلفًا عن كلّ أولئك الذين يحملون المشاعر نفسها من قمّة الرأس إلى أخمص القدمين. ولكنتُ أنقذتني، حتى ولو قليلاً، من تشاؤمي.

ف ـ أنا ما أنا عليه، لا أكثر ولا أقلّ. هل في إمكانكِ إرسال صورتك إليَّ؟

إ ـ لا ، لأنّني لا أبدو شبيهة بأيّ ممثّلة مشهورة.

ف ـ لا تكوني ظالمة. تلك هي صورتي التي أرسلتها لك.

إ ـ حسنًا. إنّني أفضّل في هذه الآونة الإبهام على الحقيقة. المفاجآت والغشّ والحلم بالمستحيل... أعرف أنّ مصادفات جميلة يمكن أحياناً أن تحدث في هذا الكون.

ف ـ أنت عاطفيّة أكثر ممّا ينبغي. يمكنك أن تشاهدي الألوان، ولكنّك لا تستطيعين التفريق بينها.

إ ـ أنا لست كذلك، لكنَّ عقلي وحياتي مرتبكان في هذه الأيام، فقد دخلت طريقًا جديدًا، وإنّني أسير سيرًا سريعًا من دون أن أعرف ما وجهتي.

ف ـ ربّما أستطيع مساعدتك إن أخبرتني عن ذلك.

إ ـ لست في حاجة إلى أيّ مساعدة، والمنفى هو الذي يناسبني أكثر.

ف ـ إنّ ما تكتبين يبدو لي لغزًا كبيرًا، وأجد نفسي بحكم الظروف في الحالة نفسها من عدم الانسجام والسطحيّة عندما أردّ عليك، كما أشعر وكأنّني تلميذ يؤدّي فروضه المدرسيّة.

إ ـ لعلّك على حقّ، ولكنّني أعتقد أنّني قد أدمّر كلّ ما هو بيننا. لقد عشت مدّة طويلة في جحيم بأمل الوصول إلى السماء. ولمّا نظرت من هناك، شاهدت أكاذيب أكثر ممّا ينبغي في هذا العالم. ثم رحت أفهم نفسي وتذوّقت طعم الرغبة، لكنّني ما زلت غير قادرة على المضيّ

إلى ما هو أبعد من أن يكون «نكرة».

ف ـ لست نكرة يا إيلام.

إ ـ بل نكرة. فأنا لا أملك سوى نفسي، وإنّ أشدّ ما أرغب به في هذه اللحظة هو أن أكون لا مرئيّة.

ف ـ هذا ما أنت عليه الآن. فإذا ما حاولنا أن نكون صريحين وأن نقترب من بعضنا بعضًا على نحو يكفي للإحساس بالألم ممّا يكتبه أحدنا للآخر، فقد ننجح في الحديث وجهًا لوجه.

إ ـ لديّ اقتراح آخر بشأنك: لا تكتب إليَّ. فأنا من الضآلة وعدم الأهمّيّة ما يحتّم عليك نسياني. وعندئذٍ سأكون أقلّ حزناً.

* * *

أغلقت إيلام الحاسوب وأوت إلى سريرها، ولكنّها لم تستطع أن تخلد إلى النوم من فورها، لأنّ أسوأ ما في وضعها هو أنّها بالرّغم من كونها امرأة اعتياديّة، إلّا أنّها مضطرّة إلى أن تغلق نفسها في علاقة جسديّة تمكّنها من العيش بكلّ ما في الكلمة من معنًى، وحيث تستطيع أن تعبّر في حرّيّة عن عواطفها وبضمنها الجنس. وفكّرت أنّها إذا ما استمرّت في عملها، فإنّها لن تستطيع أن تحظى بصديق أو بشخص يمكنها أن تشاركه عواطفه. ولا حتى بعدئذٍ. حتى لو تخلّت عن العيش على هذا النحو مستقبلاً، لأنّ الماضي القبيح سيظلّ ملازمًا إيّاها. ومهما فعلت من أجل أن تخفيه، فإنّها سوف تظلّ خائفة من أن ينكشف ماضيها. لكنّها فكّرت في كلّ هذه الأمور قبل أن توافق على العمل في الشركة.

أرادت أن تبني علاقة مع الزعفران إلى نقطة معيّنة، لكي ترضي

جانبها العاطفي، فمن شأنها أن تسعى إلى خلق حلم لنفسها كما كتبت له، حلم يعود إلى عالمها، وما دام أنّها ستصبح جزءًا من ذلك الحلم، فإنّ من شأنها أن تشعر بالإثارة الجسديّة، لأنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث في أيّ لحظة في تلك الهالة من الغموض العميق.

تخيّلت أنّها التقت فولكان في مقهًى.

وأنها كانت مرتدية معطفًا مصنوعًا من وبر الجمل، وتخيّلته رجلاً متوسّط الطول، بنّي الشعر، تشوبه مسحة من التشامخ. المؤكّد أنّ الدهشة سوف تستبدّ به لدى رؤيته إيّاها. وستخبره إيلام قائلة: إنّك لا تعرفني إلّا من كتاباتي، ولكنّني امرأة أخرى. وسيقول الزعفران: أنت أجمل ممّا توقّعت. من شأنه أن يسكن في بيت لطيف ولكن ينقصه الترتيب. وربّما هو رجل مستاء إلى حدٍّ ما، مطلّق من زوجته، وتأتي ابنته الصغيرة لزيارته في عطلات نهاية الأسابيع. إنّه يبحث عن أشياء، وسوف يتزوّج إن عثر على امرأة مناسبة له، ولم تكن له علاقات أكثر ممّا ينبغي مع النساء. وتعرّض للخديعة مرّة واحدة في الأقلّ. يبدو أنّه في تمام الصحّة والعافية، طلق المحيّا، طيّب النفس، يضمر مشاعر ودّيّة. ولكنّه يفتقر إلى حسن التكيّف قليلاً، ولا يشعر بالرضا أمام المرأة التي لا يهواها. وهو لم ينس حبّه الأوّل، ساذج ومنفعل. إنّه يجلس أمامها، وقد أبلى بلاءً حسنًا في وظيفته وتبوّأ فيها مكانة مرموقة، ولكنّه لم يعد يحقّق النجاح بسبب الفوضى الضاربة أطنابها في حياته الخاصّة، وسوف يتخلّى عن وظيفته إن عثر على ما هو أفضل منها. يتصرّف تصرُّفًا خلوًا من أيّ توتّر عصبيّ، كأنّه في خضمّ الوجود طوال

الوقت بسبب امتلاكه مبلغًا من المال.

يحبّ الموسيقى والسينما وكرة القدم، ويصرّح بأنّه نيّق، صعب الإرضاء في الحبّ، يريد أن يختار وأن يكون مختارًا. ولا يبدو أنّه يريد أن يغدو مثل أنداده، ينظر إلى إيلام باهتمام وهو يمسك بقدح شايه كأنّها تروقه، ولكنّه ما زال بعيد التفكير عن مضاجعتها.

سألت إيلام نفسها: هل أريد رجلاً مثله؟ لا، أبدًا، فهو ليس نموذج رجل عاديّ كبقيّة الرجال الذين يملأون كلّ مكان. كان يروقها أن تحلم. ولم يكن المهمّ هو نوع الحلم أو ماهيّته، وإنّما الحلم بعينه. الأحلام تربط وتعقد الصلة بين ما هو كائن هنا وما هو كائن في مكان آخر، بين المعرفة والنسيان، بين القبول والأفكار، بين الماضي والمستقبل، بين التوقّف والركض، بين التفادي والسقوط. هذا هو الثراء الوحيد، والعزاء الوحيد الذي يمكننا تخليصه من المقاومة، من مواجهتنا المتعبة للحياة.

* * *

نامت نومًا عميقًا وراودها حلم عن الزعفران، إذْ هما يسيران في جوف غابة كثيفة الأشجار وعلى امتداد ممرّ ضيّق يميل تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال. وكان الجوّ معبَّقًا برائحة أشجار الزيزفون التي انتشرت من تحتها نباتات الفطر بالغة الجمال. وكان الطريق يضيق أحيانًا أكثر فأكثر، فتلامس أوراق الشجر الخضر الكبيرة وجهيهما.

كان الإثنان خارج حدود الزمان، الوقت أشبه بالليل ولكنّه ليس ليلاً. زمن الحلم بات منسيًّا، وراح الزعفران يقول لها إنّهما أصبحا

ضائعين، لكن إيلام لم تعر أهمِّيَّة للأمر، فقد كانت تشعر بسعادة غامرة في ذلك المحيط. وتوقّفا على مقربة من ضفّة ماء راكد فشاهدا ضفدعًا أسود اللون وضفدعة خضراء يتزاوجان. نذير بنحس. وعندما أخبرها فولكان أنّه يريد ممارسة الحبّ وإيّاها، استلقت تحت شجرة، فطوّقها فولكان بذراعيه وراح يقبّلها، ثم راح يطرح الأسئلة عليها: كيف يعاملك بقيّة الرجال؟ ماذا تفعلين وإيّاهم، أخبريني... لكن إيلام ردّت عليه: لا توجّه إليَّ مثل هذه الأسئلة، لأنّني أحتضر في تلك الأيّام.

ثم انسحبت عنه بوثبة واحدة، فتملّكها رعب شديد وهي تشاهد ساقيها قد تحوّلتا إلى ساقيْ ضفدعة، لكنّها استيقظت على حين بغتة.

* * *

١٣

كان فولكان وانشغال ذهنه بملكة قد ولّد لديه الانطباع بأنّ الزمان قد ازداد طولاً وأنّه بات أجوف من الداخل، لكن هذا الشيء كان سببه ما هو حتميّ. فقد دنا من ملكة والأمل يحدوه في دخول عالمها واللوذ بدفئها. ولكنّهما سرعان ما أصبحا مغتربين، ولم تنجح علاقتهما لسبب ما. كان وجومه قد جعله يشعر وكأنّه مغطًّى بقطعة قماش رماديّة اللون محبوكة بالحزن.

دلفت السيّارة إلى شارع عريض تحفّ به الأشجار من كِلَا الجانبين.

كان هارون يقيم حفلة رأس السنة في منزله الرحب الواقع فوق تلال أستينيا. وكانت الباحة أمام بوّابة الحديقة قد احتشدت بسيّارات فارهة وأخرى رباعيّة الدفع، رائعة. وكان الطريق المؤدّي إلى المنزل، والذي يجتاز الحديقة من منتصفها، مزيّنًا من كِلَا جانبيه بأضواء ملوّنة متقطّعة ومشاعل متوهّجة. وكان صوت آلات الكمان

ينساب إلى خارج المنزل. الجوّ احتفالي مفعم بالأبّهة، وينمّ عن نبل.

الطقس شديد البرودة، نثار الثلج يتطاير هنا وهناك، والضيوف الذين كانوا واثقين من الدفء داخل المنزل، كانوا قد ارتدوا ثيابًا أنيقة رائعة من قماش التفته والحرير والكشمير. وعندما كانوا يسرعون في خطواتهم من الحديقة إلى السلالم المؤدّية إلى مدخل المنزل، بدوا متعجّلين إلى أبعد الحدود لكي ينعموا بدفء الليلة.

* * *

كان هارون مرتديًا بذلة سوداء وربطة عنق فراشيّة الشكل. سار سيرًا مرتبكًا وكأنّ حذاءه الأسود الجلدي اللمّاع شديد الضيق على قدميه، وحيّا فولكان معانقًا إيّاه، وأمسك به من كتفيه وراح يهزّه عن موّدة وحبّ. كان قد دعا ستّين ضيفًا، لكنّ الحشد داخل المنزل يشير إلى أنّ عددًا أكبر قد حضر. وانهمك الحاضرون بالضحك وبتجاذب أطراف الحديث وهم جالسون على أرائك جلديّة وكراس منجّدة بالحرير، يرنون في عجب ودهشة، أو ربّما في غيرة وحسد، إلى اللوحات المؤطّرة بإطارات مذهّبة، وإلى زهريّات طويلة وخزانات زجاجيّة ومرايا بلّوريّة، وإلى الأشرطة ومختلف أنواع الزينة المتدلّية من السقف.

أمّا النادلون الأوفياء والمهذّبون، فكانوا يتنقّلون في خطوات لا يسمع لها أيّ صوت، يدورون بصواني فضّيّة وسط الضيوف الذين كانوا واقفين في مجموعات. وكان من بين الضيوف صناعيّون ورجال أعمال ووزير سابق وصحافيّان أو ثلاثة صحافيين وعدد كبير من الشخصيّات التي تدير سوق المال، وكلّهم موضع الابتسامة

الثابتة على ثغر هارون. المؤكّد أنّ ثمّة أزواجًا وزوجات وخليلات وعشيقات أيضًا.

اقترب نادل من فولكان وسأله إن كان يحبّ أن يتناول شرابًا، فما كان من فولكان إلّا أن سرح ببصره إلى مختلف ألوان الكؤوس البلّوريّة ورفع كأسًا من شراب المارتيني. وقرّر أن يتناول مشروب النبيذ عند تناول وجبة الطعام. حيّا سيلدا وقبّلها عندما تقدّمت منه لإلقاء التحيّة عليه. كانت هذه المرأة الشابّة قد لبست ثوبًا حريريًّا ذا لون بنّيّ فاتح بلون نبات الفطر، ومن دون حمّالتي كتف. وكانت قد فقدت مقدارًا من وزنها منذ آخر مرّة شاهدها فيها. وراح ثوبها ينزلق إلى أسفل بينما راحت هي تجذبه إلى أعلى لتطمئنّ إلى أنّها غطّت نهديها الصغيرين الأجوفين. ساوره الاعتقاد بأنّها تقدّمت في السنّ وباتت قبيحة المظهر، فمساحيق تجميلها سيّئة وغير متّسقة، وتهدّل أحد رموشها الاصطناعيّة. لاحظ فولكان أنّها ثملة على الرّغم من أنّ المساء ما زال مبكرًا. وبحسب هارون، فقد تفادى الإثنان ـ من جديد ـ أزمة طلاق. الواضح أنّه بعد أن تحدّاها عندما قال: حسنًا، لنتطلّق، تراجعت سيلدا. أكيد، وإلّا أين ستجد كلّ هذا العزّ وهذه الرفاهيّة وكلّ بطاقات الائتمان التي لا حدود لها!

كانت ثمّة فرقة موسيقيّة صغيرة تعزف الموسيقى في فسحة الدور الثاني المطلّة على صالة الدور الأرضي. وكانت الأضواء قد رُتِّبت في عناية لافتة، وينتشر اللون الأصفر والبنّي الفاتح في أنحاء المكان بدرجات متفاوتة. وكانت ألسنة اللهب المنبعثة من المدفأة الهائلة في ركن الصالة تنعكس على الأرضيّات المفروشة بقطع خشبيّة مزخرفة تقوم مقام الملاط وبلون يشبه لون النبيذ الأحمر،

فتضفي عليها لونًا قرمزيًا وتضيء بذلك الكراسي الجلديّة المغربيّة على جانبي المدفأة وعلى روافد السقف المصنوعة من خشب الماهوغني الضارب إلى الحمرة. أمّا السجّاد الذي كان يغطّي ذلك الجزء من الصالة المؤدّي إلى الشرفة، فقد رُفع عن الأرض لفسح المجال أمام الرقص.

وكانت مائدة الطعام الفخمة التي سيتناول عليها المدعوّون طعامهم وقوفًا، قد أُعدّت في حجرة الطعام الواقعة في الجزء الأدنى من المكان والمخصّصة على نحو مستقلّ لهذا الغرض. كان مظهر الطعام وتنوّعه ملوكيًا، وكانت أذرع الضيوف وهم يحاولون أن يحصلوا على الطعام من المائدة بأنفسهم، تتحرّك إلى أعلى وإلى أسفل وكأنّها أجنحة فراش. تقدّم فولكان ليلقي نظرة، فشاهد طبق البرتقال ومختلف أنواع المقبّلات وأطباق زيت الزيتون البارد وشرائح سمك السلمون المدخّن على الرزّ والطماط الصغيرة المحشوّة بأكباد الإوزّ والكافيار، والروبيان المشويّ وغيرها. . كما شاهد نهود النساء العارية والمدوّرة والمجوهرات المتلألئة، وسمع القهقهات والضحكات وقرقعة الخزف الصيني والفضّة وكؤوس النبيذ الرقيقة المتناغمة، وأضواء البوسفور البعيدة التي يمكن مشاهدتها من نوافذ الشرفة المغلقة. كلّ شيء يبدو أشبه بحلم لا يشجّع على الصحو.

تحادث مع عدد قليل من الناس ومازحهم، وأصغى إلى انطباعات صحافيّة زارت الشرق الأقصى. الوجوه ودودة وذكيّة وغبيّة. . . وأخرى باسمة تلوح على أولئك الذين يعتقدون أنّهم نشيطون وأثرياء ومحظوظون. . . مشاغل وقتيّة لا تنمّ عن وفاء أو إخلاص.

مرّة أخرى رأى سيلدا قريبة منه.

قال لها ليبثّ الطمأنينة في نفسها.

ـ أنت رائعة!

ـ رائعة؟ إنّني أختنق يا فولكان. أنظر إلى هذا الجمع الغبيّ من الناس! أحيانًا يراودني الشعور بأنّني أريد أن أهرب إلى الجبال.

ـ بالله عليك، لا تقولي مثل هذا القول، فأنتِ تبالغين. لديك كلّ ما من شأنه أن يجعلك تشعرين بالراحة وطيب النفس.

ـ كلّ شيء باستثناء السعادة والحبّ. أنت تدري...

ـ لن تكون لديك أيّ مشكلة إذا ما تفاءلت قليلاً.

رفعت سيلدا يدها بنفاد صبر كأنّما تريد أن تقول كفى، كفاك نصحًا.

التفتت وجالت ببصرها من حولها، وقالت:

ـ يبدو كلّ شيء جميلاً، صحيح؟ لكن هذا ليس ببيت للسكن، بل هو منزل بلا شخصيّة، لا يختلف عن منزل أيّ رجل ثريّ. يضاف إلى ذلك أنّ الرجل تعوزه الحيويّة والنشاط، زوج خسيس لا يتوانى عن خيانتي بممارسة الجنس مع البغايا والمومسات!

ثم مدّت يدها إلى صينيّة النادل الذي مرّ من أمامهما، ورفعت كأسًا من شراب الجنّ. وسرعان ما أدرك فولكان أنّه يتعيّن عليه التخلّص من هذه المرأة قبل أن يخرج النقاش عن السيطرة. دعها تحصل على الطلاق، ما الذي يحول بينها وبين ذلك؟ كما أنّ هارون غير سعيد أيضًا برفقة هذه المرأة المخبولة.

ـ بدأت أتلقّى دروسًا في الفنون. معلّمي يقول إنّني صاحبة موهبة كبيرة. ذلكم هو المكان الوحيد الذي يمكنني أن أتنفّس فيه. أتدري!

ـ عظيم! أعتقد أنّ الفنون هي أفضل علاج...

ـ هل في وسعنا الجلوس وتجاذب أطراف الحديث يومًا ما يا فولكان؟ أنا وأنت ولا أحد غيرنا.

اقترب هارون منهما، ومدّ يده من وراء زوجته وأخذ الكأس من يدها، فالتفتت نحوه ورشقته بنظرة غاضبة، وتذمّرت:

ـ كما تلاحظ، إنّني لا أملك حتى حرّيّة احتساء كأس من الشراب في هذا المنزل.

ثم لوت شفتيها وكادت تنفجر باكية.

قال هارون:

ـ لقد شربت بما يكفي، وستوافيك المنيّة لا محالة. هيّا، تمالكي رباطة جأشك، وامرحي قليلاً. استلقي برهة وجيزة واستريحي إذا لم تكوني على ما يرام، هيّا، يا حبيبتي.

انتظرت سيلدا برهة وجيزة من الزمان، ثم انصرفت في هدوء وإذعان. وتأكّد فولكان مرّة أخرى أنّ هارون يسيطر على زوجته سيطرة تامّة على الرّغم من كلّ شيء. الحقّ، ما من شيء يمكن أن يجعله سيّئ الطبع في هذه الليلة. إنّه سعيد ومتحمّس، فقبل يوم واحد لا أكثر وقّع عقدًا للتنقيب عن الذهب بقيمة أربعين مليون دولارًا، وهي ليست سوى تقدير لجهوده في الحصول على الامتياز للشركة الكنديّة وعمله واجهة لها.

سأل هارون:

ـ ما رأيك؟ كلّ شيء تمام. صحيح يا صديقي؟ كلّ أصدقائي هنا وأنا في أحسن حال في هذه الليلة.

قال فولكان مجيبًا:

ـ إنّها أمسية رائعة، ومنظّمة تنظيمًا جيّدًا حقًّا!

رنا إلى الأصدقاء أو إلى حرس الشرف: نصّابون ومضاربون مصرفيّون، الذين يعلمون سلفًا عن قرب خفض العملات، وآخرون ينهبون سواحل البحار، والذين يجنون الدخل غير المكسوب بالجهد أو البراعة، والمقاولون في مناقصات الدولة المبالغ فيها، والذين يستمتعون بأوقاتهم على نفقة الدولة، والذين يتلقّون عشرة من المائة من العمولات، والذين اشتروا السمعة والشهرة من وسائل الإعلام، فضلاً عن المهرّبين وزعماء المافيا. أسماء وأسماء... الناس والمقاولون الثانويّون في النظام الجديد من أمثال هارون والذين ينتمون إلى الأنظمة الأحدث... والصحافيّون الذين أثروا ثراءً فاحشًا بين عشيّة وضحاها، والمتملّقون والممرّضون... الأحرار والأقوياء والمتحدّثون والذين لا يشبعون...

طال المساء وطالت الأحاديث حيويّة وسط روائح من الأجساد والسيكار والنبيذ. كان الحاضرون يتكلّمون كلّهم في آن واحد، ولكنّ المؤكّد أنّ أحاديثهم لم تكن عن كيفيّة إدارة الأعمال، فهم لا يتحدّثون عن مثل هذه الموضوعات علانيّة أمام الآخرين، لأنّ ذلك النمط من المفاوضات والمساومات يجري وراء أبواب مغلقة، وعلى أساس متطابق. كانت الصفقات تُعقد أو ينفرط عقدها بلغة لا

يفهمها أحد غيرهم. وعندما يلتقون في مثل هذه الأماكن التي يجتمعون فيها هذه الليلة، فإنّهم يتحدّثون عن البيوت والسيّارات واليخوت والاستقبالات والحفلات وآخر برامج الحِمية والأمراض، والرحلات والإجازات.

بعد أن حيّا فولكان بعض الحاضرين وتبادل وإيّاهم الملاحظات والأحاديث القصيرة، اتّجه إلى أحد الكراسي القريبة من المدفأة ليجلس عليها، وراح يقضم قضمًا بطيئًا من الطعام في طبقه. كان قد فقد ثمانية كيلوغرامات من وزنه منذ شهر تشرين الأوّل، وبات أكثر رشاقة وشبابًا عن ذي قبل. كانت المرايا رؤوفة به من جديد، وازدادت ثقته بنفسه.

وتنبّه إلى حضور نيلهان وسط الجمع الغفير، في ركن قصيّ تتحدّث إلى صاحب المنسوجات الذي ينتج أقمشة التنجيد. ولم يكن قد تيسّر لها ولفولكان أن يلتقيا بعد آخر مكالمة هاتفيّة بينهما، وانتظر حتى تحين الفرصة لتلتفت إليه وتراه.

راحت الموسيقى تعزف الآن موسيقى راقصة. الممتع هو مشاهدة الناس على حلبة الرقص. كان في وسعه أن يسمع مقاطع من أحاديث الناس وضحكاتهم المتواصلة، مؤسّسات هائلة على نحو يكفي لجعل المرء في قلق. صوت الأقمشة، وعبق العطور... الصور لا نهاية لها، كثيرة وبلا حدود.

لاحظ أنّ نيلهان تسير متّجهة إليه، فنهض لإلقاء التحيّة عليها، وطوّقها بذراعيه وتبادلا القبلات، وفي حين كانت تربت بمودّة على وجنته، سار بها إلى حلبة الرقص، كانت ترتدي ثوب سهرة طويلاً وضيّقًا من قماش التفته الأزرق الغامق، تاركًا كتفيها عاريين وظهرها

مكشوفًا حتى خصرها. وضع فولكان يده من حولها، فقالت له:

ـ لا يمكنني أن أصدّق عينيّ، فأنت بهيٌّ الطلعة إلى أبعد الحدود، وأصبحت رشيقًا جدًّا يا حبيبي! أرجو ألّا تكون قد عذّبت نفسك كثيرًا، صحيح؟

ـ قليلاً، اشتقت إليك، كما اشتقت إلى أن أكون كريمًا، سخيًّا وإيّاك.

ـ وأنا أيضًا. كيف أبدو؟

ـ مدهشة. أهو الحبّ يا ترى الذي جعلك بهذا الجمال؟

ـ ربّما، فأنا مغرمة غرامًا جنونيًّا.

وضع فولكان وجهه على خدّها وأغمض عينيه، فشعر بأنفاسها الدافئة والرائحة المؤنسة المنبعثة من نهديها التي لم يستطع العطر أن يخفيها. كما شعر بأنوثة جسدها الصابرة والمتعجّلة بين ذراعيه وكأنّه يسمع صدى ماضٍ بعيد، ورأى أمام عينيه حجرة معبقة برائحة ملح المحيطات والنبيذ ونبتة الحدقيَّة. ومرّر يده على امتداد ظهر نيلهان الذي لوّحته الشمس. وفكّر في أنّ الشيء الذي شاركا به لم يكن الجنس وحده، بل ثمّة شيء آخر أكثر من ذلك في دفء جسديهما، وكفّيهما المتشابكين وقبلاتهما التي لم تكن لتنتهي. وكان العالم يزداد صغرًا ويصبح أكثر تصديقًا عندما كان أحدهما يختفي في صدر الآخر وجسده. ثم فقدا تلك النقاوة وذلك الوضوح وتلك الحميميّة، وما من شأنهما أن يجداها مرّة أخرى.

سألها:

ـ هل تتذكّرين حجرتنا على أرض الجزيرة؟

ـ وكيف لي أن أنسى؟ لقد كنت فيها بكلّ كياني ووجودي، كما أنّني أحببتك.

ـ هل أنت وحيدة؟ أليس لديك عشيق؟

ـ لا، ليس لديّ عشيق. لقد حدث لي حادث غريب يا فولكان... لا، لن أخبرك، لأنّك لن تصدّقه.

ـ هيّا، أخبريني. فأنت لن تفاجئيني بعد اليوم.

ـ عشيقي امرأة. الواضح أنّني لا بدّ كنت مهتمّة بالنساء، ولكنّني لم أعرف ذلك، وأعتقد أنّ هذا هو السبب الذي جعلني لا أقوى على إقامة علاقة طويلة الأمد مع الرجال.

ـ و...

ـ و... إنّني لم أشعر قطّ بمثل هذا الشعور، لم أشعر بمثل هذا الشعور العنيف.

توقّف فولكان، وأنزل ذراعه من على ظهرها. أمر سخيف ويدعو للسخرية. تكلّف وتصنّع وتظاهر ورغبة في التغيير... نيلهان التي عرفها طوال تلك السنين!

ـ أرأيت الدهشة التي استبدّت بك؟ هيّا، دعنا نتناول شرابًا. الحقّ أنّ الجنس موضوع شائك، فقد تكون مخطئًا بشأن نفسك فينتهي بك المطاف إلى خسارة الكثير من الوقت. أتمنّى لو أنّني تمكّنت من معرفة هذا الأمر قبل بلوغي سنّ الثلاثين...

ـ ماذا في وسعي أن أقول؟ يمكن للمرء أن يتوقّع كلّ شيء منك، غير أنّ هذا الأمر يبدو...

ـ أنت لا تأخذ الأمر على محمل الجدّ. صحيح؟

ـ لا ، سيكون أمرًا عابرًا .

فكّر فولكان أنّه في حاجة ماسّة إلى شراب مسكر، فاتّجها إلى المشرب، ولكن هارون أوقفهما .

سأل نيلهان:

ـ هل أخبرك؟ أنّ صديقي يريد أن يتخلّى عنّي، وأن يتخلّى عن الوظيفة .

سألت نيلهان من دون أن توجّه سؤالها إلى أيّ منهما مباشرة:

ـ لماذا؟

ثم التفتت إلى فولكان وسألته:

ـ هل أنت عازم على العمل في مكان آخر؟

ـ لا ، ليس الأمر كذلك. كلّ ما هنالك هو أنّني لم أعد قادرًا على الاستمرار. هذا كلّ شيء.

ثم رنا إلى نيلهان، فرأى عينيها متلألئتين وتعوزهما الحماسة، ووجهها مؤطّر بشعرها البنّي الذي صفّفته إلى الخلف. ملامحها ملائكيّة تارة وشيطانيّة تارة أخرى.

قال هارون:

ـ لا أعتقد أنّ خروجك من الوظيفة مفيد لك في هذه المرحلة. نحن أسرة واحدة، وفريق أحلام يا فولكان. وإذا كانت لديك أيّ مشكلة، فسوف نعالجها ، لأنّني لا أريد أن أخسرك.

افترض فولكان أنّ استخدام هارون ضمير الجمع إنّما هو تعبير عن مصير مشترك، وهو ضمير فضفاض يحتوي على كلّ أنماط العلاقات طويلة الأمد. وإذا ما انطلق من فم هارون، فإنّه ينطوي

على أهمِّيَّة التبعيّة المجرّدة وثقل المسؤوليّة الملقاة على عاتقه. وكان هذا هو أحد الأسباب التي دفعته إلى عدم الرغبة في مناقشة الموضوع وإيّاه. يضاف إلى ذلك، أنّه ليس متأكّدًا من أنّ هارون سوف يفهم مشاعره. والمسافة التي تفصل بينهما لا صلة لها بالاختلاف بين عواطفهما وعقليهما أو مستواهما الثقافي. كان هارون يعيش في عالم آخر وليست لديه مشكلات يفكّر فيها. وهذا هو مصدر قوّته. ولهذا كان من اللّاجدوى وغير ضروري أن يقول له: إنّني بيدق ونكرة في هذه القذارة، ولم تعد لديّ الرغبة في تضييع وقتي ومستقبلي من أجلك.

سألت نيلهان وهي تمسك بكأس نبيذ أحمر:

ـ حقًّا؟ ما المشكلة؟

أجاب فولكان:

ـ إنّني منهك، هذا كلّ شيء.

كانت هذه الإجابة هي العذر الوحيد الذي لا يحتاج إلى دفاع، وأضاف:

ـ فقدت إرادتي على العمل.

قال هارون مخاطبًا نيلهان وهو يبتعد عنهما ليكلّم مصرفيًّا بريطانيًّا:

ـ كلّميه قليلاً.

قالت نيلهان:

ـ ليس إنصافًا أن تتخلّى عن مهنتك في هذا العمر. أنت في القمّة، وناجح جدًّا، وموهوب، وتجني ثروة طائلة.

ـ إنّه شعور بالإخفاق يسري في ما هو أعمق ممّا يمكن تصوّره. كما أنّه يتعذّر على التفسير. إنّني أشعر بحرمان لا يمكن للمال أو أيّ شيء آخر أن يشبعه.

ـ يا الله! أنت مكتئب تمامًا، اذهب للعلاج، خذ إجازة طويلة، قم برحلة، لا أدري، إفعل كلّ ما تريد وتمالك رباطة جأشك!

ابتسم فولكان، فهو غير قادر على أن يضفي قدرًا ولو قليلاً من المعنى على حياته، ولم يعد في وسعه أن يرى أيّ شيء ذي قيمة في نفسه سوى وجوده المجرّد، فضلاً عن أنّه قانط، لأنّه كان يشعر أنّه لم يعرف كيف يحيا حياته. أليس هذا هو أشدّ حالات الفشل إثارة للهلع؟ لا، حان الوقت للسيطرة على الموقف وتغييره.

فكّر في إيلام، ورأى أنّ الاسم البقعة الصفراء يناسبها أكثر. وكان هو وهي قد انتظما في الكتابة، أحدهما إلى الآخر، وتجاذبا أطراف الحديث على الشاشة. وراود فولكان الإحساس بأنّه منجذب إلى عالم آخر، كأنّه يتسلّل إلى أسرارها. ومن خلال أحاديثهما، أخبرها بأشياء لم يسبق له أن ذكرها لأيّ شخص، أشياء لم يفكّر فيها مليًّا، وأشياء ظنّ أنّها باتت في طيّ النسيان. ولكنّه لم يستطع أن يفعل ما هو أكثر من ذلك، لأنّه كلّما أراد أن يكشف عن نفسه أكثر، اكتشف عيوبًا أكثر في روحه ولم يستطع أن يكون مخلصًا على النحو الذي كانت تريده منه إيلام. من جهة ثانية، عندما كان يشقّ طريقه إليها، فإنّه كان يحاول أيضًا أن يهدأ أثناء الكتابة، وكأنّه مرّ برعشة جنسيّة قبل قليل. وكانت الكلمات أحيانًا تتحوّل إلى كتابة من دون السيطرة عليها، فتجعله يشعر أنّه مهزوم ومجرّد من كلّ شيء على نحو لم يعرفه من قبل. وكانت أقوى مشاعره متمثّلة في حماسة

مؤلمة تثير فيه الجنون. أمّا إيلام، فالواضح أنّها كانت تجيب عن كلّ ما كان يكتبه بالإخلاص نفسه ـ هل كانت مخلصة؟ ـ ولكنّها كانت ما تزال مصمّمة على عدم إظهار نفسها أمامه.

قال فولكان مخاطبًا نيلهان:

ـ لم أكن يومًا ما بمثل هذه الصحّة والحيويّة. أتدرين ما المشكلة؟ أنا لا تروقني نفسي. لعلّ من غير الممكن على المرء أن يصبح شخصًا آخر، لكن على الأقلّ يتعيّن عليَّ أن أحاول ذلك.

لزمت نيلهان الهدوء كأنّها مستغرقة في التفكير. لعلّها أدركت أنّها لن تتمكّن من إقناعه. لعلّها كانت تظنّ أنّه سيعود إلى عمله بعد أن يكون قد سلك في حياته السلوك الذي تمنّاه مدّة وجيزة. سارا إلى ركن هادئ من الصالة الداخليّة، وجلسا على أريكة صغيرة، تلامس ركبة أحدهما ركبة الثاني.

سألت نيلهان:

ـ ألا تزال من دون امرأة في حياتك؟

فكّر فولكان في ملكة، التي كانت تمثّل علاقته الأخيرة والملموسة أكثر من أيّ علاقة أخرى. وكان يناسب فولكان كثيرًا أنّ غربة أحدهما عن الآخر قد جاءت في وقت كان هو كثير السفر والتنقّل. ولكنّه لم يشعر بالذنب أيضًا. ليس لأيّ واحد منهما ما يخسره على أيّ حال!

لم يستطع أن يخبر نيلهان عن إيلام، لأنّه كان متأكّدًا من أنّها ستسخر منه وتزدريه.

قال:

ـ ثمّة علاقات، ولكن لم تثمر أيّ منها عن شيء. أظنّني فقدت قدرتي على الحبّ. فالنساء اللواتي أخرج وإيّاهنّ لم يعدن مثار اهتمامي، وليس لهنّ من الجاذبيّة ما يكفي لإبعادي عن السأم.

على الرّغم من أنّه لم تكن تروقه القواعد والقوانين، إلّا أنّه اتّصل بملكة هاتفيًّا قبل عشرين يومًا بدافع المجاملة، ولكنّ حديثهما كان فاترًا ومتكلّفًا. ثم التقيا لتناول كأس في مشرب بأحد الفنادق في أحد المساءات. ولسبب ما، اكتشف أنّ المرأة الشابّة عاديّة ومرتبكة في تصرّفها، ومتوتّرة ولا تبعث على السرور أثناء اللقاء. ووجد الإثنان صعوبة في العثور على ما يمكن أن يحدّث به أحدهما الآخر. وهكذا تجاذبا أطراف الحديث عن أمور تافهة وانصرفا بعد مدّة قصيرة، وتوصّل فولكان إلى نتيجة مفادها أنّ كلّ شيء بينهما وصل طريقًا مسدودًا. ولعلّ الشعور نفسه راود ملكة أيضًا.

قال:

ـ كنت ألتقي امرأة ما، ولكن في الوقت الذي كنت أمنح نفسي الوقت الكافي لمحاولة أن أبدو معقولاً وأنا منشغل البال في بذل جهودي لحلّ شخصيّتها المهيمنة، فقدت اهتمامي، ولم أفلح.

ـ بمعنى أنّك انتظرت مدّة أطول ممّا ينبغي أمام الباب وأنت على العتبة.

ـ هذا صحيح، وإذا كنّا نعتقد أنّ الحبّ يدفع المرء إلى أمام من دون تحكّم فيه ويحوّله إلى إنسان فاقد الصبر، لا يستطيع الانتظار، فإنّ ردود أفعالي لبثت غاية في الهدوء والسكينة.

قالت نيلهان:

ـ يمكن للمرء أن يهوى امرأة على نحو عقلاني ومنطقي.

ـ إنّ كلامك غير مقنع تمامًا.

ـ أنتِ على صواب. ربّما لست مناسبًا جدًّا في ممارسة الحبّ.

ـ إنّنا لم نصل إلى تلك المرحلة.

ـ حسنًا، إنسَ أمرها إذًا، من تلك المرأة؟

ـ إنّها بائعة تذكاريّات، وهي مصمّمة مجوهرات أيضًا.

رمقت نيلهان فولكان بنظرة، ولاح على وجهها تعبير ينمّ عن الريبة والتشامخ.

ـ أم تراها كانت تتصرّف وإيّاك تصرّف الفتاة الخجول؟ ماذا تفعل مع نساء من الطبقة المتوسّطة؟ ما الذي تفكّر فيه؟

هزّ فولكان رأسه ليقول: لا، ولكنّه كان غاضبًا إلى حدٍّ ما.

ـ إنّها ليست امرأة من هذا الطراز. على أيّ حال، دعينا من هذا الموضوع. أتعتقدين أنّك ذكيّة جدًّا عندما قرّرتِ على حين بغتة أنّك امرأة سحاقيّة؟

ـ أتريد أن تذكّرني بالماضي؟ هل الغلطة غلطتي إذا كنت ضحيّة مؤامرة ذات جذور عميقة يهيمن عليها الذكر؟

ثم ضحكت من صميم قلبها وأردفت هامسة:

ـ آه.. لو تعرف من هي عشيقتي!

تنهّدت ولزمت الصمت.

ـ هيّا، أخبريني. لقد تكلّمت عنها، فاذكري اسمها.

ـ ولكن إيّاك أن تخبر أحدًا بذلك.

ـ أعدك.

ـ إنّها زوجة صاحب شركة من شركات الطاقة جعلته الحكومة رجلاً ثريًا وهو من الإسلاميين، وترتدي زوجته الحجاب. لا تظنّ أنّها واحدة من ربّات البيوت المحتشمات، فقد درست القانون، ولكنّها لا تستطيع العمل لأنّ زوجها يعارض ذلك. وللرجل زوجة ثانية تقيم في منزل آخر. هل تصدّق؟

قال فولكان:

ـ إذًا، لم تستطيعي العثور على ما هو أفضل، وأصبحت ضحيّة الانتقام!

ثم ضحك، وكأنّه أصبح متعادلاً وإيّاها، وأضاف:

ـ هل هذه قصّة من وحي خيالك؟

ـ إنّها الحقيقة العارية. ينبغي لك أن ترى المرأة، وهي لم تصل سنّ الثلاثين بعد، تبدو من حيث المظهر وكأنّها عذراء لا يمكن الحصول عليها، وهي متحرّرة من عالم آخر، ولكنّها تخفي من تحتها بركانًا. زواج مخيّب للآمال، وجسد مثقل بالشوق والحنين، وانحراف رجعي وميلان عن جادّة الصواب الضيّقة! والمؤكّد لجأت إلى الخيار الأقلّ خطورة والمتمثّل بامرأة أخرى.

ـ مدهش. أين عثرت عليها؟ كيف التقيتما؟

ـ في عيادة طبيبي المتخصّص بالأمراض النسائيّة، ورحنا نثرثر أثناء جلوسنا في غرفة الانتظار. في تلك اللحظة أغرمت بها. آه يا فولكان، أتمنّى لو تراها...

ـ حاذري وإلّا تورّطتِ في مشكلة.

ـ الحقّ أنّك على صواب، لأنّها ستكون فضيحة.

* * *

كانت الألعاب الناريّة مشتعلة في الحديقة، فنهضت نيلهان، وتجمّع الضيوف أمام باب الشرفة يراقبون في بهجة وسرور الأضواء المتلألئة المنطلقة من بين الأشجار، فتنفجر في السماء وتسقط على الأرض في كلّ مكان مثل الأفاعي الملوّنة. وعلى حين بغتة، وجد الإثنان نفسيهما في وسط الجمع الغفير، ولكن فولكان جذب نفسه بعيدًا عن الفوضى وذهب إلى المشرب وهو يفكّر: صدمة تلد صدمة. وشعر أنّه بريء براءة الطفل المولود من فوره. لقد التقى مصادفة هؤلاء الناس المتعطشّين إلى المال والجنس، وكان هو شخصيًّا قد هزمه أحيانًا جانبه الحيواني، غير أنّ مثل هذه الحيل والمناورات والأخذ والعطاء من كلا الجانبين أثارت في نفسه الغثيان في تلك اللحظة. ولحسن الحظّ أنّ مصيرًا لا يشبه مصيرهم كان يحوم من فوقه. كرع محتويات كأسه من شراب البراندي كرعة واحدة، وأخرج واحدة من سيكار هافانا من داخل علبة فضّيّة، وقطع نهايتها وأشعلها. أثار الجوّ فيه النشوة، والسرور، وحفّز فيه الإحساس بالخفّة أكثر من ذي قبل وجعل مزاجه هادئًا ووديعًا لا يعكّره معكّر.

بحثت عيناه عن نيلهان، فرآها تؤدّي دور النجمة أمام مجموعة من المصرفيين. وحيثما كانت تذهب، تجدها قادرة على تشكيل حلقات صغيرة مرحة تتجدّد باستمرار، لأنّها كانت الأكثر جاذبيّة وقوّة من كلّ النواحي، ولكنّها على الرّغم من كلّ هذا، تجدها

فريسة للوحدة ممّا يسهل عليها استهلاك نفسها واحتضان كلّ أنواع البشر غير المقبولين. فهي مغرمة بامرأة لافتة للنظر ترتدي الحجاب! إنّ تغيير الفئات على هذا النحو وفي مثل سنّها أكثر ممّا يمكن احتماله.

وماذا عنّي أنا؟ في الأقلّ استمعت إلى نزعاتها الداخليّة وأظهرت الشجاعة للتصرّف تصرّفًا غير لائق. ما الذي أفعله؟ ما المخاوف التي أدّت بي إلى إهمال ملكة؟ هل أصبحت عادتي هي العبث بالحبّ مثل شخص مبتدئ مع امرأة لم أرها؟ زد على ذلك، الواضح أنّها غطّت رأسها أيضًا بالحجاب يومًا ما. ما الذي يدفعني إلى البحث عن طريدتي في مثل هذه الأراضي البعيدة؟ لماذا أشعر بضرورة الحديث عن أبويَّ وعن طفولتي وعن أسراري لمن يمكن عدّه في أدنى درجات السلّم الاجتماعي، في حين أجد نفسي عاجزًا عن إيجاد من يناسبني منطقيًّا؟

* * *

وامتلأ المنزل بأنغام شرقيّة.

تنحّى الضيوف جانبًا لفسح المجال أمام راقصة شبه عارية توسّطت فضاء الغرفة لتؤدّي رقصة شرقيّة وراحت تهزّ جسدها وسط صيحات الفرح. وكانت أوّل رقصة من رقصاتها على إيقاع الدفّ. جسد مدهون بالزيت ومبهرج، شفتان قرمزيّتان، جفون زرقاء اللون وبرّاقة... ذراعان وساقان تظهر فيها العضلات قليلاً... خرز يعلو ويهبط على ردفيها... كتاب كلّ شيء مكتوب فيه.

استمرّت المرأة في طحن جسدها، فتهتزّ اهتزازًا أسرع فأسرع،

تدور من حول حلبة الرقص وجذبت إليها مصرفيًا أصلع الرأس من ذراعه. وفي حين كان يحاول أن يرافقها بتحريك منكبيه، جذبته من ربطة عنقه ووضعته في حضنها، ولكنّها سرعان ما دفعته بعيدًا وسط ضجيج الحشد وصخبه وصراخه. وفي هذه اللحظة، تقدّمت بضع نساء إلى حلبة الرقص ورحن يرقصن رقصًا شرقيًّا، كما خلع ثلاثة أو أربعة رجال ستراتهم وانضمّوا إليهنّ، هرج ومرج بكلّ ما في الكلمة من معنًى.

أرغم فولكان نفسه على إلقاء نظرة، وراح يفتّش عن الشخص الوحيد الذي راقه أو أعجب به الإعجاب كلّه وسط هذه الأذرع التي كانت تعلو وتهبط، والأقدام التي كانت تضرب على حلبة الرقص، والشعر المنكوش والأحزمة والشيّالات، وسط كلّ هذا الضجيج والبهجة المجنونة والهذيان. لا أحد. أزواج وزوجات وخليلات وعشيقات. لا أحد سوى أولئك الذين يعشقون النساء، وأولئك الآخرين الذين يعشقون الغلمان، والمومسات الشديدات التأنّق، والسيّدات والوجوه التي ترمز إلى حسابات مصرفيّة بملايين الدولارات المودعة في مصارف زيورخ ونيويورك ولندن.

ثمّة قدر من الحقائق والتواطؤ ما يستدعي الرثاء.

* * *

انسحبت مؤدّية الرقص الشرقي وخمدت الضجّة رويدًا رويدًا، وصمت الدفّ بعد أن استبدّ التعب والإرهاق بأولئك الراقصين على حلبة الرقص. وانسابت إلى المسامع من جديد الأنفاس المبهورة والضحكات الناجمة عن إطلاق النكات. ولم يتنبّه إلى نيلهان التي جاءت ووقفت إلى جواره وقبّلته على كلا وجنتيه وودّعته.

اشتاق إلى بيته، واشتاق إلى الذهاب إلى إيلام وتجاذب أطراف الحديث وإيّاها، وبثّ شجونه إليها. كان قد قرّر أن يخبرها بذلك في تلك الليلة، ولا بدّ أن يكون سائقه في المطبخ في الدور الأرضي، فأرسل إليه رسالة رفقة أحد الحرّاس، وحاول البحث عن هارون وعن طريق الخروج. كان مديره قد ذهب في اتّجاه المرافق الصحّيّة وهو يتصبّب عرقًا، فلوّح له وصافحه في عجالة، وقال له إنّه سيراه في يوم الإثنين، وانصرف مسرعًا. وبينما كان يرتدي سترته، رأى صورة رجل شاحب الوجه يشبهه في المرآة المنتصبة في الصالة.

وعندما وقف خارج الباب الرئيس، لم يستطع أن يتبيّن مكانه بداية. كان الثلج ينهمر، محيلاً كلّ شيء إلى بياض. الطقس بارد ونظيف وصحّي. تنفّس نفسًا عميقًا بضع مرّات، وأمسك به سائقه من ذراعه وساعده على نزول الدرج وخرجا من وراء جدران المجمّع العالية، التي شُيِّدت لحماية الأثرياء والأجساد التوّاقة إلى الشهرة والبيوت التي تنعم بالسعادة من خلفها. وسار الإثنان في اتّجاه السيّارة التي كانت في انتظارهما مدفّأة على جانب الطريق. كانت تنبّه مثل هذا الرجل غاية في الهدوء والسكينة، فأطلق العنان لنفسه. وفي تلك اللحظة، راودته رغبة في نسيان كلّ شيء نسيانًا تامًّا.

وبعد مرور يومين اثنين كتب هذه الرسالة إلى إيلام:

حبيبتي البقعة الصفراء،

أخيرًا، تمكّنت من التخلّي عن وظيفتي التي كانت عبئًا ثقيلاً على كتفيَّ منذ بعض الوقت. وفي هذه اللحظة، لم يعد يساورني ذلك الشعور

بأنّني تحت وطأة الطحن في طاحونة سرعتها خارج نطاق سيطرتي. إنّني أحيا الآن حياة هادئة ملتبسة، ولكنّني لست وجلاً.

عندما كنت أترك وظيفتي، لم أتمالك القدرة الكافية لاتّخاذ موقف صريح وواضح بإزائها، وهي الوظيفة التي كنت أرزح من تحتها على مدى سنوات، وجعلتني أشعر أنّها بلّدت فؤادي وحجّرت عاطفتي بالنيل حيلةً من قيمي الأخلاقيّة. لكنّني في حالة اطمئنان كافية من هذه الناحية. وسوف تكون قوادم الأيّام مرحلة راحة تامّة لي من حياتي المهنيّة وانتهاءً بعلاقاتي الشخصيّة. وسوف أقلّل أيضًا من آمالي وأحاول أن أركّز انتباهي في العالم.

إنّني أنهي هذا الموضوع، ولكن دعيني أخبرك أنّني بالتخلّي عن وظيفتي سوف أتخلّى أيضًا عن الوسط الذي كنت حتى هذا الوقت جزءًا منه. المؤكّد أنّني سوف أشعر بالوحدة بعض الوقت. إنّني في حاجة إليك.

حاولت حتى الآن أن أبذل قصارى جهدي كي أخبرك عن نفسي. وقد بذلت جهدًا جبّارًا من أجل إيصال مشاعري وأفكاري إليك من دون أن أخفي توجّهها. أظنّك فهمت أنّني لست عضوًا في جمعيّة سرّيّة أو أنّني أمارس لعبة ما غير مألوفة لديك. إنّني رجل اعتيادي ينتمي إلى هذا العالم.

لقد سبق لكِ أن أخبرتني عن عديد الأوجه في حياتكِ التي لا تريدين أن يعرف الآخرون شيئًا عنها. وقد تركت الانطباع يتولّد لديّ بأنّك لا تمانعين من الكشف عن نفسك كما هي. فكّرت مليًّا في الأشياء التي كتبتِها إليّ. صدّقيني أنّني شعرت أحيانًا بعذاب حقيقي وأدركت أنّني أقترب منك أكثر فأكثر عند كلّ رسالة.

في هذه المرحلة، أنا لا أستحسن سلوكك الذي أراه نقصًا في الشجاعة. إنّني الآن أقرب إليك من أيّ شخص مررت به في حياتي. ولم أعد قادرًا على تحمّل انتظارك في عالمي الخيالي مثل عقبة لا يمكن تجاوزها. إنّ تفكيري المحض بأنّك حاضرة يعمل على تحسين مزاجي، لكن من جهة أخرى، أرى أنّك السبب الذي يجعلني أشعر بكلّ هذا العجز واليأس. ما سبب كلّ هذه السرّيّة، وكلّ هذا الغموض؟ ثمّة آلاف الصور في ذهني التي يمكن أن تكون صورك أنتِ، ولكن أيّ واحدة منها لا تنطبق عليكِ انطباقًا صحيحًا. وعندما أكتب إليكِ في هذه اللحظة، فإنّ الشعور يلازمني بأنّني أحوّل التعبير عن نفسي بلغة قلّما أفهمها، لغة تنمّ عن قلق وعن انغلاق.

لقد وصلنا مرحلة لن نتمكّن فيها من اتّخاذ خطوة واحدة إلى أمام إذا استمررنا على هذا النمط من التواصل. لهذا السبب، فإنّني أتخلّى عن موقفي الليّن والصبور وأتّخذ قرارًا بإجراء تحوّل جذري في أسلوبي. إنّني أريد أن أراك في أقرب وقت ممكن.

أنت تشعرين أنّ ثمّة حافزًا قويًّا يحفّزك إلى السرد وإلى التواصل وإلى الكتابة عن الأشياء التي مررتِ بها: أنتِ تكتبين وتصرخين، ولكنّكِ على الرّغم من ذلك، لا توجّهين كتابتك وصراخك إليّ، بل إلى ما هو أعلى شأنًا، إلى من يرقى فوق مستوى الفرد. أدرك أنّ كلّ صوت جميل وصحيح ينطلق من الإنسان إنّما يزداد قوّة في أصداء لا نهاية لها إلى أن يصل في نهاية المطاف إلى منطقة معيّنة، غير أنّني بدأت أشعر بالتعب والإنهاك لأنّني الوسيط الوحيد في نشاط تستمتعين به ـ وتقبلين به على أنّه غير مؤذٍ ـ وحيث لا تحتاجين إليَّ أبدًا من أجل الاستمرار.

إنّني أريد أن أعرفك، وأن ألمسك، وهذا التماسّ يتجاوز حدود حبّ الاستطلاع، إنّه ضرورة. ها أنذا أرسل إليك رقم هاتفي من جديد،

وسوف أنتظر اتّصالك. وإذا رفضتِ، فإنّني سوف أفقد كلّ ثقتي وإيماني في هذا التماس عن قرب من دون اسم، وسوف أتوقّف عن الكتابة إليكِ.

قد تكون لديكِ أسباب تعتقدين أنّها صحيحة. وأنا بدوري لن أعترض بأيّ حال من الأحوال وسوف أحترم موقفك.

هذا، وسوف أعتزّ بحضورك في أعماقي، ولكن هذه الرسالة ستكون الأخيرة الموجّهة إليكِ.

فولكان

* * *

١٤

دلفت ملكة إلى مركز بيتي للجمال والرياضة. وكانت تأتي إلى المركز مرّتين أسبوعيًّا وتعمل برهة وجيزة من الزمان وبعدها تخضع للتدليك. كان في وسعها أن تذهب إلى مكان آخر في الجانب الثاني من المدينة، وعلى مقربة من منزلها، لكن هذا المركز الذي كانت آيسيفيم شريكة فيه، أصبح مناسبًا لها تمامًا، وكانت تستمتع بنظافته وزينته وبالملاك الذي كان ينظر إليها بعين العطف. يضاف إلى هذا، كانت تلقى رعاية ممتازة لأنّها قريبة المدير ممّا يشكّل مكافأة كبرى للعاملين فيه.

لم تكن آيسيفيم تأتي إلى المركز في أغلب الأحيان، كما أنّ ملكة لم تكن قادرة على رؤية قريبتها التي كانت تكبرها بثلاث أو أربع سنوات إلّا من حين إلى آخر بسبب أسلوب حياة آيسيفيم المشتّت. وكانت مشغولة دومًا بأداء العديد من المهامّ التي تتّصل أو لا تتّصل إحداها بالثانية. وبعد أن رجعت من خارج البلاد قبل

عامين، اشترت شقّتين واسعتين في منطقة المشرق، وحوّلتهما إلى شقّة واحدة واستقرّت فيها. وفي العام المنصرم، أنشأت متجرًا لبيع الملابس المستعملة في ماتشكا. وكانت تملك ثروة طائلة ومجموعة كبيرة من المعارف، وإن لم يكن واضحًا جدًّا الأسلوب والزمان اللذين بوساطتهما تعرّفت إلى كلّ أولئك الناس. وتحوّلت غرفة الجلوس في شقّتها إلى مشرب خصوصي ولا سيّما في عطلات نهاية الأسابيع. ويتحوّل هذا المكان الفسيح بعد ساعة معيّنة إلى ملتقًى ترفيهي تجلس فيه مجاميع الأثرياء والحاضري البديهيّة والمزوّقين إلى حدّ الإفراط لتناول المشروبات وتبادل الأحاديث والقيل والقال عن كلّ شأن من الشؤون بدءًا بالسياسة وانتهاءً بالفنّ، ويستمتعون بإلقاء النكات البذيئة ويحدّق أحدهم إلى الآخر. وبعد أن سارت الأمور على ذلك الحال بعضًا من الوقت، كانت آيسيفيم قد راحت تفكّر في إنشاء مشرب بسبب الاهتمام الذي أبداه الناس، غير أنّها غيّرت من رأيها في وقت لاحق وقرّرت أن تنشئ وكالة الصَّبّ.

وكانت ملكة تزور غرفة الجلوس بضع مرّات في العام قبل سنة واحدة، ولكنّها لم تطأ أرض المكان بعد مرورها بموقف غير سارّ. وكان ذلك الموقف حادثة لا تريد أن تتذكّرها، حادثة جعلتها تشعر بالخجل كلّما فكّرت فيها.

ففي إحدى الأمسيات، شاهدت في ذلك المكان غلامًا شابًّا مذهلاً اعتقدت أنّه غاية في الجاذبيّة. وكانت مشاهدتها إيّاه في مرحلة زمانيّة كانت توشك فيها على الانفجار بسبب السأم والوحدة الجسديّة. وقبل أن تدرك ما تفعل، وقبل أن تتمكّن من التفكير في كيفيّة ما سوف تفعل، جذبت الغلام إليها واصطحبته إلى منزلها.

وكما هو حالها دومًا، فإنّ شيئًا ما دفعها إلى رجل لا تعرف عنه شيئًا سوى مظهره الطائش. ربّما كان السبب هو إحساسها بالعجز والحاجة الماسّة إلى ممارسة الجنس، خيرًا كان أم شرًّا.

لم يضيّع الإثنان الوقت سدًى، بل وثبا إلى السرير من فورهما، وتولّت ملكة زمام المبادرة عندما راحا يمارسان الجنس، وبذلت قصارى جهدها في أن تجعل من الممارسة لعبة وحشيّة ومؤثّرة ومضطرمة. فهاجمت الغلام وأخذت تعانقه عناقًا مشبوب العاطفة، ينمّ عن فقدان صبرها، وتتحرّك حركات خشنة في سرعة تبهر الأنفاس. فما كان من الفتى إلّا أن شرع بالدفاع عن نفسه، وفي الوقت نفسه ينفّذ الأوامر مثل جندي.

بعد أن انتهى كلّ شيء، وراحت الشمس تشرق، أراد أوزان ـ وهو اسم الفتى ـ أن ينهض ويمضي في سبيله، ووقف قرب الباب بعد أن ارتدى ثيابه، وراح يرنو إلى ملكة وهي من فوق السرير كأنّه في انتظار شيء ما، فسألته إن كان يريد شيئًا ما، وإذا كان يريد الذهاب، فلم لم يذهب؟ وهنا طلب منها الفتى مبلغًا من المال أجرًا لقاء ما قام به. هل يريد مالاً فوق كلّ ما فعله؟ نعم، لأنّه أنفق وقتًا وإيّاها وأنّه أجَّر جسده لها. فهذه هي مهنته، وبهذا الأسلوب يكسب رزقه. لبثت ملكة مكوّرة فوق السرير وشعرت أنّها تافهة، وأنّها منقلبة ظهرًا لبطن وهي تحدّق إليه من دون أن تتمكّن من تحريك إصبع واحدة. وهنا أومأت برأسها إلى الحقيبة الموضوعة على الكرسي. خذ ما تريد ولا تريني وجهك ثانية. وهنا شعر أوزان بنوع من التمرّد والقلق، ولكنّه كان عاقد العزم على نيل ما يبغيه، فأفرغ محتويات الحقيبة على السرير، وجذب ورقتين نقديّتين من محفظتها

قبل أن يرميها على الأرض وينصرف في هدوء.

وبعد أن مضى في سبيله، وضعت ملكة رأسها تحت الوسادة وراحت تبكي بكاءً طويلاً. وظلّت طوال ذلك اليوم تبكي وتتقيّأ. راودها شعور بأنّها قد شاخت وأُهينت وانكسرت مثل زهريّة من زجاج. لقد استخدمت العنف ضدّ الفتى على الرّغم من أنّه لم يكن يرغب في ذلك، ومحت إرادته ولعبت به حتى أثارت اشمئزازه. المؤكّد أنّه أفرغ عاره وغطرسته على ملكة، ورحل جاذبًا روحها وأنوثتها إلى عصر قديم على نحو لا يمكن إصلاحه، وحبسها هناك وحيدة في تلك الليلة.

بعد تلك الحادثة، لم تستطع مجاراة نفسها والاتّصال بآيسيفيم مدّة طويلة من الزمان. وشعرت ملكة أنّ آيسيفيم خدعتها وإن لم تكن متورّطة شخصيًّا في تلك الخديعة. كان ذلك المنزل وكرًا لكي يفقد فيه المرء حرّيّته غير المحدودة ولكي تستبدّ به الدهشة، ولكي يطلق شتّى أنواع الكلام والأفكار التي لن تلقى من يسمعها، ولكي يمارس البحث متعدّد الأوجه والعاجل والمخزي عن علاقات غير لائقة. هل يمارس الناس يا ترى الجنس في الحجرات الخلفيّة؟ وهل تراهم يتنشّقون الكوكائين في الحمّام؟

كيف يمكنك يا آيسيفيم من العيش وسط كلّ هذه العقد في حياتك؟

أمّ غريبة الأطوار، وأب هادئ الطبع، نحيل الجسد، وإن لم يكن بالسوء الذي كان عليه والد ملكة، عمل صيّادًا ولوّحته نسمة البحر ونور الشمس. الطفولة في مدارس داخليّة وبإعانات مدرسيّة تُمنح للمحتاجين والمعوزين. المراهقة محتشدة بهزّات نفسيّة،

متباهية من كونها شرطيّة، لتعقب ذلك كلّه حياة رائعة بوصفها غانية في العالم السفلي السهل الانزلاق فيه، في ذلك البلد!

لم تعرفها ملكة المعرفة الكافية التي كانت تظنّها، بل كانت في أغلب الأحوال تراها كما تريد. كانت لهما إلى حدٍّ ما ذكريات مشتركة عن الطفولة، وعاشتا في الشقّة نفسها في سنوات شبابهما. وتخرّجت آيسيفيم من أكاديميّة الشرطة في تلك الآونة، وكانت ملكة في أكاديميّة الفنون الجميلة. واضطرّت بسبب ضغط زوج أمّها إلى السكن في مأوى خانق، يقبض الأنفاس، مخصّص للفتيات المتديّنات. وكان خالها يوفّر لها الدعم المالي، ويشجّعها على مغادرة ذلك المأوى وأن تنتقل للسكن رفقة آيسيفيم التي كانت على أهبّة الاستعداد للموافقة.

استأجرتا شقّة صغيرة في فندقلي وانتقلتا إليها، وكان هذا التحوّل بداية الطريق الذي أدّى بها إلى اكتشاف الذات والاستقلال. وكان هذا هو السبب، إن لم يكن ثمّة سبب غيره، هو الذي جعلها تشعر بأنّها مدينة لقريبتها، التي كانت تتقن كيف تخفي مشاعرها وتتأقلم في سهولة مع كلّ الأوقات وتطلق العنان لمشاعرها ربّما كي تتحرّر من نفسها.

في ذلك الوقت، كانت آيسيفيم تقيم علاقة غراميّة مع رئيس مهمّ من رؤساء الشرطة السرّيّة يكبرها بسنوات. كان وسيمًا، وذا شعر أسود قصيرًا، وعينين زرقاوين صارمتين لهما بريق المعدن. أمّا بدنه، فكان جذّابًا كأنّه تمثال، وعليه مسحة متشامخة ومتباهية وجادّة ولا سيّما أمام الغرباء.

ثم أقامت لها علاقات غراميّة مع آخرين. كانت آيسيفيم امرأة

جشعة ذات طموح واسع. وبدلاً من أن تحبّ الرجال الذين كانت في رفقتهم، فإنّها كانت ترى نفسها سلعة غالية ـ وإن لم تكن ثمينة ـ يمكنها أن تمنحهم إيّاها، لتتلقّى عوضًا عن ذلك أكثر ممّا أعطت.

بعد أن تزوّجت ملكة بيالتيكين وانتقلت للعيش وإيّاه، بدأت آيسيفيم علاقة غامضة مع موظّف إداري بهيّ الطلعة وذي مركز مرموق يدعى أكبر غورلي، وكان قد تجاوز أوج نشاطه العقلي والبدني وأصبح بطيء الفهم. وبعد مرور مدّة قصيرة، جرى نقلها إلى قسم الشرطة السرّيّة حيث تقدّمت في عملها في سرعة. عاشت رفقة أكبر في أنقرة بضع سنوات في شقّة فاخرة في حيّ تشانكايا، وتحوّلت إلى امرأة أخرى تمامًا في كلّ ملبس تلبسه، وكان لها كلّ ما تريد. وبحسب ما ردّده المصوّر ماتن، فإنّ أكبر كان يستخدمها طُعمًا أو مكافأة للاقتراب من العملاء الأجانب والشخصيّات المهمّة التي يتّصل بها. هذا إن كان ماتن صادقًا...

بعد اختفاء أكبر في الولايات المتّحدة في مارس من سنة ١٩٩٥، سكنت آيسيفيم في بيت نيازي بك في حيّ نوتنغ هِلْ بلندن مدّة خمسة أعوام. وكانت ملكة تذهب للإقامة عندها كلّما سافرت إلى لندن لإنجاز بعض الأعمال التجاريّة. كان الهاتف يرنّ باستمرار وكانت آيسيفيم تقضي معظم الأماسي خارج البيت، تحيا حياة سريعة مفعمة بالحيويّة والنشاط. لم يكن ثمّة رجل واحد بعينه في حياتها، ولكنّها كانت على الدوام تفاوض مجموعة من الأشخاص الذين يتعاملون في تسويق الأثريّات ذات الأصول الأناضوليّة، فضلاً عن جهات معيّنة تُبدي اهتمامًا بالأمر.

كانت ملكة تعلم أنّ آيسيفيم شريكة في تجارة التهريب التي

يمارسها نيازي بك. وعلى الرّغم من صعوبة التصديق، فإنّ ثمّة أوقاتًا كانت القطع الأثريّة ترسل فيها إلى آيسيفيم في رزم وطرود بريديّة اعتياديّة. وفي بعض الأحيان، أحضرت ملكة لها موادّ صغيرة وأحجارًا كريمة ومخطوطات ذات قيمة. وكانت تحمل هذه الموادّ من دون أن تطرح سؤالاً، بل كانت رسولاً صامتًا. واعتقد نيازي أنّه يستحسن من الناحية الأمنيّة ألّا تعرف آليّة العمل. ففي نهاية المطاف، يأخذ كلّ ذي حقّ حقّه بضمنهم ملكة.

تلك كانت سنوات مفعمة بالتأقلم الذاتي والاكتئاب، ولم تبذل ملكة أيّ جهد كي تفهم مجموعة الارتباطات التي يتشكّل فيها حكم المرء على القيم، وما المستوى الذي تنطوي فيه المبادئ والمعتقدات على أيّ معنًى، أو تكون قادرة على إعطاء المعنى. سنوات شعرت فيها بالضعف وصدّقت بأنّ الحياة تافهة وأحسَّت بالحنين إلى ما هو بسيط. والآن، وجدت نفسها أكثر قوّة وتجربة بفضل ما راحت تقبل به قبولاً واعيًا من جهة ما وقبولاً من غير وعي في معظم الأحيان.

* * *

قليلون هم الذين كانوا يرتادون المركز الرياضيّ. خلعت حذاءها الرياضيّ ووثبت إلى جهاز المشي مرتدية بنطالاً قصيرًا وقميصًا من دون ردنين، وعمدت إلى توقيت الجهاز لمدّة عشرين دقيقة، وراحت تسرع في مشيها، وعلى إيقاع الجهاز وهي تنظر إلى المرآة المنتصبة أمامها. كانت جذّابة وبسيطة، وبدت منتمية انتماءً كاملاً لهذا العالم. ولم ترغب في البحث عن أيّ شيء في السماء أو في النجوم، ولم يعد أمامها أيّ شيء تريد أن تتعلّمه اضطرارًا،

أو تعرفه أو تبحث عنه أو تنتظره أو تنساه!

يمكن أن تقترف أخطاءً بين وقت وآخر. تلك ليست خطيئة، إنْ التقت شخصًا ما أو كان له صوت مُغرٍ. ذلكم جزء من هذا العالم. فعلى سبيل المثال، السماح لشخص ما أن ينسلّ من بين يديها في اللحظة التي توشك فيها على القبض عليه. من شأنها أن تشعر بالألم عندما تتخلّى عن شخص ما تظنّه إنسانًا مناسبًا، ولكنّها كانت تعرف أنّ ذلك الألم سرعان ما سوف يزول. تلك هي طبيعتها، ولم يكن فولكان أوّل شخص.

كان جهاز المشي يمضي أسرع فأسرع، وراحت تهرول.

فولكان. إذا لم يكن بدنه متناسقًا ومثاليًّا، فإنّه يمتلك خصلة أخرى عدا الوسامة. مرونة عالية وثقل مريح. خمول في الجسم يشبه إيقاع حياة قطّ كسول شبعان... عيَناه الحزينتان، والوحدة المؤثّرة التي لا سبيل إلى دخولها في ابتسامته تجعله يبدو أعمق ممّا هو عليه فعلاً، الحقّ أنّه ليس استثنائيًّا. فيه من الطيبة ما يجعله مثيرًا للسأم على المدى البعيد.

فكّرت أنّهما لم يُخلقا من أجل بعضهما بعضًا، بعد أن أدركت أنّ تفكيرها مبتذل وساذج، ولكن هذا هو أقصر تعريف وإن كان تعريفًا ينطوي على مغالطة، لأنّ خلق أحدهما من أجل الآخر ليس بالأمر المهمّ من الناحية النظريّة. الحقّ، يستحسن الاعتماد على الأضداد، لكنّ الأمور تختلف إذا وضعت موضع التنفيذ وانطوت على ممارسة الجنس.

كانت ملكة يساورها الإحساس بنوعين من الاهتمام تجاه

الرجال الذين يتقرّبون منها. فالألفة التي كانت تشعر بها إزاء الرجال الذين يتّصفون بسماحة الطبع والحنان والمحبّة مثل فولكان لم تكن لتتجاوز الإحساس بالأمان والإشباع العاطفي. كانت تحبّهم ولكنّها لم تشعر بالدافع ـ أو ربّما شعرت بدافع بسيط ـ لتسلّم نفسها إليهم. وفي تلك الحالة، كانت تلجأ إلى الكلمات من أجل التغطية على قصور جسدها في أداء وظيفته السويّة. ولهذا كانت دومًا تتكلّم أو تبدأ بالنقاش، وهذا نمط من أنماط الدفاع الذاتي. لقد حاول فولكان عبثًا مجاراتها في يأس أو قنوط ينمّ عن حيرة وعن صراع، ولكنّها وجدته مبعث سخرية أحيانًا. ولم يستطع أن يكون ساذجًا أكثر ممّا ينبغي كي يدرك أنّ العاطفة علاقة مضطرمة وجامحة بين رجل وامرأة، ولا بدّ من أن يعيشها الإثنان في عنفوان، وأن تكون عارية، صدرًا لصدر. ولسبب من الأسباب، حاول فولكان أن يقدّم حبًّا بصرامة غبيّة إلى حدٍّ ما، وبأحاديثه المثيرة للشجن والحزن وهو يجلس قبالتها. المؤكّد، ليس سهلاً إغواء امرأة لا تفضّل التخلّي عن جسدها إلّا بمغازلتها، في حين أنّ اللمسة الذكيّة أو القبلة المشبوبة العاطفة غير المتوقّعة أشدّ وأقوى تعبيرًا من عشرات المجلّدات التي تحتوي على كلمات، كما أنّها أسهل وأكثر إثارة للمتعة.

ورأت ملكة أنّ ما يثير الاهتمام هو أنّ الرجال من حولها بدوا ينأون بأنفسهم عن دور الذكر المثقّف، وأنّهم ازدادوا ليونة ومودّة واحترامًا وحساسيّة. أمّا النساء، فقد أصبحن على العكس تمامًا، أكثر خشونة وجرأة وجموحًا في عواطفهنّ. كان الرجال ينفرون بعيدًا، وتعاظمت سلبيّتهم، في حين راحت النساء، بحكم الظروف أو الاضطرار، يؤدّين دورًا أكثر فعاليّة لتحقيق التوازن.

تذكّرت آخر لقاء لها مع فولكان قبل أسبوعين تقريبًا. فقد التقيا في مشرب، وجلسا زهاء ساعة! وكان خلالها في حال من اليأس والقنوط ما دفع ملكة إلى عدم الرغبة في الحديث. كان لقاءً وداعيًا تقريبًا، إذ أخبرها أنّه سوف يتخلّى عن وظيفته، وأنّه سوف يقوم برحلة طويلة. وكادت ملكة أن تسأله إن كانت الرحلة التي يعتزم القيام بها هي إلى أفريقيا، ولكنّها أمسكت عن الكلام بعد أن غيّرت رأيها. لقد حدث شيء ما في حفل عيد ميلاد عمّها، ولعلّه استنتج أنّها على علاقة بحيالي. وممّا لا شكّ فيه أنّ ثمّة أمورًا أخرى.

فكّرت في ذلك المساء الذي انقضى في المنزل، حيث شعرت بارتباك شديد من جرّاء سلوك فولكان الغريب وغير المريح وغير اللائق. يضاف إلى ذلك، اضطربت اضطرابًا شديدًا بسبب نظرات حيالي الخاطفة المزدرية وسلوكه الاعتدائي والتأنيبي الذي أظهره منذ اللحظة التي رأى فيها فولكان، فندمت أشدّ الندم لدعوة الرجل المسكين إلى الحفل، لهذا باتت الآن متأكّدة من شيء واحد فقط، وهو أنّ فولكان كان يبدو لمن لا يعرفه رجلاً عجوزًا من الناحية الروحيّة، عفا عليه الزمان، يتحمّل النقد باحثًا عن الأخطاء، رجلاً كان يعتقد أنّ كلّ شيء مؤلّف من العناصر الثلاثة الأساسيّة، رجلاً يصعب عليه تحديد التباينات!

رنّ جرس الإنذار في جهاز المشي رنينًا قويًّا وهدأ، فما كان منها إلّا أن أوقفته وترجّلت عنه. في تلك اللحظة، شاهدت آيسيفيم تدخل وهي تسير معتدلة القامة، واثقة من سلطتها وجمالها. كانت ترتدي بذلة زرقاء تميل إلى اللون البنفسجي، ولاحظت ملكة أنّها قد ازدادت وزنًا عن آخر مرّة رأتها فيه، كما أنّها تركت شعرها ينمو

وأنّها عمدت إلى صبغه باللون الأحمر وصفّفته على شكل كعكة في مؤخّرة رأسها. إنّها صورة نموذجيّة عن الرئيس. نادتها ملكة، وتبادلتا القبلات.

قالت آيسيفيم:

ـ اشتقت إليك يا حبيبتي، ولم أتمكّن من الحضور لزيارة معرضك. قيل لي إنّه معرض رائع. لديّ أشغال كثيرة ولا أدري من أين أبدأ بعد الآن..

سألت ملكة:

ـ لماذا تجهدين نفسك في العمل؟ كان عمّي يسألني عنك قبل أيّام...

ـ إنّني مشغولة بأمور دقيقة يا عزيزتي، أمور صعبة...

ـ ما هذه الأمور الدقيقة؟ إنّني توّاقة إلى المعرفة.

ـ لا أظنّك راغبة في المعرفة، فأنا أعمل على تسويق النساء لرأسماليين متعطّشين للجنس.

ثم أطلقت ضحكة عالية، فحدّجتها ملكة بنظرة وفتحت فمها مندهشة، وكادت أن تسقط المنشفة التي كانت تجفّف بها عرقها من يدها.

ـ إنّها نكتة، هذا هو التعريف العمومي. أنت تدرين أنّ هذا هو ما يفعلونه في عالم الاستعراض. إنّ الشريان الرئيس لهذا العالم تفتحه الطبيعة أمام الشعيرات الدقيقة.

قالت ملكة:

ـ لقد اقشعرّ بدني. ربّما لم تجرّبي حتى الآن دور مديرة ماخور.

جلست الإثنتان على مقعدين من مقاعد رفع الأثقال.

ـ إنّ خدمات الوساطة قطاع يكاد يخرج عن السيطرة في أيّ لحظة، وهو قطاع لا يمكن التحكّم به ولا وضع الحدود له، يا ملكة. كما أنّه غدا أكثر صعوبة في هذه الأيّام.

فهناك الوكالة وهناك المحلّ. صحيح أنّ لديّ موظّفين، ولكن لا فرق، إذ ينبغي لي أن أتولّى زمام الأمور بنفسي على أساس متساوٍ.

قالت ملكة وهي تتخلّى عن محاولة فهم ما تعنيه كلمات آيسيفيم:

ـ سوف أذهب لأستحمّ، وإذا كان لديك متّسع من الوقت، فدعينا نجلس في المقهى.

ـ اذهبي واستحمّي يا حبيبتي، وسوف أكلّم بيتي.

* * *

في المقهى ـ المطعم، ثمّة عدد قليل من النساء اللواتي تُنشر صورهنّ في غالب الأحيان في أعمدة المجتمع الخاصّة بالجرائد. خمس أو ستّ فتيات رائعات الحسن والجمال، ورجل عجوز صبغ شعره وشاربه بعناية، فضلاً على شابّين آخرين من المنغمسين في الملذّات. كانت النوافذ الكبيرة ذات المصاريع الخشبيّة تطلّ على حديقة مترامية الأطراف تحتشد فيها أشجار الصنوبر. كان يومًا شتائيًّا لطيفًا وإن كان الطقس ملبّدًا بالغيوم. كان المقهى يحتوي على

كراس بأذرع مريحة وشاشة كبيرة لمشاهدة الرياضة. أمّا المنطقة المخصّصة لتناول الطعام، فكانت ذات طاولات لا تشوبها شائبة ومغطّاة بأغطية بيض.

اتّخذت ملكة مجلسها فوق أحد المقاعد وراحت تنتظر آيسيفيم، ولكنّها لم تتمكّن من اتّخاذ قرار بضرورة إخبارها بأنّ حيالي أصبح مالكًا جزئيًّا للمحلّ، لأنّ آيسيفيم كانت غالبًا ما تبالغ في ذكر الأشياء، فتخلق الفوضى والارتباك، ممّا يشكّل خطرًا على علاقة ملكة بعمّها. من جهة ثانية، كان نيازي بك في موقف محفوف بالخطر قد يتسبّب في خسارته البيت كلّه. وفكّرت في نفسها: ليفعلوا ما يحلو لهم، فالأمر ليس بتلك الأهمّيّة. لا، بل له أهمّيّة. لماذا يتعيّن عليهم ترك ذلك المبتزّ يجلس من فوق مثل هذا الذخر الثمين؟ كان أهمّ شيء يتمثّل في فكرة التجاهل والخداع. بدا حيالي وقد شنّ معركة من أجل السلطة، ولكن ملكة لن تمكّنه من النجاح والفوز، وراودها إحساس قوي بضرورة طرحه أرضًا وجعله يجثو أمامها فتوسعه ركلاً. ارتعشت عندما شعرت برغبة عارمة في التشبّث بكتفيه وهزّه هزًّا عنيفًا، وأن تسقط وتغرق في بئر عينيه السوداوين البرّاقتين، وأن تعضّ شفتيه المكتنزتين والمنفرجتين قليلاً على الدوام وتجعلهما تنزفان دمًا، والأكثر من هذا كلّه، أن تمزّقه إرْبًا إرْبًا.

تخيّلت الثلاثة من فوق سرير ضخم يمارسون الجنس ممارسة شهوانيّة، ورأت حيالي تارة في الظلّ وتارة أخرى تحت الضياء، من فوق ومن تحت يمارس الجنس مرّة مع هذا ومرّة أخرى مع تلك. وشاهدت ذراعيه الذهبيّتين وظهره وتقوّس ساقيه الرجوليّ. كان ينحني من فوق الفتاة ويشبك جسده بجسدها. أمّا الفتاة التي بدت

وكأنّ رأسها وذراعيها قد انخلعت وتمزّقت، فقد جعلته يمسك بردفيها الصغيرين المدوّرين مثل ردفيّ غلام عندما نهضت وتربّعت من فوق الرجل العجوز. وتغيّرت الصور بين لحظة وأخرى. كان الثلاثة يتصارعون مثل ضباع، يفقد أحدهم الآخر ليعود ويفتّش كلّ واحد منهم عن الآخر حتى يعثر عليه. وشكّل الثلاثة كلًّا متكاملاً بأذرعهم وسيقانهم المتدلّية من كلّ الجوانب، فمزّقوا الصمت شرّ ممزّق بهمهماتهم ولهاثهم وعوائهم إلى أن تكوّموا أحدهم فوق الآخر.

شعرت ملكة بغيرة قاتلة وكأنّ أصل فخذيها تلقّى طعنات بسكّين كليل يعلوه صدأ الأيّام الماضية. وجفلت. وشعرت أنّها أضعف من أيّ وقت مضى. كان نبض صدغيها واضحًا. وظلّ خارج المنطق أو الإرادة ذلك الشيء الذي راح يتطوّر بينها وبين حيالي. أم تراهما احترقا معًا بغريزة الدفاع عن الذات والمعركة التي كانت متأصّلة في أصولهم الحيوانيّة؟ نعم، ممّا لا ريب فيه أنّ التحدّي والتوبيخ والازدراء في نظرة حيالي إلى ملكة حفّز الحنين الغاضب الدفين في كيانها.

كان تحدّي الجسد مدمّرًا، وهذا حاله دائمًا. فهي لم تقدر على الإحساس بالمتعة، إذا لم يضاجعها رجل مضاجعة عنيفة لا سبيل إلى كبح جماعها وكأنّه سوف يقضي عليها في أيّ لحظة. ولم تكن لتدرك لحظة رعشتها الجنسيّة إلّا عندما تشعر أنّها باتت تحتضر وأنّ كلّ شيء قد انتهى. هذا هو السبب الذي دفعها إلى إقامة علاقة مع ماتن في الوقت نفسه الذي كانت على علاقة غراميّة مع نديم. وعندما واجهها نديم بهذه العلاقة، أنكرت كلّ شيء؛ فجنَّ جنونه

أكثر من ذي قبل. وهنا أسرعت إلى محو ماضيها من ذاكرتها.

أمّا الآن، فهي تريد عدوَّها حيالي المجرّد قلبه من كلّ حبّ. فمهما حاولت أن تتجاهل الحقيقة، فإنّ هوسها الجديد كان حيالي. حيالي الممنوع، لأنّه شعر بنزعتها فازدراها لذلك السبب. ولأجل أن يجعلها تحسّ بالألم والعذاب، عمد إلى توكيد نأيه عنها وتعذّر الوصول إليه في كلّ مرّة كانا يلتقيان.

صحيح أنّ الكراهية هي الوجه غير المرئي للحبّ. فحتى لو تجمّدت أمامه، فإنّ ضرورة المرور من هذا الجانب إلى الجانب الآخر ملأت كيانها مثل رغبة قاتلة تنتظر التحقيق.

* * *

وصلت آيسيفيم، فاتّجهت الإثنتان إلى الجزء المخصّص لتناول الطعام وطلبتا شرائح من لحم البقر والسَلَطة. وتجاذبتا أطراف الحديث في شتّى الموضوعات: المحالّ التجاريّة والأعمال ونزوات الزبائن والتذبذب في سعر صرف العملات الأجنبيّة. ووجدت ملكة صعوبة في الكلام، إذْ كانت الكلمات تحتقن في بلعومها، وتذوب على لسانها.

سألت آيسيفيم:

ـ لا يبدو أنّك في صحّة جيّدة، فما خطبك؟

كم كانت تبدو موفورة الصحّة والعافية، وكم كانت خلوّة من الهمّ وهي التي تملك عينين متألّقتين تألُّقًا ساحرًا، ويدين مشذّبتي الأظافر لا تحسّان الألم ولا تتعرّضان إلّا إلى رعشات خفيفة. كانت تلتقي رجلاً يعمل في ميدان الفنادق، وكان قد طلّق زوجته قبل وقت

قصير. وفي الأمسيات التي لا يتمكّن فيها من الحضور إليها، تراها تجلس أمام شاشة التلفاز وقطّتها في حضنها.

قالت ملكة:

ـ ثمّة أمر أريد أن أخبرك به، ولكنّني محتارة ومتردّدة إن كان ينبغي لي أن أفصح عنه.

هكذا انطلقت الكلمات طوعًا ومن دون إكراه من فم ملكة، فقالت آيسيفيم:

ـ أخبريني إن كان الأمر مهمًّا.

ـ يمكنك أن تصفيه بالمهمّ. لقد أخبرني عمّي أنّه وهب نصف حصّة المنزل إلى نيازي(١)، وأظنّه بسبب الضغط عليه.

ـ أتظنّين أنّ عمّنا العزيز أُصيب بالخرف يا إيدا؟

ـ مستحيل، إنّه سليم العقل ويمتلك كلّ حواسّه.

ـ لا يبدو ذلك ممكنًا. حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فلنأمل بما هو أفضل. ما الذي يعنيه ذلك لنا؟ فالعمّ يعتني بنفسه عناية شديدة، مبتهج وفي صحّة جيّدة. ثم من يدري من الذي سيعيش ومن الذي سيموت! إذًا، ما الذي دفعه إلى أن يخبرك بذلك؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف يا آيسيفيم؟ ربّما لأنّ النصف الآخر قد يذهب أيضًا.

ـ الواضح أنّ حيالي باع حماره الثمين لقاء مبلغ كبير من

---

(١) ثمّة خطأ في النصّ الإنكليزي لأنّ عمّ ملكة هو نيازي بك، والصحيح أنّه وهب نصف حصّة المنزل إلى حيالي كما ورد سابقًا (المترجم).

المال. إنّ ثمن ذلك المبنى يقدّر بثلاثة أو أربعة بلايين ليرة على الأقلّ يا إيدا.

ـ يساورني إحساس بأنّهما ليسا على وفاق، فعمّي مشغول البال كثيرًا.

ـ حسنًا، في تلك الحالة أرى أنّه يتوقّع منّا مساعدته. وإذا تمكّن حيالي من الاستيلاء على المكان، فإنّه أمّا سيرميه خارجًا أو يقتله. لا بدّ من أن نتّخذ التدابير.

ـ ماذا في وسعنا أن نفعل؟

ـ أعرف العمّ أفْضل ممّا تعرفينه أنتِ. لعلّه لجأ إلى ذلك الإجراء كي يحول من دون رحيل ذلك اللوطيّ عنه. يمكننا أن نحصل على تقرير يفيد بأنّه خرِف. المؤكّد أنّ أوّل شيء ينبغي لنا عمله هو أن نرهب حيالي قليلاً لنذكّره بأنّه ليس حرًّا تمامًا في أن يعمل على وفق هواه.

ـ أتمنّى لو لم أخبرك! ما الذي ترمين إليه؟

ـ اتركي الأمر لي.

أنفقت ملكة عصر اليوم التالي في المتجر وفي المحترف في الدور العلوي. وكانت المعاونة تهتمّ بشؤون الزوّار، كما أنّ الأعمال لم تكن رائجة مؤخّرًا، إذْ انتاب السوق هلع وذعر بسبب الارتفاع المتواصل لسعر صرف العملات الأجنبيّة.

كانت تحبّ مكانها. صحيح أنّه معتم ولكنّه لطيف. ففي الجزء الخلفي من المتجر، ثمّة مطبخ صغير وغرفة متوارية عن الأنظار تحتفظ فيها بأشياء قديمة. فقد انهمكت في تسويق المجوهرات

فضلاً عن تسويق التذكاريّات القديمة مثل الزهريّات والتماثيل البرونزيّة الصغيرة والحليّ الخزفيّة وقوارير العطر الزجاجيّة وقطع الزينة القديمة التي تثبت على خزانات قديمة مصنوعة من خشب أشجار الجوز. وكانت قد وضعت كرسيين مجنّحين في إحدى الزوايا، وبينهما حامل قديم ثلاثي القوائم الشبيهة بقوائم الأسد. وعندما انهمكت في ترتيب المكان، بذلت عناية فائقة في تحويله إلى حجرة أنيقة حسنة الزينة بدلاً من أن تتركه لرمي القطع القديمة إحداها فوق الأخرى. ضروريٌّ جدًّا أن يكون للمرء ذائقة جيّدة من أجل عرض قطع متنوّعة في انسجام وفي كلّ متكامل.

كان المحترف في الدور العلوي مزيّنًا بموادّ لم تأخذها معها إلى بيتها الجديد عندما انتقلت إلى خارج المتجر. بدأ المكان بقطع الأثاث القليلة والتذكاريّات الثمينة ولوح الرسم مثل غرفة جلوس غير مرتّبة ولكنّها رومانسيّة.

* * *

رنّ الجرس الصغير المتدلّي من فوق الباب، ودلفت امرأة شابّة لطيفة، ولكنّها تردّدت قليلاً لمّا رأت ملكة، وأطلقت صوتًا صغيرًا معبّرًا عن دهشتها. بدت مألوفة، ولكن ملكة لم تتمكّن من الاستدلال عليها أوّل الأمر. وعندما نهضت من وراء الطاولة وسارت نحو المرأة الباسمة، تذكّرتها على حين بغتة.

سبق لها أن رأتها قبل أربع أو خمس سنوات في فندق قريبها إيلهان آغا بك، وذلك أثناء حفل عيد الميلاد الأوّل لابنه الذي رُزق به من هذه المرأة، في تلك الليلة المروّعة التي حدثت فيها جريمة القتل ـ ففي البداية، شاهدت جسد إيلهان ساجد الذي مزّقته

الطلقات الناريّة بالقرب من حوض السباحة. وقد توفّي الرجل من غير طائل بسبب هذه الفاسقة.

ـ أتذكريني يا إيدا خانم؟ أنا رينجنور.

فتمتمت ملكة:

ـ نعم، على وجه التوكيد. كيف يمكنني أن أنسى؟

مدّت رينجنور يدها، فصافحتها ملكة من دون تحمّس، وخالت أنّ هذه البغيّ ازدادت جمالاً وبدت غاية في الأناقة. المؤكّد أنّها امرأة غنيّة اليوم، إذْ إن ثلاثة أرباع العقار الذي كان يملكه إيلهان آغا بك بات ملكها الآن، أو إذا توخّينا الدقّة، ملك الطفل الذي أنجبته له.

ـ كيف حالك يا إيدا خانم؟ يا لها من مصادفة، فأنا لم أعلم بأنّ هذا المكان ملكك.

ـ نعم، منذ وقت طويل.

ـ لبثت في اسطنبول سنتين اثنتين، وكنت قبل ذلك في أزمير كما تعلمين.

ـ نعم، تناهى إلى مسامعي أنّك تزوّجت. أهنّئك.

تفوّهت ملكة بالعبارة بنبرة تنمّ عن مرارة.

ـ كان ياليم في حاجة إلى أب. ولم أرغب في أن أذكّرك بذلك الحدث الفظيع. آسفة.

ثمّة حزن لا حدود له في عينيها، وصوتها يشي بقبول يائس، وهو قبول عقلاني يفرضه الواقع.

قالت ملكة في نبرة تعوزها الحماسة:

ـ إنّ اللوم لا يقع عليك.

تلك هي الحقيقة، فقد استغرقت القضيّة زمنًا طويلاً ولم يتكلّم القتلة المحترفون، ولم يفشوا بأيّ شيء يخصّ المحرّضين على الجريمة. الحقّ، أنّ المحرّض على القتل واضح تمامًا. وهو فكّر أنّه شقيقة زوجة إيلهان ساجد، ولكن ليس ثمّة دليل على ذلك، إذْ علمت ملكة من أرماغان، شقيق إيلهان، أنّ رينجيبول[1] تزوّجت شابًّا يعمل في تجارة الجلود.

سألت رينجيبول[2]:

ـ هل التقيت يومًا ما أرماغان آغا بك؟ كيف حاله؟

ـ انتقل إلى أنطاليا، ولم أعد أراه منذئذٍ. وقد وقع الطلاق بينه وبين فيجن قبل عامين.

ـ آسفة. كانا زوجين رائعين.

قالت ملكة:

ـ إنّ التضحية الذاتيّة بمنح الحياة للآخرين لا تتجاوز أبدًا الجهد المثير للحزن. فالمرء وحيد على الدوام.

ـ لقد أحببت إيلهان، وعانيت معاناة كبيرة، والمؤكّد أنّ تصديق الآخرين أو عدم تصديقهم هذه المعاناة ليسا بالأمر المهمّ.

ـ إنّها مأساة كبيرة. أحيانًا يُخيّل إليَّ أنّ أسرتنا حلّت عليها اللعنة!

---

(١) و(٢) الواضح أنّ ثمّة خطأً في هجاء الاسم الوارد في النصّ الإنكليزي، والصحيح هو رينجنور كما ورد في الأسطر السابقة (المترجم).

ـ آه، لا . . كيف يمكن لمثل هذا الشيء أن يكون حقيقة؟ على أيّ حال، يُستحسن بي أن أنصرف، فأنا في عجالة من أمري، وسوف أزورك في وقت آخر.

قالت ملكة:

ـ إذا أردت أن تتفرّجي على أيّ شيء. . .

ـ كنت أودّ أن ألقي نظرة إلى ذلك الدبّوس الزيني الأنيق في الواجهة الزجاجيّة، ولكنّني أشعر أنّه لم يعد يعجبني، إنّني منزعجة إلى حدٍّ ما.

ـ إنّني أقدّر ذلك يا عزيزتي. كيف حال ابنك؟

ـ إنّه بخير، وهو في الروضة الآن.

وفكّرت ملكة بأنّ هذه المرأة باتت ناضجة، وأنّها وجدت الراحة والسلام. المؤكّد أنّها لم تعد تجهد من أجل الحصول على التميّز. راقبت ملكة المرأة الشابّة التي كانت تبتعد ليلفّها ظلام الشارع الشبيه بسواد الفحم، ومن تحت المطر المتساقط في هدوء. ربّما كانت اللعنة شيئًا سلبيًّا، ونقيضًا ينمو في كيان المرء. حرب أهليّة، وفوضى كلّما ازداد التغاضي عنها، عظم انتشارها في حياتنا، تفيض حتى تنقلب إلى قدر.

* * *

الوقت يقترب من الساعة السادسة مساءً، فأذنت للمعاونة في المحلّ بالانصراف، لأنّ هذه الفتاة تقطن في حيّ مالتيبه الذي يستغرق وقتًا طويلاً كي تقطعه سيرًا على الأقدام. وقرّرت ملكة أن تغلق المحلّ بعد ساعة واحدة، فذهبت إلى المطبخ في الجزء

الخلفي من المكان حيث يوجد نضد صغير ومغسلة وطقم لصنع الشاي والقهوة. وهناك أعدّت لنفسها كوبًا من الشاي. ولمّا انساب إلى سمعها صوت جرس الباب، أسرعت في الذهاب إلى واجهة المحلّ لتجد حيالي يدخل.

وقفا وجهًا لوجه لحظة من الزمان، يحدّق أحدهما إلى الآخر في صمت.

لم يسبق لحيالي أن رنا إليها بمثل تلك النظرة من قبل. كان مظهره يشيع بالغطرسة والتوتّر المفعم بالتوقّعات والرغبة في ممارسة لعبة ما. لكن ملكة لم تشح بناظريها عن نظرته، بل أطلقت رغبتها التي سرعان ما عادت إليها، فتلقّت ابتسامة مقابل ذلك.

نادرًا ما كان حيالي يأتي إلى المتجر، ولم يدلف إليه إلّا ثلاث أو أربع مرّات في السنتين الأخيرتين. وساور ملكة الإحساس أنّ الزمان مثل المنخل الذي ينخل كلّ الحقائق التي عرفتها أو توقّعتها.

قال حيالي:

ـ كيف حالك يا سيّدتي؟ لقد جعلتنا نشتاق إليك.

كانت مجاملته تشي بسخريّته المألوفة والدقيقة وبتشامخه وتكبّره. مظهر ازدرائيّ عامّ للحياة بدلاً من البرود...

قالت ملكة:

ـ تشرّفنا. ما مناسبة هذه الزيارة السعيدة؟

ـ هل ينبغي أن يكون ثمّة سبب؟ كنت مارًّا في طريقي، فخطر لي أن أزورك.

ـ لِمَ لا تجلس؟

ثم أشارت إلى مقعد، لكن حيالي لم يجلس، بل اتّجه إلى النضد زجاجيّ الغطاء، وطفق يفكّر وكأنّه ينظر إلى المحتويات بداخله. كانت ملكة منحنية من فوق الطاولة التي وضعت عليها آلة تسجيل النقد، تراقبه وتحاول أن تحتفظ بهدوئها.

لا يمكن أن يأتي من دون سبب هذا الحيوان الصغير ذو الجمال الصارم، هذا الأفّاق المجهول الذي يستخفّ به عمّها الذي منحه لقبه المثير للضحك. كانت ملكة متأكّدة من أنّه في ورطة، لأنّ الصداقة غير مطروحة. كان يتجوّل في المحلّ تجوالاً ينمّ عن وقاحة وعجرفة، واضعًا يديه في جيبيه. كما كانت نظرة الشرّ الغائمة تلوح في عينيه، وهذه كلّها لا تبشّر بخير. وفي مسعًى من ملكة للدفاع عن نفسها، رنت ببصرها إلى الشارع، ورأت المطر مصحوبًا بثلج، وأرخى الظلام سدوله وأُضيئت الأنوار، وثمّة غمامة بخاريّة تحوم من فوق فتحة تصريف المياه على الرصيف. وهبّت نفحة كعكة إسفنجيّة داخل المحلّ من خلال الباب الذي كان قد فُتح وأُغلق قبل برهة وجيزة. شعرت أنّ حيالي يحدّجها بنظراته، فالتفتت إليه.

ـ ما مشكلتكِ وإيّاي يا إيدا؟

كان صوته ليّنًا، ودودًا إلى حدٍّ ما. وأضاف:

ـ ماذا تريدين منّي؟

ـ مشكلة؟ أيّ مشكلة؟ سؤال غير صحيح.

ـ لا تقولي هذا الكلام، ولا تتصرّفي كأنّك لا تعرفين، فذلك يدفعني إلى الجنون. أنت لست هكذا.

ـ كيف يمكنك أن تكون متأكّدًا إلى هذا الحدّ من أنّك تعرفني معرفة جيّدة؟

ـ لا يمكنك إخفاء مشاعرك. على المرء أن يكون غبيًّا كي لا يعرف ماذا تبغين.

ـ وماذا أبغي؟ أخبرني كي أعرف.

ـ أنتِ مجنونة بي. صحيح؟

تجمّدت ملكة في لحظة من الزمان. وراح رأسها يتأجّج من الداخل. حدّقت إليه على نحو وكأنّها لا تستطيع أن تصدّق ما كان يردّده. العدوّ يتقدّم باستمرار تجاهها، يفتح جرح طفولتها ويدفعه إلى النزيف، وهو الجرح الذي تسبّب فيه خضوعها وطاعتها وحوّله إلى غضب وتمرّد. في هذه المرّة، لا يوجد العمّ ـ الأب، بل هذا اللقيط الذي طالما اشتاقت إلى جسده اشتياقًا ملتهبًا، وإلى عينيه اللتين تتعذّر مقاومتهما، وإلى فمه الساحر. وهنا بذلت قصارى جهدها لترغم نفسها على أن تظهر بمظهر اللّامبالية.

قالت:

ـ إنّ كلماتك هي هجوم قاس على مكاني الخاصّ. هل أتيت إلى هنا لتخبرني بهذا؟

ـ الحقّ أنّني كنت أريد أن أقترح عليك أن نفضّ نزاعنا ونعقد صلحًا. دعينا نتحدّث حديثًا صريحًا وننهي هذا التوتّر، لأنّه ليس في صالحنا نحن الإثنين. لا بدّ من أن نتوصّل إلى اتّفاق.

ـ نفض نزاعنا؟ ليس لديّ شيء كهذا الذي تقول. يُضاف إلى ذلك، أنا غاية في الهدوء.

ثمّة امرأة ما خارج المحلّ ترنو إلى المجوهرات المعروضة في الواجهة، دلفت بعدها إلى الداخل، وتبيّن أنّها امرأة مسنّة إلى حدٍّ

ما، تحمل بيدها بعض الخسّ في كيس من البلاستيك. وطلبت من ملكة أن تطلعها على الملاعق الفضّيّة المعروضة في الواجهة. في هذه الأثناء، راح حيالي يقدّم معلومات للمرأة عن الملاعق ويوضح لها قيمتها الكبيرة. صحيح أنّها غالية الثمن، ولكنّها قديمة؛ وأنّ ثمّة ملاعق شبيهة بها محفوظة في متحف قصر توبكابي.

في أثناء كلامه إلى السيّدة في رقّة وعذوبة، فكّرت ملكة بأنّه يمكن أن يكون رقيقًا إذا شاء ذلك. كما أنّ صوته كان عذبًا كالماء، إلى حدّ أنّ ملكة سمعته، ولكنّها لم تشعر بضرورة معرفة العبارات التي كان يتفوّه بها. كانت تراقب شفتيْ حيالي وحركاتهما، توّاقة إلى لغة يديه وإلى أن تشعر بهما تتوغّلان في داخلها فيصيبها دوار مذهل. اشترت المرأة الملاعق ومضت في سبيلها، وهنا أطفأت ملكة نور مصابيح الواجهة الزجاجيّة ووضعت المفتاح في الباب، ولم يبق في المحلّ أيّ ضوء سوى الضوء الليلي على الطاولة في إحدى الزوايا. لقد قرّرت أن تصغي لحيالي حتى تعرف ما الذي يرمي إليه.

قالت:

ـ يمكننا أن نتكلّم إذا ما أظهرت اعتدالاً. دعنا نجلس، وسآتيك بكوب شاي.

ثم اتّجهت إلى المطبخ وضغطت على زرّ الغلّاية الكهربائيّة.

وفكّرت: اتّفاق؟ أيّ نوع من الاتّفاق؟ لا، هذا غير ممكن. الأفضل أن تتشاحن وهذا الرجل. وفكّرت في العبارة التي تزيد من التوتّر. ذلك نوع من التقدّم أيضًا. وهنا وضعت كيسًا من الشاي في

كوب وصبّت فيه مقدارًا من الماء الساخن، وحملته بيدها واستدارت لتواجه حيالي وجهًا لوجه.

كان أوّل شيء راودها في تلك اللحظة هو الذعر الحادّ، فقد كان وجهه متورّمًا ومتوتّرًا، وفمه متقلّصًا كأنّه يوشك أن يصرخ أو يعضّ. كان يرنو إليها بنظرة ثاقبة، عارية، وصلت أعماق فؤادها. حاولت ملكة في ذلك المكان الضيّق أن تتراجع بعيدًا عنه، لكن حيالي كان قد بسط ذراعيه إلى الجانبين، قابضًا على إطار الباب مانعًا إيّاها من الخروج.

قالت ملكة:

ـ إنّك تعترض طريقي. لقد أعددت لك شايًا، تنحّ جانبًا كي أتمكّن من المرور.

ـ بالله عليكِ، لا تمارسي اللعب وإيّاي. من شأنك أن تقفزي فوقي لو كنت تملكين ما يكفيك من القوّة. صحيح؟

ـ أيّها اللوطيّ! أيّها الكذّاب! إنّك تثير قرفي.. تقزّزني!

اندفع حيالي اندفاعًا غاضبًا نحوها، فما كان من ملكة إلّا أن قذفت الكوب والشاي في وجهه، فاحترق صدر الشابّ واندفع في نوبة جنون وهاجمها بغتة.

دفعته ملكة جانبًا، وتشابكا، فانقلبت الجرار والمنشر على النضد محدثة صوتًا مدوّيًا.

بدا على الإثنين أنّ أحداهما يسعى إلى خنق الآخر، وإلى تحطيم رأسه. أمسك حيالي ملكة من شعرها ودفع رأسها إلى الوراء وعضّ رقبتها، فأطلقت صرخة حادّة وحاولت أن تهجّم عليه وأن

تخمش وجهه مثل قطّة قلقة، ولكنّه أمسك بذراعها. في اللحظة نفسها، شعرت بصفعة قويّة على وجهها، ترنّحت على أثرها.

دفعها الشابّ إلى الجدار. كان قويَّ الذراعين وهو يطبق عليها بقوّة، ويضع فمه على فمها ويقبّلها قبلة عنيفة كأنّه يريد أن يمتصّ دمها. أطلقت العنان لنفسها واسترخت وكأنّها أصيبت بطلق ناري. وخارت قواها وتلاشت إرادتها في الدفاع عن نفسها، وحلّ محلّ ذلك كلّه رغبة عاجلة في المشاركة، ولم تقاوم ذلك الهجوم الوحشيّ العنيف إلّا قليلاً. . إلّا بما يكفي. كانت من دون ذلك الهجوم لا شيء سوى وجود قاحل لبعض الوقت. كان صوتها حبيسًا في حلقها، حيالي يداعب كلّ جزء من أجزاء جسدها وكأنّه يريد تمزيقها، ولم يعد أيّ جزء من تلك الأجزاء ملكًا لها. فأمسكت وجه الرجل بقوّة وتشبّثت به، وفتّشت شفتاها عن شفتيه من جديد حتى عثرت عليهما طوعًا ومن دون إكراه. إذا كانت الممارسة الجنسيّة ستحدث، فلا بدّ من أن تحدث في نهاية الأمر، وذلك أفضل من الشكّ. ثم ما الذي يحول من دون الممارسة؟ شخص ما، رجل أو امرأة، نوع الجنس لا يهمّ، لا، ليس ذلك بذي أهمِّيَّة.

كانت ذراعاها تحيطان بخصره. هل كانت ذراعاها؟ إنّها غير متأكّدة، لكن هكذا كان الحال. الآخر، من هو؟ ذلكم غير أكيد أيضًا. انساب جسداهما من تحت الظلال. في يوم ما، عندما كان أحدهما يراقب الآخر ويشتاق إليه، فإنّهما كانا يعرفان أنّ هذا الشيء سوف يحدث في يوم من الأيّام، وكانا يعرفان كيف ستضع الحرب أوزارها بينهما. وكانا يدركان أيضًا أنّ المعركة الوحيدة

المتوقّعة والعنيفة ستكون حتميّة.

كلّ ما هنالك، أنّهما تظاهرا بأنّها لن تقع.

* * *

كان كلّ شيء يحترق، وكان اللهيب يضيء وجهيهما. على أيّ حال، العالم جميل، جميل جدًّا. كان العالم جميلاً بظلمته، وبشتائه وبمطره وبثلجه. ليس ثمّة مشكلة، ولا نظرات خاطفة، بل تحرّكت الأيادي وتشابكت ثم انفصلت. انحنت الركاب وأُغمضت الأعين. كانا يغرقان معًا، شفاههما تتبادل القبلات من دون أن ترتكب أيّ خطأ، تنفصل وتنطبق الواحدة على الأخرى من جديد. كان الظلام قصيرًا، ولكنّه بالرّغم من ذلك طويل جدًّا. ولم يكن مهمًّا ما تعلّماه حتى تلك اللحظة وما لن يتعلّماه أبدًا.

رطوبة. يحتكّ أحدهما بالآخر، وينسجمان في سرعة. هزيمة وفشل ذريع على كلّ الجبهات. ليكن الأمر كذلك. لم يعد ثمّة منطق بعد الآن. كلمة خافتة، همسات. يد لبثت في الهواء، قبضات مضمومة تعقبها صرخات صغيرة على إثر حركة إيلاج قويّة أخيرة... شعور رائع ومبهم بالموت...

سقطا على الأرض أمام النضد. لم يكن ثمّة شيء يتفوّهان به. كانت لحظة أقلّ كلمة فيها زائدة عن اللزوم. غطّى أحدهما وجه الآخر بالقبلات، وجذب حيالي ملكة إليه وكأنّه يخشى أن تتركه. وندّت عن ملكة تمتمة صغيرة. كلمات قصيرة غير مترابطة تدور في ذهنها. خطيئة. صمت. عار. لست خائفة. حبّ. طفولة. رعشة جنسيّة. حلم.

كان ظهرها باردًا كالثلج بسبب برودة الأرضيّة الحجريّة. لم تعرف متى ولا كيف خلعا ثيابهما. وانقلبت على جنبها.

قالت:

ـ قل شيئًا ما.

قال حيالي:

ـ هكذا هو الجنس. ما الذي يسعني قوله في هذه اللحظة؟

نهض من مكانه وارتدى ثيابه في عجالة، ولاح عليه أنّه مسرع للعودة إلى الآخرين.

ارتعشت ملكة لخيبة أملها المؤلمة. كيف أمكنها أن تقترف هذه الغلطة والاستسلام له بكلّ هذه السهولة؟ كما لم يسبق لهما أن تحدّثا حديثًا مناسبًا قبل الآن. ثمّة حرب صامتة، ولكنّ العواطف لم تطفُ على السطح، ولم يفصح أحدهما عنها.

لا، كانت حالة اغتراب قريبة جدًّا، وكان الإدراك والنأي المشترك هما اللذان تمخّضا عن قراءة أحدهما عقل الآخر والإحساس به. رغبة سرّيّة وصلت نقطة الوحدة والغضب والكراهية. هل كان غرض حيالي تدميرها؟ هل كان يريد التخلّص من هذه الرغبة وهذا العبء، وأن يمزّقه ويطرحه جانبًا؟!

سألت ملكة:

ـ لماذا أتيت؟ لماذا حضرت على حين بغتة؟

ـ لا أدري. وجدت نفسي في هذا المكان على حين غرّة. ربّما لمنحك الفرصة، أو ربّما ليكون بيننا سرّ مشترك يؤدّي إلى التوفيق بيننا. لم يكن حضوري مخطّطًا له.

ـ فرصة؟ يا لك من متعجرف مثير للضحك.

ـ ظننت أنّنا قد نتوصّل إلى اتّفاق أفضل.

ـ لا تذهب الآن. حسبك أن تبقى وإيّاي برهة وجيزة من الوقت.

ـ لا أستطيع.

ارتدت ملكة ملابسها، وتوجّه حيالي إلى مقدّمة المحلّ ووقف قرب الباب. كان الوقت زهاء التاسعة ليلاً، وكان المطر قد تحوّل إلى ثلج، في حين أمسى الطريق مظلمًا وموحشًا ومهجورًا.

سألت ملكة وهي ترنو إليه:

ـ لماذا تلجأ إلى الاختباء من وراء نفسك دائمًا؟

نظر حيالي إلى ملكة نظرة مركّزة ومتألّقة، بعينين تبصران ولكن من دون إحساس. ثم داعب ظهرها قليلاً بظهر يده، وقال:

ـ كنت أتوارى من وراء الشخص الذي كنتِ تحاولين تخيّله، ولكنّني كنت أراقبك مراقبة حذرة طوال الوقت. كنتِ على استعداد إلى أبعد الحدود. وهذا هو السبب الذي يجعلك منيعة. ولا يمكن الوصول إليكِ. حاولي أن تفهمي. لم أقدر على تأجيل الأمور إلّا إلى هذا الوقت.

رنا أحدهما إلى الآخر. وبدا وجه حيالي أوّل مرّة خاليًا من تلك الابتسامة الماكرة. وفهمت ملكة مرّة أخرى أنّها لا تجد أمامها منفذًا للتعبير عن مشاعرها. ولو منحته الفرصة، فسوف ينتهز كراهيّتها إلى نهاية المطاف.

قالت ملكة:

ـ إنّك لم تعلّمني سوى جمال الكراهية. لا تظنّ أنّ ما حدث نصر لك.

قال حيالي:

ـ يخال إليَّ أنّني الشخص الخاسر. على أيّ حال، إنّ ما أنشده ليس هو الحبّ. سامحيني. قد نكون بعيدين عن بعضنا بعضًا أكثر من ذي قبل من الآن فصاعدًا. حاولي أن تكوني بعيدة عن الشاطئ. هلّا فعلت؟

سرح حيالي ببصره نحو ملكة مدّة ثانية واحدة، بدت فيها ملامحه جامدة قبل أن يلوح في عينيه قدر ضئيل من عدم الثقة. وعلى حين بغتة، فتح الباب، ورفع ياقة معطفه ومضى في سبيله تحت الثلج المتساقط في نعومة، يخطو خطوات سريعة واثقة على امتداد الرصيف وفي اتّجاه الشارع الرئيس.

فكّرت ملكة أنّ كلّ شيء انتهى، وأنّه لن يطأ هذا المحلّ ثانية، ولن يبقى شيء بعد ذلك. حاولت أن تعثر في أعماق روحها على الكراهية التي شعرت بها تجاهه، ولكنّها لم تستطع. وبينما كانت تتذكّر التحام جسديهما قبل مدّة قصيرة من الزمان، شعرت بإحساس واهن يسري نحو معدتها. كانت الرغبة تشتعل في أعماقها من أجل أن تلحق به، وأن تتوسّل وتتضرّع إليه كي يبقى.

أرادت أن تبكي بصوت عالٍ، أن تصرخ وتصيح، لكنّها لم تستطع.

لا، المعركة لم تنتهِ بعد، وأُجّلت كلّ المماطلات من جديد باحتفال مهيب.

* * *

١٥

مطعم ومشرب تاتولا بما فيه من وجبات يقدّم أذواقًا مختلفة من كلّ أنحاء العالم، إضافة إلى زينته المتجدّدة وفق أسلوب الشاليهات ذات الأفاريز العريضة، ولذلك يعدّ واحدًا من الملتقيات الشعبيّة في اسطنبول، وقد اكتسب شهرة بوصفه من أكثر الأماكن هدوءًا في المدينة.

ثمّة مدفأة جداريّة ضخمة تتوهّج فيها النيران في أكثر أركان الغرفة جاذبيّة، حيث يجلس الزبائن على كراسٍ وأرائك يرشفون الشراب الساخن. كانت الطاولات كلّها، والمشرب الطويل عامرة بالروّاد. وأضفى النور المنبعث من المصابيح الصغيرة والشموع والمدفأة جوًّا أشبه بالحلم. ولم يكن صوت آلة الساكسفون والبيانو القادم من الدور الأرضي، حيث تعزف الموسيقى الحيّة مرّتين في الأسبوع، بقادر على حجب صوت الضوضاء والضحك القويّ. كانت الموسيقى تتناهى إلى المسامع بنبرة حزينة، شجيّة، مثل صوت

قادم من منطقة نائية.

كان الحاضرون في نشوة تبعث على الحذر، لأنّ كلّ شيء في هذا المكان كان يناسب في آخر تفاصيله إيقاع الزمن والتطوّر وفي الوجود في مدينة عالميّة. وكانت النساء منسجمات وروح المكان ببناطيل الجينز ذات الألوان الطليعيّة العصريّة وتنّوراتهنّ الصغيرة المنتفخة وقمصانهنّ المتألّقة المقوّرة الصدر وأحذيتهنّ ذات الكعوب الثقّابة أو ذات الرقبة الطويلة من طراز مارك جاكوبز، فيبدين وكأنّهنّ قد خرجن من مجلّة أزياء أجنبيّة أو من معرض آنا سوي.

لاحت قائمة الطعام لإيلام التي كانت تحتشد بكلمات غريبة مثل وصفة ساحرة، فتركتها فوق الطاولة ورنت إلى جالي. كانت رؤيتهما من قبل نادرة في النوادي الأقلّ أناقة، ولكنّها كانت تأتي لأوّل مرّة إلى مثل هذا المكان.

ثمّة أربع فتيات يتحلّقن حول الطاولة، إذْ جلست فتاتان أخريان بالقرب من إيلام وجالي، إحداهما سومورو: وهي طالبة جامعيّة في قسم الآثار ذات وجه طفولي، شقراء الشعر، بريئة المظهر. يمكن عدّها فتاة جديدة، وكان سبق لها أن ظهرت في إعلان تلفازي عن السجّاد؛ أمّا الفتاة الأخرى، واسمها آيتول فذات تجربة إلى حدٍّ ما. كانت سمراء البشرة، فارعة القدّ، تخلب الألباب، تخرّجت من مدرسة ثانويّة خاصّة، وكانت تعاني مشكلات خطيرة بسبب أبيها على الرّغم من تحدّرها من أسرة موسرة. وقد اضطرّت إيلام إلى صحبتها قبل عشرة أعوام بعد أن ضربتا موعدًا مع رجل طلب فتاتين. وقد عانت جالي وديدم معاناة شديدة في إقناعها على الذهاب، وأخبرتاها أنّ معظم الرجال يطلبن مثل هذه الطلبات،

وأنّها سوف تحصل على أجر مضاعف عن كلّ موعد، وأنّ عليها أن تعتاد على هذه الفكرة إذا ما أرادت الاستمرار في العمل هناك.

كانت التجربة سيّئة، فقد كان الرجل في مقتبل العمر، مثقّفًا ومؤدّبًا، غير أنّ إيلام تجمّدت في مكانها عندما لمستها آيتول. وتمكّنت إلى حدٍّ ما من إكمال الساعة المقرّرة بإرشاد من آيتول، ولكنّها تفادت النظر إليها لاحقًا كما تفادت النظر إلى المرآة على مدى أيّام. وقد جاء نادل وسألهما عمّا يحلو لهما تناوله، غير أنّهما لم تكونا جائعتين، كما أنّ الوقت فات على تناول طعام الغداء. فآثرتا تناول بعض المشروبات. وسألت جالي النادل:

ـ هل آيدو بك حاضر؟

ـ نعم يا سيّدتي. سيلتحق بك بعد دقيقة.

كان يوكسيل آيدولار صديق بيتي، ونظر نظرة خاطفة إلى كِلَا الفتاتين، لكن نظرته كانت أطول نسبيًّا ـ وإن كانت سريعة ـ إلى وجه إيلام الذي كان ضوء المصباح ينعكس عليه وهو من فوق الطاولة. وتقلّص فمه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة متكلّفة. بدا متشامخًا إلى حدٍّ كبير، ومن نمط الرياضيين، حسّاسًا ولكنّه مغرور في الوقت نفسه. ألقى نظرة سريعة إلى الموائد من حوله وإلى المشرب، وكأنّه اكتشف أنّ أزرار بنطاله سائبة، وأنّه راح ينظر من حوله خشية أن يكون قد تنبّه أحد إلى ذلك. ربّما كان راضيًا عن الحاضرين في النادي، لأنّه التفت إلى جالي وأشار إشارة متفائلة برأسه، وقال:

ـ حسنًا، هل أحضرتِ الصور؟

أخرجت جالي مظروفًا سميكًا من حقيبة يدها وناولته إلى آيدو،

فما كان منه إلّا أن تسلّمه ومضى في سبيله.

قبل شهر من ذلك الوقت، كانت إيلام وسومورو سمحتا بالتقاط صور لهما في المحترف. صور منفصلة وفي مختلف الأزياء... كاسيات وفي ثياب السباحة وشبه عاريتين، وعلى ركبهما وعلى ظهريهما وعلى أطرافهما الأربعة... من الخلف، بقامتين محنيتين أو معتدلتين أو بشعر جعد، أو مبوّزتين أو مفتوحتي الفمين... صور يمكن عدّها فنّيّة إلى حدٍّ ما، أو جنسيّة مثيرة إلى حدٍّ آخر، معظمها بالأسود والأبيض، يذكّر البعض منها بحسناوات البطاقات البريديّة الملوّنة التي انتشرت في اسطنبول في مطلع القرن العشرين...

لعلّ تلك الصور كانت ذات فائدة، لأنّ إيلام كانت تلتقط صورتين أو ثلاث صور يوميًّا عندما كانت تحظى بزبونين أو ثلاثة في الأسبوع. وكانت آيتول قد أخبرتها أنّ أفضل تلك الصور من شأنها أن تنتشر على موقع الشبكة العنكبوتيّة، بيد أنّ جالي أنكرت هذه المعلومة.

لم تكن إيلام تفكّر بالانتقال إلى مكان آخر في هذه الآونة. فكانت تمكث بضعة أيّام في جنكلكوي، لأنّ فصل الشتاء كان باردًا وكان المنزل دافئًا ولطيفًا. ولم يكن الطعام ليمثّل لها أيّ مشكلة، لأنّ لارا كانت دومًا تعدّ طعامًا. وإذا ما سنحت الفرصة لإيلام، فإنّها كانت تشغل نفسها بالقراءة أو تقلّب صفحات مجلّات خاصّة بالأزياء أو مجلّات نسائيّة.

انقضت ثلاثة أسابيع منذ آخر رسالة أرسلها الزعفران وأصرّ فيها على لقائها، ولكنّها لم تردّ عليه حتى اللحظة. كان يبدو موغلاً

في واقعيّته في هذا العالم الحقيقي وساذجًا على نحو لا يصدّق في العالم الواقعي. وكانت الكلمات التي دوّنها قد أثارت حبّ فضول قويّ يثير الاضطراب في إيلام، بيد أنّها لم تستطع اتّخاذ قرار بشأن ما ينبغي لها فعله. وكان أكثر الحلول واقعيّة هو أن تتوقّف عن الكتابة. من جهة ثانية، راحت تحبّه أكثر فأكثر في المرحلة التي لم تكن منشغلة فيها بالكتابة. وفكّرت أنّها سوف تشعر بالوحدة والخوار إذا ما أخرجته من حياتها.

إنّ المرء بحاجة إلى الحبّ كي يدرك العالم إدراكًا صحيحًا. ثمّة أوجه معيّنة من الحياة لا يستطيع فيها المتوحّدون من رؤيتها من زواياهم الخاصّة. كما أنّ الارتياب في حقيقة الأحلام يرتبط بهذا الشيء، لأنّ الأحلام لا شاهد عليها.

على أيّ حال، لم يبدُ لها أمر طبيعيّ تمامًا أنّ رجلاً موسرًا وناضجًا وحسّاسًا يمكنه أن يبحث عن الهدوء الداخلي والحرّيّة التي قال إنّه يفتقدها، وذلك بالاتّصال بامرأة لا يعرف عنها شيئًا. كما لا يسهل التصديق بأنّه مشتاق إلى شخص ما، مخلص، يمكنه من أن يبثّه شكواه ولواعج نفسه. تخيّلته إيلام أحيانًا رجلاً في مرحلة معيّنة من العمر ولكنّه لم ينضج بعد. وفي أحيان أخرى، تمنّت لو أنّها التقته ولبثت قربه وتدفّأت في حضنه، وأن تكون محميّة من العالم وأن لا تمنح نفسها إلّا له، وأن تكون متحرّرة من الوضع الغريب غير الواقعي الذي هي فيه، وأن تتجمّد أطول مدّة ممكنة.

كانت إيلام تهاب لقاءه لقاءً اجتماعيًّا مثلما تهاب فقدان السيطرة. كانا يواصلان علاقتهما بوساطة الرسائل كما كان شأنهما منذ أوّل الأمر. وقد منحت هذه الصلة الرومانسيّة إيلام، التي لم

تستطع أن تستخفّ بها، فرصة تبتعد بها عن قنوطها ويأسها وساعدتها على المضيّ قُدُمًا في الكتابة. غير أنّ الزعفران رفض تلك الصيغة الموقّتة، وها هو الآن يلتزم الهدوء.

في مرحلة ما، كتب إليها منوّهًا أنّ في وسعه أن يعثر لها على وظيفة جيّدة، فكان بذلك يمنحها فرصة للبدء بداية جديدة.. ووعدها بحياة جديدة. وعود... وعود رجال... أوهام تنطوي على امتنان ونفاق... لقد تجاوزت مرحلة الاعتماد على تلك الفانتازيّا الذكوريّة المغرية بإنقاذ امرأة. فكانت تعرف أنّ الرجال أعدّوا أنفسهم لهذا الدور من خلال الحبيبات وليس من خلال الواقع. البحث والعثور... التبعيّة والاستقلال.. كلّها مفاهيم ذات صلة بمستقبل لن يأتي. فات الأوان. فات الأوان كثيرًا.

في البدء، كانت الحالات التي اعتادت أن تنظر إليها بوصفها محرّمات أو خطيئة، تمنحها عارًا لا حدود له. ثم تجاوزت الخطّ الفاصل بين العار واللاوقاحة، ولم تنظر إلى نفسها على أنّها ضحيّة، بل عاملة تؤدّي وظيفتها التي أُرغمت عليها. ثمّة جرائم أكثر قباحة وأشدّ وطأة من جني المال باللجوء إلى ممارسة الجنس، فضلاً على أنّها جرائم لا تغتفر. إبادة جماعيّة، حروب، ظلم، استغلال، تعذيب، وحتى شرور كبيرة... الأدهى من ذلك هو أنّ أولئك الذين عانوا هذه الشرور أو قاوموها، أو على الأقلّ دانوها، لم يكن أمامهم مفرّ منها. فإذا كان التخلّي عن المعتقدات والقيم ومجاراة الزمان من الأمور التي تعدّ خسارة ـ في نظر البعض ـ فإنّ الخسارة هي السبيل الوحيد.

على أيّ حال، لم يتغيّر شيء ما تغيّرًا كبيرًا منذ سيد باستثناء

تبدّل الوجوه والأجساد. الشيء المحدّد الذي لا يمكن تحمّله في هذه المرحلة هو أنّها لم تحيا حياة كائن بسيط، بل استنادًا إلى وعي وجودها المعقّد. لقد علّقت وعيها متى ما كان ذلك ضروريًّا، دافعة إلى أمام جانبها الخاوي. لكن معتقدها لم ينقذها من الإحساس بأنّها مطاردة من وعي الذات.

كانت في أغلب الأحيان تسمع كلمات خشنة سبق لها أن سمعتها من سيد. وفي بعض الأحيان اضطرّت إلى تكرار تلك الكلمات بصوت عالٍ لتُسمعها إلى بعض المنحرفين الذين كانوا يستمتعون بسماع اعترافها بأنّها غانية. ولكن ما دام الثمن مدفوعًا، فما من مشكلة. يُضاف إلى ذلك، عندما ينتهي وقت اللعب، كان في وسعها الرحيل طوعًا، من دون أن تترك وراءها أيّ شيء من نفسها، ثم تعود إلى نفسها، وتغلق الباب من الخارج بفتور عاطفيّ وكأنّها غير متورّطة في أيّ شيء، أو لم تمارس أيّ شيء، ولم تتفوّه ببنت شفة. لكن حتى لو لم يكن هناك شيء باستثناء الإنكار الحزين، فإنّ ذلك هو السبيل السهل. ومهما كان الارتباط العاطفي جذّابًا، فإنّه ليس ضروريًّا لأنّه قد يُحدث بينها وبين نفسها، مسبّبًا في ذلك اغترابًا.

ينبغي لها أن تقطع علاقتها بالزعفران، إذْ ما من سبب يدفعها إلى جلب وصيّ على حياتها، وتمنح نفسها له من دون مقابل، وتعيش حياة عذاب من شأنها أن تشلّ روحها وهي تحاول أن تخفي الصفحات السرّيّة من حياتها. لكنّ الأهمّ من كلّ هذا هو أنّها لم تكن مستعدّة لتوفير الوقت لعلاقة من شأنها أن تنتهي نهاية تفطّر القلب.

* * *

قالت جالي:

ـ هيّا، استيقظي قليلاً. ثمّة ناس ينظرون إليك.

ـ أتريدين عرضًا؟ هيّا يا أختاه، أخبرينا بشيء مضحك.

بما أنّ آيتول كانت تقطن رفقة أبويها، فإنّها كانت تشتغل نهارًا عادة. أمّا إيلام، فكانت حرّة في الأقلّ. ولم يكن ثمّة من يتعقّبها ويطرح عليها أسئلة تتطلّب استيضاحات وتكون مضطرّة إلى تبرير موقفها أمامه.

وفي خضمّ قباحة حالتهما التي تدعو إلى الرثاء، فإنّ الفتاتين كانتا ترغمان نفسيهما على الضحك وعلى المرح أثناء الليل والموسيقى والمدّ البشري المفعم بالحياة. وكان الوهم يطارد إيلام أحيانًا بأنّ بعض الألفاظ التي كانت تنطلق منهما إنّما هي تنتمي إلى لغة سابقة للمدينة.. لكن لا يهمّ! فالجروح لم تكن قاتلة ما دام أنّها لا تنزف.

ـ كفاني ما حصلت عليه من نصيب، لقد حاول أن يرتدي لباسي الداخلي في ذلك المساء!

ـ تخرج أمّي للصيد في هذه الأيّام علّها تعثر لها على زوج مناسب.

ـ أنت مدينة لي بمبلغ مئة وثمانين دولار يا حبيبتي.

لم تكونا صديقتين، بل كانتا حليفتين في عالم مظلم.

ـ سوف أدفع لك يا عزيزتي. صدّقيني.

كانت أحاديثهما تدور عن النقود وقضبان الزبائن والأحذية

الجديدة والتخفيضات في هذا المتجر وذاك. لقد محت الاثنتان حياتهما السابقة، وهما الآن آلتان تنبضان بالحيويّة، ينشدهما أولئك الذين يرومون إشباع فانتازيّاتهم ورغباتهم الجنسيّة لقاء الأوراق الخضر. شيء ما. . . مادّة ما. . . إنّهما دميتان خزفيّتان بابتسامتين مرسومتين على وجهيهما العائدين إلى عالم رجال، يروقهم التباهي والازدهاء بقدراتهم على شراء كلّ شيء وكلّ شخص، بضمنها التعاسة وسوء الحظّ.

كان الرجال يتصرّفون مثل ذلك التصرّف لكي يستمتعوا بقوّة المال، في حين يتظاهرون بأنّهم لا يعلّقون أهمِّيَّة كبرى على هذه الصفقة.

ـ أشعر بالدفء. هل ترانا نجلس هنا وكأنّنا ننتظر أزواجًا؟

ـ لماذا لا تذهبي إلى غرفة الفتيات يا عزيزتي؟

قالت إيلام:

ـ سوف أذهب بعد قليل.

كانت مضطرّة إلى النهوض لكي تعرض نفسها على بعض الناس. فرشفت شرابها وجالت ببصرها من حولها في حذر. كان آيدو يكلّم رجلاً في خريف العمر بدا أشعث الشعر، وعليه مسحة بوهيميّة. استدار ونظر في اتّجاه المكان حيث كانت تجلس. في اليوم المقبل ستكون لها رفقتان، وربّما كانت هذه هي الرفقة الثالثة. غمزت جالي لإيلام، وكانت تؤكّد لها منذ أوّل يوم ضرورة أن تواجه الهواجس إن كانت تريد التخلّص منها. وكانت تصعب مقاومة التفاؤل الثابت الذي كان يشعّ من وجهها. فهي صارمة، ولكنّها

ودودة في الوقت نفسه! وأوضحت أنّها تستطيع الانسجام مع كلّ شخص، وأنّها اليد اليمنى للرئيس، وكانت تردّد دومًا أنّ حماية الفتيات شغلها الشاغل، الأوّل والأخير. كانت إيلام قد رأت المرأة المدعوّة آيسيفيم مرّة واحدة في مقهى المركز الصحّي، ولكنّهما لم تتجاذبا أطراف الحديث. وعلى الرّغم من أنّ المرأة رنت إلى إيلام بعينين ثاقبتين، إلّا أنّها لم تُظهر ما يكفي من الاهتمام للاقتراب منها. وبحسب ما فهمت إيلام، فإنّ هذه المرأة كانت تفضّل أن تبدو غير متورّطة في هذه المهنة القذرة. كانت هي العقل المدبّر، وهي التي تؤسّس علاقات مهمّة، ولكنّها كانت تؤثر البقاء بعيدًا عن الأضواء.

ـ اذهبي إلى المشرب يا حبيبتي إيلام، فهذا آيدو يؤشّر إلى ذلك.

نهضت إيلام من مجلسها وسارت في خطوات حذرة، ولكنّها مفعمة بالحيويّة بحذائها العالي الكعبين. كانوا قد عملوا على إعدادها لتلك الليلة، واختاروا من المحلّ رداءً أحمر، متوهّجًا وضيّقًا ومقوّر الصدر، وبياقة مزركشة مفتوحة إلى أسفل نهديها. ولم تستطع منع نفسها من التساؤل عن هويّة المالك السابق. كما جرى وضع مساحيق التجميل على وجهها وتصفيف شعرها بعناية شديدة. المؤكّد أنّها بدت غاية في الحسن والجمال في المرآة. وكان جمالها أحيانًا يزعجها، فيبدو لها مثل لعنة، كانت تتمنّى لو كان في قدرتها أن تطرحه جانبًا.

وفكّرت أنّ الأمر لن يستغرق وقتًا طويلاً عندما اتّخذت مجلسها على كرسيّ المشرب الذي أشار إليه آيدو. رنت إلى الرجل الطويل

القامة وابتسمت له. كان مدوّر الوجه، طويل اللحية إلى حدٍّ ما، بارز الكرش.. كيف حالك؟

ـ وأنت؟ كانت قد وفّرت أربعة عشر ألف دولار في ثلاثة أشهر.

ماذا تودّين أن تشربي؟

ـ لن أشرب شيئًا. شكرًا لك. ساعدت أختها ووفّرت حاجات الأطفال الصغيرة، ولكنّها لم تخبرها عن عملها. وظنّت الأخت أنّ إيلام تعمل في وظيفة محترمة في الشركة وأنّ مرتّبها ازداد. لديّ شركة إعلانات، واسمي هو سيزجين. لديكِ وجه جميل، أصيل. وأنا إيلام تشرّفنا.

لو تمكّنت من الاستمرار في هذا العمل سنتين أخريين لتمكّنت من أن تشتري لنفسها بيتًا صغيرًا، وبعدئذٍ تعود إلى الحياة الطبيعيّة وتعثر لها على وظيفة اعتياديّة. كانت خطّة هروبها جاهزة.

إنّنا نعدّ كتابًا مصوّرًا مميّزًا. وفي وسعنا أن ندرج صورتك فيه. ما رأيك؟

ـ آه، لم لا! ما نوع العمل المطلوب؟

ـ سوف نتكلّم على ذلك. المؤكّد أنّني أريد معرفتك على نحو أفضل. هل ننفق الليلة معًا؟

الواضح جدًّا أنّ المرأة التي ستظهر في الصور ستكون مختلفة الاختلاف كلّه، وستكون وهمًا فعلاً. بمعنى، إذا ظلّ يتذكّر إيلام عندما يصحو. في تلك اللحظة، إمّا أن يكون ثملاً جدًّا أو أنّه تعاطى مخدّرات. كانت عيناه شبه مغمضتين، ولاح أنّه في مكان

آخر، وأنّه لا يتمكّن من السيطرة على فمه. لا، لن تكون ثمّة صور، ولم يعد ثمّة فنّ أو جمال أو حبّ. كلّ شيء يتجرجر على الأرض، وكانت السعادة نفسها إشباعًا جنسيًّا وانفجارًا وقتيًّا مرتكزًا في اللذّة والخيال؛ صفقة باردة عشوائيّة.

أرادت أن تنسى كلّ شخص وكلّ شيء كي تتمكّن من معانقة العدم على نحو أفضل. أرادت أن تنسى من جديد مرّة أخرى، عديد المرّات. أرادت أن تصل النسيان نفسه وشواطئه النظيفة المتّصلة والصافية.

* * *

في الطريق المؤدّي إلى البيت في جنكلكوي رفقة سيزجين، جلست صامتة في المقعد الخلفي في السيّارة، ملتفّة بمعطفها ووجهها نحو النافذة. كان الوقت منتصف الليل. كان الرجل ممسكًا بيدها ويضع خاتم الزواج في إصبعه، فلمسته. هل يزعجك هذا يا عزيزتي؟ إنّها زوجتي الثالثة، وهي حامل في شهرها الثامن، ولم يعد في وسعنا النوم. هل يزعجك هذا؟

ـ لا، الأمر لا يهمّني. لكنّ الأمر كان يهمّها حقًّا. شعرت أنّها مثل طفل حزين. ما الذي يدفع هذا الرجل إلى الإمساك بيد إيلام بدلاً من يد المرأة التي ستنجب له طفلاً؟

لكنّ هذه الكفّ دافئة، صابرة. وفكّرت أنّه قد يغضب لاحقًا. كاد أن يقضي نحبه، وبدا كلّ شيء معقّدًا على حين بغتة. أين هي؟ ما وجهتهما؟

كانا يعبران الجسر، ويتّجهان وسط شوارع مألوفة وسط أنوار

الليل البارد الصافي. وبدا البحر وكأنّه يلتقط أنفاسه، منتظرًا اللحظة التي تتفجّر فيها الصرخة التي يكتمها متردّدًا على الأرض فيتحرّر.

فكّرت أنّ هذه المدينة تنزّ بالكفر حتى أعماقها وحجارتها المرصوفة. هذه هي مدينة العثرات. سهل جدًّا أن يضيّع المرء طريقه، وأن يتيه فيها. هذه هي مدينة الضائعين والأموات، مدينة المنع الحزين الذي يبعث على الدهشة. ذكرى تنزف دومًا وهي تبدّد الزمان الماضي وتبدّد مكانها. الدمار يزداد عمقًا عندما نرنو، فتزرع المدينة نفسها أمام تاريخها وهي تتحوّل إلى مدينة ملاهي.

جذبت يدها، فقد أصبحت يد الرجل ثقيلة ومنهكة، وجسده باردًا. وتراجعت الرغبة التي كانت تنتظر في جسده قبل برهة وجيزة من الزمان تراجعًا غير اعتيادي من ذاكرته الحيوانيّة الغريزيّة وهمدت. أيقظته إيلام عندما وصلا إلى البيت. لا بدّ أنّني غفوت قليلاً، آسف.

ليس الأمر بذي أهمِّيَّة، تحرّر من توتّرك فحسب. عليها أن تنهي مهمّتها على هذا النحو أو ذاك وأن تتخلّص من هذه الجثّة سريعًا.

* * *

كانت لارا في الانتظار، إذْ سبق أن أُعلمت بوصولها. وذهبتا إلى إحدى غرف الدور العلويّ. حاولت إيلام خلع ثياب الرجل الذي كان أشبه بالهلام. هيّا يا حبيبتي، دفّئيني. ما اسمك؟ يا لروعة ردفيك! مدّدته على السرير. تكلّمي، أخبريني ماذا تريدين؟ عدّلته من فوق السرير وكأنّه كيس. هل تحبّينني؟ قولي إنّك تحبّينني

ولا تكذبي. لم يكن قادرًا حتى على الحركة. ولم يكن أيّ شيء سوى الرغبة في رأسه، في عقله، أمّا أعضاؤه فلم تستجب له.

دفعته إيلام إلى جانب السرير واستلقت بجانبه. كانت رائحة الكحول تفوح من كلّ ذرّة من ذرّات جسده الذي حاول أن يعانقها وهو يتلفّظ بعض التمتمات. وحاول أن يمسك بيديه نهدي إيلام ولكنّهما لم تصلا إليهما. الأحمق! سوف ينفق الليلة هنا ويدفع لقاء «الليلة كلّها». وأبعدت ذراعيْ الرجل عن نهديها ووضعتهما إلى جانبه، وابتعدت عنه إلى جانب السرير وأغمضت عينيها. وسارت إلى حكايتها الخياليّة، وهي حكاية كانت تستمتع بها، وترنيمة تترنّم بها لنفسها.

* * *

كلّما أغمضت عينيها وهي في حضرة أحدهم، تجد نفسها في غابة من الأرواح في أرض النكران، حيث كانت تشعر أنّها تنتمي إلى هذا العالم فضلاً عن العالم الآخر. كانت أحيانًا تتوارى في زوايا منعزلة، وتسير أحيانًا في ممرّات ترتقي التلال وتهبط منها. وكان جسدها يسافر عادةً في وضع أفقي. وبذلك كانت تشاهد شريط السماء الأزرق ضمن فتحات بين أغصان الأشجار العملاقة، فتشعر بالارتياح. كان الكون يبدو من تلك المنطقة السفلى وقد اتّخذ شكلاً يناسب الغابة. ألوان، خطوط، متاهات، حفيف الأشجار، صوت حجارة ترتطم بالماء وطقطقة الأعشاب وهمس الريح في انسجام تامّ. كانت النباتات والحيوانات تعيش مع الاحتفاظ بتميّزها. كانت هذه البيئة جيّدة لإيلام. ولم يعد أيّ وجود للهمهمات أو اللهاث المصحوب بصوت عالٍ أو الإهانات.

عندما كانت في الغابة، شعرت أنّ جسدها ضائع ولكنّه لم يُلمس. وكان ذلك المكان هو الوحيد الذي لم تشعر فيه بخلوّه من الطابع المحلّي، ولم تشعر أنّها تكرّر نفسها تكرارًا يبعث على السأم أو أنّها شخص آخر. راودها الإحساس أحيانًا وكأنّها تفتّش عن شيء مجهول وهي تسير على امتداد طرقات مغطّاة بأشجار العلّيق، طرقات لا يمكن أن تبقى إلى الخلف إلّا بالسير فيها. ثم أدركت أنّها اصطحبت روحها إلى الغابة كي تنسى مدى هشاشتها وضعفها. وحتى لو أنّها شعرت بانبهار أنفاسها بين ذراعيْ رجل مجهول، فإنّها لم تشعر بالدافع إلى المرور مرورًا لطيفًا ومقنعًا.

لم تشعر في أعماقها إلّا بحركات تمدّد، وانتظرت صابرة اللحظة التي سيأتي فيها طائر محلّق على ارتفاع خفيض ويخفق جناحيه على الماء. لهذا السبب صار الاستمرار في عملها القسري أسهل بكثير ممّا هو عليه في الواقع، فكان يروقها الوثوب من غصن إلى آخر والتأرجح بين الأشجار والاستراحة بالميلان من فوق سور عندما تشعر بالتعب، والنظر إلى حشرات الغابة الصغيرة، ومراقبة فوضى الحياة التي كانت تؤدّي فيها دورًا أيضًا.

المؤكّد أنّ ثمّة حيوانات أخرى في الغابة، كالطيور والنحل واليعاسب والبعوض... والثعالب والسمامير والشياهم والسلاحف والمخلوقات الشبيهة بالأسماك ودجاج الماء... الحيوانات الهادئة والصخّابة والساخطة والمهووسة... عندما أغمضت إيلام عينيها، شاهدت كلّ هذه الحيوانات من ذوات الأربع وفي لحظة الجماع الجنسي. وتخيّلت نفسها عينًا صفراء هائلة الحجم.

عندما استيقظت، أصبحت كلّ هذه الصور ذكرى واحدة عابرة

ومختلطة، وتلاشت صورتها في بؤبؤ عينها وهي تدور وتدور مسرعة في الظلام.

* * *

بعد أن صاحبت زبونين آخرين في اليوم التالي، عادت إلى البيت في أواخر العصر. كان هذا المكان الذي لم تنفق فيه وقتًا طويلاً ملاذها الأخير ومنزلها الشعري. ولم تعد تتذمّر كالسابق، بل تمكّنت من تدفئته عندما راحت تدفع ثمن الوقود. وكما هو عهدها دومًا، فإنّ القراءة كانت الشيء الوحيد الذي يخفّف من غلواء حياتها الخشنة. كانت الكتب تنعشها وتمنحها بهجة أكيدة.

وفي بعض الأحيان، كانت تقرأ على امتداد أربع ساعات وهي ملتفّة بالبطّانيّة، أو تعمل على إنجاز قصيدة طوال الليل. وتوقّفت عن الكتابة إلى الزعفران لأنّها لم تستطع الحصول على جواب. واشتاقت إلى الليالي التي كانت تكتب فيها إليه. لقد أخبرت فولكان عن طفولتها وأبويها ونشأتها وقراءاتها وأسباب آلامها. وحتى لو لم تصف له حياتها كاملة، فقد أخبرته عن معالم مهمّة، وعن العالم الملتبس الخاصّ بها، وعن انطباعاتها القصيرة والعاطفيّة عن الحاضر. عرفها فولكان بوصفها امرأة صغيرة، حسّاسة وطاهرة، امرأة نقيّة قوامها النسمات والقلق اليومي والتعقيدات العاطفيّة غير المهمّة.

يُستحسن أن تحافظ على هدوئها لأنّها وُلدت خاطئة وعلى استعداد لأن تتمزّق إربًا إربًا وأن تُستغلّ. وقد قُذف بها إلى الجحيم، أي، إلى العالم. على أيّ حال، ما تزال تملك الماء والضوء والخبز، والأهمّ من كلّ هذا، المال الذي تشتري به أكبر

عدد من الكتب التي ترغب فيها. كانت الكتب تساعدها في الإحساس بالهدوء من الداخل والدفء من الخارج. قرّرت ألّا تعمل في عطلات نهاية الأسابيع، لأنّها تريد أن تزور أختها وأن تقرأ وأن تنظّف المكان. ثم وضعت اللمسات الأخيرة ـ للمرحلة الراهنة ـ على القصيدة التي كانت منشغلة بنظمها منذ وقت قصير:

إنّني فراشة مرقّطة

وُلدت من رحم لونها

في غابة الأرواح..

نزعت جلدي قشرة فقشرة

أنا عملة نقديّة قيد التداول

أهاب الانزلاق

من يد أحدهم

وأقع في ساقية مظلمة.

أستلقي

عند أوّل توقّف في الجحيم

من تحت أدغال تفوح منها رائحة النار

كي تنقر طيور القمامة في بدني..

وتحمّست عندما رأت رسالة مرسلة من فولكان إلى بريدها الإلكتروني. ها هو لم يستطع الوفاء بوعده، وعاد للكتابة إليها من جديد!

إيلام

كتبت إليك أنّ بعض الناس يوجّهون علاقاتهم مع العالم برؤوسهم والبعض الآخر بقلوبهم. وإذا ما فكّرنا بالرأس، بالمنطق، فإنّ المحتّم هو البحث عن علاقة قوامها السبب والنتيجة. أمّا الحبّ، فلا يمكنه أن يكون صادقاً قبل أن يتغلّب على السبب.

ما زلت أريد لقاءك، ولكنّني لم أعد أجعله شرطًا. إنّني أقبل الهزيمة وأتراجع.

عندما تخلّيت عن عملي، فإنّ أشدّ ما كنت أطمح إليه هو الذهاب إلى أبعد نقطة عن المكان الذي كنت فيه آنئذٍ. لقد كنتِ القوّة المحركة في تلك العمليّة. وقد اقتربت منك بتفاؤل طفولي وبجنون. لقد عشت على عواطفك المتدفّقة. واليوم، أجد صعوبة في التعامل مع صمتك، مع غيابك. لقد مرّ عليّ شهر كامل وأنا من دون عمل، ولكنّني لست ضجراً. لقد قمت برحلات قصيرة ماتعة، وتنزّهت نزهات طويلة سيراً على القدمين. كما أنّني ذهبت إلى السينما وإلى الأوپرا وإلى الحفلات الموسيقيّة. وشاهدت أفضل أشرطة التمثيليّات الموسيقيّة والمجاميع الراقصة والفرق المسرحيّة، كما شاهدت أصدقاء طفولتي. يضاف إلى ذلك، فإنّني ذهبت للتسوّق ممّا بعث السرور في قلبي. كما قرأت ونمت.

لكنّني كنت طوال الوقت أشعر أنّني أفتقد شيئًا ما.

إنّنا نشترك في ماضٍ جمع أسرارنا. وأنّ المعرفة بأنّ الآخر حاضر في الطرف الآخر إنّما تمثّل فكرة تبعث على الراحة، وذلك أشبه بوعد بالخلود. إنّني أحبّك حبًّا يائسًا على النحو الذي أحبّ فيه أولئك الذين أحبّهم أكثر من أيّ شيء آخر. هلاّ كتبت إليَّ من جديد؟

قرأت إيلام هذه الأسطر مرّات ومرّات مرتعشة اليدين. وعلى

حين بغتة ساورها الإحساس بالاتّصال به. وشعرت بضغط على فؤادها خشية أن تفقد شيئًا جميلاً. اتّجهت نحو النافذة مؤملة أن تحظى بقدر من الارتياح، وكأنّها تستطيع رؤية شيء آخر غير المباني الإسمنتيّة الشاخصة في الظلمة والمطر. رفعت الستارة من الزاوية وسرحت ببصرها إلى خارج النافذة، فشاهدت ملاجئ أولئك المسحوقين وهم يواصلون حياتهم الاعتياديّة والصعبة والحقيرة. ثمّة مصابيح قليلة منتشرة هنا وهناك، وقذرة ومظلمة من تحت أنوار الشارع الزرقاء الباردة، وشرفات مملوءة بالقاذورات.

هل ثمّة سبيل للخروج من هنا؟

ظلّت واقفة بجانب الهاتف. يمكنها أن تسلك سبيلاً إلى الخروج لو شاءت، حتى وإن كان ذلك ليوم واحد أو لليلة واحدة لا أكثر. لماذا تحرم نفسها من أبسط الآمال؟ لم يبق في ذهنها سوى بعض الصور الخليعة العابرة عن أولئك الرجال الذين دخلوا حياتها حتى ذلك اليوم. يمكن أن يكون فولكان سرابًا في هذه الصحراء التي لا ترحم، دعامة تستطيع بوساطتها الوقوف على قدميها... فرحة بعيدة...

الوقت يقترب من منتصف الليل، لكن لا بأس. في وسعها أن توقظه، فقد كانا في تلك اللحظة قريبين، قريبين جدًّا من أحدهما الآخر.

فتحت زجاجة نبيذ بيدين مرتجفتين، وجلست بجانب الهاتف واحتست كأسًا أعقبته بكأس آخر. حدّقت طويلاً إلى يديها وهما تمسكان بساق الكأس. كانت متّفقة وفولكان، إذْ لا فائدة من أن يخبر أحدهما الآخر بأشياء من طريق الكتابة وحدها، وأن يحبّه

ويظلّ في الوقت نفسه ضمن حدود الكتابة، لأنّ الكتابة تعني إخفاء المرء ذاته إلى حدٍّ ما. وليس ممكنًا أبدًا أن يكون المرء نفسه من دون اللمس والتذوّق والبصر والسمع.

جذبت الهاتف إلى جانبها وزوّلت الرقم الذي كانت تحفظه عن ظهر قلب. رنّ الهاتف أربع مرّات، فانتظرت بقلب يخفق خفقانًا شديدًا، مؤمّلة أن تتلقّى ردًّا وإن شابها الخوف والوجل. ثم سمعت صوتًا يقول:

ـ هالو!

ـ إنّني إيلام. لقد تأثّرت كثيرًا بما كتبت.

ـ لم أكن أتوقّع ردّكِ. لا، بل توقّعته، ولكنّني لم أعلّق أملاً كبيرًا. إنّني سعيد جدًّا.

قالت:

ـ حسبي أنّني لم أتمكّن من اتّخاذ قرار. ولم أرغب في تركك فاقد الأمل.

وفكّرت أنّها هي الفاقدة الأمل، وتنهّدت وحوّلت ثقل جسدها من ساق إلى ساق أخرى. وبينما كانت واقفة بجوار النافذة وسمّاعة الهاتف في يدها وقلبها ينبض نبضات عنيفة، ساورها إحساس عابر بأنّ بعض الأمور آخذة بالتغيّر، وأنّها تعبر عتبة وتدخل عالمًا آخر.

قالت بصوت مرتعش:

ـ لا أعرف ما أقول. أريد رؤيتك الآن.

ـ ما سبب الصعوبة في اتّخاذك القرار يا إيلام؟

. ـ لا أدري. ربّما لأنّني أخشى أن يتحوّل كلّ شيء إلى أمر عاديّ.

ـ لو لم تتّصلي بي لتحوّل كلّ شيء إلى هباب.

ـ أدركت ذلك في هذه الليلة. بصرف النظر عن كلّ شيء، لا بدّ من وجود صوت، ووجه.

ـ تمامًا. متى يمكننا اللقاء؟

ـ في مساء يوم ما، مطلع الأسبوع سيكون رائعًا.

* * *

١٦

كانت الساعة تقارب السابعة مساءً، وكان فولكان في انتظار إيلام في ردهة أحد الفنادق في حيّ تقسيم. وبدت اللحظة والمكان اللذان كان فيهما «وقتًا شاملاً» بلا حدود، قوامه كلّ الأمكنة التي سبق له أن كان فيها، وبضمنها كلّ لحظات حياته واللحظات التي نسيها. وقت شفّاف متّصل خلق نفسه بنفسه... كرة أرضيّة زجاجيّة لامعة سهلة الانكسار، يمكن أن تنزلق من بين يديه وتتهشّم إلى آلاف القطع في أيّ لحظة...

ثمّة شعور بهيج في داخله، خفيف وثقيل، تمرّد من نمط ما. لم يفكّر أنّها سوف توافق على لقائه، ولكنّهما وصلا القمّة على حين بغتة، وحاول أن يتذكّر ماذا كتب لإيلام. كان مغرقًا في عواطفه وثملاً حدّ الانطفاء عندما كتب لها. تلك هي حالة اللحظة، وكان شعور بالوحدة يساوره. وكان واقعه الحالي مختلفًا إلى حدٍّ ما.

ها هو الآن، ينتظر متحمّسًا امرأة ضئيلة عديمة الشأن، عشر

عليها بوساطة الإنترنيت. وضع مجرّد أو محروم لرجل. هل رجع إلى الحياة؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما السبب الذي يدفعه إلى الإحساس بضرورة إدراج هذه المرأة الشبح في حياته؟ فبعد كلّ هذه التجارب، هل تغيّرت خارطة حياته الداخليّة تغيّرًا كاملاً ووصلت مرحلة الانهيار؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، ما الذي يدفعه إلى أن يفعل ما يفعله رجل مقهور وضائع من دون هويّة؟ ما الذي يجعله يختار الطرق المختصرة؟

ثم لمن هذه الأفكار؟ ما الذي يستدعي الخجل من هذا الموقف؟ وفكّر أنّ الخجل ليس سوى إحساس تعلّمنا أن يلازمنا عندما نحيد عن جادّة الصواب، سواء في السلوك أو المعتقد.. ونصبح أمام الأنظار. إنّ الحكم وعيون الآخرين هي التي تخلق الخجل.

إنّه رجل حاول أن يرفض ذلك الحكم وتلك العيون، وانتهى به المطاف في هذه البقعة طوعًا ومن دون إكراه وعلى نحو طبيعيّ تمامًا. لقد تعرّف إلى الحياة بعد أن عاش تجاربها في كلّ مظاهرها في وسط كان يمجّد الممارسة الجنسيّة والحرّيّة الجنسيّة ويحتقر المشاعر الرومانسيّة ويزدريها. كان يخشى أن يدمّره هذا النمط من الحياة، وقرّر ألّا يلتزم بأيّ شيء تخلّى عنه في الماضي. لهذا السبب، وبعد أن طرح كلّ هذه الأفكار جانبًا، فإنّ الغباء بعينه هو أن يشعر أنّه تافه أو وضيع، كما كان عهده سابقًا.

لقد أخرجته إيلام من سباته وحملته إلى فصل موسمي جديد. وكان هو قد أفرغ ما في فؤاده لها، وعلى نحو مستمرّ وعلى مدى ثلاثة أشهر. ولا بدّ أن يكون هذا الاغتراب الموقّت سببًا من أسباب

القلق الذي كان يساوره. من ذا الذي سيجده أمامه؟ امرأة شابّة عنيدة لم تنضج بعد، لا تستطيع التعبير عن نفسها إلّا من خلال الكتابة!! عانس ذاوية أم طير النار؟ وإذا ما فكّر في تلك الأحلام وتلك الأخيلة على أنّها نادرًا ما تنسجم والواقع، وأنّ المصادفات لا يمكن ترتيبها مسبقًا، فإنّ المرأة التي سوف تصل قد لا تكون هي التي كان يتخيّلها.

عندما أصبح اسم إيلام جزءًا لا يتجزّأ ممّا كانت تكتبه، فقد تخيّلها امرأة ضخمة عاطفيّة وأنثويّة تمامًا، ولكنّها بالرّغم من ذلك باردة جنسيًّا وعصبيّة قليلاً، تمارس الإنكار والتحدّي دومًا. امرأة غير منسجمة تسير في الصفّ الأمامي في المظاهرات التي تجوب الشوارع تحمل راية في يدها، تمارس النكد والخشونة في السرير... على أيّ حال، إنّ أهمّ جزء من هذه الصورة الملوّنة والتي هي مزيج من الضوء والنسيج والرائحة، مفقود، ولم تتجاوز الصورة كونها نموذجًا.

أمّا بخصوص الاسم ـ البقعة الصفراء، فقد خلق صورة فتاة شابّة صغيرة محبوبة ودافئة ومطيعة ووحيدة وفي حاجة إلى الحماية. وانتشر أمل عذب وسط ظلال حلم لم يكتمل، مثل شهاب أصفر اللون. أيّ صورة من هاتين الصورتين يرغب؟ لا هذه ولا تلك. إنّ مزيج الصورتين هو الشيء المثالي، وهذا ما كان يتوقّعه. لعلّه جاء إلى هذا المكان ليعيش تلك اللحظة، ذلك الراهن الذي يحتمل المفاجآت.

كان يتّخذ مكانه على مقعد قريب من المدخل يراقب القادمين. وفجأة شعر أنّه أمام شريط سينمائي بالأسود والأبيض. مثل هذه

الأشياء كانت مألوفة في الأشرطة السينمائيّة التركيّة القديمة. على أيّ حال، كانت نقطة بدايتها حياة حقيقيّة، ولم لا؟ لعلّه سرعان ما سوف يلتقي امرأة تشبه نورهان نور التي كان يهيم بها الهيام كلّه.

إنّ الفتاة البخيلة لم تعمد إلى إخفاء نفسها فحسب، بل لم ترسل له صورة، حتى تضمن بقاءه جاهلاً بأمرها تمامًا. هل كانت تخشى ألّا تترك شيئًا لخيال فولكان إذا ما حطّمت تلك المسافة الثمينة وملأتها بكينونتها؟ تذكّر صوتها الخجول الرقيق والطفولي ينساب من سمّاعة الهاتف. ولم يكن صوتًا لينسجم وموقفها المتمرّد. كانت البقعة الصفراء قد قالت له: «سأرتدي معطفًا أسود ووشاحًا أصفر». إنّه وصف عام، ولكن لا يهمّ فإذا لم يكن مخطئًا الخطأ كلّه، فإنّه واثق بأنّه سوف يستدلّ عليها بمظهر مختلف تمامًا، مظهر يعكس الشكّ والتشامخ.

لم يزدرها، بل على العكس من ذلك. من نافلة القول إنّ الإرادة القويّة كانت مطلوبة منها لتوجيه التوتّر توجيهًا متقنًا على مدى أشهر، وجعل إقامة صلة غير مباشرة مسألة ممكنة وضروريّة. صحيح أنّهما وصلا مرحلة لم يتمكّنا فيها من معرفة ما الذي يتعيّن عليهما كتابته بعدها! وبدت وقد أغلقت عليها ونأت بنفسها بعيدًا عنه، ممّا أيقظ في روح فولكان الإرادة على عبور الحدود والرغبة في توجيه الضربة للسيّدة في عقر دارها.

* * *

راح يشعر أوّل مرّة في حياته بانجذاب يثير الارتباك، برغبة جنسيّة تجاه امرأة لم يشاهدها... بدافع قويّ لإغوائها وامتلاكها... فعلى مدى زمن طويل، عندما عاشَ من دون أن

يعرف نفسه معرفة حقيقيّة، مارس الجنس مع كثير من النساء الفاتنات اللواتي صادفهنّ في طريقه، ولكنّه سرعان ما نسي أمرهنّ، إذْ لم يتركن شيئًا من ورائهنّ، ولا حتى نتفة ضئيلة. ما هذا الحنين الطاغي الذي يمزّق الفؤاد!

لم يكن متعطّشًا للحبّ، فقد عاش هو وفاندي حالة من هروب استمرّت أربعة أيّام في قبرص، حيث استمتعا في الكازينوهات طوال الليل ومارسا الجنس كلّما رغبا فيه. أمّا شعوره تجاه إيلام فكان مختلفًا، وإن لم يكن قادرًا على تحديد ماهيّته. هل سببه هو أنّهما التقيا في أعماق البراءة والجرأة التي لا مثيل لها على الكتابة؟ أهو ثراء تلك الكلمات المرن والمنفتح انفتاحًا واسعًا والذي لا يمكن السيطرة عليه، الذي جعل في إمكان أحدهما مواجهة نفسه المغتربة من دون اهتزاز أو رهبة؟

ثمّة عدد قليل من الناس في الردهة. زوجان في خريف العمر يجلسان معًا، وامرأة بدينة منشغلة بابنتها، ورجل عجوز. اختلس فولكان نظرة إلى ساعته. لقد تأخّرت البقعة الصفراء عشرين دقيقة حتى الآن.

رمق المرأة الشابّة النحيلة المرتدية معطفًا أسود، واستدلّ عليها من طريقة تردّدها عند مدخل الردهة والوشاح الأصفر الذي كانت تلتفّ به. لم يصدّق عينيه.

استقرّت نظرة إيلام الخاطفة عليه فاتّجهت نحوه، فنهض من مكانه وحيّا أحدهما الآخر وتصافحا مرتبكين إلى حدٍّ ما.

خلعت معطفها، ووضعته على الكرسي المجاور لها وجلست.

كانت ترتدي تنّورة سوداء فضفاضة وكنزة ضيّقة مفتوحة الرقبة من فوق قميص رقيق أبيض أبرز جمال قوامها.

قال فولكان:

ـ على الرّغم من بعض الصعوبات، فقد تمكّنا أخيرًا من الوصول إلى مرحلة اللقاء، لكن وشاحك ليس أصفر، بل زعفراني الصفار.

قالت إيلام ضاحكة:

ـ كي تتمكّن من الاستدلال عليَّ بسهولة أكبر. لقد اشتريته من أجلك، وقد اضطررت إلى البحث عنه طويلاً. أنت تدري أنّ اسمك القلمي المستعار كان مثيرًا، إسمًا ولونًا. وقد خلّق في نفسي انطباعًا قويًّا.

رفعت عينيها وأرخت بصرها إليه. كانت نظرتها بعيدة وثقيلة وبلا أمل، بيد أنّها كانت رائعة. لم يكن جمالها من النمط الذي يخلب الألباب، ولكنّه كان جمالاً غامضًا ونوعًا مختلفًا من السحر والفتنة بعيدًا عن مفاهيم الجمال السائدة الذي يشبّه المرأة بالدمية. جمال لم يعرف طعم السعادة، ينعكس في النظرة الخفيّة المنبعثة من عينيها الواسعتين البندقيّتين الميّالتين إلى الخضرة. وفي لحظة من لحظات الدهشة والذهول، أمسك فولكان الوشاح وكأنّه يتلقّى كنزًا لم يتوقّعه، بعد أن قدّمته له إيلام ولفّ به عنقه وسألها:

ـ هل أبدو جميلاً؟

ـ نعم، إنّه جميل.

ـ أنتِ رائعة يا إيلام، وأنا سعيد لأنّني أرغمتكِ على الحضور.

ـ لم يكن لديّ أيّ خيار آخر. كان في وسع الموت وحده أن يحول من دون مجيئي.

كان فولكان قد خاله الظنّ بأنّ تردّد الفتاة في لقائه إنّما يعزى إلى بعض عيوبها البدنيّة. ولم يفكّر في الأمر طويلاً خاصّة أنّها ليست حالة متطرّفة، فقد كان يعلم أنّ ما يجذب شخص ما إلى آخر إنّما هو المعنى الكامن من وراء الموقف العام الذي تخلقه نظرة خاطفة وموقف وسلوك، شيء ما يستطيع رؤيته الشخص الحبيس داخل جسده.

سألها في صوت مكتوم:

ـ لكن ما الذي دفعك إلى الاختباء طوال هذه المدّة؟

قالت إيلام:

ـ ربّما أردت أن تنضج صلتنا القريبة، والطريقة التي سنلتقي بها...

تنهّدت كأنّ ذلك الجمال الطبيعي، وتلك العذوبة، قد اهتزّتا لحظة من الزمان. ثمّة ألق في عينيها، أعقبه تردّد إلى حدٍّ ما. ولبثت نظرتها المصحوبة بالقلق، المرّة إلى حدٍّ ما، على فولكان مدّة قصيرة، ولكنّها أدارت رأسها وجالت ببصرها في أرجاء الغرفة بحركة سريعة مباغتة.

ـ وهل نضجت في رأيك؟

ـ لا أعلم. كان الأمر في بادئ الأمر أشبه بلعبة، وإنّني مندهشة بعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحدّ.

كانت متحمّسة ومتوتّرة، ولكنّها بذلت قصارى جهدها كي

تخفي ذلك. فرشقها فولكان بنظرة، وابتسم لها ابتسامة ودّ، ملؤها الجذل.

ـ لن نبقى في هذا المكان، إذْ سوف نذهب لتناول الطعام في مكان لطيف بعد قليل.

ـ غير ممكن، فأنا مضطرّة إلى الذهاب إلى بيت شقيقتي في هذه الليلة، ولا يمكنني المكوث هنا سوى ساعة واحدة.

ـ لكنّنا اتّفقنا على قضاء المساء كلّه.

ـ أعتذر، فثمّة حالة طرأت مؤخّرًا.

ـ آسف جدًّا.

قالت إيلام:

ـ اترك ذلك لمساء آخر، وسوف يعتاد أحدنا الآخر على نحو أفضل، ونوزّع اللقاءات على مرّ الأيّام.

بدت وكأنّها تحاول أن توضح توتّرها.

قال فولكان:

ـ هذه تجربة مثيرة لي أيضًا، تجربة مختلفة؛ فأنا لم أتوقّع امرأة مثلك. أشعر كأنّني تلقّيت لكمة على وجهي.

وضحكا.

ـ كيف توقّعت شكلي: متعجرفًا، أصلع الرأس، ضريرًا؟

ـ آه، لا. أنا في الأقلّ أملك صورتك. الحقّ أنّني ظلمتك عندما لم أصدّقك.

رنا فولكان إلى وجه إيلام وشاهد النظرة البعيدة التي استقرّت

على وجهها، مزيجًا من الخوف وصعوبة الإرضاء. كما أنّه وجدها أكثر جمالاً، وعاد بذاكرته إلى بعد ظهر ذلك اليوم عندما ضغط شفتيه ضغطًا مضطرم العاطفة على شفتيّ أوّل فتاة أحبّها. كان يعيش تلك السعادة الغامضة مرّة أخرى: شاعرًا بالتحمّس الذي لا حدود له تجاه المجهول وتجاه البراءة. لقد استيقظت روحه من خدرها وبدت تبارك المغامرة التي كان يتطلّع إليها.

وتخيّل إيلام فتاة جريئة بسبب جرأة كتاباتها، لكنّه وجد عوضًا عن ذلك براءة معدّة إعدادًا حسنًا ومثيرة للإعجاب، ويمكن التخلّي عنها في الوقت المناسب، ما جعلها أكثر فتنة وإغراء. بدت هذه المرأة الشابّة مثل صفحة بيضاء له، يستطيع أن يكتب عليها من جديد وعلى نحو صحيح كلّ العلاقات التي سبق له أن أقامها مع النساء، صفحة تحرّره من كلّ آثامه الماضية. وراوده إحساس بلذّة فائقة في دفن كلّ تلك الآثام، وبخاصّة حريقه الأخير بسبب ملكة، في الماضي. في المرحلة الزمنيّة التي لجأ إلى ملكة، كان اهتمامه بإيلام قد تضاءل وكاد أن يختفي، ولكن مراسلاتهما تكرّرت من بعد ذلك وانطوت على جانب حميميّ أكبر، فتوهّج اهتمامه بها من جديد. كان فولكان واثقًا تمامًا من أنّ هذه العلاقة ليست استثمارًا في اتّجاه سعيه، بل كانت شعورًا أساسيًّا بالرفاه والسعادة، ورغبة في حصوله على الموافقة التي كان في حاجة إليها على طريق تجديد نفسه. كانت إيلام قد أخبرته بمثل هذه الأشياء المثيرة للاهتمام عن نفسها، وأنّ فضوله مغلّف بمشاعر الألفة والمودّة على الرّغم من كلّ المخاطرات.

طلبا قهوة. وفكّر فولكان في احتمال أن تصبح إيلام عشيقته

عمّا قريب، فشعر بمتعة كبيرة. وعلى قدر معرفته، لم يكن ثمّة أحد في حياتها. سبق أن كتبت له عن علاقة طويلة مع شخص عندما كانت في أنقرة، وأوضحت له أنّ تلك العلاقة لم تكن حبًّا، وأنّها انتهت تمامًا. وعندما كان يراسلها وتراسله من مكانيهما الخاصّين، فتح أحدهما قلبه للآخر عن إخلاص وبثقة وجرأة لأنّهما يبعدان عن بعضهما بعضًا. أمّا الآن، فهما مرتبكان وجهًا لوجه، ومضطران إلى الظهور بمظهر العارف والمتناسي في الوقت نفسه. لعلّ سبب ارتباكهما يتمثّل في أنّ كلّ شيء استثنائي ومثالي في تلك اللحظة.

وسرعان ما اعتاد أحدهما الآخر، وإذا كانت ثمّة عقبة تقف في طريقهما، فقد اختفت أثناء تناولهما القهوة، وراح حديثهما ينحو منحًى طبيعيًّا.

سأل فولكان:

ـ أين تقطنين يا إيلام؟

لسبب من الأسباب، لم تكن قد أخبرته بمحلّ سكناها، فأخبرته أنّها تقطن وراء ـ حيّ كاجيثاني وبالقرب من بيت شقيقتها، وأنّها غير سعيدة في ذلك المكان. كانت قد أخبرته بالنزر اليسر عن أختها وعن الأطفال وعن زوج شقيقتها المصاب بالشلل، فعادت هنا لتذكرهم باختصار ومن دون تحمّس. كانت مقنعة ومتواضعة وهي تصف له عالمها على أنّه مكان صغير وضيّق.

سأل فولكان:

ـ الدمار الذي ذكرته، والطريق الجديد الذي سرت فيه. ما كلّ

هذه الأشياء؟ لقد أثارت كتابتك اضطرابي.

ردّت إيلام متورّدة الخدّين قليلاً وفي محاولة مرتبكة لتغيير دفّة الحديث:

ـ كلمات تافهة، مثيرة للكآبة. إنّني أحيانًا أبالغ في إظهار عواطفي. صعب جدًّا الاحتفاظ بالتوازن. لقد مرّت ستّة أشهر على وصولي هذه المدينة، ولكنّني ما زلت غير قادرة على فهم روحها، ولهذا أشعر بالوحدة قليلاً. الحياة سريعة الإيقاع هنا، وفي بعض الأحيان يراودني الإحساس بأنّني لا أستطيع اللحاق بعقرب الساعة وإنّني متأخّرة على الدوام. هل تفهم ما أقول؟

ـ أحاول أن أفهم. إنّني أعرف بعض الأشياء عنك، ولكنّها تعبّر عن وجهة نظرك. لا يمكن للناس أن يعرفوا بعضهم بعضًا إلّا بالحديث:

ـ لكن ينبغي لك أن تفهم كي تعلم.

ـ أنت على صواب. هذا ينطبق على كلينا. الحقّ أنّه ينطبق على الناس أجمعين. إنّ تصوّر المرء عن نفسه وعن العالم وعن الآخرين يتغيّر باستمرار عندما يتمكّن من فهم ما مرّ به وتفسيره.

ـ ربّما كان هذا هو موت الواقع أو ما يعرف بالصواب. حسنًا، ينبغي لي الذهاب الآن.

ـ يمكنني أن أوصلك إلى حيث تشائين.

ـ شكرًا لك، ولكنّني سوف أستقلّ سيّارة أجرة.

ـ إنّه لقاء قصير جدًّا. لنتناول وجبة طعام يوم غد. فهل أنت قادرة على الحضور؟

ـ لا أدري. ذلك يعتمد على شقيقتي وزوجها. دعنا نتّصل ونتحدّث غدًا.

ـ هل عثرت على وظيفة؟ لقد كتبت لك وأخبرتك إنّني أستطيع أن أعثر لك على وظيفة.

نعم، لقد عثرت على وظيفة من فورها، في قسم الحسابات بإحدى شركات النسيج، وأنّها تحبّ عملها وأنّ أجرها مرضٍ.

سأل فولكان:

ـ ألا تفكّرين في الانتقال إلى وظيفة تستطيعين أن تؤسّسي بها لحياتك ومستقبلك؟

ـ لا، لم يكن الاقتصاد هو الموضوع الذي كنت أريد دراسته على أيّ حال. وعندما انتهت تجربة عملي بخيبة عمل أدركت أنّني لست موهوبة. أمّا الآن، فإنّني أريد أن أجني ما يكفي من المال لكي أعيل نفسي والتركيز في الكتابة.

خرجا معًا إلى الشارع، إلى المساء الذي كانت الأضواء والضوضاء تغمره. لوّحت إيلام إلى سيّارة أجرة، وكانت تبدو في عجالة من أمرها.

قالت لفولكان من فورها:

ـ سررت للقائك، وسأراك ثانية.

ثم استقلّت مسرعة سيّارة الأجرة وكأنّها تهرب.

فكّر فولكان أنّها كانت مخلوعة الفؤاد ورائعة، رائعة جدًّا حتمًا، وأنا لست في مزاج يسمح لي بالتفكير بما هو حبّ وما ليس

هو حبّ. الحبّ هو الحبّ، يدفع الإنسان إلى التصرّف تصرّفًا جنونيًّا. وعلى حدّ تعبير نيلهان، فقد انتظرت طوال حياتك وأنت واقف على العتبة أيّها الولد الصغير! يا لك من جبان!

في اليوم التالي، حاول فولكان أن يتّصل بإيلام مرّات ومرّات، ولكن هاتفها المنزلي لم يردّ، كما كان هاتفها الخلوي مغلقًا. وفكّر أنّ الهاتف تعرّض إلى القطع بسبب عدم دفع قائمة أجوره، ولكنّه تمكّن أخيرًا من الوصول إليها في عصر اليوم الثاني.

وفي المساء التالي، التقيا في منطقة أورتو كوي، وذهبا إلى مطعم هادئ وجميل. وأرشدهما النادل إلى ركن منعزل وأشعل شمعة من فوق الطاولة. كانت إيلام أكثر سعادة وإشراقًا في تلك الأمسية، بل ظهرت أكثر جمالاً ومتحرّرة من التوتّر العصبي بعد أن احتست بضع كؤوس من النبيذ، وتلاشت أمارات الحزن والصرامة من على وجهها. أمّا لمحاتها الخاطفة، فكانت سريعة ومتحمّسة ولكنّها مفعمة بالابتسام. كانت تحاول تجنّب التعابير المبتذلة أثناء حديثها، فتختار الألفاظ بعناية، ولكنّها على الرّغم من ذلك لم تكن متكلّفة بل كانت طبيعيّة جدًّا، وضحكت ضحكًا مشرقًا جعل فولكان يشعر أنّه هادئ ومطمئن وكأنّه اجتاز قبل قليل امتحانًا عسيرًا. والتقت عيناه بتحديقة إيلام وشاهد فيها ومضات طفل صغير محبّ للفضول واهتمامًا وودًّا بدلاً من الرغبة الجنسيّة.

ـ هل يروقك هذا المكان؟

أجابت إيلام:

ـ إنّني سعيدة، لأنّني أجبت عن رسالتك عندما كتبت لي أوّل

مرّة. كما إنّني سعيدة لوجودنا معًا في هذه اللحظة. إنّها سعادة حقيقيّة.

رفعت رأسها وأسندته إلى راحة كفّها ومالت على مرفقها، فانساب شعرها الأسود الطويل والمتموّج على رقبتها.

ـ لماذا كانت هواتفك مغلقة قبل يوم يا إيلام؟

ـ دعنا نتّفق على أمر واحد. إنّني أكره من يسيطر عليَّ، وأكره أن أضطرّ إلى أن أفسّر كلّ شيء عن نفسي، لأنّ أفضل سنوات عمري انقضت وأنا أفعل ذلك الشيء. لقد تعبت من جرّاء ذلك.

ثم أضافت بعد أن اعتدلت في جلستها:

ـ إنّك تطرح عليّ أسئلة أكثر ممّا ينبغي، فترهقني.

ـ إنّه اهتمام من جانبي وبعض الفضول، ولم أفكّر في أن يكون ردّ فعلك بهذه الدرجة من القوّة!

ـ عندما يتعلّق الأمر بحرّيّتي، فإنّني يمكن أن أتحوّل إلى فتاة فظّة وخشنة. إنّني غاية في الحساسيّة بخصوص هذا الموضوع. معذرة.

خُيّل لفولكان أنّه أمام خشبة مسرح. غرفة خلفيّة في سقيفة... عالم يحتشد بالكآبة، محاولات لجعلها قابلة للاحتمال بقطع مزركشة من قماش على الأثاث، مسلسلات تلفازيّة محلّيّة وأشرطة أغان عربيّة... ممثّلة تؤدّي دور فتاة شابّة تعمل في مصنع للنسيج وأمام آلة. ماذا حدث؟ لم يعرف ما نوع الرائحة أو العلامة التي أثارتها، غير أنّ خطأً صغيرًا راح يفصل بينهما.

ـ أعرف ذلك، ولكنّني كنت أفكّر فيك طوال ثلاثة أيّام. طبيعي

أنّني كنت قلقًا عليك، وقد لبثت أتّصل بك كي أسمع صوتك ولأخبرك عن حالي وشعوري، وانتابني الذعر والهلع لاعتقادي أنّني فقدتك.

ـ آه يا فولكان... إنّني أفهم. كان ينبغي لي أن أتّصل بك، ولكنّني كنت منهمكة جدًّا في العمل. اجتماعات طوال الوقت، مع كلّ أولئك الحمقى المغرورين!

وهنا تناولت جرعة كبيرة من نبيذها، فأصدر سوارها الأنيق صوتًا في ذراعها. ثم استقرّ بصرها على إبهامها وهي تحدّق عن بعد وكأنّها انتقلت إلى لحظة جمود في عالم آخر.

راقب فولكان تعابير وجهها. لا، ما من شيء يستدعي القلق، وطبيعيّ أن يفقد المرء سيطرته على الأشياء التي صنعته. على أيّ حال، العالم مكان غريب على الدوام في نظر الناس الذين هم مثلها.

رفع رأسه وشاهد إيلام تتمعّن النظر في وجهه بصراحة موضوعيّة، وتنتظر. كان ثوبها الصوفيّ الأخضر الغامق مزدانًا من حول الرقبة بشريط أسود عريض يؤطّر وجهها ورقبتها مثل أوراق نبتة غير مألوفة.

انتظرا متردّدين في هدوء. ثم سألها فولكان في محاولة لكسر حاجز الصمت بينهما:

ـ من تشبهين؟ والدتك؟

ـ لا أدري. ربّما لا أشبه أحدًا. ففي البيت لم نتكلّم قطّ على أبداننا، وكان هذا الموضوع محلّ تجاهل تامّ.

ـ لجمالك تعابير أخّاذة يا إيلام.

ـ شكرًا لك. لبثت مدّة طويلة من الزمان أظنّ نفسي قبيحة. وكنت قبيحة حقًّا. هل يمكنك أن تتخيّل شكلي في ذلك الزيّ، مغطّاة من رأسي حتى قدميّ؟

ـ لا، لا يمكنني.

ـ لم أكتب إليك سوى النزر اليسير عن الحياة التي عشتها.

ـ لا بدّ أنّ لديك إرادة قويّة دفعتك إلى ترك كلّ شيء وراءك.

ـ لا أدري إن كنت قادرة على ذلك، فأنا ما تزال لديّ مشكلات في علاقتي بجسدي، وما زلت كسيرة الفؤاد... إنّني غاضبة.

ـ أعرف.

ـ هذا هو السبب الذي يدفعني إلى الكتابة، فأنا أفهم كلّ شيء فهمًا أحسن من ذي قبل عندما أكتب، كما أنّ الفهم يخفّف من وطأة ألمي.

ـ أنت ذات أهمِّيَّة كبرى لي. أرجوك دعيني أساعدك كي تعودي إلى وضعك السويّ.

ـ إنّني لا أستحقّ أيّ جهد، فأنا لست سوى امرأة عاديّة تحاول البقاء واقفة على قدميها بأيّ وسيلة. يمكنني أن أكون لصّة أو قاتلة أو عاهرة.

كان صوتها مؤلمًا وخشنًا أشبه بصرخة، فارتعش فولكان. كانت الفتاة تسدّد نظرها إليه مباشرة، رافعة رأسها، سوداء العينين

كأنّها تتحدّاه. باردة، مطبقة شفتيها، وعليها مسحة تشامخ.

ـ يبدو أنّك تتفوّهين بألفاظ غريبة. هيّا بالله عليك. . .

رنا إليها في دهشة وشفقة وفضول. بدت واثقة من حقيقة أمرها، وتذكّر هو الصورة البريئة التي ظهرت بها في اليوم الذي التقيا فيه أوّل مرّة، فانتابه خوف ما. ولكن سرعان ما لانت ملامح إيلام وأخرجت سيكارة من علبة سكائر فولكان وانتظرته كي يشعلها لها. والتقت عيناها بعينيه، وكان الظلام قد تلاشى منهما، وغدتا مفعمتين بالضياء.

قالت في لطف:

ـ هذا هو الشعور الذي يراودني عن حياتي وعن العالم الذي نحيا فيه. إنّ ما أركّز فيه هو الجوهر، بغض النظر عن عدم واقعيّة ما يتبقّى من ذلك.

خفضت من بصرها وانتظرت مثل طفل مشاكس ينتظر العفو والمغفرة، وبدت غاية في الهدوء، ما بعث القشعريرة في بدن فولكان.

قال:

ـ يبدو أنّك غير قادرة على توجيه غضبك نحو الاتّجاه الصحيح. إنّني أفهم من كتاباتك أنّ محاولتك العثور على نفسك بلا هدف، وأنّها متروكة على هواها.

ـ اللجوء إلى الآمال غير مفيد. على من ينتمي إلى طبقة النكرات أن يؤمن بالمصادفة وأن يعتمد عليها. إنّنا لا نملك حرّيّة رسم طريقنا إنْ نحو الأحسن أو الأسوأ.

ـ أتعنين أنّك مؤمنة بالقدر؟

ـ لا، إنّني أتكلّم على النظام وليس على القدر، النظام الذي يمنح حرِّيّة فعليّة ويرغم المرء على اتّخاذ قرارات هامشيّة.

ـ كنتِ غاية في الشجاعة في رسالتك الأولى. ما الذي يدفعك إلى الاستسلام الآن؟

ـ لم أعد أجد ذلك الموقف واقعيًا أو منطقيًا. فالمرء يصل يومًا ما عند تقاطع طريق، فيظهر أمامه بغتة شيء ما غير متوقّع تمامًا.

ـ إنّ تسليم المرء مقادير أموره للمصادفة لا ينفع. إنّني لا أنكر قيمة المفاجآت الصغيرة، لكنّ الحرِّيّة من دون إرادة خطر.

رنت إليه ورمقته بنظرة تنطوي على خوف. ثم التفتت نحو النافذة، مشيرة إلى أنّها لا ترغب في الاستمرار في الحديث في هذا الموضوع.

قال فولكان:

ـ كتبتِ إليَّ تقولين إنّكِ لم تغرمي بأحد يومًا ما، وهذا أمر يصعب على التصديق يا إيلام.

ـ أؤمن بأنّ الحبّ شعور حقيقي، ولكنّه في الوقت نفسه موقّت ويتعذّر الوصول إليه. ففي بداية الأمر، ينجذب الاثنان انجذابًا قويًا، ولكن سرعان ما يستاء أحدهما ويفترقان. أنا شخصيًا لا أحبّ طبيعة الحبّ ولا طرازه، بمعنى الرغبة في البداية والرفض في النهاية.

ـ ليس ضروريًا أن يكون الحبّ كذلك دومًا.

ـ لا أدري. أعتقد أنّ كلّ الفرص فاتتني إلى الأبد.

فكّر فولكان في صعوبة التواصل وإيّاها على هذا المستوى، فما كان فيه إلّا أن غيّر دفّة الحديث إلى أحاديث يوميّة أخرى أكثر إثارة للمتعة.

* * *

كانا يضحكان أثناء هبوطهما الدرج خارج المطعم. كان الطقس شديد البرودة، وكانت ليلة ثقيلة ومظلمة من ليالي الشتاء الثلجيّة في شهر مارس. وضع فولكان ذراعيه من حول كتفي إيلام وجذبها إليه. وساوره الإحساس بأنّه لن يعرفها ما لم يراها عارية، وما لم يتّحد جسداهما. إنّ تطويقه هذه المخلوقة الملتهبة وإغداق الحبّ عليها من شأنه أن يطمئنها ويمنحها من جديد طيبة كيانها الأوّليّة.

أليس ثمّة سكينة في أعماق جسد المرء؟

سألها:

ـ هل تأتين إلى منزلي؟ إنّني أقطن على مقربة من هنا، كما أنّ الوقت ما يزال مبكرًا، وسأوصلك إلى بيتك لاحقًا.

كان فولكان مترنّحًا سُكرًا، إذْ لم يتناولا من الطعام إلّا النزر اليسير، ولكنّهما احتسيا كثيرًا من الشراب.

قالت إيلام متردّدة:

ـ الأفضل ألّا أذهب وإيّاك. فأنا منهكة، وينبغي لي العودة إلى المنزل. لا، ليس الليلة.

ـ بل ينبغي لكِ الذهاب وإيّاي. إنّني توّاق إلى أن أصطحبك. هيّا ثقي بي.

كان مطلبه بسيطًا. رجل وامرأة. على أيّ حال، لم يرغب فيها بوصفها امرأة فحسب، فعلى الرّغم من خيبة أمله في ملكة، إلّا أنّه لم يشعر بهدر كرامته عندما انتهى كلّ شيء. أمّا إيلام التي كان قد احتفظ بصورتها في ذهنه، فكانت أشبه بقصّة من قصص الجانّ في تلك اللحظة، في عالم يعيش فيه ويكتشفه...

ـ أرجوك لا تلحّ عليّ.

ـ إذًا، دعيني أقلّك إلى منزلك.

ـ لا، لا. سوف أستقلّ سيّارة أجرة.

كانت تراقب الطريق في قلق، منتظرة مرور سيّارة أجرة. كانت سيّارة فولكان أمامهما مباشرة، وكان سائقه ينتظره.

ـ مستحيل. سوف نوصلك إلى منزلك. ما الذي يدفعك إلى مثل هذا التصرّف يا إيلام؟

ـ لا أريد أن أجرجرك في شوارع ضيّقة وقذرة، فسيّارتك لا يمكنها الذهاب إلى تلك المناطق.

ـ بل يمكنها أن تذهب إلى أيّ مكان. هيّا يا عزيزتي.

دفعها فولكان إلى حدٍّ ما نحو المقعد الخلفي وجلس بجانبها. كانت السيّارة دافئة، وراح السائق يقودها على مهل.

قالت إيلام:

ـ يداي متجمّدتان.

سرحت ببصرها في اتّجاه فولكان ولكنّها لم تبتسم، والتقت عيونهما. كان وجودها أشبه بنسمة لطيفة. كانت معقّدة وصعبة، غير أنّها مثل نسمة هواء منعش، نسمة عميقة. وحتى لو لم يكن مدركًا لها، فإنّ هذه البهجة منحته الأمل بالعثور من جديد على أغنية منسيّة، على الدفء الذي افتقده، على الحلم الذي ضاع منه. أمسك بيديها وراح يدفّئهما، فما كان من إيلام إلّا أن أغمضت عينيها واتّكأت إلى الخلف.

تأثّر فولكان كثيرًا لمرأى أمارات الحزن البادية على وجهها، وشعر برغبة جامحة لتقبيلها، ولتهدئتها وللعناية بجروحها، فاهتزّ لها. كان متشبّثًا بها، ممتزجًا وإيّاها، وجلاً إلى حدٍّ ما، لكن كلّ قصص الحبّ والغرام مخفيّة في البداية، بل هكذا ينبغي أن تكون. شعر بيد إيلام وقد عادت إليها الحياة، وباتت دافئة، فراحت تمسك يده بقوّة.

ـ أتظنّني امرأة بروح معقّدة؟

ـ لا يا حبيبتي. أنت يتيمة.

ران صمت قصير.

قالت إيلام:

ـ لنذهب إلى بيتك.

ثم أضافت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ إنّني بحاجة إليك.

ثم فتحت عينيها ونظرت إليه نظرة ملؤها اليأس وفقدان الأمل برهة وجيزة، ثم أغمضتهما من جديد.

كانت غرفة الجلوس معتمة، غير أنّ الضوء القريب من باب الشرفة ملأها بظلال خفيفة. كانت إيلام ما تزال في حالة سوداويّة توقع في النفس انقباضًا، جالسة فوق أريكة منخفضة جلسة هادئة ترنو إلى الوهج الخافت المنبعث من المدفأة الجداريّة، أحضر فولكان قهوة وكأسين من شراب الكونياك وجلس على المقعد المقابل لها.

ـ اشربي هذا، فسوف ينعشك؟

ـ لديك منزل رائع، يبعث الهدوء في النفس.

ثم رشفت رشفة من الشراب وتركت الكأس على منضدة القهوة، واتّكأت إلى الوراء. وأضافت:

ـ أمّا بيتي فهو حقير، وقد عشت دومًا في بيوت بائسة. واشتريت أثاث بيتي من محلّ بيع الأثاث المستعمل.

ـ يروقني أن أراه في كلّ الأحوال.

ـ لا أحبّذ ذلك، لأنّه يثير حرجي. إنّني أريد أن أخبرك بـ. . .

لكنّها أمسكت عن الكلام.

لاحظ فولكان أنّها اعتدلت في جلستها وراحت تجرع الشراب في محاولة منها لتقول الكلام المضطرّة إلى قوله. انتظر.

ـ إنّ جذورنا الاجتماعيّة متباينة جدًّا.

ـ لا، ليست متباينة. يمكننا أن نخفّف من الفروقات الصغيرة.

ـ أنت لا تفهم. ثمّة فرق طبقي بيننا، فرق عميق.

ـ نحن من الطبقة نفسها يا إيلام.

ـ لا يبدو الأمر كذلك من وجهة نظري.

ـ انظري إليّ. أنت تفكّرين أكثر ممّا ينبغي. لماذا لا تتركي الأمور تأخذ مجراها؟ عيشي لحظتك. أليس ذلك جميلاً؟ أليس ذلك مثيرًا؟

ـ جميل جدًّا. أشعر وكأنّني أعرفك منذ سنوات، ولكنّني لا أريد أن أسبّب لك عذابًا...

ـ ما الذي يجعلك تسبّبين العذاب لي؟ لقد التقينا منذ وقت قصير. نحن بالغان، ولنا حرّيّتنا، وفي وسعنا أن نمارس بعض الأشياء الجميلة معًا. ربّما هذه فرصتنا، وعليك الاستفادة منها إيجابيًّا.

نهض فولكان ووضع قرصًا مدمجًا، وسار إلى مكتبه وعاد حاملاً دمية تمثّل دبًّا بأذن مقطوعة، كانت أمّه قد أحضرته معها من منزلها. إنّها دميته منذ أيّام طفولته. وتركه في حضن إيلام، فضحكا.

ـ هذا هو رفيقي في المنام منذ طفولتي، وها أنذا أمنحك إيّاه.

قالت إيلام وقد فاضت عيناها بالدموع:

ـ لماذا لم ألتقيك قبل اليوم؟

ـ لم يفت الأوان بعد...

ـ بل فات كثيرًا. صدّقني، فات الأوان كثيرًا.

ـ لا، ليس صحيحًا، كما أنّ ذهني ليس مشوّشًا بما يساورني من شعور تجاهك.

أرخى بصره إلى إيلام، كانت عيناها تتألّقان بالدموع وبدت كأنّها مسحورة، وأرخت أصابع يديها التي كانت تمسّد الدمية. مال فولكان نحوها وقبّلها قبلة رقيقة، فتلقّى ردًّا إيجابيًّا مفعمًا بالعاطفة، وضغط بيديه على وجنتيها واستمرّ يقبّلها حتى أصبحت مبهورة الأنفاس. كان جسدها يذوب بين ذراعيه ويتحلّل، غير أنّها تراجعت إلى الوراء بغتة كأنّها ذاهلة، ودفنت وجهها في كتف فولكان وشرعت بالبكاء صامتة.

كان فولكان يعرف هذه الدموع، وذلك العذاب الحلو المرّ. قبّل وجه إيلام المبلّل يساوره شعور غير شعور الرغبة الجنسيّة. شعور مفعم بماضٍ ملؤه أسًى ساحق للقلب، ومستقبل مجهول ووعود لا نهاية لها. مسَّد ظهرها وشعرها وكتفيها، وقبّلها مرّات ومرّات.

تمتمت إيلام:

ـ إنّني خائفة، خبّئني.

ـ ممّ تخافين؟

ـ من كلّ شيء، من المستقبل...

نهضت من مكانها، دافعة فولكان قليلاً، واتّجهت للجلوس على الأريكة العثمانيّة أمام المدفأة الجداريّة. كانت النار تنعكس على وجهها وعلى صدرها، وبدت على حين بغتة وكأنّها قد انتقلت إلى مكان آخر، بعيد.

جلس فولكان بجانبها، وراقبا النار معًا، باستسلام وفهم. وشعر بالأسى لفقدان الرغبة، وفتّش عن أبسط تغييرٍ في ملامح

إيلام، عن دفء قد يصله من ابتسامتها البعيدة، ولكنّه لم يجد شيئًا.

قالت بعد برهة وجيزة:

ـ هذا وهم. سرعان ما يطلع الفجر وينتهي كلّ شيء، وعندئذٍ سترى الرماد على جسدي.

التفتت ونظرت إلى فولكان نظرة يشيع منها الحزن والقلق.

ـ ما الذي تتحدّثين عنه يا إيلام؟ ماذا حدث؟

ـ هل يمكنك أن تطلب لي سيّارة أجرة.

ـ لا، لا يمكنني أن أتركك تذهبين في هذه الساعة. حملها بين ذراعيه وسار بها إلى غرفة النوم.

* * *

جلسا على السرير في الغرفة الخافتة الضياء، وراح كلّ واحد منهما يخلع ثياب الآخر. فشاهد فولكان نهديها المكتنزين وقمّتيهما الورديّتين، والظلال من تحت إبطيها، وسرّتها المدفونة مثل خاتم في جسدها الريّان، والصمت الموعود بين ساقيها، فارتعش. كانت آية من الجمال، ذاب شعرها تحت الضياء، وارتعش الوميض الخافت في عينيها مثل جناحي بعوضة جميلة. كانت صورة من صور العفويّة الدقيقة. وكان أسلوبها غاية في الحسن والأناقة وهي تفتح ساقيها الرشيقتين الجميلتين اللامعتين وتمدّهما لكي تسند جسدها. فما كان من فولكان إلّا أن شعر برغبة ماحقة كي يحبّها ويحميها ويمتلكها ويستحوذ عليها.

مرّر يده على جسدها الحريري الملمس، ومنحنياته الرقيقة، واستسلم للمتعة التي شعر بها عندما تحرّكت يدا إيلام الحسّاستين

من فوق صدره وأعلى فخذيه وكتفيه. وتشابك الاثنان تشابكًا ينطوي على رغبة مذهلة، ومارسا الحبّ بإحساس مشترك، دافئ وغامض، في إخلاص واستسلام. برغبة وعاطفة... كأنّهما في نفسيهما وفي نفس الآخر... يريدان أن يفهما من هما إن لم يكونا هما نفسيهما، يريدان تجديد العالم بعواطف جديدة تمامًا...

ثم تعانقا، واضطجع أحدهما في حضن الآخر. كانت إيلام قد جذبت ركبتيها إلى صدرها، تبكي وتنشج نشيجًا متقطّعًا. ضغط فولكان جسدها على جسده وشعر بذلك الجسد الرقيق الهشّ يتموّج بين ذراعيه. تلفّظ باسمها مرّات ومرّات، وقبّل وجهها ودموعها إلى أن دفعت رأسها إلى الوراء. واغتصبت ابتسامة ووضعت يدها على صدرها واضطجعت على ظهرها، فما كان من فولكان إلّا أن وضع رأسه على بطنها وسمح ليديها أن تمرّرهما على شعره.

لم يتكلّما. كانت عواطفهما غاية في القوّة، فلم تكن ثمّة ضرورة للكلمات. التزما الصمت كأنّ كلّ ما يتلفّظان به سيكون غير دقيق واعتياديّ وتافه. وردّد جسداهما باستمرار كلّ كلمة منسيّة.

شعر فولكان أنّ الجسد الذي يطوّقه بين ذراعيه بات ثقيلاً، وبعيدًا عنه. كانت أيديهما تلتقي بين حين وآخر وتتلامسان لمسًا مستميتًا. شعر بالإنهاك، ووصلا مرحلة الانفصال أحدهما عن الآخر على الرّغم من إرادتهما. وأخيرًا راحا ينهزمان أمام عدوّ الحبّ: الزمن والليل والنوم.

عندما استيقظ فولكان من نومه في الساعة السابعة صباحًا، اكتشف أنّ إيلام لم تكن في الفراش، فنهض قلقًا وفتّش عنها في الحمّام وفي المطبخ، ولكنّه لم يجد لها ولا لثيابها أيّ أثر، بل عثر

على قصاصة ورقة، وعليها ملاحظة فوق المنضدة المجاورة للسرير:

«لقد أخذت دميتك. وسوف أحتفظ بها ذكرى للقائنا.

سوف أشتاق إليك وإلى هذه الليلة دائمًا. شكرًا لعواطفك ومشاعرك الحميمة. تمنّياتي القلبيّة...»

* * *

١٧

استيقظت ملكة من نومها على صوت قرع على الباب. كانت مضطجعة بين ملاءات ناعمة من قماش الساتان الأبيض، وفي جوّ تنبعث منه رائحة خفيفة قوامها الخشب وملمّع الأخشاب. في البدء، لم تكن تعرف أين هي، ولكنّها استدلّت بعدئذٍ على السقف الخشبي المطليّ باللون الأبيض وأبواب الخزانات عتيقة الطراز ورائحة البحر. وتذكّرت أنّها في القصر.

كانت ذاكرتها مملوءة بصور صغيرة غير كاملة. اتّصال عمّها الهاتفي، مخاوفها... لقد أفرطت في تناول المشروبات في الليلة الفائتة، فلم تتمكّن من ترتيب الأحداث.

كانت تفرط في تناول الشراب في الآونة الأخيرة، وتهيم في سيرها ساعات طويلة، وتبكي من دون سبب. كان الشراب يخفّف عنها عذابها، ويجذبها إلى مرح يخلو من الهموم، محوّلاً إيّاها إلى متشرّدة، وإن لمدّة قصيرة.

بعد أن أمضت الليلة في المتجر، لم تشاهد حيالي على مدى ستّة أسابيع، ما دفعها أحيانًا إلى الارتياب في حادث تلك الليلة. لم يكن بينهما أيّ شيء يضمن مثل تلك الألفة.

يضاف إلى ذلك، أنّه تخلّى عنها في النهاية على نحو مخزٍ. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تعذّر عليها تحمّلها، بغضّ النظر عن محاولتها إبعادها عن ذاكرتها ببرود مفرط. اتّصلت هاتفيًّا بآيسيفيم في النهار الذي أعقب تلك الليلة، محاولة أن تعرف إن كانت قد بذلت جهدًا لبثّ الخوف في نفس حيالي.

قالت آيسيفيم:

ـ ابتعدي عن هذا الموضوع، فأنا أتولّى زمامه. لماذا؟ هل حدث شيء ما؟

ـ لا، سؤال لا أكثر. لقد أغلق الهاتف في وجهي قبل يوم.

المؤكّد أنّ هذا الكلام لم يكن صحيحًا، إذْ لم يتّصل أحدهما بالآخر قطّ! ما إن سقطت الأقنعة على نحو غير متوقّع، فما عسى أحدهما أن يقول للآخر؟ وكيف يمكن لأحدهما أن ينظر في وجه الآخر؟

شعرت ملكة في الأيّام التي أعقبت تلك الليلة بأشدّ حالات الارتباك، وظهرت كأنّها أضحت وحيدة تنوء بحمل حزين لا يُطاق. وتسرّب عذاب الحبّ في عروقها مثل رغبة عمياء عندما فكّرت في حيالي. دفعت جانبًا كبرياءها الجريح وعواطفها المهانة ورغبت فيه ثانية، فهذه كراهيّتها فقدت قوّتها، وتحوّل غضبها إلى حداد بعد أن أصبحت محرومة منه، وها هي الآن تحلم بالهجران

بدلاً من الحرب، وتبذل جهدًا جبّارًا لإدامة زخم كراهيّتها.

كانت ممارستهما الجنس مبالغة تخلو تمامًا من الحبّ، خشونة وطيشًا بلا أمل، ولذّة وقتيّة. لكن على الرّغم من كلّ ذلك، كانت ممارسة جميلة مثل اتّفاق رائع لكنّه غير مناسب!

هذا ما كانت تحنّ إليه في كلّ لحظة وكلّ يوم وكلّ ليلة.

نهضت واتّجهت إلى الصالة ثم إلى الحمّام حيث غسلت وجهها ونظّفت أسنانها، عادت بعدها إلى غرفتها وارتدت ثيابها.

* * *

كانت قد وصلت القصر في المساء الفائت. كان صوت عمّها المنساب من ظلال الهاتف باردًا قليلاً، قلقًا ومستاءً. قال لها إنّهما مضطرّان إلى الحديث، وتخيّلت ملكة أن يكون حيالي هو السبب من وراء هذا البرود، فجاءت مسرعة، خائفة وقلقة. شعرت أنّها في فخّ، منزعجة ومرهقة ومريضة عندما جلست قبالة عمّها.

لم يكن نيازي بك يبدو في صحّة جيّدة بدوره، إذْ كان ممتقع الوجه، ضعيفًا ومستغرقًا في تفكير حزين.

ـ ثمّة تطوّرات سلبيّة يا إيدا، فقد سافر حيالي إلى لندن للبقاء فيها مدّة أسبوعين، واضطررنا إلى إخراجه من البلد، لأنّ بعض الناس راحوا يزيدون من صعوبة حياتنا. وقد تلقّينا مكالمات هاتفيّة جادّة، تنهي الاتّفاق رسميًّا أو تهدّده بالقتل.

شعرت ملكة بغتة بارتياح لا حدود له. هذا هو السبب الذي

دفعه إلى عدم الاتّصال إذن.

سألت ملكة بصوت هادئ:

ـ هل عرفتم مَن هؤلاء الناس؟

ـ ثمّة طلق ناري في الموضوع. فقد كان ثمّة خلاف بشأن سعر قطعة ثمينة أراد أن يشتريها قبل بضعة أشهر. وعندما ذهب حيالي للقاء الرجل، الواضح أنّ ذلك الرجل وضع مسدّسه على الطاولة وأخبر حيالي أنّه لن يخرج من الغرفة حيًّا إذا لم يوافق على السعر الذي اقترحه عليه. المؤكّد أنّ رجلنا لم يقبل العرض لأنّه لا يمثّل إلّا عُشر قيمة القطعة. ولمّا علمنا أنّ المساومة ستكون صعبة، فإنّ حيالي ذهب بمعيّة حارس شخصيّ لبث في انتظاره خارجًا، وهكذا أدّى حيالي دور البطل وهو واثق من وجود الرجل في الداخل. فكشف للرجل عن صدره وطلب منه أن يطلق النار. فما كان من الرجل إلّا أن تراجع إلى الخلف ولكنّه غضب غضبة هوجاء وازداد حقدًا.

ـ إذًا ما الذي سيحدث الآن؟

ـ أشعر أنّني غُلبت على أمري في هذه المرّة يا إيدا. إنّني أحاول التوصّل إلى اتّفاق، أن نتوصّل إلى حلّ وسط، لكنّ القضيّة برمّتها خرجت عن كونها خلاف بخصوص السعر. الحقّ أنّ الرجل خفَّض من السعر أكثر من ذي قبل، وحوّل الموضوع إلى عناد، إلى معركة نفوذ، وهو يريد الآن ثمن الدم، ولهذا سيمكث حيالي في لندن مدّة من الزمن. الموقف صعب وقد يستغرق بعض الوقت، ولهذا نحن بحاجة إليك من جديد يا

عزيزتي.

ـ أنت تعلم يا عمّاه إنّني لم...

ـ أعرف، لكنّني مشغول البال ووحيد في هذه اللحظة، وليس ثمّة طريق أكيد آخر.

ـ هل يفترض بي أن أسافر إلى لندن؟

ـ نعم يا عزيزتي. سوف ينتظرك حيالي في المطار ويسهر على راحتك، وقد اتّخذنا كلّ الاحتياطات. وقد حذّرته، وسوف يعاملك معاملة حسنة.

شعرت ملكة بالذنب لأنّها سخرت من الرجل العجوز، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، فقد كانت فرحتها وتحمّسها أقوى. الحقيقة البسيطة هي أنّها كانت تريد حيالي، إذْ اشتاقت إليه اشتياقًا رهيبًا، وكان في إمكانها أن ترمي بنفسها في النار لهذا السبب. لكن ما دور حيالي في هذه الترتيبات؟ أتراه يدعوها إلى المكان الذي يمكن أن يكونا فيه حرّين وحدهما. وفكّرت: يا له من تفاؤل! لا يمكنها أن تكون متأكّدة. من جهة أخرى، كانت تعلم أنّها إذا ما سافرت، فإنّ علاقتهما سوف تستمرّ من حيث توقّفت وسوف تظلّ علاقة سرِّيّة. ما الضير الذي سيلحق عمّها من جرّاء ذلك؟ فكّرت في قسوة: إنّنا في مقتبل العمر وهو رجل عجوز. كانت بذلك تحاول إيجاد المبرّر لنفسها.

سألت في حيطة وحذر:

ـ هل سافر حيالي رفقة أيشيك؟

ـ لا، على وجه التوكيد. ما سبب ذهابها؟ ما علاقة هذا الموضوع بها؟ فأنا محتاج إليها في هذا المكان، وهي التي تنجز كلّ أعمالي.

فكّرت ملكة في حبور وانشراح أنّ الأمر يستحقّ السفر إذًا. وراودها شعور لا يهدأ لرؤية حيالي ولأن تكون وحدها وإيّاه.

ـ إنّني لا أستطيع رفض طلبك يا عمّي. أنت تعرف ذلك.

ـ أعرف يا عزيزتي. شكرًا لك. يمكنك أن تطمئنّي إلى أنّ ما أفعله يفيد أقلّيّة توّاقة إلى أن تفرح بحصولها على تذكاريّات تاريخيّة مهمّة وإعادة بناء الماضي بالتأمّل فيها. هذا مرض خطير وغالٍ في وقت أشعر فيه أنّني أتقدّم في السنّ وأنّ صحّتي آخذة بالانهيار، لكنّني على الرّغم من ذلك لن أتخلّى عن هذا العمل حتى يوم توافيني المنيّة، لأنّني لا أقدر على العيش من دون أسرار يمنحني اللذّة. باختصار، أنا بحاجة ماسّة إلى مساعدتك أكثر من أيّ وقت مضى يا إيدا.

ـ ما الذي يتعيّن عليّ حمله إلى لندن؟

ـ قطع أثاريّة أشوريّة صغيرة ولكنّها نفيسة مسروقة من متحف بغداد[1]، وقد وصلتنا على نحو ما، بعد أن دفعنا ثروة طائلة لقاءها. المؤكّد أنّنا لا نستطيع الاحتفاظ بها هنا، وينبغي إيصالها إلى لندن بأسرع وقت ممكن.

(١) هكذا ورد في النصّ الإنكليزي، وهكذا يسمّيه الغرب ولكن اسمه المعروف في العراق هو المتحف العراقي، (المترجم).

ـ أنت تعرّضني إلى خطر شديد. . .

ـ ليس الأمر كذلك، وليس ثمّة خطورة في الحذر. كما أنّ الحماية متوافرة لنا. أمّا القطع الأخرى التي تحتاج إلى إخفاء، فسوف تموّه تمويهًا كاملاً، وسوف تسافرين رفقة أشياء كثيرة تافهة، وسترتدين ثياب عاملة اعتياديّة تعمل في خارج البلد.

ـ متى؟

ـ بعد يومين، على متن الطائرة المسائيّة، وقد حجزنا لك مقعدًا. أمّا حيالي فهو يسكن في نوتنغ هِلْ، في المنزل الذي كانت تقطن فيه آيسيفيم. وسوف تقيمين هناك أيضًا.

لزمت ملكة الصمت. وفكّرت: أنّه يثق بحيالي ثقة كبيرة، ولا يمكنه حتى تصوّر ما حدث بيننا.

رنت إلى عمّها ولاحت على وجهه أمارات الولاء وطول الأناة. كانت متأكّدة أنّ الأمر لا ينطوي على أيّ خطر بأيّ حال من الأحوال. وعلى حين بغتة بدأت تفكّر: حيالي يأتي إلى المتجر، ثم حدث ما حدث. هل أنّ الأمر لا يعدو كونه تمثيليّة؟ خطّة من خطط حيالي وليس عمّها! إذا كان الأمر كذلك، فإنّ القضيّة المطروحة كبيرة جدًّا. عمّها؟ لا، إنّه لن يضحّي بها أبدًا. أمّا حيالي ففي وسعه أن يضحّي بها. تخيّلت متحف بغداد وقد تعرّض للسرقة، فازداد ارتباكها.

ـ لنذهب ونحتسي نبيذًا جيّدًا ونتناول عشاءً ونتحدّث عن أمور أخرى.

أسرفت في تناول الشراب وازدحمت في رأسها مئات الأسئلة والشكوك. ثمّة عراقي شابّ يُدعى عزيز يتحلّق حول الطاولة أيضًا يتكلّم قليلاً من اللغة التركيّة. وكان عمّها مهتمًّا به الاهتمام كلّه. وتساءلت في نفسها: من هو؟ ماذا يعمل؟ هل سيحلّ محلّ حيالي؟

كان نيازي بك قد أخبرها أنّ المشكلة ترجع إلى عدم اتّفاق في السفر. لماذا؟ ما السبب الذي حال من دون عقد صفقة بحسب قوانين التكافؤ؟ هل هذا كلّه جزء من خطّة رسمتها آيسيفيم؟ عندما فكّرت في أجواء آيسيفيم والوسط العالي المستوى الذي تقيم وإيّاه علاقاتها، أدركت أنّ الخطّة قد تكون خطّتها. فهؤلاء الناس مدين أحدهم للآخر بشتّى الطرق. يمكن أن تكون قد رتّبت تدخّل شخص ما قادر على وضع حيالي في موضع حرج، كما أنّ التهديد بالإشعار الرسمي بإنهاء الاتّفاق هو أكثر الأوراق الرابحة في عالم التهريب.

لم تكن أيشيك حاضرة لتناول الطعام، إذْ ذهبت لزيارة عمّتها، وذلك سرّ آخر. لماذا كلّ الأمور بهذه الدرجة من التعقيد؟ لماذا لا تكون بسيطة، واضحة وصريحة؟ ما الذي يجعل الحقيقة تتحوّل إلى ثقب أسود يزداد عمقًا أمامها؟ لقد ولدت على قدر من الذكاء مثل أيّ شخص آخر غير ساذج، وحظيت بما يكفي من التعليم كي تطوّر قدرتها على الفهم والاستيعاب، لكنّها غير قادرة على إدراك ما يحدث.

لم تكن في حال يسمح لها بالذهاب إلى البيت عندما نهضت

من حول الطاولة، وتهالكت على السرير الذي أشارت إليه شدن خانم.

* * *

ذهبت إلى المنزل بعد طعام الإفطار. فوجدت أنّ ثمّة رسالة قد وصلتها على جهاز الردّ الآلي من آيسيفيم، تخبرها فيها أنّها سوف تحضر لتناول الطعام. لماذا؟ وهي الكثيرة المشاغل. اتّصلت ملكة بالمتجر لتخبر معاونتها أنّها لن تحضر في ذلك النهار، وأنّ في وسع الفتاة أن تغلق الأبواب وتمضي في سبيلها. طهت طبقًا أو طبقين من الطعام، وألقت نظرة إلى الجرائد، وأطعمت القطّ الذي سوف تتركه في رعاية عمّها خاصّة أنّه اعتاد القصر.

قرأت في إحدى صفحات الأخبار الاجتماعيّة أنّ المدير التنفيذي الرئيس في شركة كوزموس القابضة، هارون بايلان قد أنهى حياته الزوجيّة بالطلاق على نحو ودّي في جلسة استماع واحدة وأنّه دفع لها نفقة ضخمة. ثمّة صورة للزوجين وهما يرقصان في أسعد أيّامهما.

هل غادر فولكان الشركة؟ كان قد أخبرها في لقائهما الأخير أنّه يوشك أن يتخلّى عن وظيفته. ربّما وجد الراحة أخيرًا، وفكّرت في نفسها: لم أكن قادرة على منحه سوى الألم. على أيّ حال، إنّه لا يستحقّ ذلك.

شعرت بحركة تبعث السرور في داخلها. يومان. يومان لا أكثر وبعدها ستلتقي حيالي. كان تفكيرها وحده باللقاء مبعث

بهجة لها. كان اتّحادهما ناقصًا، وسوف يأتي الجزء المثير. يا الله! أرجو ألّا يكون ثمّة عائق.

وضعت قدميها على الأريكة العثمانيّة ولبثت جالسة بعض الوقت، محاولة التفكير في أيّ شيء. فكّرت أوّلاً في غلق المتجر، وهو إجراء قد استحوذ على تفكيرها منذ زمن قصير، لأنّ ما تحصل عليه منه لا يستحقّ البقاء محبوسة فيه طوال النهار. ومن شأنها أن تجني مالاً أكثر إذا ما نقلت الورشة إلى مكان آخر، وعمدت إلى تأجير هذين الدورين. كان عمّها سخيًّا جدًّا عندما منحها ذلك العقار. مرّة أخرى، فكّرت في أنّ الثمن قد دُفع. وتحجَّر فؤادها وهي تفكّر بأنّ المرء لا يمكنه أن يظلّ يشعر بالامتنان لقاء معروف إلى ما لا نهاية.

* * *

جاءت آيسيفيم مع اقتراب الساعة الثامنة مساءً. وكان قد مضى عليها عام لم تأتِ فيه إلى منزل ملكة. فعانقتها في محبّة وسعادة، ولم تكن قد تناولت وجبة الغداء، ولهذا اتّجهتا إلى المائدة من فورهما، وراحتا تتحدّثان عن قضايا يوميّة برهة وجيزة من الزمان.

وعلى حين بغتة، سألت آيسيفيم:

ـ ما الذي يجري بينك وبين حيالي؟

نظرت ملكة إليها محاولة أن تفهم ما تريد معرفته، لكنّها حوّلت من أنظارها خشية أن تفضح نفسها بنفسها. وشعرت أنّ وجهها تورّد، وارتبكت وفتّشت عن الكلمات.

قالت بصوت خشن مثير للأعصاب:

ـ لا شيء. لماذا تسألين؟ أنت تعلمين أنّه لا يروقني.

ـ لا تبدو الأمور هكذا لي، لكن لا بأس. لقد اضطرّ حيالي أفندي إلى الهروب.

ـ أعرف، لقد ذهبت لزيارة عمّي بالأمس.

ـ هل الرجل العجوز سعيد؟

ـ لا يبدو كذلك. ماذا حدث؟

ـ لقد حُلّت مشكلة القصر، فقد أعاد حيالي الحصّة التي كان قد اقترضها، بمعنى أنّه أعادها إلى عمّي من جديد. المؤكّد أنّه لم يفعل ذلك طواعيّة، فقد اضطرّ إلى توقيع وثيقة وُضعت أمامه. كان ينبغي قطع عضوه ليكون درسًا له!

قالت ملكة مندهشة:

ـ ماذا تقولين؟ أخبريني ماذا حدث؟

ـ ليس ثمّة ما يستدعي القول. يمكن للمال أن يغيّر الأشياء مثل مقايضة لأجل مصلحة مشتركة أو مثل شيء للمتعة بحسب الحالة. لديّ أصدقاء وناس يوفّرون الحماية لي على درجة بالغة من الأهمِّيَّة. ما من شيء يأخذ مجراه في هذا البلد إذا لم تكن فيه قوانين فوق القوانين وأشخاص يطبّقونها في مهارة يا عزيزتي. قد يراني بعض الناس بوصفي ضابط مخابرات سابق أو حتى عاهرة من الطبقة العليا تتسكّع في الجوار، لكنّهم في هذه الحالة يبخسون حقّي إلى أبعد الحدود.

لم تقل ملكة أيّ شيء بل اتّكأت إلى الخلف، وبدا لها كأنّها تتّكئ إلى أسلاك شائكة، في حين ظهرت آيسيفيم رائقة المزاج تمامًا. فقد تمكّنت بألعابها المعقّدة والمثيرة من تحويل حياة ملؤها الضجر والفجور إلى حياة جذّابة استثنائيّة.

ـ أخبرني عمّي أنّ رجل أعمال هدّد حيالي بالمسدّس.

ـ هذا محتمل. وقد دفع الثمن.

ـ أرجو ألّا يكون ذلك قد كلّف ثمنًا غاليًا.

ـ لا، أبدا. ففي مثل هذه الحالات يكون الفرخ الحيّ أفضل هديّة، وهو أرخص من الماء!

ثم أطلقت ضحكة.

ـ لقد تورّطت في تجارة عمّي من جديد، فهو سيرسلني إلى لندن.

ـ اسمعيني يا حبيبتي. سامحيني، ولكن ألم تعثري لكِ على شخص أفضل من حيالي؟

ـ لا أفهم كيف قفزتِ إلى هذه النتيجة؟

ـ أنتِ غير مهتمّة بالمال ولا بالقصر، بل إنّ كلّ ما تسعين إليه إنّما هو نفسه. لا تنسي هذا المعروف الذي أسديه لكِ. اتّفقنا؟

تململت ملكة في مجلسها على نحو عصبيّ. وفكّرت أنّ الأمور ازدادت سوءًا رويدًا رويدًا، وفقدت شكلها وفاقت حدود التصوّر، أو ربّما لا تريد هي نفسها أن تفهم وأنّها تدفع بالحقائق

بعيدًا. الواضح أنّها لا تريد أن تعرف، وهذا هو أسلوبها على الدوام في النظر إلى الأشياء، فتلك طريقة أسهل حتى لو تحوّلت بذلك إلى امرأة متوحّدة، نهمة ومتقلّبة.

* * *

لو شاهد شخص ما ملكة في المطار تنتظر الطائرة المتّجهة إلى لندن لما عرف ما الذي يدلّ عليه مظهرها. فعلى النقيض من أسلوبها المألوف، كانت ترتدي ثيابًا، الواحد فوق الآخر على نحو صبياني، وشدّت شعرها شدًّا ينمّ عن إهمال بدبّوس شعر معدني كبير الحجم بهيأة عقاب. وكانت مرتدية سترة فضفاضة حمراء اللون وقصيرة وبنطالاً من الجينز الأزرق. وكان إبزيم حزامها يقدّر بثروة طائلة، ويداها تعلوهما الأساور. وكانت تحمل حقيبة سفر كبيرة، وحقيبة من قماش قذرة المظهر، ورزمة ضخمة ملفوفة بالبلاستيك وبشريط لاصق لوقايتها، ومملوءة بمختلف أنواع الثياب القديمة والأحذية والمناشف وغيرها من الموادّ التافهة التي تمكّنت من العثور عليها في المنزل. أمّا القطع الأثريّة، فقد وضعتها ملكة بين طيّات الثياب القديمة، وبين بطانة السترات، وفي محفظة زينتها وحذائها على نحو لا يمكن أن تظهر به على شاشة التفتيش الأمني في المطار. وعند مرورها بالبوّابة الممغنطة، انطلق جهاز الإنذار، وكشفت عن أساورها وضحكت ضحكة لعوب. وعند تفتيشها، لم تحدث أيّ مشكلة. كانت ذات خبرة. الشيء المهمّ هو الاحتفاظ بالهدوء والثقة بالنفس. يضاف إلى ذلك، ليس ثمّة مخاطرة كبيرة ما لم تكن ثمّة إشارة أو تحذير. على أيّ حال، تحمّست وباتت مبهورة الأنفاس في

مرحلة ما. وكانت خائفة جدًّا من حيالي، الأمر الذي كان يعجّل من دقّات قلبها.

كانت الطائرة مزدحمة، ولمّا كانت الإجازة توشك أن تبدأ، فإنّ غالبيّة المسافرين كانوا من أُسر العمّال. ولدى الوصول إلى لندن، اتّجهت نحو نقطة التفتيش من دون أيّ مشكلة. وتحرّرت من توتّرها العصبيّ، واعترفت لنفسها بأنّها استمتعت بما مرّت به من تحمّس. كان يروقها كثيرًا أن تعيش على حافّة الخطر. ولكنّها لم تولد كذلك، بل كان ذلك هو الأسلوب الذي نشأت عليه. ففي السنوات الستّ التي جاء فيها عمّها ـ والدها إلى سريرها في حين كانت والدتها تغطّ في النوم في الدور الأرضي، وذلك منذ سنّ الحادية عشرة وحتى السابعة عشرة، عاشت في خضمّ مثل هذه المخاوف، وتدرّبت مثل حيوان، وترعرعت معتادة على تلقّي الأذى والتجاهل والازدراء.

* * *

كان حيالي ينتظر قرب باب الخروج. نظر أحدهما إلى الآخر لحظة من الزمان. كان هو متوتّر الأعصاب، وهزل بدنه وبدا مضنًى من القلق، وقبّل ملكة قبلة باردة على وجنتها. كان جادًّا، كما تلاشت تلك الابتسامة الساخرة المتغطرسة من وجهه. استقلّا سيّارة وذهبا إلى المنزل. كانا هادئين، متباعدين، يفتقدان الودّ، وكأنّ شيئًا لم يحدث بينهما، مترقّبين شيئًا ما وكأنّهما يشعران بالندم. وبدت الليلة التي أنفقاها في المتجر معلّقة بينهما، وأعطى حيالي الانطباع بأنّه يعرف من الذي أوقع به.

كان العشب المزروع أمام البيت يفتقر إلى الترتيب موحلاً. أمّا المنزل نفسه الذي كان مطليًّا بلون رصاصي، فقد طُلي بلون أزرق فاتح وخطوط بيض، وهو عبارة عن مبنًى صغير وضيّق، يتألّف من طبقتين، شُيّد في مطلع القرن. أمّا شجرة الكرز الأماميّة، فلم تكن قد أينعت بعد. وظهر المنزل من الداخل مختلفًا الاختلاف كلّه عن المنزل الذي سبق لآيسيفيم أن عاشت فيه، إذْ أُهمل شأنه فترة طويلة، وبهت لون الستائر، كما أزيلت بعض قطع الأثاث.

تكلّما كلامًا عابرًا: لا، لست جائعة، فقد تناولت الطعام على متن الطائرة.

ـ أتشعرين بالبرد، هل تريدين أن أشعل النار؟

ـ ذلك أفضل. وفكّرت ملكة أنّ الأفضل لو لم تلتقيه. كنت أوشك أن أستعيد توازني، أمّا الآن، فقد ضعت من جديد.

بعد أن استحمّت وعادت أدراجها إليه، رأته يخرج التذكاريّات وقطع الآثار من مخابئها قطعة فقطعة وبعناية كبيرة. ظهر وكأنّه في غيبوبة، كأنّه لا يعرف مكانه. لوحان غريبان وتمثال صغير معدني وبعض المجوهرات والأختام، تسع قطع. راقبته وهو يغلّف القطع بنسيج قطني رقيق وناعم، ثم يُعيد تغليفها بورق بصلي متين وشفّاف أو يضعها في علب واسعة مملوءة بمادّة مصنوعة من ألياف، ثم يخبّئها في موقع سرّي داخل خزانة محفورة في الجدار.

نظرت إلى يديه، يديه اللتين مزّقتا جسدها في ذلك المساء

وحطّمتا روحها، فرأتهما ناعمتين ورقيقتين وهما تمرّان من فوق ضياء الموتى. كانت هذه البقايا الجامدة رمزًا للحنين إلى ما هو مفقود. كلّ قطعة جثّة مفعمة بالأساطير والحياة الماضية.

كانت النوافذ مطلّة على ظلمة يغشاها الضباب. وتذكّرت ملكة أنّ ثمّة حديقة قبالتها. كانت المدفأة الجداريّة القديمة مزوّدة بمشعل غازي، وكان وهجه واضحًا من خلال النوافذ الزجاجيّة. جاء حيالي حاملاً قدحين وزجاجة نبيذ وجلس فوق الأريكة القريبة من ملكة وأشعل سيكارة. وفكّرت ملكة بأنّ ما من شيء سيحدث له، وأنّ في وسعه أن يتأقلم في أيّ محيط.

ـ ينبغي أن نحتفل بنجاحك فهو شيء مهمّ. شكرًا لتجشّمك عناء المخاطرة في هذه الرحلة يا إيدا.

سرح أحدهما إلى الآخر ببصره مدّة طويلة وهما ما يزالان ممسكين بكأسيهما، ولكنّهما لم يتحرّكا. قال حيالي:

ـ كنت واثقًا أنّك ستأتين. لقد أعطيتني ضمانًا بذلك في تلك الليلة.

ـ صحيح؟ لم أدرك ذلك. كيف يمكنك أن تكون واثقًا من نفسك إلى هذا الحدّ؟

ـ لست واثقًا، بل على العكس، خائف.

قالت ملكة:

ـ أخبرني عمّي بما حدث. آسفة.

ـ ليس ذلك هو السبب. إنّ الإهانة التي لحقت بي هي

السبب في أنّني حزين.

ـ يا لها من سخرية لطيفة من الحزن. مثيرة للإعجاب. أنت ممثّل عظيم.

ثم أشعلت ملكة سيكارة من دون أن تشيح ببصرها بعيدًا عنه.

سأل حيالي:

ـ هل تراني أسمع قعقعة السيوف؟

ـ جئت إليك، لأنّك أردت منّي أن أجيء.

ـ هل اشتقتِ إلى الكراهية التي كنت تضمرين لي؟

ـ لا، أبدًا لأنّ الكراهية تقلّل السيطرة على الذات إلى درجة الصفر، وأنا في حاجة إلى ذلك، مثلك تمامًا.

مالت برأسها من فوق كأس نبيذها كأنّها تريد إخفاء الكلمات التي كانت تتدفّق من فمها والحمرة التي شابت خدّيها. وشعرت بالحزن والشفقة على المحارب المجنون في أعماقها. كانت كلماتها بلا معنًى، هراء.

قال حيالي:

ـ لا يمكن للمرء أن يمارس الحبّ والكراهية إلّا بأسلوبه الخاصّ به، شاء ذلك أم أبى.

ثم التزم الصمت. تناهى إلى السمع الآن صوت المطرب فيل كولينز.

ـ لماذا لم تمارس مهنة الطبّ؟ ولماذا تعمل في هذا الميدان؟

حدّق حيالي إليها وابتسم ابتسامة خبيثة، ولكنّه لم يردّ عليها.

ـ أرجوك، أريد أن أعرف.

ابتسم حيالي من جديد، ولكن ابتسامته كانت في هذه المرّة توحي بالمرارة والتوتّر. ولاحظت ملكة تلك النظرة الساخرة والاستفزازيّة والملتهبة وقد لاحت في عينيه، ولكنّها لم تستطع إشاحة النظرِ عنه، ولم تفهم معنى ذلك الوهج المستعرّ في عينيه. غضب، رغبة، يأس، ألم. . . ما معناه؟

ـ أنت لا تريد الإجابة. صحيح؟

ـ ليس الآن.

قالت وصدرها يزداد ضيقًا:

ـ حسنًا. بماذا تشعر الآن؟ كيف تنظر إليّ؟ ماذا ترى؟

قال حيالي:

ـ حاولت دومًا أن أشكّل مركزًا داخل نفسي، لأنّني شخص غير محبوب.

احتست ملكة نبيذها في صمت وهي مصغية إلى صوت الموسيقى، ولم تعد ترى نفسها امرأة عمد الحبّ إلى تهميشها، بل كانت في أقصى درجات حلم مجنون، أسود.

أصرَّت على سؤالها:

ـ لماذا أتيت إليَّ في تلك الليلة؟

ثم قرّبت يدها من صدرها كأنّها تحول دون دهشتها والعواطف المتضاربة والعنف والمسرّة التي لبثت في أعماقها من ممارستهما الجنس.

سأل حيالي بلامبالاة ظاهريّة:

ـ أيّ ليلة؟

أجابت ملكة متوسّلة:

ـ أرجوك، أريد أن أعرف، وأنا مضطرّة إلى أن أعرف.

كان الجوّ في الغرفة دافئًا، يسوده قدر من الدخان والعتمة. مال حيالي إلى أمام، واضعًا مرفقيه على ركبتيه.

وقال:

ـ تحدث هذه الأمور في الحياة، ولا ضرورة لوجود سبب ما. ربّما كان السبب هو التغلّب على غضبي.

ـ هل أراك تتحدّث عن الغضب الذي شعرت به تجاهي؟

ـ يا لك من غبيّة! إنّ أسخف الأشياء التي حدثت لي هي أنّني أُغرمت بك من أوّل نظرة. أتدرين ما معنى أن أخون نفسي، وأخدع تلك الأنا الطليقة والغالية على ذلك النحو المخزيّ؟ لقد غصَّ حلقي بكِ.

نهضت ملكة من مقعدها واتّجهت نحوه وجلست بجانبه وأمسكت بيده وقبّلتها. والتقت عيونهما.

قال حيالي:

ـ كنتِ ضربة قويّة سُدّدت إليَّ. كنتِ خطرًا. على أيّ حال، كنتِ امرأة لا تُقاوم.

بدا حيالي مندهشًا من الكلمات التي تفوّه بها. اقترب من ملكة وقبّلها، والتقت شفاهما لقاءً عنيفًا، وكان اتّحادًا ملؤه الشوق والحنين، وأراد كلّ واحد منهما أن يموت من سمّ الخداع على يد أحدهما الآخر. وكانا سعيدين بالتضحية بحياتهما، وأدراكا أنّ كلّ ما فعلاه سوف يظل متّصلاً بتلك الليلة على مدى العمر، لأنّ الحبّ يمثّل أشدّ الأسرار التي خلقها الإنسان بعثًا على اليأس.

كان الوقت طويلاً بلا نهاية، لا يقدّر بثمن، وكانت معركتهما طائشة ومخيفة. فممارستهما الحبّ لم تكن منطوية على الجنس وحده، بل كان قوامها المحرّمات والخطايا والجنون والوحشيّة.

كانت الليلة تنزف في هدوء، من دون تذمّر أو شكوى، وتركت نفسها تحت رحمتهما.

* * *

كان الصبح الذي يسبق يوم رحيل ملكة. كان الاثنان مضطجعين في السرير، وابتدأ اليوم الجديد بممارستهما الحبّ. وكان الضوء الرمادي المتسلّل من النافذة مسلّطًا عليهما. وكان في وسعهما سماع صوت الطيور خارجًا. أيّ طريق مسدود دخلا فيه؟ ما الذي سيحدث؟

قال حيالي:

ـ سأحاول أن أقضي هذه السنة هنا في لندن. أمّا أنت فسوف تأتين وتذهبين.

قالت ملكة:

ـ ماذا بشأن عمّي؟

ـ لقد أحسّ بالعلاقة التي تجمع بيننا. علاقتنا لم تكن جيّدة، منذ بعض الوقت على أيّ حال. وقد كنت سيّئ المزاج وكان هو مرهقًا. ينبغي لعمّك أن يتجدّد دائمًا من أجل المتعة والإثارة. ويبدو لي أنّه مفتون بشابّ عراقي.

ـ رأيته في القصر.

ـ إنّ عمّك ليس في وضع يسمح له بإدارة العمل بنفسه، بل أنا الذي يدير أعماله، ولن يتخلّى عنّي.

ـ ما قضيّة ذلك القصر؟ لقد أتى عمّي على ذكر الموضوع ذكرًا عابرًا.

ـ إنّني ثريٌّ بما يكفي، وأنا أيضًا رجل أبيّ النفس. وكانت الفكرة هي فكرة عمّك، فهو مدين لي ببعض المال، فاقترح عليّ القصر ولم أمانع. ولكنّه، لسبب ما، غيّر رأيه وحنث بوعده. وهو الذي مارس كلّ الحيل من أجل إرسالي إلى هنا.

ـ نعم، ولكنّني لم أستطع فهم السبب. ما نوع هذه الشراكة؟

ـ كلّ أنواع الشراكات تنطوي على خطورة ولا ينبغي الوثوق بها أبدًا في الأعمال التجاريّة التي تشبه عملنا. لقد حاول عمّك أن يؤلّبك عليّ عندما شعر أنّك مهتمّة بي.

ـ لا بدّ أنّه تخيّل ما الذي يمكن حدوثه عندما أرسلني إلى

هنا.

ـ صحيح، وأنا متأكّد من ذلك. لقد تخلّى عنّي.

ـ أليس هذا الوضع قبيحًا؟ معقّدًا وغير أخلاقي؟

ـ أيّ أخلاق؟ إنّ من هم من أمثالنا لا يمكنهم المضيّ قدمًا من دون هروب ومن دون متعة ومال وأشياء نادرة. أنا وأنت وأقرباؤك، كلّنا عصابات، ومجموعة من اللقطاء.

ـ أنت اعتدائي إلى حدٍّ كبير.

ـ لا تكوني بلهاء يا إيدا. ألا ترين أنّنا نتخبّط في مستنقع فاسد. مهنتنا هي سرقة القبور، وركوب الظلام!

انقلب على ظهره وشابك يديه من فوق بطنه. فما كان من ملكة إلّا أن مالت من فوقه ونظرت إلى وجهه عن كثب، وفكّرت: لن أنسى هذا الصباح. ثم ابتسمت. إذًا هي لصّة. ربّما كانت لصّة، ولكنّ الإفصاح عن ذلك بصوت عالٍ مؤذٍ، يثير الاستياء. مرّ زمن طويل منذ أن اشتاقت إلى فرصة العيش حياة رغدة ونبيلة. وحتى لو بذلت محاولة ما، فينبغي لها عزل نفسها عن كلّ ما أحبّت. لقد بدأت مع هذا الرجل سقوطًا حرًّا. ولم تتمكّن من التخلّي عن هذا الجسد الجميل وهذا الوجه الوسيم وهذه النيران وهذه المشاركة في الجريمة. وضحكت ساخرة من نفسها ومن الرجل الذي أحبّت ومن عمّها ومن طموحاتها المتواضعة ومن بلاهتها وغرورها. وشعرت بالحزن من أجل أولئك الذين هُزموا اليوم واضطرُّوا إلى القلق من أجل الغد.

قالت في صوت عذب:

ـ لماذا اشتركت في هذا العمل؟ لماذا تخلّيت عن وظيفة الطبّ؟ هيّا، قل لي.

ـ إنّها قصّة مثيرة للحزن. لقد أجريت عمليّة إجهاض وتسبّبت في وفاة امرأة شابّة، لأنّني لم أتمكّن من إيقاف النزيف، فشعرت أنّني لم أعد قادرًا على ممارسة الطبّ منذ ذلك اليوم.

ـ هل هذا هو سبب كرهك النساء؟

ـ أصبحت غريبًا بعد تلك الحادثة.

قالت ملكة:

ـ تأثّرت تأثّرًا شديدًا.

ثم طبعت قبلة خفيفة على شفتيه كأنّما تسلّيه.

هذا الرجل هو رجلها، وستبقى معه مهما حدث، ولن تتخلّى عنه من أجل رجل آخر. وعلى حين بغتة، راودها شعور بشكّ مدمّر. فالمرء لا يمكنه أن يكون متأكّدًا من أيّ شيء في ظلمة القبر الذي تحدّث عنه الرجل الشابّ، ولكنّها شعرت أنّها مضطرة إلى الاستفسار.

نظرت إلى عينيه، وقالت:

ـ كنت أفكّر في تلك الفتاة أيشيك. . .

ـ أيشيك؟ بماذا تفكّرين؟

ـ كنتم ثلاثة، وكانت هي دميتك الجنسيّة. صحيح؟

ـ هراء! كيف استطعت أن تفبركي هذا الكلام؟ تلك الفتاة مدلّلة لأنّها تعوّض عن حنين عمّك إلى طفل. هذا كلّ ما هنالك.

أنت تتمتّعين بخيال واسع. يبدو أنّك تكتبين سيناريوهات منحرفة!

ثم راح يضحك، وأردف:

ـ أنت مميّزة حقًّا!

ـ هل هذا شيء مستحيل؟

ـ لا، لكن ليست تلك الفتاة. فذلك الهيكل العظميّ يفضّل غلامًا بهيّ الطلعة، والعثور على مثل هذا الغلام أسهل.

ـ إذًا ما الذي يجعلك تفضّل امرأة الآن، تفضّلني أنا؟

ـ أنا لم أقيّد نفسي بأيّ حدود. البشر ثنائيّو الجنس.

فكّرت ملكة أنّ هذا الرجل لا يأخذ أحدًا على محمل الجدّ سوى نفسه. فهو على استعداد كي لا يحبّني، وأن يضحّي بي منذ البداية. وها هو الآن يعرض جسده رشوة. مرّة أخرى شعرت أنّها ضمن لعبة لا تعرف كنهها، ضمن مؤامرة شرّيرة. وفكّرت: ليكن الأمر كذلك، فقد وطّنت العزم على المضيّ قدمًا إلى النهاية، فكلّ شيء جميل في تلك اللحظة.

وفكّرت: احصلي على كلّ ما تبغين، ثم انثريه، وارمي به من حولك، اطرحيه بعيدًا. عيشي حياتك لأنّه ليس ثمّة معنًى في أيّ مكان تأملين بالعثور عليه. وحتى إذا ما خُيّل إليك أنّ ثمّة معنًى حقًّا، فإنّه لن يكون المعنى الصحيح لك أو أنّه سرعان ما سوف يتلاشى. لا تفكّري في المستقبل، لأنّ أسفل هذا العالم هو الجحيم، وليلة ليلاء كأنّها حبر...

* * *

١٨

كانت إيلام تلقي نظرة ملؤها الدهشة على صورها الفنّيّة شبه العارية التي نُشرت في مجلّة رجّاليّة، وفكّرت كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يجعلوا من امرأة عاديّة تظهر بمثل هذا الجمال. كانت الصور قد التقطتها مصوّرة تعمل في وكالة سيزجين للإعلان. وهي امرأة لطيفة وذكيّة، ولم تصادفها أيّ مشكلات لمّا عملتا معًا. وبحسب رغبة إيلام، تركت المرأة وجه إيلام في الظلال، ولم تظهر إلّا ملمحًا واحدًا من ملامحها في كلّ مرّة، مثل الشفتين أو العينين أو الرقبة، ممّا أضفى عليها مسحة من الغموض. كانت الحسناء الماثلة في الصور تملك من البراءة والجاذبيّة الجنسيّة والفتنة ما يجعل كلّ هذه الصفات لا صلة لها بها.

الحقّ، أنّها لا صلة لها بها. فهذه هي صور غيابها، جرى فيها فصل جسدها بوصفه شكلاً وتحويله إلى معبود. وكانت جالي قد قالت لها:

ـ نجمك آخذ في الصعود. ثمّة أشياء جميلة ستحدث لأنّك امرأة مختلفة.

ـ ما نمط هذا الاختلاف؟

ـ أنت لا تشبهين أيّ امرأة أخرى. فجسمك متناسق جدًّا، وملائم للتصوير من الناحية الجماليّة. كما أنّك طبيعيّة وذكيّة. وهذه الصور سوف تزيد من سعرك يا حبيبتي. وقد تجدين نفسك في السوق السوداء! آه، نعم. لقد اتّصلوا من وكالة الإعلان في هذا الصباح، وهم يريدون منك أن تمثّلي في إعلان عن البسكويت. لقد أفلحت أخيرًا في جذب أنظار آيسيفيم خانم.

كانتا في المكتب الكائن في الدور الثاني من المحلّ تنتظران مجيء آيسيفيم التي أرادت رؤية إيلام. ثم ذهبتا إلى الدور الأرضي واختارتا بعض الثياب كي ترتديها. كانت جالي تعرف جيّدًا نوع الثياب التي تناسبها والتي لا تناسبها. وفكّرت إيلام في نفسها بأنّ ذوقها في اختيار الملابس آخذ بالتحسّن. واكتسبت هالة طبقيّة وتشامخًا.

كانت في الأيّام العشرة الأخيرة بمعيّة رجل الأعمال نفسه ثلاث مرّات. وقد تناولا وجبة طعام مرّتين في شقّة عزوبيّته وذهبا مرّة واحدة إلى نادٍ ليلي ولبثا فيه حتى الصباح.

كان الرجل في نحو الخامسة والأربعين، ربيل الجسم وخاليًا من الهموم، مؤمنًا بأنّ المتعة واللذة هما الخير الوحيد في الحياة. ولكنّه من جهة أخرى، على درجة بالغة من الدماثة، يحبّ الحديث والمناقشة، وازداد اهتمامه بإيلام لمّا عرف أنّها

تنظم الشعر فأصرّ على الاطّلاع على ما كتبته. وفي الليلة الأولى التي تناولا فيها العشاء معًا، تجاذبا أطراف الحديث عن معنى الحياة أو خلوّها من أيّ معنًى وعمّا إذا كان المال يكفي كي يعيش المرء حياة جميلة. وفي اللقاء الثاني، أخبر إيلام صراحة أنّه أنهى زواجه بعد خمسة عشر عامًا وأنّه يفصل الحبّ عن الجوع الجنسي، وأنّه عرف عددًا من النساء في حياته لأنّه لم يكن متحمّسًا يومًا ما رفقة زوجته. وكان يرى أنّ على المرء أن ينوّع مصادر لذّته ومتعته وأن يجرّب أصنافًا جديدة ليضفي بعض الألوان على خواء الحياة وتفاهتها، ولكن ذلك لا يكفي وحده. ولسبب من الأسباب، راح يشعر في الآونة الأخيرة أنّه منسحق وفانٍ ومستوحد.

عاشت إيلام وقتًا ممتعًا في الليلة التي ارتادا فيها النادي الليلي، إذْ رقصا طويلاً وضحكا كثيرًا. كان خفيف الحركة، نشيطًا قياسًا إلى ضخامة جسده، وتحدّثا في موضوعات مثيرة للاهتمام عندما انتقل الحديث إلى السياسة، وقال:

ـ إنّ الحكومة تغمض عينيها عن المافيا لأنّ الحكومة هي التي خلقتها.

لم تكن سلطة الحكومة وحدها قادرة على معالجة كلّ شيء، كما أنّ القوانين لم تكن كافية في استجابتها للمتطلّبات. وكان الشيء المهمّ متمثّلاً في القبول بالتطوّرات وامتلاك الحذق والبراعة من أجل السيطرة عليها وإدارتها.

كان رجلاً مدهشًا بيقظته وانتباهه البهيجين، وحديثه المتماسك، وأسئلته الذكيّة فضلاً عن الطريقة الجميلة التي كان ينظر بها إليها،

والمجاملات التي كان يطري بها عليها. وكانت إيلام تشعر في رفقته أنّها تمتلك سجايا أخرى بوصفها امرأة. وشعرت أنّها ليست دمية أو عاهرة فحسب، بل امرأة ذكيّة وناضجة وذات خبرة، والأكثر من هذا كلّه امرأة شريفة مرّة أخرى، إلى حدٍّ ما، بالقدر الذي يمكنها أن تكون فيه ضمن ذلك الوسط.

في آخر مرّة التقيا فيها، اقترح عليها أن يسافرا معًا إلى باريس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وقد وافقت إيلام مسرورة، إذْ لم يسبق لها السفر خارج البلاد، وفكّرت أنّ الرحلة ستكون رائعة، كما أنّ إحساس المرأة جميل عندما تشعر بالأمان والرضا رفقة مثل هذا الرجل القويّ والمتوازن. وإذا ما اصطحبها تحت حمايته تمامًا، فإنّ معظم مشكلاتها سوف تنتهي.

* * *

وصلت آيسيفيم وظهرت بمظهر سيّدة أعمال بسترتها وبنطالها، وجلست إلى مكتبها وطلبت فنجان قهوة. جميلة ولكنّها باردة، متجهّمة ومخيفة. وتملّك الخوف إيلام وكأنّ في وسع هذه المرأة أن تخنقها بسهولة إذا ما ارتأت ذلك يومًا ما.

قالت آيسيفيم:

ـ انظري إليّ يا حبيبتي. أنت اليوم واحدة من أكثر الفتيات شعبيّة في وكالتنا، وأمامك مستقبل مشرق.

انتظرت إيلام وأصغت في عناية.

ـ أنت تعلمين أنّ لديك عقدًا مع وكالتنا أمده سنتان، لكن هدف الوكالة الأساس هو إسعاد الكلّ. وفي أثناء ذلك، نقترح على

فتياتنا عدم إقامة علاقة رومانسيّة مع أيّ رجل.

ـ أعرف ذلك، فأنتِ على حقّ.

ـ وبهذا، فإنّهنّ سوف يتعذّبن ولن يتمكّن من التركيز في عملهنّ. ولا ضرورة لكي يعترض أحدهم طريقك أو يذلّك. صحيح؟ آه لو تعلمين كم فتاة فقدت كلّ شيء على هذا النحو.

ـ لا تقلقي.

ـ نعم، على أيّ حال، الموقف هنا مختلف. أعرف أنّك خرجت رفقة هارون بك بضع مرات، والواضح أنّه متيّم بك، بل هو مهووس بك صراحة. سبق له أن كان صديقًا عزيزًا عليّ. وقد جنّ جنونه لمّا شاهد صورك في المجلّة يوم أمس. لا أعرف إن كان يشعر بالغيرة أم أنّه يقدّرك تقديرًا كبيرًا، لكن يبدو أنّه يريد الاستحواذ عليك. إنّه رجل راقٍ ومن طراز عالٍ، سخيّ ويثير البهجة. الواضح أنّه عرض عليك مرافقته إلى باريس وأنّك وافقت.

ـ نعم، أعتقد أنّه سيدفع كلّ النفقات.

ـ لا تذكري شيئًا عن المال، فسوف أتدبّر ذلك بنفسي. ما رأيك يا عزيزتي؟ وها هو يريد أن يرسل إليك سيّارة ظهر يوم غد، وقد يرغب في أن تكوني له وحده. فما رأيك؟

ـ ما رأيكِ أنتِ؟

ـ يجب أن تقرّري أنتِ. قد يقترح عليك أن تعيشي وإيّاه. من يدري؟ قد يستغرق ذلك وقتًا طويلاً أو قصيرًا، فالأمر يعتمد عليك، عليكما. لا أظنّك سوف تخسرين شيئًا، وستكون حياتك أكثر

انتظامًا، وسيكون كريمًا وإيّاك. وإذا ما استخدمت عقلك فسوف تنقذين مستقبلك.

ـ ماذا عن العقد؟

ـ سوف نتوصّل إلى تسوية العقد. أنا وهارون بك يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل، ولن تكون ثمّة مشكلة، فنحن يهتمّ أحدنا بالآخر. المال من جهة والصداقة من جهة أخرى... الناس في حاجة إلى بعضها بعضًا. ويسرّني أن أجعله سعيدًا.

ـ إنّه رجل لطيف ومسلٍّ، وسأبذل جهدي.

* * *

قفلت إيلام راجعة إلى منزلها في وقت متأخّر من عصر ذلك اليوم بعد أن تجوّلت في نيشانتاشي وتبضّعت. كانت قد وضعت دبّ فولكان على الطاولة، وكان مظهره حزينًا ومشوّشًا. وفكّرت أنّ صاحبه قد يكون في الحال نفسه، فهي لم تره منذ تلك الليلة التي التقيا فيها. وعندما رجعت إلى البيت، عمدت إلى إلغاء الهاتف والإنترنيت وغيَّرت أيضًا من رقم هاتفها الخلوي. كانت مصمّمة على أن تفعل كلّ ما في وسعها كي تحول دون اكتشاف فولكان ما تفعله أو المكان الذي تقيم فيه.

غير أنّها شعرت بالتحمّس والانفعال عندما تذكّرت تلك الليلة. فقد كان وجودها رفقة فولكان مكافأة وعقوبة في الوقت نفسه، سعادة لم تشعر بها في حياتها وجرحًا أشدّ إيلامًا ووجعًا... كانت تعرف كلّ شيء تقريبًا عن الرجل الشابّ، إذْ كان مثل كتاب مفتوح أمامها. أمّا هو، فلا يعرف شيئًا عن الأشهر الستّة الأخيرة من

حياتها، ولا ينبغي له أن يعرف. كانت تلك الحالة تقلق التوازن، ومبدأ الشراكة بين شخصين قريبين من بعضهما إلى ذلك الحدّ. كانت إيلام تعلم أنّها لن تكون قادرة على حماية هذا البناء الضعيف الذي من شأنه أن ينقلب عند أوّل ضربة.

ذلك هو السبب الذي دفعها إلى الهروب، إذْ من شأنها أن تعاني دومًا عذاب اليأس. ممّا لا ريب فيه أنّ فولكان شعر أنّها نبذته وهجرته في منتصف الطريق. لعلّه رتّب مرارًا وتكرارًا، ومنذ زمن طويل، كلمات تلك الليلة وصورها وعواطفها وأفعالها، محلّلاً إيّاها كلّها في محاولة لكي يتوصّل إلى نتيجة، مثلما حاولت هي أيضًا.

شعرت أنّها تبالغ قليلاً. لعلّه تعذّب برهة وجيزة، ثم عثر على فتاة جديدة، لأنّ مرحلة الواقع لم تستمرّ إلّا وقتًا قصيرًا جدًّا. من جهة أخرى، لقد أفلح في جعل إيلام تصدّق إخلاصه، وهو ما شعرت به بطبيعتها البشريّة. ففي تلك الليلة القصيرة جدًّا، أوضحت مشاعرهما القويّة بانتماء أحدهما إلى الآخر، وبممارستهما الحبّ ممارسة قريبة من لغة الريح، أنّهما لن يرضيا بالجنس وحده. هذا هو السبب الذي دفعها إلى التخلّي عن فولكان وعدم الرجوع إليه أبدًا.

وفي القصاصة التي دوّنتها له، أرادت أن تقول: إنّها أجمل ليلة في حياتي، ولكنّها غيّرت من رأيها لأنّها لم تكن متأكّدة من أنّه سوف يقدر على فهم الحزن الذي انطوت عليه ممارستهما الجنس، فتحوّلت إلى فيض من الدموع. في المرحلة التي كان يكتب فيها أحدهما إلى الآخر، كانت قد قبلت بفولكان بوصفه رجلاً لا يمكن

الوصول إليه، رجلاً لا يمكن أن تحبّه أو ترغب فيه إلّا عن بعد. إنّها فانتازيا مسلّية من دون تفاصيل أساسيّة، وثيمة مقبولة عن القناعة الروحيّة.

ثم غيّرت من اتّجاهها تحت الثقل الدافئ للرجل الشابّ وغاصت في الأعماق واحترقت وغرقت في القبلات، ونامت على صدره مثل عاشقة مشبوبة العاطفة وطفل لا حول له ولا قوّة، وتحوّلت بهجتها العابرة إلى خوف وألم.

اشتاقت إليه برهة من الزمان. وفي بعض الأحيان، انتابها شعور بالإسراع إليه وإخباره بكلّ شيء وطلب العفو والمغفرة منه واللّوذ بين ذراعيه والبقاء وإيّاه طوال حياتها. لكن كان في وسعها أن تشعر أنّ العفو لن يكون كافيًا لطرد مشاعر القرف على المدى البعيد حتى لو كان العفو سهلاً في البداية. كانت تعلم أنّ ماضيها سوف يستمرّ بالظهور بينهما مثل شبح مخيف. كيف يمكن لامرأة عاشت حياتها في وصال متّصل وكفّارة لا نهاية لها أن تشارك رجلاً فيها؟ لا شيء يمكن عمله. وكما هو حال أشياء أخرى كثيرة وجميلة، كانت محرومة من الحبّ منذ البداية. كتبت بضع رسائل إلى فولكان، ولكنّها لم تعتقد أنّ أيّ رسالة من تلك الرسائل كانت جيّدة بما يكفي لكي ترسلها إليه. المحتّم أنّ كلمات شخص ما لا يملك جناحين للطيران أو صوتًا للكلام من شأنه أن يسقط في الفراغ. وكما هو شأن فولكان، كان هارون يعمل في ميدان المال، ولكن عمله، بحسب ما عرفت، كان أكبر وأهمّ من عمل فولكان. وكان مركز آيسيفيم واضحًا، وكانت موافقة. على الأرجح سوف تجني من هذه العلاقة مالاً أكثر ممّا تحصل عليه من إيلام

الآن. لعلّ ثمنها لن يدفع نقدًا بل نمط آخر من المساعدة. شعرت إيلام بالسعادة بعد كلامها معها، بل شعرت بالبهجة. هذا ما كانت تنتظره وتأمل فيه، وها هو الحظّ قد ابتسم لها هذه المرّة. سوف تسهر على خدمة شخص واحد وتحصل على مكسب مادّي سخيّ لقاء ذلك. لم تكن مضطرّة إلى أن تغرم بالرجل، بل ستجعله سعيدًا، وتفعل ما يريد منها. هذا كلّ ما هنالك. إنّ في وسع رجل قويّ ومستقرّ ولا ينزعج من ماضيها أن يمنحها قوّة الإرادة التي تفتقدها في حياتها، ويعلّمها أشياء جديدة عن الحياة. كما ستمنحها هذه العلاقة أيضًا فرصة دخول وسط اجتماعي معيّن وتوفّر لها الأمن. على الرّغم من أنّ النعم لا تُعدّ ولا تُحصى، فإنّ الممكن أيضًا أن تتحطّم، لكنّها غير هيّابة. على أيّ حال، إنّ كلّ ما هو مفرط وما هو اعتيادي وقذر ومقرف بدا ماثلاً من تحت أيادي المال السحريّة واتّخذ شكلاً نبيلاً ورائعًا.

فكّرت أنّها يجب أن تظلّ متفائلة، وراحت تفرش على سريرها ملابسها الداخليّة التي اشترتها قبل قليل. كم هي جميلة ورقيقة ورائعة ومثيرة! إنّها جميلة بدورها ومغرية وناضرة، وهي تستحقّ كلّ هذه الأشياء الغالية الثمن. كانت سعيدة ومرغوبةً في تلك اللحظة. وكان ما هو منطقي أكثر التفكير بالمستقبل، في المستقبل.

تخيّلت مراكز تسوّق فخمة، وواجهات محالّ تعرض فيها ثياب غالية الثمن، ومحالّ تنبعث منها رائحة عطور عذبة. وطأة إغراء أنواع جديدة من الأحذية الحالمة والأوشحة والحرير. ظلال العيون، أحمر الشفاه. . . كلّها معروضة هناك لتحلّ محلّ ما ينبغي لها نسيانه.

يستحيل عليها البقاء كما هي في هذا العالم حيث كلّ شيء غيّر من المعنى والبعد والنوعيّة. هذا هو السبب الذي أدّى بها إلى التغيير أيضًا. ينبغي لها الآن أن تتخلّى عن كلّ أشكال القلق والتفاهات القديمة، وتحوّل ضميرها إلى مرحلة هجوم مضادّ قوامه مجموعة أوهام.

* * *

بواكير الصيف

١٩

كان عصر يوم سبت يلائم أواخر شهر مارس، كثير النسمات، أبيض اللون مثل جناح طائر بحر. وكان البوسفور يمتدّ مثل ساتان أزرق بين سواحله. وروعة جمال الأشجار التي تكسو خضراء بالآلاف قمّة التلال تنعكس على زرقة السماء المزيّنة بسحب بيضاء منفوشة. إنّ الطبيعة لا تلتفت إلى نظام العالم القاسي البغيض، بل تمنح الجنس البشري الأعاجيب في كلّ لحظة.

كان فولكان سعيدًا بمظهره المفعم بالحيويّة والنشاط وهو يرنو إلى نفسه في المرآة الكبيرة في حجرة نومه. كان قد استعاد قدرًا من وزنه الذي فقده في الشتاء، ولكنّه لم يعر الأمر أهمِّيَّة بعد اليوم. كان يمارس الرياضة في المركز الصحّي ويسبح في مسبح سوق الأوراق الماليّة ثلاث مرّات في الأسبوع. كانت هيأته جيّدة جدًّا، يقرأ ويستمع إلى نفسه، يرتاد السينما والمسرح

والحفلات الموسيقيّة. راح يكتشف المتع الصغيرة والأشياء التي كانت تمنحه الإحساس بالمكان والعادة. لقد استقرّ الهدوء والنظام، وتخلّى عن وظيفته وهو في مرحلة النضوج، مظهرًا نزاهة أثارت حتى دهشته. هذا هو السبب الأساس الذي جعله غاية في السعادة في حياته. لم تكن نزوة عابرة ولا قدرًا، بل خيار جادّ وطوعيّ وفّر له متعة الحياة.

* * *

كان قد قرّر الذهاب إلى هارون لتناول العشاء رفقة ياسمين في ذلك المساء. وهو يعرف أنّ هارون سوف يقترح عليه من جديد، بل ويصرّ، أن يرجع إلى وظيفته. وكان هارون قد اتّصل به مرارًا بعد تركه العمل موضحًا له اهتمامه بالأمر، فاقترح أوّل الأمر اللقاء في النادي، ولكن عندما أخبره فولكان أنّ لديه صديقة ينوي الزواج بها، واستفسر منه عمّا إذا كان في وسعه أن يصحبها وإيّاه، وجّه هارون الدعوة إليهما لزيارته في منزله، وأخبره أنّه سيقيم حفلة عشاء خاصّة لهم الأربعة.

قبل أسبوع من ذلك الوقت، كانا قد ذهبا إلى افتتاح قاعة سيلدا الفنّيّة الجديدة في نيشانتاشي ومعرضها الأوّل. لم يرها فولكان منذ حفل عيد رأس السنة. وعندما ضبطه الصحافيّون والمصوّرون وهو يعانق الممثّلة المشهورة، أقامت سيلدا دعوى الطلاق، فالتقطتها الصحف الشعبيّة، وتمّ الطلاق سريعًا من دون أيّ مضايقة تذكر.

لم يكن فولكان مهتمًّا كثيرًا بقضايا هارون في ذلك الوقت

بسبب مشكلاته الخاصّة، وكانت إيلام قد اختفت في تلك الأيّام. وكان هو حائرًا بين السماء والأرض. فقد التقى هو وهارون ذات مرّة في النادي عندما كانت إجراءات الطلاق قائمة. وكان هارون يكثر من الكلام عن أشياء مثل البيت والسيّارة والمال الذي تريده سيلدا لقاء الطلاق، ممّا كان يُثير ضجر فولكان إلى أبعد الحدود، وكان منزعجًا حتى إنّه كاد أن يرمي منفضة السكائر في وجه صديقه. لديك أموال طائلة، فامنح المرأة مقدارًا صغيرًا منها، ودعها تذهب وشأنها وعش في سلام وهدوء، أنت وهي!

أعطاها هارون ماله بحكم الظروف، والمال تجلبه الرياح وتأخذه الزوابع. واكتشفت سيلدا نفسها بعد الطلاق، وازداد وزنها وباتت أكثر جاذبيّة! لكن يصعب قول الشيء نفسه على لوحاتها، لأنّها كانت كلّها محاولات ساذجة لم تتجاوز كونها تخطيطات سيّئة بلا هويّة تهيمن عليها لطخات من ألوان قذرة.

وكان الرسّام الذي أعطاها دروسًا في الرسم حاضرًا في المعرض، والواضح أنّ ثمّة علاقة عاطفيّة تجمع سيلدا وهذا الريفي الساذج ذي الوزن الثقيل، الذي كان يسعى للصعود إلى أعلى السلّم الاجتماعي.

كانت سيلدا قد أظهرت اهتمامًا قاتلاً بفولكان منذ البداية، وكان ميلها إليه ميلاً مرضيًّا، لا أمل فيه، ناجمًا عن حنينها إلى رجل طيّب القلب هي في حاجة ماسّة إليه. وقد بحثت المرأة المسكينة عن العزاء والسلوى في كلّ شخص، وشعر فولكان بالهدوء والاطمئنان عندما اتّخذ منها موقفًا أخويًّا وودّيًّا. المؤكّد

أنّه لن يغازل زوجة رئيسه في العمل، فالأمر لا يستحقّ ذلك، كما أنّه حذر دومًا ولا يقترب من النساء المتزوّجات من حيث المبدأ.

اتّجه إلى المطبخ وراح يشغّل آلة صنع القهوة، وتنشّق هواء الربيع الذي كان ينساب من خلال الباب المفتوح. شعر أنّه متحرّر من كلّ الأعباء، وأنّه حرّ. أمّا الذكريات التي كانت ما تزال عالقة في ذهنه تجاه إيلام فهي ذكريات جسديّة، فهو لم ينفق سوى ليلة واحدة وإيّاها، وشعر بالجسر الذي يربط روحه بجسده والصلة الملموسة التي لن ينساها طوال حياته.

تذكّر الحيرة والحزن اللذين شعر بهما عندما اختفت الفتاة على حين بغتة. وكان جهده الذي بذله من أجل العثور عليها لوعة عنيدة جعلته يحيا حياة تعسة على مدى أيّام وليال. وكان عجزه عن الوصول إلى إيلام قد حطّم مشاعره، وراح يفكّر أنّه عاش في خضمّ عاصفة، في إعصار قويّ ومفاجئ اجتاح كلّ شيء حتى هدأ واستكان. وفي خضمّ تلك الفوضى، انفلقت الأرض وبلعت إيلام.

عندما كان يفتّش عن سبب واحد لاختفائها، فإنّه فكّر أيضًا بأنّها ربّما تزوّجت. وسواء أتزوّجت أم لا، فإنّ إيلام لا بدّ أن تكون ملزَمة بتعهّد ما، أن يكون لديها سبب غاية في الأهمِّيَّة. ولهذا لم يغضب ولم يمتعض. لقد اضطرمت النار وتحوّلت إلى جمرات متوهّجة الاحمرار وراحت تسودُّ في بطء حتى استحالت إلى رماد. لقد علّمته إيلام بذلك كيف ينسى من دون أن يكره.

لحسن الحظّ أنّه تمالك رباطة جأشه بعد مرور مدّة قصيرة.

ربّما تراه نضج بسبب هذا الحادث المدمّر. كان قد مضى عليه بعض الوقت وهو يلتقي ياسمين التي وإن كانت ليست غاية في الحسن والجمال، إلّا أنّها كانت فتاة عاقلة وذكيّة ومفعمة بالحيويّة والنشاط. ومارسا الحبّ قبل مدّة زمنيّة قصيرة، وداعب أحدهما الآخر مداعبة تنطوي على الشعور بالسعادة. كانت ياسمين امرأة تستطيع أن تفهم ما المطلوب منها منذ البداية، وتعرف كيف تجعل الرجل سعيدًا. في تلك اللحظة كانت تستحمّ، وكان في وسعه أن يسمع صوت خرير الماء وهو ينساب في الحمّام.

بدأ بتشغيل جهاز التلفاز وراح يستمع إلى إحدى القنوات الموسيقيّة التي كانت تبثّ حفلة لموزارت. على المرء أن ينفتح على كلّ الأشياء التي تمنحها له الحياة، السعيدة وغير السعيدة، وأن يعيشها تمامًا. أمّا المقاومة فتتطلّب شجاعة وتضحية.

اتّضح أنّ ياسمين سوف تستغرق وقتًا طويلاً لكي تهيّئ نفسها، لا يهمّ، فهما ليسا في عجالة من أمرهما. كانت الشمس قد أذنت بالغروب والبحر ينساب في اتّجاه مرمرة بألق ذهبيّ تحت سماء زرقاء نيليّة. وبدا ساحل البحر وكأنّه بطعم الكرز ولونه. أمّا الأشجار وما يظلّل النوافذ من الشمس وكلّ شيء آخر، فقد بدت جديدة كلّها. لن يكون وحده في ذلك الصيف، فقد راح يعدّ الخطط للسفر رفقة ياسمين.

تذكّر الخريف والشتاء الماضيين، وتذكّر مدى إرهاقه وضياعه وفقدانه الأمل في ذلك الوقت. وقد بات صعبًا عليه أن يفهم الآن السبب الذي دفعه إلى النواح والتأوّه في تلك الآونة. يبدو أنّ

قلقه تلاشى وأصبح بعيدًا.

وفكّر أنّه كان في حالة قنوط وأنّه عاش تنتابه المشاعر بأنّ شيئًا ما قد سُلب منه. لهذا كان قد اعتمد على المصادفات، فهوى كلّ شيء على رأسه. كانت ملكة وإيلام امرأتين جذّابتين، ولم ينظر إليهما بوصفهما مغامرتين انتهتا بخيبة أمل، ولم يندم لذلك. لقد مرّت إيلام في حياته مرور شمس المغيب، ولم تترك وراءها سوى صور وذكريات جميلة، ووشاح أصفر بلون الزعفران... أصفر زعفراني... ولم يشغل نفسه طويلاً بأهمِّيَّة اللون عندما اختار لنفسه لقبًا لمخاطبة إيلام، لكنّ الفكرة استبدّت به في وقت لاحق، مرّات ومرّات. إنّه خيار عاطفي. ثمّة رغبة في ضوء مريح للنظر في هذه اللفظة. صورة ونبرة أكثر نضوجًا من الضوء الأصفر الحادّ. حاول أن يتخيّل النظر خلال ضباب واقعه عن ذلك الوقت تجاه المكان الذي يقف فيه في تلك اللحظة. يمكن للمستقبل أن يكون مملوءًا بالمواقف التي لا يستطيع المرء أن يتخيّلها.

* * *

كان ما يزال يستمتع بالراحة، ويريد أن يخطّط لما سيفعله تخطيطًا جيّدًا، ولن يقبل بأيّ عرض يقدّمه له هارون مهما كلّف الأمر. وكان يفضّل أن يستثمر في الفنّ أو الثقافة. كانت ياسمين المتخصّصة بإدارة الأعمال عضوًا في كلّيّة تابعة لجامعة أهليّة، واقترحت عليه البدء بتأسيس شركة سياحة خاصّة تقدّم خدماتها لطبقة معيّنة من الناس، وتعمل على أساس دائرة ضيّقة. كان

الاثنان يعملان معًا في مختلف المشاريع.

كان لقاؤه بهذه الفتاة حظًّا عظيمًا. فما إن تمالك رباطة جأشه بعد اختفاء إيلام حتى عاوده الحنين إلى السفر إلى أفريقيا، فبدأ الرحلة وفتح بابًا جديدًا أمام حياته. سافر رفقة ياسمين في رحلة السفاري، وكان المخيّم الذي أقاما فيه مكانًا مثيرًا جدًّا للاهتمام ومريحًا ورومانسيًّا ومتواريًا عن الأنظار في البرّيّة. كانت ياسمين امرأة دافئة، تحبّ الكلام وودودة. وكان في استطاعتهما أن يتكلّما في شتّى الموضوعات: الفنّ والفلسفة واللاهوت. كانت ياسمين ابنة لأسرة موسرة تتحدّر من منطقة البحر الأسود، تهوى الطبيعة إلى حدٍّ كبير. وكانت قد أخبرته أنّها أمضت طفولتها على القوارب وأنّها التحقت بالجامعة في إنكلترا ونالت شهادة الماجستير في إدارة الأعمال في الولايات المتّحدة. راقت فولكان بسبب طبيعتها السمحة، وأعجبته لأنّها شيّدت حرّيّتها على أساس صلب ومتين، وأنّها ليست متكلّفة. إنّ ما يمنح المرء نبضه ليس العاطفة المشبوبة أو الحبّ. لا، أبدًا. وليس ثمّة ضرورة لذلك أيضًا. فالحبّ وقتيّ ومدمّر، واللحظات التي يكون فيها شخصان معًا تبدو مثل لهيب النار المتوهّج، ومع هذا، فإنّ ما يتبقّى منهما خراب أسود وبارد.

كانت علاقته بياسمين عظيمة الفائدة، وكانت متعة حياة هذه المرأة التي ناهزت سنّ الثلاثين رائعة. كانت تريد أن تنجب أطفالاً: واحدًا، اثنين، ثلاثة إن أمكن. فكّر فولكان أحيانًا أنّها قبيحة الشكل، لكن ذلك غير مهمّ. فهو بوصفه رجلاً عركته الحياة، شعر بأنّ الرغبة في الانضمام إلى تيّار التقاليد آخذة

بالازدياد في أعماقه، ولم يعترض على أن يصبح زوجًا أو أبًا أو جدًّا، بل افتقد دفء الأسرة وسعادة الإخلاص الرتيبة ومتعة الأبوّة المتعبة. لا يمكن النظر إلى ياسمين بوصفها امرأة نظرًا لما تملكه من أنف كبير وعينين غائرتين وجسم قصير مكتنز وساقين منحنيتين قليلاً مثل ساقي طفل مشاكس. ولكنّها من جهة أخرى، كانت ذات شعر قصير بلون العسل، وقَصّة جبينيّة تنسدل على حاجبيها المستقيمين، وأسنان قويّة متداخلة قليلاً في المقدّمة. يُضاف إلى ذلك، كانت مرشّحة لطيفة ومقتدرة لا تشوبها شائبة لدور الأمومة. ولم يكن فيها أيّ أثر للإهمال الروحي والعواطف السرّيّة والأزمات والندوب التي تشلّ النساء. كانت مثل ميناء آمن ومفتوح. هذه صفات تجعل من المرء جميلاً. كما أنّ حياتهما الجنسيّة كانت رائعة.

سهل جدًّا أن يكون في رفقتها وأن يحبّها.

مرّت إيلام في ذاكرته أحيانًا مثل جنون طفولي، وصورة ولوحة وشرارة عاطفيّة. إنّ حقيقة كونه تعلّم كي ينسى، لم تكن لتعني بحكم الضرورة أنّه نسيها. لا، لم يستطع نسيانها لأنّها كانت أشبه بحلم التحليق في الهواء، وأنّه سقط سقطة مأساويّة وتحطّم على إثر طيرانه تمامًا.

المؤكّد أنّ ما مرّ به كان حدثًا خطيرًا وأنّه أُصيب إصابة بليغة، فارتعش متألّمًا إلى حدٍّ ما. لقد توقّفت كلّ أحلامه بإيلام قبل أن تكتمل، والواضح أنّ جرحه لم يندمل تمامًا حتى اللحظة الراهنة. كلّ ما هناك، أنّه تخلّص من الضمّادات.

كان جرحه ما يزال حديثًا، ولكنّه كان يعلم أنّه سيتماثل للشفاء حتى وإن ترك ندبة من ورائه شأنه شأن بقيّة الجروح.

الحقّ أنّ الزمان جعل كلّ نسائه يظهرن متشابهات، فلم يتمكّنّ من معرفة الاختلاف بين وجوههنّ وسيقانهنّ وألسنتهنّ وأحضانهنّ. ولم يبق منهنّ سوى عبء ومجموعة مهمّة وإن كانت غامضة من الاستنتاجات. ثمّة بعض حالات الندم الشخصيّة الغامضة والمضلّلة والتي لا طائل من ورائها، والذكريات المتقطّعة مدفونة في ظلمة الماضي، وأصبحت عسيرة على الفهم، مثيرة اللبس...

* * *

دخل فولكان، وكانت ياسمين جالسة فوق السرير مرتدية برنس الاستحمام وتجفّف قدمها. كانت حلوة على وجه التوكيد، وتملك بيتًا جميلاً في منطقة أورتاكوي، ولكنّهما كانا يفضّلان البقاء معًا في عطلات نهاية الأسابيع منذ إطلالة الربيع. كانت حاجته إلى وجودها تبدو أحيانًا مثل شكل من أشكال الإنهاك. فكان بين الفينة والفينة يشعر بالاختناق، بل ويشعر وكأنّه رجع إلى حياته السابقة. ولم يكن لديه أدنى شكّ في أنّ السبب يرجع إلى أنّه عاش وحيدًا مدّة طويلة من الزمان، ولكنّه كان يعرف أنّه لا يريد أن يعيش بعد الآن حياة عزلة متقلّبة مهما كلّف الأمر، حتى وإن كانت ممارسته الحبّ والمتع القليلة التي يتمتّع بها غير كافية لتبديد وحدته.

ـ حسنًا يا سيّدتي؟ متى ستكونين جاهزة؟

ـ إنّني لم أغسل شعري. لن أتأخّر الآن، وسوف أرتدي ثيابي بعد قليل. هه! أطفئ تلك السيكارة حالاً.

ـ إنّها سيكارتي الأولى منذ ثلاثة أيّام! كما أنّ الباب مفتوح على مصراعيه.

ـ وماذا عن رئتيك؟ هل لهما أبواب أيضًا؟ التدخين ممنوع يا فولكان، ممنوع منعًا باتًّا يا حبيبي. موافق؟

ـ لا يمكنني أن أعدك بأيّ شيء.

ـ لكنّني لا أريد رجلاً يدخّن.

ـ أنت مثيرة السأم يا حبيبتي.

* * *

وصلا بيت هارون قبيل الساعة التاسعة بقليل. كانت الڤيلّا الورديّة والبيضاء تبدو وسط النباتات مثل قالب حلوى توت العلّيق. وكان هواء المساء رطبًا وباردًا إلى حدٍّ ما. أمّا الضوء المريح للنظر المنبعث من النوافذ فكان ينعكس في دفء على الحديقة.

دخلا الصالة المهيبة المزيّنة بالرخام والمحتشدة بوميض ذهبيّ. وهنا صحبهما خادم عجوز إلى غرفة الجلوس. لم يحدث أيّ تغيير في المنزل: الثروة المقصودة منها التباهي ولفت الأنظار هي نفسها لم تتغيّر، والأثاث واللوحات والأضواء نفسها... ألوان الباستيل الشاحبة لمساء حالم قديم تحوّل إلى كابوس راح يبدو أمام ناظريْ فولكان. الواضح أنّ سيلدا تركتْ المنزل ولم

تأخذ معها سوى بعض الحقائب القليلة، فقد منحها هارون ڤيلّا في منطقة كمبربورغاز، كما أنّ الصبي ظلّ رفقة أمّه أيضًا.

أُعدّت طاولة العشاء في غرفة الطعام التي كانت تنفتح على شرفة، وكانت مزيّنة بالشموع والأزهار فخلقت بذلك انسجامًا بين اللون الأبيض والأخضر الغامق. كانت الأبواب مشرّعة، فتنبعث من خلالها رائحة العشب المجزوز حديثًا، وهي رائحة تثير البهجة في النفس. كانت ياسمين ترتدي ثوبًا بنّيًّا غامقًا غاية في الأناقة، مفصّلاً على السمكة أو بالورْب، وتنّورة غير متماثلة، وتتقلّد قلادة من اللؤلؤ. بدت جذّابة، فنظر إليها فولكان نظرة ودّ، وابتسم.

دخل هارون وهو يهتف هتافًا سريعًا ومتحمّسًا:

ـ حسنًا، حسنًا.

كان يرتدي ثيابًا غير رسميّة وبدا وكأنّه فقد شيئًا من وزنه، ورشقهما بنظرة تنطوي على الدهشة وكأنّه لم يصدّق أنّ ياسمين جميلة بما يكفي. ثم صافحها وعانق فولكان. وشاهد فولكان من فوق أحد كتفي هارون امرأة تدخل الحجرة من خلال باب في المؤخّرة. فما كان منه إلّا أن تراجع إلى الخلف وتجمّد في مكانه. رفعت المرأة رأسها ونظرت إليه نظرة سريعة، ثم أشاحت ببصرها عنه مخلوعة الفؤاد.

كان يصعب كثيرًا عليه أن يصدّق، ولكنّها هي: إيلام!

اقشعرّ بدن فولكان، وترنّح وكأنّه هوجم، وخانته ركبتاه. راوده شعور أنّه مثل ضحيّة مداعبة سمجة. وراحت أضواء غير مترابطة تومض في عقله، فتجعله يفكّر في مصادفات غريبة. كان

قد فكّر في لقائها في أماكن وظروف مختلفة تمامًا. أمّا مثل هذا اللقاء السريع والبسيط والاعتيادي، فهو ما لم يخطر بباله قطّ. وراح هارون يعرِّف صديقته الجديدة إليهما، وكان يتفوّه بعبارات مجاملة مثل أيّ مضيف مجامل كريم، وكان يعدّ العدّة لقضاء أمسية لطيفة. أمّا هي فكان يبدو عليها أنّها في عالم مختلف تمامًا، عالم غريب لا تنتمي إليه. كانت امرأة لا يعرفها، ولم تكن هي إيلام نفسها. على الأقلّ، لم يكن حضورها يلائم سبب وجودها هناك. ثم صافحت ياسمين وابتسمت ابتسامة طفلة عُثر عليها في مخبئها. على أيّ حال، كانت ابتسامتها قسريّة ومتكلّفة، مفهومة ضمنًا ولكنّها ودّيّة.

ـ تشرّفنا.

راقب فولكان رباطة جأشها في دهشة. فحركاتها وطبيعتها لم تكن متصنّعة، بل كانت صورة من صور الأناقة الجادّة من دون أن تبدو متنبّهة إليها. وجهها قناع بلا معنًى، بلا تجاعيد، كأنّها جمدت سيماءها حتى تتغلّب على صعوبة تلك اللحظة. وكانت ترتدي قميصًا بلا ردنين مزيّنًا بالترتر اللمّاع، أصفر بلون الزعفران، برقبة مسبّعة الشكل. أمّا بنطالها فكان أسود ضيّقًا. وكان حذاؤها أنيقًا أيضًا بكعبين عاليين ورفيعين جدًّا. وكانت قلادة رقبتها تحتوي على جوهرة كبيرة مدهشة، وشعرها مصفّف إلى الوراء بهيأة كعكة جميلة. لقد كان مظهرها هو مظهر سيّدة جميلة وأنيقة وأبيّة النفس، ولكنّه مظهر يصعب احتماله.

سألهما هارون عمّا يحبّان أن يشربا.

جلسوا وراحوا يحتسون الشراب. ركّز فولكان في حديثه إلى هارون من دون النظر إلى إيلام ـ التي قدّمها هارون بالاسم موتينا ـ وهو يحاول أن يخفي ارتباكه. وسرعان ما بدأت ياسمين الحديث إلى إيلام بكلّ مودة ودفء. وأصغى فولكان إلى هذا الحديث الذي لا فائدة منه بانتظار ينمّ عن طول أناة. وتنبّه إلى أنّ إيلام كانت تطرح أسئلة قصيرة مؤملة أن تحظى بأجوبة طويلة.

كان النوع المناسب من موسيقى الجاز ينبعث بصوت معتدل، وتداخلت الأزهار والانعكاسات والحنين الخطر مع صور الماضي. في هذه اللحظة، فكّر فولكان أنّ الشيء الوحيد الذي يمكن للجسد أن يفعله هو التراجع أمام متاهات الذاكرة الخفيّة. وتمنّى من صميم فؤاده لو أنّهما التقيا في مكان آخر، وفي وقت آخر. وفكّر إن كان قويًا بما يكفي لكي يقضي هذه الأمسية من دون أن يرتكب أيّ هفوة. لم تكن تفصلهما سوى بضع خطوات، ولكنّهما على الرّغم من ذلك بعيدان عن بعضهما بعضًا أميالاً. على أيّ حال، شعر أنّه مدفوع إليها وكأنّه تحت رحمة موجة!

عادت ذاكرته إلى تلك اللحظات السحريّة التي عاشا فيها معًا. كما كانت تلك الليلة لا تصدّق في تلك اللحظة عندما جلسا جنبًا لجنب في يأس صامت. وسرعان ما شعر بغيرة تحرقه، فنظر إلى هارون غاضبًا مزدريًا إيّاه على نحو لم يستطع إخفاءه. وشعر بالاشمئزاز في أعماقه باسم هذه المرأة التي راحت تبكي بين ذراعيه في تلك الليلة، فصبّ لعناته على سلطة هارون.

* * *

جلسوا لتناول العشاء. كانت حركات فولكان مضطربة ومشوّشة، وتكلّم في صعوبة وكأنّ شيئًا ما غصَّ في حلقه. تحدّثوا مطوّلاً عن موضوعات عامّة وعن الفنّ والأعمال التجاريّة والأقاويل الاجتماعيّة والنوادي الليليّة والمطاعم الجديدة. كان هارون مرحًا، في حين كانت إيلام ممتقعة الوجه إلى حدٍّ ما، وراقبت هارون وكأنّها تخشى أن ترتكب هفوة في حديثها أو تصرّفها. ولبثت طوال الوقت تصغي ولم تتحدّث إلّا إذا اقتضت الضرورة. وبدا عليها أنّها التحقت مؤخّرًا بالوسط الاجتماعي والمحاولة القسريّة للمشاركة.

بعد مدّة قصيرة، اتّجه الحديث إلى السياسة. وبحسب وجهة نظر فولكان[1] الذي اضطرّ إلى الإجابة عن ملاحظات هارون، فإنّ كلّ شيء كان يسير من سيّئ إلى أسوأ، فالوضع في البلاد متوتّر، والظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة تثير القلق شأنها شأن التطوّرات السلبيّة داخل البلاد وخارجها. وقد اعترض هارون على هذا التشاؤم ورأى أنّ الاقتصاد يتحسّن، وأنّ البلد يوشك أن يخلّف وراءه تلك الأوقات الصعبة.

فكّر فولكان غاضبًا أنّ هارون ليس كذّابًا فحسب، بل طفيليّ أيضًا وصخّاب، ينجح ويزدهر على حساب مصائب الناس. كانت ياسمين تخشى من حدوث فوضى اجتماعيّة. فقد ازداد قلق الناس الذين يعملون من أجل إقامة أودهم، والذين يعيشون على حافّة

(١) في النصّ الإنكليزي هارون وليس فولكان، ما يجعل العبارة تفتقر إلى المعنى لأنّ فولكان وليس هارون هو الذي يرى حال البلاد تزداد سوءًا (المترجم).

الفقر والجوع. وكان السكّان الذين فقدوا رؤيتهم عن المستقبل في حالة تربّص، قلقين وسلبيّين، صابرين على قدرهم. وقال هارون:

ـ إنّ تصوّر المستقبل يتطلّب بصيرة، وهذه تتطلّب المعرفة والخبرة، فأنت لا يمكنك أن تتوقّع إحساسًا ورؤية جيّدة من الرعاع والدهماء في الشارع، لأنّ معظم هؤلاء يعيشون ليومهم. وهم يهدأون ويقفون إلى جانبك عندما ترمي إليهم ببعض الطعام وتوزّع عليهم بعض الصدقات.

قالت ياسمين في قسوة:

ـ أحيانًا أشعر أنّ الذين لا يستطيعون اختيار الناس المناسبين للحكم يستحقّون ما يجري لهم.

ولكنّها سرعان ما توقّفت عن الكلام، وكانت بعفويّتها وطاقتها وثرثرتها ممتازة في قهر الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه. كانت هي منقذ تلك الأمسية، وكان فولكان ممتنًّا لها. كما أنّ هارون راقته كثيرًا، فقد كان رائق المزاج، يضحك ويمرح ويروي الحكايات.

كانت الحلويات تتألّف من تفّاح محمّص مع المثلّجات، وكانت كرات المثلّجات مزيّنة بأوراق خضر وصلصة حمراء صُبّت على شكل حلقات من فوق التفّاح. راود فولكان الإحساس بأنّه ينزلق إلى طائرة أخرى، كأنّه هناك وليس هناك. فهو هناك ولكنّه كان ينظر إلى نفسه من مكان عالٍ. لقد انتهى حبّه لإيلام هذه النهاية الشنيعة، وبدا له حبًّا ساذجًا على الرّغم من الألم الذي

كان يحسّ به.

كان توّاقًا إلى أن يجذب هارون جانبًا ليكتشف كيف وأين عثر على إيلام، ولم يكن ممكنًا له أن يفهم سبب نبذها إيّاه ومرافقتها الآن رجلاً مثل هارون. حاول أن يتخيّل متى توقّفت حياتهما، وراح يتميّز غيظًا ويتحرّق شوقًا كأنّه فقد طرفًا من أطرافه.

كان في مستطاع فولكان أن يرى أنّ إيلام نفسها كانت مهتزّة اهتزازًا فظيعًا، لأنّها لم تقدر على تجاهل المدعو لتناول العشاء، ولكنّها على الرّغم من ذلك، اضطرّت إلى لقائه، على الأرجح كي لا تثير أيّ شكوك في نفس عشيقها، وسيّدها. لعلّها أرادت أن يراها فولكان، وليحدث ما يحدث، وتضع نهاية لقصّة غرام انتهت قبل أن تبدأ.

أُصيب فولكان بالدوار، وداهمه إحساس طاغ بالنهوض من مكانه والسير في حجرة الطعام بخطوات جنائزيّة، ماضيًا في سبيله في هدوء من دون أن يقدّم أيّ تفسير. في وسعه أن يتصرّف مثل هذا التصرّف لو لم تكن ياسمين ترافقه، غير أنّه لا يقدر على تركها أو توضيح الموقف لها.

من أين جاء ذلك الاسم موتينا؟ أهو اسم إيلام الحقيقي؟ أم أنّه اختير لها لأنّه مناسب أكثر لمكانتها الاجتماعيّة الراهنة؟ وطرح سؤالاً وهو ثمل وحزين بعد أن التفت إلى إيلام:

ـ لديك اسم غريب. بحسب معلوماتي، أعتقد أنّه يعني «مختار»، هل هذا صحيح؟

قالت المرأة الشابّة مجيبة:

ـ ذلك هو الاسم الذي سمّتني به أسرتي. ويدعونني أصدقائي أيضًا بالاسم إيلام. أمّا هارون فيعجبه الاسم إيلام.

وسرعان ما أضاف هارون:

ـ وهو يعني أيضًا «مخلوقة من الحبّ والعناية»، يا حبيبتي! وهو اسم على مسمّى. صحيح؟

بدا كأنّه يحبّها حبًّا جنونيًّا... لكن إلى متى سيستمرّ ذلك؟ فهذه الحكاية لم تنته بعد. فإذا كانت مغامرة ذات بداية ونهاية طبيعيّتين، فإنّها لا بدّ أن تحدث في مكان ما من الفضاء وليس في هذا العالم، حيث الدلائل الوحيدة على الإنسانيّة هي بقايا نصف محترقة ونصف متعفّنة لحضارة كانت متميّزة يومًا ما. ورويدًا رويدًا، أصبح يستحيل خلق أشياء مختلفة للرجال والنساء ما لم يظهر جنس بشري جديد يُعيد اكتشاف العالم.

رمى فولكان الستائر الحريريّة الملوّنة بنظرة، وحدّق إلى الزخرفة من فوق النوافذ والجوهرة الكبيرة التي تزيّن رقبة إيلام. وفكّر: ليس في وسعه أن يفعل أيّ شيء، فإذا كانت قد وافقت على بيع نفسها، فتلك ليست مشكلة، ولكنّها سرعان ما سوف تكتشف شخصيّة هارون وأخطائه التي لا نهاية لها. وسوف ترى خيانته وتتعلّم الدرس قبل مضيّ وقت طويل. لعلّ تألّق الرجل ونجاحه هما اللذان خلبا لبّها، ولكنّها سوف تفهم بمرور الوقت أنّ ذلك ليس سوى نثار ذهبيّ اللون وانعكاسات مبهرجة. لقد شارك فولكان رئيسه في أسراره وآثامه الخفيّة. وإذا كان يعرف

هارون بأيّ حال من الأحوال، فالمؤكّد أنّه سوف يؤذي الفتاة ويفطر قلبها. وشعر بالأسى نحو إيلام. وكأنّها قضت نحبها.

سألت ياسمين وهي تلتفت إلى إيلام:

ـ أنت شخصيّة محبوبة حقًّا. هل لديك أيّ عمل؟ هل تمتهنين أيّ مهنة؟

قالت إيلام:

ـ درست الاقتصاد، واشتغلت عارضة مدّة من الزمان، لكنّني تخلّيت عن ذلك العمل. أمّا الآن، فلا عمل لديّ.

قال هارون:

ـ إنّ حياة العمل صعبة، وهي تستهلك النساء. إنّ موتينا شاعرة، وقد نظمت عددًا من القصائد الجميلة، ونحن نفكّر في طبعها في كتاب.

فكّر فولكان أنّ إيلام لا بدّ قد وجدت سهلاً عليها وضع حياتها البديلة موضع فائدة، عندما أصبحت العواطف والطموحات والأحزان قيمًا انتقائيّة قابلة للمقايضة. وعلى حين بغتة، أصبحت الموسيقى الكلاسيكيّة المثيرة للمشاعر موسيقى رنّانة وصادحة في أذنيه.

سألت ياسمين:

ـ هلّا قرأت لنا واحدة من قصائدك؟

قالت إيلام:

ـ لا أظنّ أنّني سأقرأ، لأنّني سأشعر بالحرج.

ثم ضحكت وهزّت رأسها، وارتعشت شفتاها وكأنّ زرًّا سرِّيًّا جرى لمسه.

لكن ياسمين ألحّت عليها قائلة:

ـ أرجوك، لا ترفضي لنا طلبًا.

فقالت إيلام وهي تحني رأسها.

ـ ربّما في وقت لاحق...

ثم غمست ملعقتها في التفّاحة، وفجأة رفعت بصرها إلى فولكان، فومضت عيناها، وارتجفت شفتاها قليلاً، شفتان طريّتان تنبضان بالحياة كأنّما تريد من يقبّلهما. وفي لحظة ما، نسي فولكان آماله المحطّمة وأنّه كان مخدوعًا ومنبوذًا، وانتابته رغبة في دفعها إلى زاوية مظلمة وهادئة وتقبيلها في عنف.

قال هارون:

ـ سوف تقرأ بعض القصائد بعد وقت قصير. صحيح يا حبيبتي؟ فأنا أيضًا أريد أن أسمعكِ. أرجوكِ.

لم يسبق لفولكان أن رأى هارون في مثل هذه الحالة من الضعف والتهتّك، فهو لم يبُد في أيّ وقت مضى وقد هزم على يديّ امرأة. وشعر فولكان أنّه مخدوع ومهمّش من موقع حليف إيلام السرّي والوفيّ. كان يريد أن يهتف بكلمة «أحمق» في جوف الليل وفي وسط الضحك وكلّ ذلك الوميض المغري، ولكنّه كان متأكّدًا تمامًا من الشخص الذي ينبغي له أن يهتف بوجهه بتلك الكلمة.

بِخُيلاء وتباهٍ، فرقع هارون زجاجة الشمبانيا التي أحضرها الخادم. وأوضح أنّ الزجاجة اشتراها من مزاد أحد الصناعيين الذين أفلسوا، وأنّ عمرها أربعون سنة. فرفعوا كؤوسهم لشرب نخب السيّدتين ونخب الصداقة. كان حدثًا غريبًا حقًّا.

سرح فولكان ببصره نحو يد إيلام الرشيقة وهي تمسك كأس الشمبانيا، وراح يتفحّصها سرًّا من جديد. بدت له هشّة تبعث على الرثاء، متشامخة وخنوعة، أسيرة ومخلوعة الفؤاد.. اشتاق إلى جسدها شوقًا لا يرتوي، وساورته رغبة عارمة في خطف هذه المخلوقة البهيجة من هارون، وفي مناغاتها حتى تستسلم للنوم بين ذراعيه، ويذوب داخلها. خُيِّل إليه أنّه قلب الطاولة ووثب إلى هارون وطرحه أرضًا بقبضتيه وراح يركله ركلاً عنيفًا وهو على الأرض. كان يرغب في إثارة فضيحة. آه لو حضر وحده! كيف اشتراها هذا الأفّاق؟ ما الحيل التي لجأ إليها؟ وتذكّر كلمة «عارضة». لقد بدأ السرّ يتّضح، وكأنّ عقله يحاول جمع الأجزاء الصغيرة من الصورة. إنّ ما حدث في الماضي، بدأ يتشكّل في أجزاء صغيرة وسط الضحك وقعقعة الصحون والكؤوس. غير أنّ السيناريو لم يكن كافيًا بعد لطرد الإحساس بأنّه تعرّض إلى صعقة.

قال هارون:

ـ والآن، أرجو أن تسمحا لنا أيّتها السيّدتان بأن نذهب إلى غرفة مجاورة للحديث في قضايا العمل، بينما تواصلان أنتما تجاذب أطراف الحديث هنا.

قالت ياسمين:

ـ تحدّث عن كلّ ما تريد، وسنكون في خير، إنّني معجبة حقًّا بموتينا خانم.

مضى الرجلان إلى ركن آخر من غرفة المعيشة.

وبعد أن جلسا، سأل هارون:

ـ ما رأيك بصديقتي؟

ـ أشعر بالرثاء نحو الفتاة، فهي تبدو ضعيفة، وسرعان ما سوف تسأم منها وتنبذها.

ـ لا، ليست هذه فتاة أخرى كما يحلو لك أن تتخيّل، بل هي فتاة ذكيّة، على درجة رفيعة من الثقافة. إنّها فتاة مختلفة تمامًا.

ـ أين عثرت عليها؟

ـ اصطحبتها ذات مرّة لتناول العشاء، وتطوّرت الأمور بيننا تطوّرًا سريعًا. لا بدّ أنّني كنت أفتّش عن امرأة مثلها، وقد استأجرت شقّة لها على مقربة من هنا. كما أنّ فتاتك ذكيّة جدًّا، مفعمة بالحيويّة والنشاط. كيف التقيتها؟

ـ التقينا في أفريقيا. ثمّة نقص في الفتيات في اسطنبول!

ـ حسنًا، يا بنيّ. أنت لا تعرف عن هذه الأشياء. على أيّ حال، لديّ الآن اقتراح لك. أترغب في السفر إلى سويسرا لقضاء سنتين؟ أنت تعرف أنّنا فتحنا فرع ارتباط في زيوريخ، وأريدك أن تتولّى إدارته.

ـ مستحيل.

ـ أنت غير مضطرّ للردّ من فورك.

ـ لا أريد العودة إلى الماضي، فأنا أحاول أن أعمل في مجال آخر.

ـ اسمع يا صديقي. إنّني حقًّا في حاجة ماسّة إلى شخص مثلك، وستعيش حياة أكثر هدوءًا. حسبك أن تخبرني بشروطك وكفى، والوظيفة ستكون لك.

ـ صدّقني لست مهتمًّا بالموضوع.

ـ أنت صعب المراس يا صديقي. لا تقرّر من فورك. ما يزال ثمّة متّسع من الوقت. فكّر في الأمر.

ـ آسف، لا يمكنني.

ـ على أيّ حال، سأبقى مؤملاً. فكّر في عناية. اتّفقنا؟

تذكّر فولكان السنين التي أنفقها وإيّاه. لقد انتهت. لقد انفصل الماضي عن المستقبل ولن يلتقيا من جديد. لم ينفصلا ولكنّهما ابتعدا تمامًا، كما هو الحال في الزمن الحقيقي والحياة الحقيقيّة. هذا هو القانون الأساس للانفصال. كما أنّ النجوم تبتعد عن بعضها بعضًا حتى أبد الآبدين. إنّ مصير البشر متشابه في البداية، ولكن بعد اتّخاذ القرارات، واختيار الطرق والمصادفات والتيّارات المعاكسة السطحيّة وتحت السطحيّة، فإنّ الأمر ينتهي بالناس وهم في أماكن مختلفة. غير أنّ نمطًا من الانفصال يظلّ عالقًا في ذاكرة المرء ويستمرّ على ذلك الحال

وكأنّه ليس انفصالاً.

عندما نهضا من مكانهما، وثب فولكان وكأنّ إبرة وخزته واندفع نحو الشرفة. كان يشعر بالغثيان، فتنفّس تنفّسًا عميقًا وحملق في الظلمة. بدت المدينة مدمّرة في نظره وكأنّها قُصفت بأطنان من القنابل. وفكّر في النجوم الفضّيّة التي كانت تشبه رؤوس الدبابيس في سماء الصيف غامقة الزرقة، وكيف أنّها تسبح على غير هدًى في الفضاء من دون أحلام، من دون غد.

قالت ياسمين:

ـ ما خطبك؟

ـ أشعر بدوار قليلاً. سأكون بخير بعد دقيقة.

ـ لقد أفرطت في الشراب يا حبيبي. اشرب قليلاً من المياه المعدنيّة، وبعدها سننصرف إن شئت.

ـ إنّني على ما يرام. على ما يرام الآن.

جاء هارون ووضع ذراعه من حول كتف فولكان، فارتعش الأخير ومال قليلاً وحرّر كتفه. عادا أدراجهما معًا، وكانت إيلام واقفة، ترقب فولكان في توجّس، فنظر إليها ولم يفكّر لحظة واحدة بما ينبغي أن يفعل كي يزيل الدمار الهائل الذي خلقته في روحه. تنشّق عبير جمالها ورشاقة مسحتها النبيلة المؤتمنة على الأسرار التي اكتسبتها على نحو ما، ودفنتها في أكثر مناطق ذاكرته سرّيّة، ثم عمد هو إلى تغطية كلّ شيء في عناية.

استاء هارون من رفض فولكان، وأشعل كلّ واحد منهما

سيكارًا، بينما التفتت ياسمين إلى فولكان ورمقته بنظرة تنمّ عن تأنيب، ولكنّه تظاهر عدم رؤية نظرتها الخاطفة. نهضت المرأة الشابّة من مكانها لتتخلّص من الدخان وسارت نحو الجدار البعيد، وراحت تنعم النظر في اللوحة المعلّقة هناك.

قالت لهارون:

ـ كم هي جميلة لوحاتك!

قال هارون:

ـ هيّا، سأصحبك في جولة داخل المنزل، وسوف أطلعك على اللوحات في الدور العلوي أوّلاً.

سارا نحو الدرج، فبدأ قلب فولكان ينبض نبضات أسرع. والتفت يمنة ويسرة في شكّ ليتأكّد من أنّه وحده رفقة إيلام. كان في وسعهما سماع صوت الضحك منبعثًا من الدور العلوي. كانا وحيدين، فرنا أحدهما إلى الآخر مدّة قصيرة.

سألها فولكان بصوت يشوبه التوسّل.

ـ يصعب عليّ كثيرًا تقبّل هذا الوضع يا إيلام. لماذا هربت منّي؟

ـ لست الفتاة المناسبة لك، إذْ لم يكن في وسعك أن تغدق الحبّ عليّ.

ثم حنت رأسها إلى أمام.

ـ أشعر أنّني كنت مخدوعًا من البداية إلى النهاية.

قالت إيلام:

ـ لا، أرجوك لا تفكّر على هذا النحو. فالأمر لم يكن سهلاً عليّ أيضًا. لم أعرف إلّا في صباح هذا اليوم أنّنا سنلتقي هنا في هذه الليلة. حاولت أن أكتب لك بعض العبارات عصر هذا اليوم، وأرسلت إليك رسالة بالبريد الإلكتروني. أرجوك، اقرأ بريدك عندما ترجع إلى البيت.

ـ أتعتقدين أنّ ذلك يكفي؟! لقد فتّشت عنك زمنًا طويلاً.

ـ إنّني سعيدة لأنّك عثرت على امرأة تناسبك.

ـ أعتقد أنّني لا أستطيع أن أقول لك مثل هذا القول. لماذا يا إيلام؟ لماذا؟

ـ إنّني متأكّدة من أنّك سوف تفهم عندما تقرأ ما كتبت لك.

ـ لقد جرح خيارك مشاعري.

ـ لم تكن لديّ أيّ فكرة عن الصداقة التي تربطك بهارون. الأهمّ من هذا، قد لا نملك خيارًا في ظلّ بعض الظروف. فأحيانًا نضطرّ إلى إبداء الموافقة على أفضل الحلول.

شابَ صوتها حزن وتشنّج وجهها برهة من الزمن. ثم ركّزت بصرها في فولكان. كانت نظرتها جوفاء، متعبة! أمّا فولكان، فقد لزم الصمت. لقد أثبتت هذه المرأة ما يكفي من الشجاعة لتظهر أمامه في ذلك المساء. كم اشتاق إلى استعادتها وضمّها بين ذراعيه بكلّ قوّة!

ـ أخبرتك في تلك الليلة أنّنا التقينا بعد فوات الأوان.

ـ لم تتمكّني من توضيح السبب.

ـ يصعب كثيرًا توضيح بعض الأمور.

كان هارون وياسمين يضحكان عندما هبطا السلالم.

قالت ياسمين:

ـ ثمّة لوحات رائعة، مجموعة ممتازة.

قال فولكان:

ـ أنتِ على حقّ، وقد شاهدتها قبل الآن. إنّه لا يملك لوحات فحسب، آه لو عرفت... إنّه يجمع التذكاريّات.

قال هارون:

ـ سوف أطلعك عليها في وقت آخر.

ثم رنا إلى موتينا وأضاف:

ـ أمّا الآن، فدعونا نستمع إلى شيء من الشعر. ما رأيك؟ هيّا يا حبيبتي. كلّنا آذان صاغية لك. أرجوك يا موتينا.

ران صمت قصير:

قالت إيلام متورّدة الوجه إلى حدٍّ ما:

ـ هذا يجعلني أبدو مثل طفلة تحاول أن تتصرّف تصرّفًا ذكيًّا أمام الضيوف. هل سيكون كلّ شيء على ما يرام إذا ما رفضت القراءة؟

ـ أرجوك لا ترفضي لنا طلبًا. إنّنا نريد أن نسمعك حقًّا.

قالت إيلام:

ـ لديّ قصيدة بعنوان «أصفر زعفراني»، وهي قصيدة جديدة،

ولكنّني لم أفرغ من نظمها بعد. . . لكن أنتم تلحّون عليّ إلحاحًا كبيرًا.

أطفأ هارون الضوء على المنضدة الجانبيّة، ولبثت وجوههم في الظلال. أراد فولكان أن يقول شيئًا مشجّعًا، ولكنّه لم يقدر. كان حبّ الفضول قد تملّكه، لأنّ إيلام لم تطلعه على بقيّة القصائد وإن كانت قد أخبرته بها. لهذا التزم الحاضرون الصمت وراحوا ينتظرون إيّاها.

بدأت إيلام تقرأ قصيدتها بصوت بطيء، هيّاب ولكنّه مؤثّر:

المساء ينزف في يديّ
بأحزان صفر زعفرانيّة
وأنا صامتة مثل ختم
لا أتكلّم عن الفراق من غير وداع
تأخّرت في تعلّم الطيران
عندما خفق جناحاي وسط الأدغال
مواجهة عينيّ الصيّاد الوقحتين
وقعت في فخّ قبل أن تقع أنت
الحبّ لا أمل منه غالبًا
قصير العمر حتى إن كان متبادلاً
السحب بلا أجنحة أيضًا
ولا يمكنها حمل روح على أكتافها.

خيّم صمت طويل، ظلّ فيه هارون مسندًا رأسه إلى ظهر كرسيِّه. كان في وسع ياسمين أن تكسر حاجز الصمت، ولكنّها لم تكسره إذْ كانت مستغرقة في التفكير. أمّا إيلام، فقد اتّكأت إلى الوراء وكأنّها منهكة، في حين انتاب فولكان شعور مخيف ازداد رويدًا رويدًا، وبات عقله باردًا كالثلج.

قالت إيلام وهي توشك أن تبكي في أيّ لحظة:

ـ هذا هو منحى القصيدة.

قال هارون:

ـ جميلة. صحيح؟ رائعة!

ثم اعتدل في جلسته ونظر إلى فولكان مبتسمًا ابتسامة تحدٍّ.

قالت ياسمين باقتضاب وبصوت حالم:

ـ لقد تأثّرت. قصيدة رائعة عن حبّ محطّم.

أضاء هارون الأنوار من جديد. وفي لمح البصر، وعندما انطلقت شرارة الرغبة والعاطفة في الوقت نفسه، شاهد فولكان الحزن الجامد على وجه إيلام. هذا كلّ ما هناك. لم تكن حاضرة، بل كانت مختبئة في مكان لا يمكن الوصول إليه، ولا أحد يعرفه ولا يمكن الذهاب إليه. كانت متوارية عن الأنظار في الكلمات، تحت جلدها، في ظلمة عينيها أو في مستقبل عذاب ماضٍ.

سأل هارون متحمّسًا:

ـ هل يرغب أحدكم في تناول شراب؟

لم يجب أحد. شعر فولكان أنّ رأسه يدور ويدور، محلّقًا إلى أعلى في الفراغ. الحقّ أنّه لم يكن ثملاً جدًّا فلا يقوى على التنبّه إلى أنّ أبيات القصيدة التي سقطت من النجوم كانت تطفو من حوله، ولكنّه كان مبهوتًا إذْ رأى كم أنّ رأسه بعيد عن قدميه. وشعر أنّ كلّ شيء ليس كما ينبغي أن يكون فيه، وأنّ الأخطاء والفوضى تتصدّر العالم. أصغى إلى الصمت المخيّم على البيت الغارق في المخمل والمضاء بمصابيح بلّوريّة والصقيل كالمرآة، وسمع ضربات قلبه في أذنيه.

حدّق إلى الظلام وراء أبواب الشرفة المفتوحة. كان منهكًا الإنهاك كلّه، وشعر بألم بسيط يدبّ في عموده الفقري. أراد أن يقول شيئًا ما لكنّه غيّر من رأيه. لا فائدة من ذلك. لقد تمزّق الماضي إربًا إربًا. ولم يعد ثمّة حاضر. المستقبل وحده هو المؤكّد، حتى من احتمالات اعتياديّة.

* * *

غادرا المنزل قبل حلول منتصف الليل.

قالت ياسمين وهما عائدان إلى المنزل بالسيّارة:

ـ كنت غريبًا إلى حدٍّ ما في هذه الليلة. هل أزعجك هارون أم اعتلّت معدتك؟ إنّك لم تأكل كثيرًا ولكنّك أسرفت في الشراب.

قال فولكان:

ـ ليس الأمر بذي أهمِّيَّة. إنّني ثمل قليلاً ونعسان. أريد أن أستلقي على السرير وأخلد إلى النوم بأسرع وقت ممكن. هل

ترغبين في أن نقلّك إلى البيت؟

ـ شيء حسن، لأنّني يجب أن أستيقظ في وقت مبكر غدًا.

أمسك فولكان يدها وضغط عليها، فأدركت من فورها أنّه يريد أن يبقى بمفرده. لقد أحبّ هذه الفتاة وكان اختياره لها صائبًا. كان في حاجة ماسّة إلى امرأة مثلها. هذا أكيد. لا، لم يكن في وسعه أن يحمل إيلام لأنّه لا يملك جناحين.

سأل ياسمين:

ـ متى سنتزوّج؟

وأدرك في اللحظة نفسها أنّ هذا السؤال غير ضروري.

قالت ياسمين ضاحكة:

ـ في شهر تمّوز. هذا ما اتّفقنا عليه، فهل نسيت؟

ـ دعينا نتحدّث عن الموضوع يوم غد. اتّفقنا؟ ربّما سوف نقدّم الموعد.

توقّفت السيّارة أمام بيتها في هذه اللحظة. فقالت ياسمين وهي تترجّل منها:

ـ اتّفقنا.

* * *

واصل فولكان طريقه إلى بيبك وهو ينظر إلى مؤخّر عنق السائق. ممّا لا ريب فيه أنّ هذا الرجل يعرف كلّ شيء، فقد التقى إيلام في مساء ذلك اليوم من شهر مارس عندما كانا معًا،

وها هو الآن قد رآها في منزل هارون لمّا ودّعتهما. وتساءل فولكان: ما الذي يدور في خلده؟ لقد انتهكت القواعد، وتجاوزت الخطّ. وفكّر في أن يعتذر من صديقه القديم والمخلص. أراد أن يقول له: إنّني لست نذلاً، أرجوك لا تسيء فهمي.

كان ثملاً. نعم. وكان كلامه سفاسف.

سار على امتداد ممرّ الحديقة الذي تحفّ به الشجيرات ودخل المصعد. أخفى وجهه عن المرآة لأنّه كان يعلم ماذا سيرى. وأسرع بالذهاب إلى حاسوبه بعد دخوله المنزل. انتظر فارغ الصبر حتى يتمّ الاتّصال. نعم. لقد كتبت له إيلام من جديد. البقعة الصفراء، إيلام، موتينا... أيّ واحدة؟ ولا واحدة! في هذه المرّة كان الاسم مختلفًا.

زعفـران!

عزيزي فولكان،

لن أكتب لك عبارات يائسة. كلّ ما أريد هو أن تعرف الآتي: إنّني لست مختلفة عن الأخريات. أنا امرأة لم تسنح لها الفرصة كي تكون مختلفة. بعد وقت قصير من كتابتي إليك عن «المستقبل» وبدأت مراسلتي وإيّاك، فإنّني اخترت، وإن لم يكن اختياري طوعًا، أسلوب حياة شائنًا وفاضحًا أو أسلوبًا سهلاً للخلاص. عندما يصبح المال مشكلة حقيقيّة، لا تبقى أمامك خيارات كثيرة.

لقد مضت ثمانية أشهر منذ وصولي مدينة اسطنبول. ولمّا أدركت مدى التغيّر الذي حدث لي، فهمت أنّ الأوان فات كثيرًا جدًّا على

العودة إلى مدينتي، لأنّ التغيّر الذي حدث في حياتي لم يكن يخصّ إعالة نفسي ببيع جسدي للآخرين، بل يتّصل بانحراف وعيي.

أحيانًا أشعر بوجود حزن طاغ وثقيل وقديم، لا أعرف كيف أتعامل وإيّاه. وأنا السبب الوحيد في ذلك، ولا يمكنني توجيه اللوم إلى أيّ شخص آخر، لكنّني لا أستطيع القول أيضًا إنّه لا يتّصل بك. إنّنا نحن البشر نكسب المعنى من خلال علاقاتنا بالعمل والأسرة والصديق والعشيق والعالم. مثل كلمات في جملة ما. إنّ صداقتك واهتمامك بي كان عزاءً لي. لقد نمت بين ذراعيك وأنا واثقة بنفسي ثقة لم أعهدها من قبل. وجودي وإيّاك كان نعمة.

الآخرون كلّهم يستحقّون اللوم أمام الخطيئة. لكن على كلّ فرد أن يتحمّل خطيئة حياته، ولا يمكن فعل أيّ شي إزاء ذلك.

لقد أحببتكَ وامتنعت عن جعلك شريكًا في هذا الأمر.

لم أعد قلقة بشأن المستقبل بعد اليوم. فالمستقبل فَقَدَ معناه، أو ربّما لم يعد المستقبل الذي أحنّ إليه موجودًا بعد الآن.

إنّني أحتفظ بصديق طفولتك، دميتك الدبّ التي أعطيتني إيّاها. وسأظلّ دومًا أتذكّر ذكراها.

أرجو أن تكون سعيدًا جدًّا.

إيلام

شعر فولكان أنّ فؤاده ينسحق، فراح يسير من غرفة إلى غرفة بضع دقائق، موهن العزيمة، نكد المزاج ومغتمًّا. ثم اندفع خارج المبنى ليجد نفسه على الطريق، فراح يسير على امتداد الساحل بخطوات سريعة، منتصب القامة، محدّقًا إلى أمامٍ. بدا وكأنّه

يحاول النفاذ إلى قلب المدينة الفولاذي.

كانت ليلة الصيف رقيقة وهادئة، والبحر لاذع، مظلم ووحيد. وصكّ سمعه صوت صرخة مكتومة قادمة من مكان بعيد. فاقشعرّ بدنه وتوقّف، ورنا إلى سطح الماء المترقرق، فشاهد يدًا صغيرة بيضاء تختفي بسرعة في الماء، بعيدًا عنه، حيث كان ربع القمر يعكس نوره على الماء. ثمّة تموجّ ينذر بالشؤم في الماء، وفي لحظة من الزمان، شاهد بقعة مصفرّة ترتجف، تومض وتنطفئ، قبل أن يستقرّ الماء المظلم من جديد. امتلأ فولكان غمًّا وحزنًا، ومدّ يده إلى البحر وتلفّظ باسمها.

انبعث صوت عزف على آلة الكمان، مؤثّرًا ومثيرًا للمشاعر من مكان ما.

استمرّت الحياة. والأحجية ليست أحجية صفحة كاملة، بل نرد طاولة مبهرج يحتوي على أحزان وحكايات لا تُعدّ ولا تُحصى، نرد هائل في حجمه، تغيّر لونه ورقم فوزه بتغيّر وجهة نظر المرء وخياراته وقوّته. مسح وجهه بظاهر كفّه. أتراه كان يبكي أم تلك هي رطوبة البحر؟

إنجي أرآل

اكتشاي ـ اسطنبول

مارس ٢٠٠٦ / كانون الثاني ٢٠٠٧

فهرس

مدير استثمارات ازدهرت اعماله في مقتبل عمره، وامرأة تعمل في مجال تهريب التحف التاريخية، وفتاة جامعية. تتشابك روايات الشخصيات الثلاث، ليجد كل واحد منها نفسه في مواجهة أساليب فرضت عليه، في مجتمع يلهث وراء الأموال والسلطة . هذه حكاية عن الصراع بين وفرة الأموال والملذات المباحة من جهة، والقيم المدنسة والانحطاط الجنسي والاستغلال من جهة أخرى. «**لون الزعفران**» رواية تغوص في موضوع «ضياع المستقبل»، مستقبل سلب منه الحب وسرق منه الروح.

إنجي أرال: روائية وقصاصة تركية. نالت العديد من الجوائز الأدبية، ومنها جائزة أورهان كمال القديرة. تُرجمت أعمالها إلى لغات عدّة.

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق

دار الآداب

هاتف: ٨٦١٦٣٣/٠١
٧٩٥١٣٥/٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-472-0